ألا بذكر الله تطمئن القلوب

السلسلة الذهبية

الطريقة النقشبندية

عثمان نوري طوبّاش





إسطنبول: ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

إسطنبول: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

اسم الكتاب باللغة التركية: Altın Silsile

اسم الكتاب: السلسلة الذهبية(الطريقة النقشبندية)

ترجمة: محمد عز الدين سيف

مراجعة وتصحيح: محمد أوقموش

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٤٢٣١

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▶ Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

السلسلة الذهبية

الطريقة النقشبندية

عثمان نوري طوبَّاش



m

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ففضَّله على مخلوقاته أجمعين، والذي نفخ فيه من روحه فأكرمه بالقدرة على بلوغ درجات اليقين؛ والشكر له سبحانه أن هدانا إلى الحق والخير بكتبه وأنبيائه المرسلين، وأنعم علينا بدوام سلسلة الإرشاد المعنوي دوامًا لا انقطاع فيه على يد ورثة الأنبياء من العلماء العارفين.

والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا خير البشر وخاتم الرسل محمد المصطفى المبعوث رحمة للعالمين، أسوتنا الحسنة، وهادينا ومرشدنا، وملجأ شفاعتنا يوم العرض الأكبر، وعلى آل بيته الأطهار وأصحابه وأتباعه أجمعين.

أما بعد:

إن الله Y يعرِّفنا إلى ذاته العليَّة باسمَيه «الرحمن» و«الرحيم» في كثير من المواضع، ومن آثار رحمته الواسعة بعباده أنه يدعوهم إلى دار السلام وأن يكونوا من أهله وأحبابه وأصفيائه، غير أن شرط الاستجابة لهذه الدعوة أن يعبدوه في الحياة عبادةً قائمة على التقوى وفي أنوار محبته سبحانه وتعالى.

والشوقُ «للوصال مع الحق تعالى» الذي عبَّر عنه النبي بقوله: «بل الرفيق الأعلى»، كان وما زال أعظمَ مبتغى للمؤمنين أحباب الله ونبيه الكريم r .

ونحن في هذا الكون نخضع لامتحان نتنافس فيه بتقديم أفضل الخيرات وأعظم الحسنات. ومن أرفَعِ آداب العبودية لله في هذا العالَم الذي نحيا فيه غرباء أن تكون قلوبنا في وصال مع ربنا ومعية نابعة من محبة حقيقية، وأن نذكره سبحانه وتعالى ونبحث عن رضاه كل حين، فيتحقق وصالنا في عالم الآخرة مع جمال الحق تعالى بمقدار حبِّنا له وقربنا منه.

وذلك يعني أن نسبة معيَّتنا مع ربنا سبحانه تحدِّد سعادتنا وطمأنينتنا في الدنيا والآخرة، لذا علينا أن نجعل حكمة ابن عطاء الله السكندري:

«يا رب، ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟» شعارًا نضعه نصب أعيننا، ولا ننسى أن قلوبنا لن تنعم بالطمأنينة والسكينة ما لم تذكر الله جلَّ وعلا.

إن الله U معنا أين ما كنَّا، لكن السؤال هنا: هل نحن معه دائمًا؟ فلا بد أن يكون هذا مقصودنا وغايتنا. وكلما ازداد اقتراب القلب من ذروة معية الله سبحانه، ازدادت العبادات ثوابًا وعَظُمَت أجرًا. فالعمل الصغير المُحتَقَر إن أدَّاه العبد مدركًا معية الله تعالى، ستعظم قيمته عِظَمَ الجبال؛ وأما إن أدى أعماله- مهما عَظُمَت في عينيه- غافلًا عن الله تعالى، فلن يجد فيها أي خير، وصَلَاته إن صلَّاها دون خشوع، فلن تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وصَدَقَته إن شابها الرياء والعُجب، فستكون هباء منثورًا؛ فعندئذ لا إجابة لأدعيته، ولا أجرَ لأعماله، ولا توبة له إلا أن يتوب توبة نصوحًا. لذلك كله، لا بد من نزع حجاب الأنانية والنفسانية قبل كل شيء لإيجاد طريق نحوَ الوصال مع الحق ذي العظمة والجلال. وما أعظم قول العارفين: «حين تخرج من بين الخلق، يبقى الخالق وحده في قلبك».

إن هذا الشعور يقتضي نضجًا معنويًّا يجعل المؤمن في رحاب «معية الله» في أحواله كلها. ذلك أنه لا يمكن الارتقاء إلى المراتب المعنوية السامية بقلب غليظ ما خضعَ يومًا لتربية معنوية، ولا يمكن شق طريقٍ نحو آفاق اللطافة والظرافة بقلب لا يعرف إلا الفظاظة. لذلك كانت الغاية من خلق الإنسان في نظر العارفين: «الوصول إلى الجمال بكسب الكمال»؛ أي التنعم بمشاهدة جمال المولى Y بالنضج المعنوي.

فالتربية المعنوية في هذه الحال؛ أي تطهير القلب من الشهوات والنفسانيات، حاجةٌ مشتركة لدى الناس أجمعين، فالإنسان هو الكائن الوحيد بين الأحياء كلها الذي يُولَد محتاجًا إلى هذه التربية.

لقد خلق الله Y الإنسانَ وزيَّنه بمزايا سامية مثل العقل، والإدراك، والفهم، والوجدان، ولكن هذه المزايا لا تكفي وحدها لوصوله إلى الحق والخير، لذلك أنزل ربنا سبحانه الكتبَ السماوية وأرسل الرسل تترى كي نتعلم كيفية استعمال هذه النعم. والنبي خير «مربِّ للإنسان»، فهو الذي يبلِّغ الحقائق في الكتب السماوية، ويشرحها ويفسرها عبر حياته.

فقد استطاع نبينا محمد r عبر الإصلاح والتربية أن يحوِّل «مجتمع الجاهلية» الذي كان غارقًا في الظلم والجور والوحشية إلى «مجتمع عصر السعادة» الذي بلغت فيه الأخلاق قمتها والفضيلة ذروتها والحضارة أوجها. فغدا الجاهل متعلِّمًا، والوحشيُّ متحضِّرًا، والمجرم تقيًّا؛ أي صار الرجل منهم صالحًا ذا قلب رقيق خاشع بتقلُّبه بين الخوف والرجاء.

وتأمل- يرعاك الله- ذلك الإنسان الجاهلي وهو يئد ابنته كم تحجَّر قلبه واستوحش طبعه... وتأمل ظلمه وهو يرى عبدَه بضاعةً مزجاة يستعمله كأي شيء مادي، معتقدًا أن له حقًّا في أن يعامل عبده معاملة ليس فيها ذرة من الإنسانية! إن هذا الإنسان الجاهل الفظ الذي قُدَّ قلبه من حجر َبعد أن أخذوا من فيض قلب رسول الله وخضعوا للتربية النبوية بنوا «حضارة من الفضائل» في العلم والأخلاق والأدب؛ أي في الإنسانية.

وليس هناك بدٌّ من البحث والتدقيق في طرائق التربية النبوية إن أردنا فهم التحول الجذري للصحابة، فالذي جعل الصحابة صحابةً ما تلقوه من فيوضات مجالس النبي بإيمانهم الصادق به والروحانيات التي كانت تتغشاهم في صحبتهم إياه. ولقد كان نبينا الكريم r أكثر ما يربِّيهم بـ«الصحبة»، فالصحبة تربية تتقابل فيها الوجوه والصدور وتُزال الحجب بينها. ولا ننسى هنا التأثير العظيم لرؤية وجه النبي المبارك و«الأحوال» التي كانت تنعكس منه ويحس بها الصحابة فتعجز ألسنتهم عن التعبير عنها، إلى جانب أقواله وأفعاله r .

وكما استفاد الصحابة الكرام من أحاديث النبي r في جو الصحبة، استفادوا أيضًا- على حسب طاقة كل واحد منهم- من أحواله المباركة، فكانت كلماته تدخل في آذانهم لتستقر في صدورهم، فيدركوها حقَّ الإدراك. وبفضل ذلك الانعكاس والانصباغ في تلك المجالس والصُحَب انتقلت أحوال النبي r إلى الصحابة الكرام، فغدا كل صحابي متخلِّقًا بأخلاقه ومنفِّذًا أوامره وتاركًا نواهيه. غير أن هذه الأحوال المباركة لم تنقطع بوفاة الصحابة، ذلك أنه إذا كانت حاجتنا ضرورية للأنبياء لنتعلم الحقائق الإلهية ونطبقها، فإننا نجد أن وظيفة الأنبياء في التربية المعنوية باقية على يد أهل الإرشاد من العلماء والعارفين والصالحين والأولياء- على حسب طاقاتهم وقدراتهم- بعد وفاة خاتم الأنبياء محمد r .

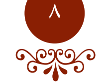
يقول رسول الله r في الحديث الشريف:

«**العلماء ورثة الأنبياء**».[1]

والمرشد الكامل هو المؤمن الكامل الصالح العارف الذي يمثِّل ظاهر الدين وباطنه، والذي سار على طريق الزهد والتقوى فوصل إلى شرف «وراثة الأنبياء» وإلى كمال السلوك؛ وأدرك علَّةَ خلقه في الدنيا وسبيل النجاة في الآخرة، فنال لذة الإيمان وتنعم بشوق الوصال؛ وكان سعيه دائمًا في سبيل تخليص البشر من سيئات طبائعهم وظلمات نفوسهم وغوائلها، فترقَّى ذروة الأخلاق الحميدة وطاف في رحاب النضج المعنوي.

ويعدُّ المرشد الكامل ممثلَ الإرشاد النبوي وكمال السلوك في كل عصر، فهو قدوة لا بد أن يتَّبعها كل من لم ينل شرف رؤية النبي وأصحابه الكرام. ونصائحُ المرشدين وأقوالهم اللينة التي تحيي القلوب الميتة إنما هي كقطرات الروحانية التي تأتينا من منبع النبوة المحمدية؛ أي إن وصاياهم وإرشاداتهم تجليات تنعكس من مجالس رسول الله r الذي هو منبع الفيوضات المعنوية.

١ أبو داود، العلم، ١.



وأولياء الله كالمرآة البرَّاقة تعكس جمال الأخلاق النبوية، لذلك نجد أنه من يتتبع حال الأولياء وسلوكهم بمحبة ورقَّة قلبية، يرى في عالَمهم التجليات اللطيفة للأخلاق النبوية.

ونحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره أن جعلنا ممن ينتفعون في آخر الزمان من روحانية «السلسلة الذهبية» النقشبندية وفيوضاتها، هذه السلسلة التي اجتمعت حلقاتها في ١٤ قرناً بانتقال وظيفة رسول الله r في تطهير القلب وتزكية النفس من جيل إلى آخر عبر الوراثة المعنوية.

وببركة هذه السلسلة المعنوية استطاعت الأفئدة أن تتنفس عبقَ عصر السعادة[٢]، وأنعشتها نفحاتُ الرحمة التي ما فتئت تهب منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا. و«السلسلة الذهبية» كنز معنوي أنعمه المولى Y علينا ينتقل عبر رباط المحبة من الصدور إلى الصدور، ويزرع في القلوب المحبةَ والنشاط.

ومن أوضح الواضحات أن الإنسان يعسر عليه دركُ الحقائق المجردة؛ فالإنسان يحتاج دائمًا إلى أمثلة مشخَّصة يتلسمها بيدَيه ويراها بعينَيه ويسمعها بأذنَيه، لذلك يزداد إعجابه حين يرى مَن تتجسد في أحواله وسلوكه الحقائقُ المعنوية، فيسعى لتقليده واتباعه.

إن حياة المرشدين الكاملين الذين كُلِّفوا بالإرشاد بعد أن أتموا «السير والسلوك»؛ أي مسيرتهم في التربية المعنوية، حياةٌ مليئة بالدروس التي يمكن أن ننتفع منها، سواء أكانت خلال تلقيهم التربية أم تربيتهم المنتسبين إليهم. ولا ريب أن أخذ العبر من قصصهم، والاستماع بشغف لحِكمهم ونصائحهم، والتفكر العميق في أحوالهم، أمورٌ سيكون لها عظيم الفائدة في فهم الزهد، والإحسان، والخشوع، والتقوى، والربانية، والروحانية، أي فهم «التصوف» الحقيقي فهمًا صحيحًا.

٢ عصر رسول الله r والخلفاء الراشدين y.

فالتصوف الحقيقي مرآة برَّاقة تضمن انعكاس أخلاق رسول الله الحميدة وأحواله السامية بالروحانية والفيوضات نفسها على العصور والأجيال القادمة إلى قيام الساعة.

وإننا نضع بين أيديكم كتابًا يُعَدُّ خطوة مهمة في طريق التعريف بـ«الإنسان الكامل» كما يراه الإسلام.

وقد آثرنا التركيز على الحِكَم والأخلاق التي استقيناها من حياة رسول الله r – أسوتنا الحسنة– ثم حياة المشايخ الكرام الذين يكوِّنون حلقات «السلسلة الذهبية»، والتي ينبغي لكل مؤمن أن يقتدي بها على حسب طاقته، بدل أن يكون الكتاب كتاب سيرة يقتصر على ذكر تفصيلات حياتهم.

وما الروحانيات والفضائل الموجودة في هذا الكتاب إلا انعكاسات وإشراقات بَلَغَتنا من رسول الله r وورثته الحقيقيين من أهل الله. أما مهمتنا فكانت بذل الجهد– كالنحلة التي تجمع الرحيق من زهور كثيرة كي تملأ خليتها بالعسل– في سبيل جمع هذه الحكم وتقديمها لقرائنا الأعزَّاء

ونتوجه هنا بخالص الاحترام وعظيم المحبة والدعاء لأهل الله الذين ذُكِرت أسماؤهم في كتابنا هذا. ونتقدم بجزيل الشكر لكل من بذل جهدًا في إعداد هذا الكتاب، بدءًا بالأستاذ مراد كايا، ومحمد عاكف غوناي، وإبراهيم حقِّي أُزون، وإخواننا الأكاديمين وطلبتنا جميعًا، وندعو الله أن تكون خدماتهم هذه صدقة جارية في ميزان حسناتهم.

وينبغي لنا ألا ننسى أن إرشادات أولياء الله كالنجوم التي تنير دروبنا، ولا يمكن لكل امرئ أن يحظى بتطبيق ما يطبِّقه الأولياء. لكن ثمة شعار يقول: «ما لا يُدرَك كله لا يُترَك جُلُّه» لذلك لا بد أن يكون منطلقنا في كل أمر فكرة أنَّ: «الغنيمة الاقترابُ من حال الأولياء ما استطعنا». فحين نقرأ مناقبهم ونصائحم، علينا ألا نبقى في مرحلة الإعجاب والدهشة فحسب، بل نخطو خطوة إلى الأمام فنرى

حالنا في مرآتهم. ثم ينبغي لنا أن نسعى لتلافي مثالبنا وتصحيح أخطائنا، وأن نعمل بجدٍّ على جعل أحوالنا كأحوالهم لننال الدرجات التي نالوها.

وقد قيل: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة».[٣] لكن ذكر الصالحين باللسان وحده لا يكفي لتجلي الرحمات الإلهية تجليًا كاملًا؛ فإذا كان هناك سعي في القلوب للتشبه بالصالحين إضافةً إلى الذكر، فعندئذ يتجلى اللطف الإلهي والفيض اللامتناهي.

وإذا استطعنا أن نقرأ قصص أهل الله التي ذكرناها في كتابنا ونصائحهم بعيون قلوبنا وبِهمَّةٍ عالية، فسيكون لنا- إن شاء الله- مكان في تلك القافلة؛ فقد جاء في الحديث الشريف:

«**المرء مع من أحب**».[٤]

وأعظم دليل على هذه المعية تشابهُ الحال والمعاملة والسلوك، والمعية في الإحساس والفكر والاستقامة. وكل محبة لا تحمل المرء إلى مثل هذه المعية محبةٌ ناقصة مشبوهة.

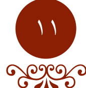
اللهم أكرم قلوبنا بمحبة من تحبهم، واجعل ارتباطها معهم ارتباطًا دائمًا، واشرح صدورنا، ويسِّر لنا حياةً بصحبة الصالحين، واحشرنا جميعًا معهم يا رب العالمين. آمين!

عثمان نوري طوبَّاش
محرم ١٤٣٥ - تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣
أُسكدار/ اسطنبول

---

٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٧، ص٢٨٥.

٤ البخاري، الأدب، ٩٦.




مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ
فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ
التصوف

التصوف فنٌّ معرفة الحق تعالى بالقلب.

التصوف نظامٌ لتطهير النفس من كل شوائبها؛ وطريق الوصول بها إلى التقوى عبر الحذر من كل شيء يُبعد المرءَ عن الله تعالى.

التصوف مدرسةٌ للنضج المعنوي.

التصوف محاربة النفس محاربةً لا هوادة فيها، فالنفس قوة مليئة بالأسرار لا تتزكَّى إلا بالجهاد الأكبر.

التصوف شعور المرء بوجوده في عالم الامتحان الدنيوي، وهو الذي يوضِّح قواعد العبودية لله تعالى، وكل ذلك بالفيوضات والروحانيات التي تتغلغل في عروق المرء.

التصوف ارتواءٌ من ينبوع العبودية لله تعالى، والارتقاء بالإيمان إلى الإحسان.

التصوف القدرةُ على البقاء حبيبًا لله تعالى من خلال الرضا بقضائه في كل زمان ومكان؛ وهو مهارة عدم التأثر أمام تقلبات الحياة والظروف المتغيرة والمفاجآت، ونسيان الشكوى والتذمر ليكون العبد عبدًا صالحًا دائمًا.

التصوف مسؤوليةٌ يحملها أولئك الربانيُّون تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين، فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالرأفة والرحمة والمحبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته.

فالتصوف معرفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قرب وذلك من خلال محبته، والتخلق بأخلاقه الرفيعة، والسعي لتمثُّل الإسلام بروحانيته على أجمل صورة.

التصوف

ينبغي قبل الدخول في بحث السلسلة الشريفة إدراك «التصوف» إدراكًا سليمًا، فهو ميدان خدمة المرشدين الحقيقيين، وإلا فلن نفهم أهلَ التصوف فهمًا تامًّا، لا سيما مشايخه وأساتذته من المرشدين الكاملين.

أصل التصوف

التصوف جوهرُ الإسلام وروحه؛ وهو طريق الكمال والتطهر المعنوي الذي يسير فيه المرء ساعيًا لجعل القرآن الكريم والسنة النبوية أساسًا ومنطلقًا له في كل مرحلة من مراحل حياته؛ وهو لبُّ الأديان السماوية كلها؛ وهو الفيوضات والروحانيات التي تنعكس على القلوب المليئة بالمحبة، والتي بدأت بعد أن نفخ ربنا U في سيدنا آدم u من روحه، وبلغت ذروتها عند نبي آخر الزمان محمد r .

وقد عرض ربنا U لنا في شخص رسول الله r نموذجَ «**الإنسان الكامل**» الذي يطلبه منَّا، فهو r «**أسوةٌ حسنةٌ**» لنا في ميادين الحياة كلها، وخيرُ قدوة في «**تربية**» الناس و«**تزكيتهم**». وهو النبي الذي يحمل على عاتقه مهام كثيرة، لكن ثمة أربع مهام أساسية كلَّفه المولى Y بها، وهي:



١) تلقي الوحي الإلهي:

وقد انتهى تلقِّي الوحي الذي كان لطفًا من الله تعالى بنزول الآية الكريمة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [٥].

وما عاد لهذه المهمة وجود بعد انتقال نبينا r إلى دار البقاء لأنه «خاتم الأنبياء».

٢) إيضاح الأحكام والحقائق النازلة في القرآن الكريم بالأقوال والأفعال:

وقد دامَت هذه المهمة بعد وفاته r على يد المجتهدين باجتهاداتهم القائمة على أدلة أصلية وفرعية في المسائل الجديدة التي واجهوها، وهو ما أدى إلى ظهور «المذاهب».

٣) الإمساك بزمام السلطة السياسية والإدراية التي تطبق أوامر الدين ونواهيه وتحفظها على مستوى المؤسسات والدولة:

وقد استلم الخلفاء (أولو الأمر) هذه السلطة بعد النبي r ودامت على أيديهم.

٤) تزكية نفس الإنسان وتربيتها:

إن انتقال هذه المهمة بعد وفاة النبي r من جيل إلى آخر وضعَ أساس التصوف. فكما أنه من الضروري أن تدوم مهام رسول الله r كلها – عدا تلقي الوحي– على يد أتباعه، فكذلك يجب ألا تنقطع مهمة تزكية النفس وتطهيرها وإيصالها إلى نضج معنوي، بل تدوم إلى قيام الساعة بوجود المرشدين الكاملين ورثة خاتم المرسلين، إذ لا يمكن تطهير ظاهر المؤمن وباطنه معًا إلا بمثل هذه التربية المعنوية.



٥ المائدة: ٣.



فأصول التصوف وأسسه مقتبَسةٌ من دوام التربية النبوية التي تستند إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في كل زمان ومكان؛ أي إن التصوف إنما هو الصورة الحية لسلطة النبي r المعنوية والروحانية، وقد بقيت هذه السلطة المعنوية بعده إلى يومنا هذا على يد المؤهَّلين لهذه المهمة من الصحابة والتابعين والأجيال التالية.

ولم تكن مذاهب الكلام والاعتقاد والفقه ظاهرة في عصر الرسول r، وما كانت مدوَّنة وفق الأصول العلمية، غير أن الأحكام العقائدية والفقهية وغيرها من الأحكام كانت موجودة آنذاك، وكان النبي يعلم صحابته هذه الأحكام ويطبقها. وبعد حين من الزمن شرَعَ تلامذة كبار العلماء- مثل علماء الفقه- يجمعون اجتهادات علمائهم وينظمونها، وأُطلِق على هذه الأصول المختلفة اسم «المذاهب»، ثم نُسِبَت إلى أسماء كبار العلماء.

فكما أن العلوم الإسلامية كانت موجودة في عصر السعادة بمحتواها وإن لم تكن بأسمائها، فكذلك التصوف، فقد كانت حياة الصحابة الكرام قائمة على «الزهد» و«التقوى» و«الإحسان» التي هي أسس التصوف. وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وإلى حياة رسول الله r وصحابته، فإننا سنجد القواعد الأساسية لمفهوم التصوف الصحيح.

ومع مرور الوقت، بدأ أهل التقوى من العلماء والعارفين، الذين يحيون وكأنهم في عصر الرسول بما فيه من فيوضات وروحانيات، بإسداء النصائح للناس لمنع وقوعهم في الغفلة وركونهم إلى ملذات الدنيا، وابتغاءً لرضا الله سبحانه وتعالى. ولم يكن لهم مقاصد وغايات من وراء ذلك، مثل شق طريق خاص بهم أو وضع أسلوب معيَّن للحياة؛ بل كانت غايتهم العظمى تطبيق الإسلام تطبيقًا حسنًا بصورة توافق جوهره، وأداء العبادات بـ«الإحسان» و«الخشوع»، كما وردَ في القرآن والسنة.

لكن أولئك الذين انتفعوا من مجالسهم ونصائحهم وأخذوا نصيبًا من أحوالهم رأوا كل واحد من هؤلاء العلماء والعارفين هاديًا ومعلِّمًا ومرشدًا، ونظَّموا طرائقهم في التربية والتزكية التي توصِل المؤمن إلى النضج المعنوي وتقرِّبه من المولى U، فغدت منهجًا معنويًّا في القرن الثاني الهجري. وكانت نتيجة هذه العملية أن ظهرت الطرق الصوفية بأسماء هؤلاء الشيوخ الكبار، مثل النقشبندية، والقادرية، والمولوية، والطرق الأخرى.

وأُطلِق اسم «الطريقة» على الأصول والمناهج التي يتَّبعها كل فرع من فروع التصوف في طريق الوصال مع الحق تعالى. فظهرت الطرق المختلفة التي تتَّبع كل منها منهجًا خاصًا، فصار كل مؤمن قادرًا على الانتساب إلى الطريقة التي يراها مناسبة لمزاجه وطبعه وشخصيته من أجل تطهير قلبه وتزكية نفسه.

لزوم التصوف

لا يخفى على أحد أن الإنسان يتكون من بُعدين هما: الروح والجسم، ولكل منهما حاجات فطرية. والإسلام لا ينكر هذه الميول في الإنسان مذ خلقه، بل يراها حقائقَ طبيعية، ويسعى للارتقاء بتلك الميول المقبولة في إطار الضوابط الأساسية التي وضعها، والتقليل من تلك المرفوضة إلى أدنى حد، أو إدخالها تحت غاية مقبولة.

أي إن الإسلام يقدِّم للإنسان البرنامج الأكمل الذي تتوازن فيه متطلبات الروح والجسم. فالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها لا تؤدَّى بلا جسم، ولكن لا ننسى أن العبادة لا تكون أيضًا بلا روح؛ فإن لم يكن هناك خشوع ورقَّة وتبتُّل في القلب، فسيغدو الدين حينئذ هيكلًا وشكلًا لا معنى له. لذلك شدَّد المولى Y على «التقوى» في نحو ٢٥٠ موضعًا في القرآن الكريم، وما التقوى إلا تلك الرِقَّة القلبية التي ذكرناها.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:



﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم يلفت انتباهنا في الآية التي تليها إلى إحدى خصائص القلب حين يقول:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٦].

إن التصوف منهج تربية قائم على الكتاب والسنة، يعلِّمنا السبيلَ إلى تحقيق أعمال القلب المذكورة في القرآن الكريم مثل التقوى والخشوع والتوبة والرضا، والبرأَ من أمراضه مثل الرياء والعُجب والكِبر.

وإذا ظلَّ الإنسان في إطار الظاهر، وشاهَدَ الأمور من منظور المادية فحسب، فإنه سيرى أعظم الحوادث المجردة في قالب مشخَّص تعوزه الروحانية، ولعلَّ هذا ما يسبب الخوف من التصوف، ويدفع للاعتراض عليه. لكن التصوف في الحقيقة يوجِّه الإنسان نحو الروحانيَّات والمعنويَّات دون أن يرفض الحاجات المادية والظاهرية، وبذلك يَعْرِض لروح الإنسان- على حسب طاقتها- طريق النضج وقضاء الحاجات.

يقول العارفون:

«بعمل الأعضاء تكسب رزقك الظاهري، وبعمل القلب تكسب رزقك الباطني».

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الناسَ وجعل بينهم اختلافًا في طاقاتهم المادية والمعنوية، ولم يكلِّف أحدًا من عباده بعبودية تفوق طاقته، إنما جعل كل واحد منهم مسؤولًا على حسب طاقته وقدرته.

وكان الأساس الذي وضعه الله تعالى في تحديده التكاليف الدينية الملقاة على عاتق البشر أجمعين إنما هو الحد الأدنى من طاقة العبد، ولا ريب أن ذاك رحمةٌ من رحماته الواسعة بعباده. ولم يغلق سبحانه وتعالى باب الارتقاء

٦ المؤمنون: ١-٢.



المعنوي أمام أولئك الذين يجتهدون ويتمتعون بقدرات فطرية تمكِّنهم من الزيادة على التكاليف العامة، وهو ما يعني فتح طريق للمؤمنين الذين لديهم طاقة للارتقاء في العالم الروحاني- إضافة إلى أداء واجباتهم الشرعية- يضمن المضي في سبيل الوصال مع الله سبحانه وتعالى، وذلك بالنوافل والفضائل مثل الزهد والتقوى والإحسان؛ وهذا الطريق- كما هو معروف- إنما هو «التصوف».

ويمكن لنا أن نضرب على ذلك مثلاً من الواقع:

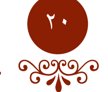
«إذ قال رجلٌ للشبلي (رحمه الله): كم في خمس من الإبل؟ قال: شاة في الواجب، فأمَّا عندنا، فكلُّها لله. قال: فما أصلك في ذلك؟ قال: أبو بكر، حين خرج عن ماله كلِّه لله ورسوله. ثم قال: من خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ لله، وأعطى لله، وجمع لله، ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكلُّ علمٍ لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم».[٧]

ويدل هذا الشاهد على أن كل صحابي من الصحابة العظام كان قدوةً وإمامًا في التصوف على حسب سجاياه التي تميِّزه عن غيره.

إن وصول القلب إلى السكينة والطمأنينة منوطٌ بالدرجة التي بلغها في رُقيِّه المعنوي، وهذا ما يُوجِب خضوع العبد لتربية معنوية. فامتلاء القلب بالعلم والحكمة، واطِّلاعه على حقائق الدين الجوهرية، ووصول العبد إلى الكمال المعنوي، لا يتحقق إلا بعد المرور بمجموعة من المحطات. حتى إن الأنبياء وهم قدوة البشرية قد وقفوا عند هذه المحطات في مرحلة الإعداد والتهيئة قبل تلقي الوحي والرسالة.

فرسول الله r اعتكف في غار حراء أيامًا طوالًا قبل نزول الوحي عليه. أما كليم الله موسى u فبقي في جبل طور أربعين يومًا صائمًا صوم الوصال منتظرًا

٧ أحمد زرُّوق، قواعد التصوف، قاعدة: ٣٣.



ميقات ربه. ولبث سيدنا يوسف u في السجن اثنتي عشرة سنة، ولقي من المحن والرياضات والمجاهَدات والمشقات ما لقيه قبل أن يصبح عزيز مصر، وبهذا تطهَّر قلبه المبارك من الشوائب الدنيوية، ولم يجد ملجأً ولا ملاذًا إلا عند الله تعالى.

ونحن إن نظرنا إلى التصوف، نجد ما يماثل مرحلة الإعداد والتهيئة هذه في التوبة عن ما سوى الله تعالى، أي النأي بالقلب والروح عن كل شيء يُبعِد العبد عن ربه، والوصول إلى حال «الفناء» و«المحوية»، فكل شيء يبدأ بعد هذه المرحلة.

وقد تحققت في رسول الله r أسرار سورة الانشراح قبل الواقعة العظمى التي لم يرقَ إليها نبي مرسل، وهي المعراج وما فيه من عجائب وغرائب وأسرار؛ فقد شُق الصدر الطاهر، ونُظِّف القلب المطهَّر، ومُلئ بالحكمة الربانية والعلوم اللدنية، استعدادًا وتهيئة للوقوف أمام الحضرة الإلهية، مع أنه r كان صاحب أطهر قلب عرفته البشرية جمعاء.

ودليل آخر على هذا الموضوع هو قوله U:

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.[٨]

أي إن الإنسان مُجبر على الحذر من الآثام الباطنة، مثلما هو مجبر على الابتعاد عن الآثام الظاهرة، حتى إن الباطنة منها مثل الكِبر، والرياء، والحسد، والحقد، والغضب، والبخل، لَهيَ أشد خطراً وأعظم عقابًا. والحديث الشريف يخبرنا بحقيقة أنَّه:

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**».[٩]

---

٨ الأنعام: ١٢.

٩ مسلم، الإيمان، ١٤٧.



ولا بد أن نعلم أن الذنوب الظاهرة ما هي إلا نتيجة الذنوب الباطنة، والخطير في الأمر أن الذنوب الباطنة أكثر انتشارًا بين الناس، لأنهم يستخفُّونها ولا يبدون الحذر اللازم كي يتخلصوا منها ويحتموا.

ويهدف التصوف إلى تطهير باطن الإنسان وظاهره بالكتاب والسنة، واجتهادات الأئمة، والطرائق التي يستحسنها المرشدون الكاملون؛ وإلى تحضير العبد ليحيا الإيمان بيقين وذلك بإصلاح أحوال قلبه.

ولنا أن نقول هنا إن التصوف جزء لا يتجزأ من العلوم الإسلامية، لا سيما الفقه؛ فالتصوف والفقه عِلمان يكمِّل أحدهما الآخر ويضمنان مراعاة أوامر الله ونواهيه ظاهرًا وباطنًا.

والعلوم الإسلامية كلها مثل التصوف، والفقه، والعقيدة، كانت تبيِّن في البداية الجهات المختلفة لمحتوى واحد، فقد عرَّف الإمام أبو حنيفة الفقهَ بقوله:

«معرفة النفس ما لها وما عليها».

وتُشكل «معرفة الله حق المعرفة» الجزءَ الأهم في هذا العلم، وهذي المعرفة تحدِّد سعادة المرء أو هلاكه في الآخرة؛ ولهذا تُطلَق كلمة «الفقه الأكبر» على آراء الإمام الأعظم في مسائل العقيدة، وقد دوِّنت هذه الآراء وبقيت إلى يومنا هذا. وكان هذا هو حال الفقه في البداية، ولكن حينما توسَّعت مجالات هذا العلم وتفرَّعت، خرجت الأحكام العقائدية والأخلاقية والتصوفية من دائرة الفقه، واقتصر هذا العلم على الأحكام العملية للعبادات، وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة الفقه في أيامنا هذه.

فالفقه يوضِّح لنا الشروط الظاهرة لصحة العبادات، مثل الوضوء والطهارة والصلاة والصيام، أما التصوف فيهتم بالشروط الباطنة المتعلقة بالقلب لأداء العبادات والمعاملات أداءً صحيحًا، لهذا يُسمَّى بـ «فقه الباطن»؛ أي إنه القاعدة الروحانية لعلم الفقه.

وتعلُّم علم الظاهر لا يغني عن تعلم علم الباطن، وقد ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين:

فمِن الحنفية كابن الهمام، وابن الشلبي، والشرنبلالي، وخير الدين الرملي، والحموي وأمثالهم؛

ومن الشافعية كسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والإمام الغزالي، وتاج الدين السبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والعلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي المكي وأضرابهم؛

ومن المالكية كالعارف أبي الحسن الشاذلي، وخليفته الشيخ أبي العباس المرسي، وخليفته الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري، والعارف ابن أبي جمرة، وناصر الدين اللقاني، والشيخ العلامة المحقق العارف أحمد زروق البرلسي وغيرهم؛

ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر الجيلي، وشيخ الإسلام الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي، والشيخ ابن النجار الفتوحي وغيرهم.

[وثمة علماء مشهورون منتسبون للنقشبندية، مثل السيد الشريف الجرجاني، والملا الجامي، وعبد الحكيم السيالكوتي، وعبد الغني النابلسي، وابن عابدين، وشهاب الدين الآلوسي، وزاهد الكوثري].

وهؤلاء العلماء الأجلَّة بعد التضلع من علوم الظاهر، اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد والإخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل[١٠].

وهناك كثير من العلماء في السلسلة النقشبندية قد وصلوا إلى ذروة علوم الظاهر ونالوا إجازات فيها، مثل يوسف الهمداني، والشيخ نقشبند،

١٠ العلامة محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، إسطنبول ١٤٠٣، ص٢٥-٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، إسطنبول ٢٠٠٢، ص٦.



وعلاء الدين العطَّار، ويعقوب الجرخي، ودرويش محمد، والإمام الرباني السرهندي، وخالد البغدادي.

يقول الإمام مالك رحمة الله عليه:

«من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق».[١١]

فمن الواضح والجلي إذًا لزوم التصوف الذي يروم استقامةَ القلب استقامةً كاملةً مقبولة، لأن استقامة القلب تحدِّد صحة الأعمال التي هي بضاعة الإنسان في الآخرة. لهذا نجد مَن يحاول تفريغ الإسلام من محتواه، وتصويره على أنه مجموعة من النظم المتحجرة الفارغة المضمون، والخالية من المشاعر والمعاني، هادفًا إلى الطعن في التصوف ورفضه، وهذا أمر لا يمكن قبوله قطعًا.

وخطأ فادح أن نرفض حقيقة التصوف بالنظر إلى سلوك جاهل ظنَّ أنه متصوف، وهو في الحقيقة بعيد أشد البعد عن التصوف وأهله، أو أنه يبيِّت نية سيئة وغاية خبيثة. وينبغي لنا أن نتوقع الأخطاء والأوهام والاستغلال في العلوم الدينية، لأننا نرى ذلك في كل مجال، لكن ليس من العسير على أهل هذي العلوم وأربابها تمييز الصواب من الخطأ، والصحيح من الفاسد. وكما أننا نجد مذاهب باطلة قد حادت عن الصراط المستقيم، نجد طرقًا باطلة انحرفت عن التصوف الحقيقي؛ فعلينا ألا نخلط بين أهل التصوف الحقيقي والمنتسبين لمثل هذه الطرق الباطلة.

أما الجانب الآخر للزوم التصوف وأهميته في أيامنا هذه فإنما هو الطرق والأساليب التي يتَّبعها في إصلاح الناس.

---

١١ أحمد زروق، قواعد التصوف، القاعدة: ٤؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت، ١٤٢٢، جـ١، ص٣٣٥، شرح الشفا، بيروت ١٤٢١، جـ٢، ص٥١٠؛ الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر ١٣١٥، جـ٢، ص١٥٦.



فأكثر الناس في زماننا هذا واقعون في أزمات نفسية وضائقات روحية نتيجة بعدهم عن الدين وارتكابهم الموبقات، وما أيسرَ إصلاح مثل هؤلاء وإنقاذهم بالعفو والمسامحة والرحمة والرأفة، بدل تعييبهم والغضب عليهم. فمن طرائق الإرشاد العظيمة الفائدة والسريعة النتيجة تقديمُ الإسلام لهؤلاء كنفحة من نفحات الله فيها المواساة والسلوى لأرواحهم التي تعكر صفوها تحت نير العقل والنفس، وعدمُ توجيه كره الذنب إلى المذنب وذلك لإلقاء حبل النجاة له، والنظر إلى المذنب كالطير المكسور جناحه، والقرب منه بالرأفة والرحمة.

والتصوف عبر التاريخ وقف حاجزًا منيعًا أمام الكسل والخمول في أوقات الرخاء الاقتصادي والترف الاجتماعي ليُحافظ على النشاط. واستطاع خلال الأوقات العصيبة أي في زمن الاحتلال وانتشار الجور والظلم أن يُوجِد متنفَّسًا روحانيًّا يتسامى بالأفئدة فوق حطام الدنيا وظلامها الكئيب، ويُقدِّمَ بلسمًا للأفئدة الجريحة، وهدياً للعقول الحائرة، وكوثراً للأرواح القاحلة.

لكن ينبغي لنا أن نوضح قبل كل شيء أن التصوف علم تطبيقي لا نظري؛ أي إنه علم يُدرَك بمعناه الحقيقي إذا عشناه ودخل القلوب واستقر في الصدور، لا إذا قرأناه من السطور. وهذه الحقيقية يشير إليها الشيخ محمد بارسا في قوله:

«لم تكن أقوال طائفة أولياء الله للحفظ والنقل فحسب، بل هي أحوال يعيشها المرء ولذَّات يتذوقها. لذلك كان أهل البصيرة يصفون أقوالهم بـ(الفقه الأكبر والبرهان الأظهر). واليقين الذي يصل إليه العبد بالتفكر في أقوال هذه الطائفة المباركة أعظم وأقوى من اليقين بعد رؤية الكرامات».[١٢]

فمن العسير أن يُعرَّف التصوف بكلمات ذات قدرات محدودة، إذ لا يُدرَك كنهه إلا بالعمل والتطبيق. لهذا وضع أولياء الله تعاريف مختلفة ومتعددة

١٢ محمد بارسا، مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ص١٩، دار الأرقم للنشر، إسطنبول ١٩٩٨.



للتصوف، كلٌّ تعريف منها ينطلق من الجانب الذي يرى منه الأولياء ذاك النور الذي يعكسه جوهر التصوف؛ لذا كان لا بد لنا أن نعرض بعضًا من هذه التعاريف فيما يلي:

تعاريف التصوف:

التصوف تزكيةُ النفس وتطهيرُ القلب؛ أي الخضوع لتربية معنوية للتخلص من الفجور في فطرة الإنسان، وزرع بذور التقوى.

التصوف القدرةُ على العيش باستقامة؛ أي وصول القلب إلى أعلى حالات اللذة بالعيش داخل روحانيات الكتاب والسنة.

التصوف الرضا والتسليم؛ أي عدم التأثر بتقلبات الحياة، والحفاظ على القلب متوازنًا أمام الظروف المتغيرة، وترك الشكوى والرضا دائمًا بما قدَّره الله سبحانه وتعالى.

التصوف القدرةُ على أن تكون عبدًا صالحًا لله سبحانه بمحبته ومعرفته حقَّ المعرفة.

التصوف الاقتداءُ الظاهر والباطن بحياة رسول الله r ، ثم الغوص في بحر محبته الواسع؛ فالتصوف تجلياتُ الرسول r الظاهرة والباطنة، أي إنه «حال» رسول الله r . لذلك فإن هدف التصوف الأساسي إنما هو الأخذ بنصيب وافر ووافٍ من قبسات رسول الله r الروحانية.

ونخلص من هذا كله إلى أن التصوف الذي نسعى لتعريفه إنما هو «حياة التقوى» التي عاشها رسول الله r وصحابته في حال من الوجد، أما ما بقي خارج ذلك ولم يأخذ جوهره وميزانه من القرآن والسنة فهو باطل مهما عزا نفسه إلى التصوف.

أسس طريق الخواجكان

اعتمد المتصوفون في آرائهم التصوفية على الحقائق الشرعية، فجاءت تلك الآراء مثل آراء المجتهدين. لكن وقعت زلات من بعض المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية الذين ربما قصر فهمهم عن دَرك حقيقة الدين باطنًا وظاهرًا، وربما غلبتهم «النشوة الصوفية» فأساؤوا العلم والفهم. غير أن الطرق التي تميز مرشدوها برسوخهم في العلم الظاهري أيضاً نجت من هذه الزلات.

وإن نظرنا إلى تاريخ التصوف نجد أن «**النقشبندية**» كانت وما زالت تجعل الكتاب والسنة ركيزَتَين لها، فكان مرشدوها دائمًا من أهل العلم، فاستحقوا لقب «خواجَكان» أي «المشايخ».

وسنعرض ههنا القواعدَ التي ينبغي أن ينطلق منها التصوف الصحيح بذكرنا الأسس العشرة لطريق الخواجكان:

١) **الاعتقاد بما يعتقده أهل السنة**. اعتمدت النقشبندية مفهوم الإسلام السني أساسًا للطريقة عبر التاريخ، فاستطاعت بذلك صونَ المنتسبين إليها من التيارات الباطنية والمذاهب الحروفية[١٣].

٢) **الالتزام بالكتاب والسنة**. لهذا يسعى المريدون في هذه الطريقة لاتِّباع أصغر إشارة صدرت من رسول الله r بمحبة عظيمة.

ويبيِّن شيخنا شاه نقشبند أن طريقته قائمة على اتباع السنة الشريفة وأقوال الصحابة،[١٤] إذ يقول:

«إن كل ما بلَغْناه [من الروحانيات] بلطف الله Y كان حصيلة العمل بآيات القرآن الكريم وأحاديث سيدنا محمد r . ولا بُدَّ من مراعاة التقوى والقواعد

---

١٣ المذهب الحروفي: من المذاهب الباطلة، يعتمد على تأويل الأعداد المتصلة بحروف الهجاء ونتائج تركيباتها اللغوية في تفسير النص القرآني والحديث النبوي.

١٤ محمد باقر، مقامات حضرة الأستاذ نقشبند، البخاري ١٣٢٨ / ١٩١٠، ص ٥٨.

الشرعية، والتحلي بالعزيمة، والعمل وفق أصول أهل السنة والجماعة، وتجنب البدع من أجل نيل نتيجة من الأعمال». [١٥]

«يقيس أصحاب الفراسة والبصيرة الكشوفاتِ والكراماتِ المعنوية لأهل الله بميزان الشرع، فإن كانت هذه الأحوال متوافقة مع الشرع، اعتمدوها وأظهروها. أما إن كانت تخالف القواعد الشرعية، فلا يقيمون لها وزنًا. يقول أحد السلف: (لا أقبل كلَّ كلام صادر عن قلبي ما لم أعرضه على الشاهدَين العادلَين: كتاب الله وسنة نبيه)». [١٦]

٣) العمل بالعزائم أكثر من العمل بالرخص.

يقول الشيخ عبد الخالق غجدواني: «الزم العزائم، وابتعد عن الرُخص، واتَّبعْ نهجَ رسول الله r وسنته، واجتنب البدع».

وقد كان الشيخ شاه نقشبند في أثناء السير والسلوك يطبِّق هذه الأوامر والتوصيات، وقد قال:

«إن النور كل النور، والصفاء كل الصفاء، والرحمة كل الرحمة، إنما هي في أن تكون مسلمًا ملتزمًا بالأحكام الشرعية، ومراعيًا التقوى، وعاملًا بالعزائم، ومجتنبًا الرخص ما استطعت. وكل هذه الصفات وسائل للوصول إلى درجات الولاية والمقامات السامية، فأولياء الله قد وصلوا إلى مقام الولاية حين تربَّوا على هذه الصفات». [١٧]

٤) تحري اللقمة الحلال. فقد كان الشيخ الباقي بالله يُصرُّ دائمًا على أهمية الطعام الحلال أثناء السير في طريق التصوف، وكان يقول:

---

١٥ يعقوب الجرخي، الرسالة الأنسية (تحقيق: محمد نذير رانجها)، إسلام أباد ١٩٨٣، ص١٤.

١٦ محمد بارسا، المصدر السابق، ص٦٢-٦٣.

١٧ محمد بارسا، المصدر السابق، ص٢٤-٢٥.



«لا يجب الاكتفاء بقلة الطعام فحسب، بل يجب تحري الحلال في الحطب الذي طُبخ عليه الطعام، والماء الذي استُخدِم فيه، والأواني التي سُكب فيها. وينبغي أيضًا ألا يكون الطابخ غافلًا، بل يطبخ طعامه شاعرًا بأنه يقف بين يدي الله تعالى. واعلمْ أن الطعام الذي يُعَدُّ دون مراعاة هذه الأمور يخرج منه دخان يسدُّ قنوات الفيوضات كلها».[١٨]

إن تأثير الحال الروحانية التي طُبِخ بها الطعام في أحوال الإنسان وحركاته وروحانية عباداته- إضافة إلى كون الطعام حلالًا أو حرامًا- يوضِّح لنا أهمية السلوك الواجب اتباعه عند إعداد الطعام.

٥) **إيلاء النوافل والأعمال الصالحة أهميةً بعد الفروض والواجبات**. فكل عمل صالح إنما هو رأسمال عظيم في حياة الآخرة، والقدرة على أدائه غنيمة كبرى.

٦) **جعل السالكين يتحلَّوْن بالأخلاق المحمدية، والأمر بمعاملة الناس بالأخلاق الحميدة.**

٧) **ذكر الله تعالى دائمًا والتفكر في آلائه**، إذ على السالك ألا يغفل عن الله تعالى في أي حال من أحواله، وأن يعلم أنه تحت نظر الله كل حين، وأنه سبحانه وتعالى معه أنَّى كان.

٨) **رفع شأن العلم النافع**. على السالك أن يتعلم العلوم الدينية، وينتفع منها، ويعيش بمقتضاها، ويقدم يد العون للآخرين في هذا الأمر.

ويذكر الشيخ عبد الخالق غجدواني أن المرء لا يصل إلى مرتبة فناء النفس إلا حينما يحمل القرآنَ الكريم بيده اليمنى والأحاديثَ الشريفة بيده اليسرى، ويسلك سبيل الهداية بنوريهما.[١٩]

---

١٨ رشدي، ملفوظات، ص٣٤.

١٩ عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرة القدس (تحقيق: محمود عبيدي)، طهران ١٩٩٦، ص٣٨٤.

٩) ينبغي ألا تدوم العزلة عن الناس، ففي العزلة خطر الشهرة؛ بل على الصوفي أن يبحث عن فرصٍ ليخدمَ دينَ الله وعباده داخل المجتمع، ذلك أن اجتماع المسلمين مع بعضهم بعضًا من أوامر الإسلام. وينبغي للمؤمن الكامل أن يتعلم أن يكون «مع الخالق بين الخلق».

يقول رسول الله r :

«**المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**».[٢٠]

وكل مسلم مسؤول عن ما يواجهه في الدنيا من أحداث بحسب طاقته وقدرته، وواجب عليه أن يهتم بأمر المسلمين، ويسعى لنصرة الدين. فالعبد الذي يحيا بأنانية ونفسانية ولا يعبأ بهموم إخوته في الإسلام يُعرِّض نفسه للوعيد النبوي الوارد في الحديث التالي:

«**من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**».[٢١]

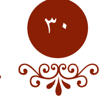
١٠) ألا يكون لباس السالكين في هذا الطريق مختلفًا عن لباس المؤمنين الآخرين، فلا تاج ولا طيلسان يفرِّق أحدهم عن الآخر. وهؤلاء السالكون لا يكترثون بشكل أو كسوة خاصة، بل يفضِّلون العيش بتواضع. ويلبس كل واحد منهم لباس مهنته، فلا يتميز عن غيره من الناس في مَلبَسه، إذ الدروشة بالقلب لا القالب.

وختامًا نقول إن سالكي هذا الطريق بمراعاتهم لهذه الأسس وأمثالها يسعون للحياة في إطار الإسلام بمحبة عظيمة وإيمان راسخ.

---

٢٠ الترمذي، القيامة، ٥٥/ ٢٥٠٧.

٢١ الطبراني، المعجم الصغير، جـ٢، ١٣١/ ٩٠٧؛ البيهقي، شعب، جـ٧، ص٣٦١.



التربية الصوفية: السير والسلوك

لقد كانت تربية نبينا r لأصحابه تربيةً قائمةً على الصحبة بفيوضاتها وتجلياتها، وكان في مجالسه ينقل إليهم العلمَ والحكمةَ من صدره الشريف. وكانت نتيجة هذه التربية المعنوية أن لم تضعف عزيمة الصحابة ولم يتراجعوا قيد أنملة بعد انتقال النبي r إلى دار البقاء، فساروا في الأرض وانتشروا في البلاد، رجالَ علم وعرفان وتبليغ وجهاد، وحملوا مشاعل الهداية التي أشعلوها في المدينة المنورة لينيروا بها بقاع الأرض، فوصلوا إلى سمرقند، والصين، وفارس، والأناضول، وأطراف القسطنطينة، وأفريقيا، وسواحل المحيط الأطلسي.

عن عبد الرحمن بن عوف t قال:

«نزل الإسلام بالكره والشدة، فوجدنا خير الخير في الكراهة، فخرجنا مع رسول الله r من مكة، فجعل لنا في ذلك العلاء والظفر، وخرجنا مع رسول الله r إلى بدر على الحال التي ذكر الله U:

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) [٢٢]

والشوكة قريش، فجعل الله لنا في ذلك العلاء والظفر، فوجدنا خير الخير في الكره». [٢٣]

وهكذا كان الصحابة الكرام يتعلمون من رسول الله r الرياضةَ والمجاهدةَ بترك ما تطلبه النفس، والإقبال على ما تكره.

وقد كانت غزوة تبوك الغزوة الأخيرة التي شارك فيها رسول الله r ، غزوة مليئة بالمشقات حتى إنها سميت بغزوة العسرة، فقد قطع جيش المسلمين آلاف

---

٢٢ الأنفال: ٥-٦.

٢٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ص٢٦-٢٧.



الكيلومترات ثم عاد أدراجه. ومع اقتراب المسلمين من المدينة المنورة كانت أشكالهم قد تغيرت، إذ التصقت جلودهم بعظامهم، وضمرت أطرافهم، وتداخل شَعْرهم بلحاهم. ثم بعد كل هذه الأهوال والأحوال، سمعوا من النبي r قوله عن هذه الغزوة أنها: «الجهاد الأصغر»، فتطلَّعتِ الأبصار والأفئدة إلى صاحب الحكمة ونبع العرفان المصطفى r يسألونه:

«يا رسول الله! إنك ترى حالنا هذا! وهل هناك جهاد أكبر من هذا؟» فأجاب الرسول r :

«**قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه**»[٢٤]

وقد أثنى نبينا r على المؤمنين الصالحين الذين يجاهدون أهواءَهم وما تطيب لها أنفسهم في قوله:

«**المجاهد من جاهد نفسه**».[٢٥]

لقد كانت نتيجة هذا النوع من الجهاد الذي أقبل عليه الصحابة في ظل تربية رسول الله أن وصلوا إلى مرتبة سامية لم يصل إليها أحد قط، مرتبةٌ يصفها الصحابي عبد الله بن مسعود t بقوله:

« ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».[٢٦]

فالتصوف مدرسة لتزكية النفس وتطهير القلب تقوم على مناهج التربية النبوية على أيدي المربين الحقيقيين ورثة سيد الأولين والآخرين محمد r . وأهل «السير والسلوك» إنما هم طلاب هذه المدرسة، والساعون لبلوغ مرتبة «الإنسان الكامل».

---

٢٤ انظر: البيهقي، الزهد الكبير، ١٩٨/ ٣٧٤؛ السيوطي، الجامع، جـ٢، ٦١٠٧/٧.

٢٥ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢/ ١٦٢١؛ أحمد، جـ٦، ص٢٠.

٢٦ البخاري، المناقب، ٢٥.



ولا يبقى شيء في القلب يُبعِد العبد عن الله تعالى نتيجة السير والسلوك، لكن هذ الأمر ليس باليسير، فتطهير القلب من عوالقه يشبه العملية التي يخضع لها الذهب الخام حين يكون مشبعًا بالأتربة والشوائب، ويصنَّع في حرارة عالية ليزول خَبَثُه، وكلما زادت عليه النار، زاد صفاؤه، وارتفعت قيمته.

وغاية التصوف أن يحيا العبد مدركًا أن الله معه كل حين، وهذه الحال لا تكون إلا بعد تطهير القلب وتزكية النفس.

أصول التربية المعنوية

ثمة أصول كثيرة للتربية تُطبَّق في السير والسلوك، بعضها عامة وبعضها خاصة. وسنقف هنا على بعض من الأصول العامة للتربية وهي:

أ. الصحبة:

يقول ربنا U في كتابه الكريم:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧]

والصحبة الصوفية خير أساس وقاعدة لهذه الذكرى. وأهمية الصحبة واضحة جلية إن علمنا أن كلمتَي «صحابي» و«صحبة» مشتقَّتان من الجذر نفسه، فالذي جعل الصحابي صحابيًّا إنما هو استفادته من صحبة النبي، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن «الصحبة سنة مؤكدة».

فلا يمكن لأي عبد صالح عاش بعد عصر الصحابة أن يبلغ درجتهم مهما كانت عباداته وطاعاته، لأنه لم يكن في صحبة النبي.

وللصحبة بعد وفاة النبي r أهمية خاصة في الطرق الصوفية لا سيما النقشنبدية، إذ فيها تنتقل الفيوضات من القلب إلى القلب. يقول شاه نقشبند رحمة الله عليه: «طريقتنا في التربية قائمة على الصحبة».

---

٢٧ الذاريات: ٥٥.



إن مجالس الذكر والصحبة في الدنيا إنما هي جنة الله على الأرض؛ حيث تتنزل عليها الملائكة، وتتغشاها الرحمة، وتظلِّلها السكينة.

ومن بركات مجالس الصحبة انتشار الطاقات الإيجابية وانتقالها بين الحاضرين، وفي مثل هذه المجالس تنتفع القلوب من بعضها، فتتساوى فيها كمية الفيوضات والتجليات وكأن (قانون الأواني المستطرقة) يُطبَّق عليها، وهناك تنتقل الأحوال وتتبادل التأثيرات. غير أنه لتحقيق هذا كله لا بد من بعض الشروط منها: حضورُ العبد مجالسَ الصحبة وكأنها عبادة من العبادات، والاستماعُ بمحبة وأدب واحترام، وبقاءُ القلب واعيًا متلقِّيًا. فشكل الصحبة الحقيقية يعتمد على حال الحاضرين، وعلى قدر حالتهم القلبية تظهر الكشوفات وتتنزل الرحمات.

ب. الذِّكر والأوراد:

يرى بعض اللغويين أن كلمة «إنسان» مشتقة من «النسيان»، والنسيان عكس الذكر، وهو من أشد نقاط ضعف الإنسان. لذلك يحذرنا ربنا U من الوقوع في هذا الضعف في قوله:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[٢٨]

وأفضل سبيل لجعل النسيان في أدنى درجاته إنما هو «الذكر».

إن العبد يصل إلى حقيقة العبودية لله U كلما تعمق في معنى الذكر؛ أي إن الذكر كلما ترسخ في القلب وتعمق في المشاعر، كانت معرفة الله أعظم.

ويأمرنا ربنا سبحانه وتعالى في كثير من الآيات الكريمة بالذكر الكثير، وأن لا نغفل عن الذكر حتى في الأوقات العصيبة التي قد يفقد المرء حياته، كأن يلقى العدو.[٢٩]

---

٢٨ الحشر: ١٩.

٢٩ انظر: سورة النساء: ١٠٢-١٠٣.



وقد قال ابن عباس v في تفسيره لقوله Y :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) [٣٠]

«لا يفرض [الله] على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله». [٣١]

وما أعظم عبرةً إرسال الله تعالى نبيَّيه موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، وأمرهما بألا يغفلا عن ذكره حينما قال:

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي) [٣٢].

فحذَّرهما ربنا U- وهما النبيَّان- من إهمال الذكر، ثم كان تحذيرًا ينطبق بعدهما على البشر جميعًا.

لهذا كانت الأوراد والأذكار المختلفة في أوقات محددة من أكثر الطرائق أهميةً في التصوف لكل مريد يبغي الوصال مع الحق تعالى ويسعى نحو الترقي والكمال المعنوي.

إن الذكر يجعل العبد يتحلَّى بصفات الله تعالى في حدود طاقة البشر، فالمُسمَّى يأخذ نصيبًا من اسمه، وكلما داوم المرء على ذكر أسماء الله الحسنى، سار في طريق التخلُّق بالأخلاق التي أمر بها الله جلَّ وعلا.

والذكر أعظم عون وخير سند يجعل العبدَ مع الله تعالى. فالمؤمن الذاكر لأسماء الله وصفاته والمتفكِّرُ فيها يشعر أن الله معه ويراه كل حين، فتتحسن أخلاقه مع مرور الوقت، وتزيد محبة الله في قلبه.

---

٣٠ الأحزاب: ٤١.

٣١ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت ١٩٩٥، جـ٢٢، ص٢٢؛ القرطبي، جـ١٤، ص١٩٧.

٣٢ طه: ٤٢.



والذكر أن تشم رائحة الجنة وأنت في الدنيا، إذ لا غفلة في الجنة، لذلك يذكر أهلها اللهَ U دائمًا.

والأوراد والأذكار في التربية الصوفية علاجٌ فعَّال يشفي المرءَ من الأمراض القلبية والأسقام النفسية كلها.

والذكر خير ما تحتاجه القلوب، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٣٣)

ويقول الشيخ محمد بارسا:

«إن غاية العبادات كلها ذكرُ الله تعالى. فأولئك الذين يغادرون هذه الدنيا وقد غلبت عليهم محبة الله تعالى والأُنس به يغادرون بسعادة عظيمة. وما لم يزدد ذكرُ الله تعالى في الإنسان [أي ما لم يصل إلى كمال الذكر وعمق الفِكر] فلن يجد المحبة والأُنس. وكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) إنما هي أصل الإسلام وجوهره، وهي الذكر عينه، وما العبادات الأخرى كلها إلا من أجل تقوية هذا الذكر (وإسباغ الروحانية عليه)...

إن علامةَ الذكر الكامل الحقيقي عدمُ نسيان الله تعالى في أوامره ونواهيه، والاستعداد والتأهب لكل أمر منه كلَّ حين. فإن لم يكن ذكر المرء على هذا النحو، فما هو إلا همسات ولمزات تأتيه من قِبَلِ نفسه التي بين جنبيه. لذلك فإن أساس البدء بالذكر التوبةُ توبةً نصوحًا عن الذنوب الظاهرة والباطنة بحق الخالق والخلق. فلا أثر يُرى لذِكره ولا شي يُذكَر إن كان العبدُ مخالفًا لله تعالى في أعماله وأخلاقه.»(٣٤)

---

٣٣ الرعد: ٢٨.

٣٤ محمد بارسا، المصدر السابق، ص٤٥-٤٦.



ج. المحبة:

إن نظرنا إلى جوهر التربية الصوفية، نجد أن «المحبة» رأس مالها، و«مراعاة الآداب» أجمل مظاهرها.

وكلما اشتدت محبتك لإنسان ما، فسيدخل في آفاقها كلَّ ما يمس هذا الإنسان ويرتبط به من أهل وأصدقاء؛ بل كل ما ينتمي إليه من جمادات وأحياء، كذلك كل ما يتصف به من آداب وأخلاق، وكل ما يشبه صفاته ولمحاته. هذه المحبة إذا وُجدت في قلب المريد، فسوف تمد ظلالها على أقارب الشيخ والمنتمين إليه والمتصفين بصفاته؛ بل إن هذا المريد يزداد سعادةً وهناءً إذا ما امتلك شيئًا من حاجيات شيخه وأشيائه، ويذكِّرنا ذلك بالشعور الذي شعر به سيدنا أويس القرني حين تلقَّى خرقة النبي r التي أُرسِلت إليه.

يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي:

«يا أولادي، لا تصحبوا غير شيخكم، واصبروا على جفاه فإنه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير، وأن تكونوا محلًا لأسراره، ومطلعًا لأنواره ليرقيكم بذلك إلى معرفة الله U، فمن أشغل قلبه بمحبة شيخه رقَّاه الله U، ولولا أن الشيخ سُلَّمٌ لترقية المريدين، لمقت الله تعالى كل قلب وجد فيه محبة لسواه، فإن الله تعالى غيور».[٣٥]

إن محبة غير الله تعالى محبة «مجازية» لأن القلب مخصوص لله تعالى، ولن يجد معشوقًا حقيقيًا غيره Y . أما الأحباب الآخرون والأحوال التي يعيشها العبد فإنما هي درجات توصل القلب إلى المحبة الحقيقية؛ أي تُعِدُّها لمحبة الله جلَّ وعلا. وأفضل المراحل في هذا السعي وأكثرها فيوضات حين اللقاء بالمرشد الكامل الحقيقي، والشعور بالارتياح المعنوي في ظلال محبته والأُنس به، وخير وسائله وأنفعها «الرابطة»، والرابطة أن تتقوى المحبة تجاه المرشد

---

٣٥ الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر، ١٣١٥، جـ٢، ص١٥١.

المعنوي في القلب وتصل إلى درجة عالية لا يمكن فيها قياسها مع غيرها من علاقات دنوية بسيطة.

وقد وصف سيدنا الحسن t حاله التي كان عليها حينما سأل خاله هند بن أبي هالة عن حلية النبي r فقال:

«سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافًا عن حلية رسول الله r ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا».[٣٦]

إن كلام سيدنا الحسن t يدل بالفعل على الرابطة، لأن الاستماع إلى وصف النبي r من أفضل الوسائل لتأسيس رابطة قلبية معه.

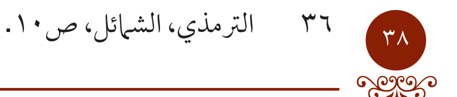
والرابطة لغةً العلاقةُ والتوحد والارتباط، فالكائنات كلها في هذا الوجود لها رابطة، أي مرتبط بعضها ببعض، ليس رباطًا عضويًا أو فيزيائيًا فحسب، بل رباطًا قلبيًّا حسِّيًّا.

ولنضرب هنا مثالَين من الواقع:

حين يذهب الشاب لأداء الخدمة العسكرية، يبقى فؤاد أمه معلَّقًا به، فتراها إذا ما أعدَّت طعامًا تقول: «لقد كان ابني يحب هذا الطعام».

وحين يخطب الشاب فتاة، تجده يذكر دائمًا الفتاة التي ستشاركه عمره. فإن رأى منظرًا رائعًا يقول: «ليتها رأت هذا المنظر أيضًا». وإن قُدِّم له طعام لذيذ، تراه يقول: «ليت حبيبتي تأكل من هذا الطعام أيضًا».

فإذا كانت رابطة المحبة الطبيعية موجودة في الأمور الدنيوية الفانية، فالرابطة في الأمور المعنوية والأحوال الروحانية موجودة لا محالة. لا بل كلما ترقَّت الأحوال المعنوية، ازدادت رابطة المحبة في الأفئدة قوةً. لهذا وجدَ الصحابة الكرام السرور والسعادة في قولهم للنبي بصدق وإخلاص: «فداك أبي وأمي يا



٣٦ الترمذي، الشمائل، ص١٠.

رسول الله!». فحين فدوا بكل شيءٍ في سبيل الله ورسوله، كان ذلك لطفًا عرفت قلوبُهم قيمتَه حقَّ المعرفة.

فالرابطة في التصوف سعي المريد لتقليد المرشد الكامل في أعماله الصالحة وأحواله الرائعة عبر المحافظة على المحبة التي يشعر بها تجاه مرشده في قلبه دائمًا. والمحافظة على هذه المحبة والاحترام والتبجيل للمرشد دائمًا على هذا النحو تمنح المريدَ حيوية وتُشعِره بالروحانية. وإذا كان لصحبة الصالحين تأثير، فما بالنا بالتأثير الذي تُحدِثه محبتهم!

إن المحبة تيار يمر بين القلبَين، وكلما ازداد هذا التيار قوةً، كان انتقال أحوال المرشد إلى المريد أعظم. والمحبة ضرورية للترقي المعنوي، فالمرء يقلِّد حبيبه ويتشبه به، يقول رسول الله r :

«**المرء مع من أحب**».[٣٧]

ولا شكَّ أن هذه المعية ليست معية ظاهرية فحسب، بل معية في الأحوال والسلوك، والأحاسيس والأفكار، والفضيلة والاستقامة؛ فإن لم تكن المعية على هذا النحو، عندها ينبغي أن نتساءل: أهكذا تكون المحبة الحقيقية؟

وليس أنفع ولا أروع للمسلم من صحبة الأولياء والصالحين والمرشدين الكاملين، فإن لم تكن الصحبة مع مثل هؤلاء، فلا ريب أن الصحبة ستكون مع الضائعين والغافلين، لأن الطبيعة البشرية تبحث دائمًا عمن تصاحبها وتعيش في كنفها، وهو ما عبر عنه المثل القائل: «الطبيعة لا تعرف الفراغ». لذلك يأمر الله U المؤمنين بصحبة عباده الصادقين والصالحين في قوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)[٣٨]

---

٣٧ البخاري، الأدب، ٩٦.

٣٨ التوبة: ١١٩.



ويقول الشيخ عبيد الله أحرار في معنى هذه الآية:

«إن للكينونة معهم معنيَين: كينونة بحسب الصورة وهي: التزام مجالسة أهل الصدق ومصاحبتهم حتى ينور باطنه بأنوار صفاتهم وأخلاقهم بسبب دوام الصحبة معهم. وكينونة بحسب المعنى، وهو: أن يلتزم طريق الرابطة بحسب الباطن بطائفة يستحقون الوساطة. ولا تنحصر الصحبة في المجالسة الصورية والنظر بالعين، بل ينبغي أن يجعل الصحبة دائمة وأن يتجاوز عن الصورة إلى المعنى حتى تكون الواسطة في نظره دائمًا».[٣٩]

وأول درجة من درجات السُّلَّم الصاعد إلى مراتب الصدق والصادقين والصديقين إنما هي صحبة الصادقين ومحبتهم، والأنس بهم، واقتفاء آثارهم، والسير على منهاجهم، والحياة على منوالهم، لتكون النتيجة الطبيعية لذلك وصولَ المؤمن إلى درجة الصدق ومرتبة الصادقين.

وعندما سأل الصحابة الرسول r : «من هم أولياء الله؟»

أجابهم: «**الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله U**».[٤٠]

فصحبة أولياء الله ومعيتهم، والنظر بأدب إلى وجوههم المباركة وسائلُ تشرح الأفئدة وتُسبِغ عليها فيوضات وروحانيات.

وغاية الرابطة التعلقُ بحبل الله، والاتصال بالسند النبوي عبر السلسلة الطاهرة من أولياء الله الذين توارثوا النور والأخلاق والصحبة كابرًا عن كابر، في سلسلة تمتد إلى رسول الله r فيما يشبه نور الشمس التي تعكسها الأقمار إلى كواكب المجموعة الشمسية كلها، على حسب درجة قرب الأقمار وبُعدها عن الشمس والكواكب.

---

٣٩ رشحات، ص٣١٥-٣١٦.

٤٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ص٧٨؛ قارن: ابن ماجه، الزهد،٤.



وإذا ما كانت هناك صحبة بالجسد إلى جانب الصحبة المعنوية مع أولياء الله، فهي «**نور على نور**». إلا أن الاقتصار على الصحبة بالجسد في التربية الصوفية غير مقبول، لأن الإنسان قد يقف أمام المرشد الكامل دائمًا، ويلازمه كل حين، ولكنه لا ينتفع لغفلته. لكن المريد الحقيقي وإن كان في بلاد بعيدة عن مرشده، ينال ما يناله من فيوضات كثيرة، وذلك بمشاعر الاحترام والتبجيل التي يكنُّها لمرشده، والشوق له، والارتباط معه.

ومن أقوال أكابر أهل التصوف:

«**مَنْ في اليمن بجنبي، ومَنْ بجنبي في اليمن**».

لهذا فإن الأمر المهم هنا ألا تَفقدَ مشاعر الصحبة القلبية أنَّى كنت.

ومراعاة الأدب في الرابطة شرطٌ كما هو الحال في كل مجال. وقد ذكر الحاج عبد العزيز، وهو من مريدي الشيخ المرشد محمد الأمكنكي، أن تخيل المريد نفسه أنه في حضور الشيخ أفضل وأكثر لباقة في الأدب الصوفي من تخيله أن الشيخ بجنبه.[٤١]

غير أن الرابطة- بدءًا من القرن التاسع عشر- وضعها بعضهم ضمن مسائل الإيمان والكفر، وهذا ما عرَّضها للانتقاد الشديد. مع أن الرابطة- كما ذكرنا سابقًا- حال طبيعية أثبتها علم النفس، ولا علاقة لها أبدًا بالاعتقاد. يقول عبيد الله أحرار في هذا الموضوع:

«أَيَقع المرء في الكفر حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه، ولا يقع حين يكون قلبه معلَّقًا بالمال والملك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟».[٤٢]

---

٤١ محمد هاشم الكشمي، نسمات القدس من حدائق الأنس (تحقيق: منير جيهان مليك) طهران كلية الآداب. (أطروحة دكتوراة لم تُنشَر) ١٣٧٥/١٩٩٦، ص٣٤٠.

٤٢ علي بن حسين صافي، رشحات عين الحياة، طهران ٢٥٣٦/١٩٧٧، جـ٢، ص٦٣٦-٦٣٧.

ونخلص من هذا كله إلى أن الرابطة إنما هي دوام المحبة التي يشعر بها المريد في قلبه تجاه مرشده، ولا تعني البتة إسباغ الألوهية للمرشد وتقديسه، ولا علاقة لها بمثل هذه الضلالات لا من قريب ولا من بعيد، فالإسلام يرفض كل شيء يفتح بابًا للشرك مثل «الرهبانية» في النصرانية.

ويجب ألا ننسى أن كل عبد سوى الأنبياء عاجزٌ ومقصِّر، وحتى الأنبياء أنفسهم قد يقعون في زلَّات لطبيعتهم البشرية، لكنهم يُوجَّهون إلى الطريق الصحيح بتأييد إلهي. ومهما كان من الضروري إظهار المحبة والاحترام والتبجيل لأكابر أهل التصوف والروحانية، فلا بد من مراعاة الحدود الشرعية.

د. الخدمة:

الرحمة أعظم ثمار الإيمان، وعنها تنتج «الخدمة». والتراحم لطف عظيم من الله Y ، ذلك أنه لا يمكننا الحديث عن القلب والمشاعر والوجدان إلا إن كان المقصود ذلك الإنسان الذي يرحم غيره ويشفق عليه. وقد جاء في الحديث الشريف قوله r :

«**ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**».[٤٣]

إن أكثر ما يذكر ربنا Y من صفاته في كتابه العزيز: «الرحمن» و«الرحيم». إذًا لا يمكن لقلبٍ يقول: «الله» أن يكون محرومًا من الرحمة والإنفاق والخدمة. ولا يستطيع المؤمن الكامل- لطبيعته البشرية- أن يتجاهل الصرخات والصيحات التي يطلقها خلق الله، سمعها أم لم يسمعها، بل يبذل كل ما يملكه ويقدر عليه في سبيلها.

وللخدمة في التربية الصوفية شأن عظيم، فالخدمة في سبيل الله تعالى أكثرُ الطرق تأثيرًا في تحلية القلوب بالتواضع والمحوية ومشاعر الرأفة والرحمة تجاه

---

٤٣ أبو داود، الأدب، ٥٨.



المخلوقات. لذلك رأى المرشدون الكاملون كلهم الخدمة وسيلة مهمة في الترقي لدى تربية السالكين، فكان من أقوالهم: «من خدمَ الناس نالَ عون الله وتوفيقه».

وأنعِم بالخدمة من درجة سامية، إذ بها ارتقى الأنبياء والأولياء، والأرباب والأصفياء إلى القمم في الروحانيات، وكذلك كل من نحا نحوهم واستطاع الوصال مع الله سبحانه وتعالى ونيل النعم التي لا تحصى. فقضى هؤلاء أعمارهم مُطبِّقين خير تطبيق ما جاء في الحديث الشريف:

«**سيد القوم خادمهم**».[٤٤]

يقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«عليك بالانشغال بما يوجِبه الزمان، أما الذكر والمراقبة فتشتغل بهما عندما لا تجد فرصة لتقديم خدمة توصِل بها أخاك المسلم إلى الطمأنينة، فالخدمة التي تفرِّج بها كربة من كرب أخيك خير من الذكر والمراقبة. وقد يظن بعضهم أن الانشغال بالنوافل أَولى من الخدمة، غير أن ثمرةَ الخدمة زرعُ المحبة والطمأنينة في القلوب، وهذا ما يوضحه قولهم: (**طُبِعت القلوب على حُبِّ من أحسن إليها**). ولا يمكن أن يتساوى ثواب أداء النوافل وثواب محبة المؤمنين...إنني لم أتعلم هذا الطريق من كتب المتصوفة، بل بخدمة الخلق».[٤٥]

ويقول أحمد الكاساني:

---

٤٤ البيهقي، شعب، جـ١، ص٣٣٤؛ جـ٥، ص٣٣٤؛ الديملي، مسند، جـ٢، ٣٢٤؛ علي المتقي، كنز العمال، رقم: ٢٤٨٣٤.

٤٥ مير عبد الأول، مسموعات، إسطنبول ١٩٩٣، ص١٦، ٨٩؛ صافي، رشحات، جـ١، ص٩٤، جـ٢، ص٤٠٧-٤٠٨.

«الدنيا مكان للخدمة، والآخرة للقربة، أي التقرب إلى الله تعالى. وتقرب المرء إلى الله منوط بالخدمة في الدنيا».[٤٦]

لذلك يمكننا أن نقول: «**التصوف طريق الخدمة**».

ونضرب هنا مثلًا صغيرًا من حياة علي بن حسين صافي، مؤلف كتاب «رشحات»، الذي يعرض لنا سيرة حياة المرشدين في الطريقة النقشبندية؛ إذ قام يومًا للوضوء، فأراد ابن أخيه أن يملأ الإبريق له بالماء، فردَّه الشيخ عليٌّ قائلًا:

«إن طريق الشيوخ طريق تقديم الخدمات لا تلقِّيها».

وصفوة الكلام أن المؤمن إن أراد الترقي في آفاق الروحانيات والتخلي عن عالم النفسانيات، فلا بد أن يبحث عن طرق الخدمة دائمًا من أجل فلاحه الأبدي، ويقدم الخدمات مهما كان حجمها في سبيل رضا الله U.

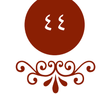


إن أصول التربية المعنوية في رحلة النضج والتطهر المعنوي (السير والسلوك) كثيرةٌ، ذكرنا هنا بعضًا منها بمعناها العام دون تفصيل وهي: الصحبة والذكر والمحبة والخدمة. وقد تختلف طرائق التربية هذه وتتنوع على حسب الزمان، والمكان، وطبائع الأفراد وخصائصهم وقدراتهم. فالقواعد في الشريعة عامة تشمل الجميع وتطبَّق عليهم؛ أما في التصوف، فثمة أساليب تربوية متعددة توافق تعدد الطبائع البشرية المستعدة للسلوك في هذا الطريق إضافةً إلى الأحكام الشرعية، ويمكننا أن نشبه هذا التنوع بين كل أسلوب وآخر بالنظارات الطبية التي يضعها الإنسان وفق ضوابط طبية دقيقة تتفاوت مع تفاوت مقياس درجة البصر.



---

٤٦ أحمد الكاساني، آداب السالكين، مكتبة جامعة إسطنبول، ورقة: ٥٣ب- ٥٤أ.





السلسلة الشريفة

إن السلطة في الحياة الفانية آيلة إلى الزوال لا محالة، غير أن السلطة المعنوية لأولياء الله تعالى تدوم بعد وفاتهم في القلوب بالعظمة والأبهة نفسها. ومن أبزر الدلائل على ذلك أننا نرى كل يوم توافد الزوَّار على قبور الأولياء أمثال شاه نقشبند ومولانا جلال الدين الرومي ويونس أمْره وعزيز محمود هُدائي، وأننا نرى الاهتمام الكبير الذي يوليه الناس لمؤلفاتهم التي تركوها وراءهم.

ولا بد لنا أن نعلم أن هؤلاء الأولياء لم يوزِّعوا على الناس ثروةً، ولا أكرموا أحدًا بمنصب أو مقام دنيوي. لكن كلَّ واحد منهم جعل من قلبه زاوية رحمةً للقلوب التي وجدت فيها الروحانية والطمأنينة، والشفاء لأمراضها المعنوية؛ لذلك نراهم يعيشون في أفئدة الناس حتى بعد انتقالهم من هذه الحياة الفانية.

أولياء الله والمرشدون الكاملون

إن أولياء الله تعالى الذين فنوا في محبة رسول الله فذاقوا طعم السعادة وتلذذوا بالطمأنينة لا ينطقون عن هواهم، فقدوتهم رسول الله r . وهم كالنَّاي لا تسمع منهم إلا ما يسرُّ سمْعَك. وقد طهَّروا أنفسَهم من كل شيء يبعد عن المولى Y ، لذلك فإن إرشاداتهم ومواعظهم كلها فيها شيء من أنفاس الأنبياء الذين تخلقوا بأخلاقهم. يقول رسول الله r في الحديث القدسي:

«...**فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**».(٤٧)

ويستفتح ابن الجوزي وهو من كبار علماء الإسلام كتابه (صِفَةُ الصفوة) بقوله:

«الأولياء والصالحون هم المقصود من الكون، وهم الذين علموا فعملوا بحقيقة العلم».(٤٨)

ويُطلَق على ولي الله الكلمة المشهورة «الإنسان الكامل»؛ أي الإنسان المثالي القدوة الذي أمرَ الله تعالى الناس أن يكونوا مثله. لكن ينبغي أن نعلم أن طِباع الأولياء وصفاتهم وخصالهم ليست واحدة. وإن كان الولي «كاملًا» لا يكون «مرشدًا كاملًا» يرشد الناس إلا إذا كان «كاملًا مُكمِّلًا» في الوقت ذاته، أي يخدم غيره كي يصلوا أيضًا إلى الكمال المعنوي المنشود.

---

٤٧ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨؛ الهيثمي، جـ٢، ص٢٤٨.

٤٨ ابن الجوزي، صِفَةُ الصفوة، القاهرة ١٤٢١، جـ١، ص١٧.



فالمرشدون الكاملون صفوة الناس الذين أطاعوا نبي الله بمحبة فاستطاعوا الوصال مع الحق تعالى، وأتمُّوا السير والسلوك في الطريقة فكانوا أهلًا للإرشاد والوعظ. «فبعد أن استطاعوا الوصال مع الحق، رجعوا أدراجهم، فكانت وظيفتهم دعوةَ الخَلق كي يكونوا عبادًا صالحين لرب العالمين، ومن أمة خير المرسلين، والانشغالَ بتربية الناس تربية معنوية».(٤٩) وقد أكرم الله تعالى البشرَ بمثل هؤلاء فجعلهم هُداةً إلى الصراط المستقيم بعد أن أنعم عليهم بمعرفته سبحانه وألبسهم لباس التقوى.

وثمة أسس تضمن دوام سلسلة الإرشاد المعنوي. وتُلقي الحادثة التالية الضوءَ على أحد أهمِّ هذه الأسس:

يقول الشيخ علاء الدين العطار:

«كان خاطر الأصحاب مشغولًا في هذا الوقت [يعني وقت وفاة شاه نقشنبد] بأن حضرة المرشد إلى من يفوِّض أمر الإرشاد وإلى مَن يُسلِّم أمور الفقراء. فأشرف حضرة المرشد على خواطرهم، وقال: (لماذا تشوشونني في هذا الوقت! ليس هذا الأمر في يدي، فإن الحاكم هو الله سبحانه، فإذا أراد أن يُشرِّفكم بهذه الحالة يشير إليكم بها)».(٥٠)

وليس يخفى على أحد أن دوام سلسلة الإرشاد يكون بتعيين المرشد الكامل مرشدًا بَعدَهُ يرث علمه وإرشاده، غير أن هذا التعيين لا يكون من صلاحية المرشد السابق، بل يكون بإذنٍ وإشارةٍ من رب العالمين ورسوله الكريم.

أي إن الكفاءة للإرشاد لا تكفي وحدها في المعنى الصوفي، بل لا بد من التعيين المعنوي لهذه المهمة.

---

٤٩ انظر: محمد بارسا، مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ص٧٧- ٧٨.

٥٠ رشحات، ص٩٥-٩٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، آداب، ص٣٠٥-٣٠٦.



فكم من الطرق الصوفية في التاريخ لم تستمر حين لم يأتِ على رأسها مرشد مؤيَّد بتعيين معنوي.

وبناءً على هذه الحكمة نجد أن بعض مشايخ الطرق قد أجازوا أكثر من واحد لديه كفاءة وقدرة عظيمة، فكان ذلك سببًا في ظهور فروعٍ مختلفة لسلسلة الطريقة.

والتعيين المعنوي الذي نتكلم عنه إنما هو لطف إلهي لِمَن هو أهلٌ لهذه المهمة. فلو كان هذا اللطف لمن هو ليس أهلًا في نظر الناس، فهذا يُظهِر مدى أهليته الحقيقية في الحاضر أو المستقبل. وهذا التعيين قد يكون لِمَن هو أمام الأنظار، أو لِمَن هو مخفيٌّ عنها، أو من الأب لابنه، فكَم من أبٍ وابنه قد كُلِّفَا بالنبوة، وكذا الحال في سلسلة المرشدين الكاملين، إذ نرى انتقال مهمة الإرشاد من الإمام الربَّاني السرهندي إلى ابنه محمد المعصوم، ثم إلى حفيده الشيخ سيف الدين.

والمرشد الكامل إنما هو من تربَّى على يد مرشد كامل مثله، واستطاع الوصال مع الحق سبحانه وتعالى، واطَّلع على الأحكام الشرعية وعمل بها. وهو يعلم يقينًا مراحل السير والسلوك الموصلة إلى طريق الوصال مع الله تعالى، بكل ما فيها من مخاطر ومجازفات، وحيل شيطانية ونفسانيات، ويسعى لصون طلَّابه بالنصائح والتنبيهات، ويعينهم في بلوغ الأهداف والغايات.

وما أشد خطر اتِّباع كلَّ متشيِّخٍ يدَّعي مراعاته لكتاب الله وسنة نبيه! فأمثال هؤلاء يكونون سببًا في بُعدِ أتباعهم عن المولى Y بدل قربهم منه، فيقودونهم إلى البؤس والهلاك بدل النجاة والخلاص.

الحاجة إلى مرشد كامل

إن المؤمن خلال سعيه للترقي المعنوي يتعرض لكثير من الحوادث والكشوفات، فقلب الإنسان كالبحر لا يُعرَف له حد أو نهاية. وهذا البحر يكون ساكنًا تارة، وتهب فيه العواصف مسبِّبةً أمواجًا عاتية تارة أخرى. فلا بد من أن تكون السفينة سليمة في هذه الحال، والأهم من ذلك وجودُ ربَّانٍ ماهر لها يعبر بها هذا البحر ويوصلها إلى الساحل بسلامة؛ فإن لم يكن الربَّان مسيطرًا على سفينته فسيعرِّضها للهلاك في دوَّامات البحر، وأما إن كان خبيرًا أهلًا لقيادتها، فسيسلك بها أسلم الطرق مهما كانت العواصف شديدة.

ومَن يريد أن يعبر البحر المعنوي في سبيل الوصال مع المولى Y، عليه أن يسعى لإيجاد ربَّان ماهر له أولًا، ثم يسير في الطريق برفقته، ووفق تعليماته وإرشاداته؛ وإلا فسيضل الطريق في تلك الرحلة المليئة بالمخاطر، وسيكون الهلاك مصيره.

ولا يخضع السالكون لكثير من الامتحانات الصعبة الشاقة في بداية طريقهم، لكنهم كلما ساروا ومضوا في هذا الطريق، تعرضوا للأحوال المختلفة مثل القبض والبسط، والظهورات، والكشوفات التي تختلف من فرد لآخر، والرؤى التي لا تُعرَف رحمانيتها من شيطانيتها؛ لذلك ثمة حاجة لإرشاد مرشد كامل عارف مؤهل يحدِّد كل حال من تلك الأحوال ويبيِّنها لمريده.

وعلينا أن نذكر هنا أن تعلُّمَ الدين الإسلامي وتعليمه منذ ظهوره وحتى يومنا هذا لم يكن قائمًا على تدوين محتواه فحسب، بل كان دينًا عمليًّا قدَّم نظامًا كاملًا متكاملًا يعيش الإنسان حياته على أساسه. فكثير من الناس لا يخصِّصون أوقاتًا لقراءة الكتب لتعلم الدين، بل يتعلمونه بحضور مجالس العلماء والاستماع إليهم، أو بالاقتداء بحياة من يرونهم قدوة حسنة. والإنسان

بطبعه يُعجَب بصاحب الخُلق الرفيع الذي تتجسد في سلوكه وأحواله الحقائقُ المجردةُ التي جاء بها الدين، أكثر من إعجابه بتلك الحقائق نفسها، فتلك الإرشادات التي يتلقونها من القدوة المشخصة أمامهم تترك أثرًا لا يمحى في قلوبهم وتتركز في ألبابهم.

فانتقال الدين من جيل إلى آخر دينًا تطبيقيًّا عمليًّا خيرٌ من تعلمه وانتقاله بالتدوين، فتعلم الدين من السطور يكون سببًا في ظهور الاختلافات والفروقات عند تطبيقه، وهذا ما جعل أولياء الله الذين يحيون دينَ الإسلام بمحبة عظيمة يلعبون دورًا كبيرًا في انتقاله من جيل إلى آخر دون أن يُحرَّف كغيره من الأديان.

والتربية الصوفية الضرورية لنضج الإنسان لا تكون بقراءة الكتب، فالكتب ضرورية ونافعة، لكن لا بد من تطبيق ما جاء فيها في الحياة، ولا بد من وجود مرشد مؤهَّل قدوة مُطَّلع على دقائق ذاك الطريق المعنوي وتفاصيله، من أجل حلِّ المشاكل التي قد يتعرض لها المريد.

فالطبيب لا يستطيع أن يجري عملية بقراءة كتاب عن الطب، والمحامي لا يستطيع أن يحلَّ القضايا بقراءة كتاب عن الحقوق، والحياة المعنوية ليست حياة نظرية، بل حياة عملية تطبيقية إلى جانب حقائقها المجردة؛ لذلك فإن تطبيق هذه الحياة يُوجِب الخضوعَ لتدريب مشابه لما نراه بين الصانع وعامله، والتعلمَ بمشاهدة أهل الله وأحبابه أو الاستماع لإرشاداتهم دون حاجة لقلم أو دفتر. فالذين يؤدون هذه الخدمة للمريدين هم المرشدون الكاملون الذين يُعدُّون هداةً وقدوةً في الحياة الصوفية التي هي تربية تطبيقية تجربية.

لذلك لا يمكننا الحديث عن الحياة الصوفية المستقيمة قبل أن يرتبط القلب بمرشد كامل. وأما أولئك الذين يدَّعون التصوف دون خضوع لتربية معنوية على

يد مرشد كامل، فسرعان ما يكبو جوادهم ولا يستطيعون حيلة ولا يهتدون، بل لا يدركون وقوعهم في الأخطاء لعدم وجود من ينبِّههم ويحذِّرهم، فتراهم يتَّبعون أهواء نفوسهم وغوائلها وحيل الشيطان ومكائده.

ولم يحرم الله سبحانه وتعالى الإنسانَ من عباده الأولياء الأصفياء المرشدين في هذه الأرض لحاجة الإنسان إليهم، ولا شك أن هذا مظهر من مظاهر رحمته Y بعباده ولطفه ورأفته.

يقول رسول الله r :

«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس».[٥١]

وهذه الطائفة هم المرشدون في العلوم الظاهرة مثل العلماء الصالحين، والفقهاء، والمفسرين، والمحدثين؛ والمرشدون الكاملون أولياء الله الذين يدلُّون الناس على الصراط المستقيم في علوم الباطن.

وينبغي لنا هنا أن نلفت الانتباه إلى أن المرشد الكامل واسطةٌ في طريق الوصال مع الحق تعالى لا غاية. لذلك فإنه من عظيم الخطأ أن ننظر إلى المرشد الكامل كما ينظر النصارى للراهب، فالعبد في النصرانية لا يستطيع أن يتوجه إلى ربِّه بنفسه دون راهب، أما المرشد الكامل فعمله أن يهيِّئ العبد كي يكون في معية الله بنفسه وإرادته ورغبته في أي وقت شاء، ويعمل على إعداد القاعدة المعنوية لهذا كله، وذلك بالتخلية من الرغبات النفسانية، وإنقاذ القلب من أَسْر الأمور الفانية، وجعل القلب يفيض بمحبة الله لا سواه.

---

٥١ مسلم، الإمارة، ١٤٧.



تشكُّل السلسلة الشريفة

إن منبع الفيوضات التي يتلقَّاها المرشدون الكاملون أولياء الله إنما هو رسولنا الكريم محمد r الذي كان بسيرته العطرة المباركة قرآنًا حيًّا.

وقد كان رسول الله r مع أصحابه الكرام الذين تربوا على هديه يحيون في ظلال القرآن الكريم وذلك بتعليمه إياهم الزهد والتقوى، فكانت قلوب الصحابة ترق وتطمئن، فكأنما هم من أهل الآخرة يرون النار والجنة بعين اليقين، ويحيون في حال روحانية ما ألفوها من قبل.[٥٢]

يقول الصحابي الحارث بن مالك الأنصاري t :

«عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون[٥٣] فيها».[٥٤]

وقد نقل الصحابة الكرام المحبة والعشق والوجد والاستغراق في الأحوال الروحانية التي تلقوها من نبي الرحمة r إلى الأجيال التالية، ثم تسلسلت إلى الأجيال التي تليها وهكذا إلى يومنا هذا. غير أنه لا يمكن التعبير عن صفة تلك الحياة الروحانية بكلمات محدودة ينطقها اللسان أو تُكتَب على السطور، لذلك كان انتقالها أنسب وأفضل من الصدور إلى الصدور.

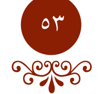
ولقد خصَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام بعضًا من الصحابة العظام بعلوم ومعارف انتقلت بعدهم إلى المؤهلين لحملها، ثم انتقلت بينهم من جيل إلى آخر

---

٥٢ انظر: مسلم، التوبة، ١٢؛ الترمذي، الجنة، ٢ /٢٥٢٦.

٥٣ يتضاغى: صاحَ من الجوع أو الألم [المعجم الرائد].

٥٤ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١، ص٥٧.



حتى يومنا هذا.[٥٥] فقد أخبر النبي r معاذًا t ، وهو رديفه على الدابة، بأمرٍ ولم يأذن له بأن يخبر به الناس.[٥٦]

ويقول أبو هريرة t :

«حفظت من رسول الله r وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»[٥٧].[٥٨]

ولا ريب أن رسول الله r قد علَّم الصحابة كلهم أسسَ الدين وأوامره ونواهيه. ولا بد أن نذكر هنا أنه لا يمكن لكل امرئ أن يفهم بعض الأسرار

---

٥٥ انظر: أبو قاسم محمد بن مسعود البخاري، الرسالة البهائية، مكتبة قيصري راشد أفندي، رقم ١١١٠، ورقة: ٢٢ب.

٥٦ انظر: البخاري، العلم، ٤٩.

٥٧ انظر: البخاري، العلم، ٤٢.

٥٨ عن أبي أيوب الأنصاري t ، أنه قال حين حضرته الوفاة: «كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله r » [ثم كشف لهم ذلك الشيء] [مسلم، التوبة، ٩]
وعن عبد الله بن جعفر t ، قال: «أردفني رسول الله r ذات يوم خلفه. فأسرَّ إلي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس». [مسلم، الحيض، ٧٩]
وعن أنس بن مالك t قال: «احتبست عن أمي عن الإتيان الذي كنت آتيها فيه، فلما أتيتها قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله r في حاجة له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله r ، قالت: فاحفظ على رسول الله r سرَّه» قال ثابت رواي الحديث: قال لي أنس: «لو حدثت به أحدًا من الناس أو لو كنت محدثًّا به لحدثتك به يا ثابت». [أحمد، جـ٣، ص١٩٥]
ويمكن لنا أن نذكر هنا صاحب سر رسول الله r الصحابي حذيفة بن اليمان t . [انظر: البخاري، المناقب، ٢٥، (جـ٤، ١٧٨)؛ مسلم، الفتن، ٢٨؛ ابن ماجه، الفتن، ٢٦]
وثمة علوم لم يخبر بها رسول الله r أحدًا، ويقول في ذلك:
«والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا». [البخاري، الكسوف، ٢؛ مسلم، الصلاة، ١١٢]

المتعلقة بالجانب الروحاني للدين، فكما أن طاقات الناس وقدراتهم الظاهرة تختلف، كذلك هو حال طاقاتهم الباطنة، أي إن درجات إدراكهم غير متساوية، لذلك خصَّ النبي r بعض الصحابة على حسب طاقاتهم وطبائعهم واهتماماتهم بعلوم دون غيرهم. وقد نقل هؤلاء الصحابة تلك العلوم لتابعين مؤهلين لذلك، ثم انتقلت إلى الأجيال اللاحقة، وستظل هذه العلوم تنتقل لمن هم أهلٌ لها إلى قيام الساعة.

إن المريد الصادق المُجِد يتعلَّم أحوال رسول الله r وسنَّته الشريفة بالنظر إلى حال مرشده وأسلوب حياته، وهذا الفيض الذي ينتقل من قلب إلى آخر لا جرَمَ أنه سيغدو مع مرور الوقت وسيلة لتشكُّل «السلسلة».

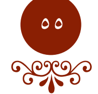
لقد كان رسول الله r قدوةً في عباداته ومعاملاته وفضائل الأخلاق الظاهرة والباطنة. وأثناء هجرته إلى المدينة المنورة أُوحِي إلى هذا المخلوق النوراني والرسول الرباني– بعد ثلاث عشرة سنة من التبليغ والسعي للتزكية في مكة– أن يتجه إلى غار ثور، وهناك رأى ما رأى من تجليات ربه، فقد كان ذاك الغار مثل تكيِّة تفيض بالحِكم الإلهية ويترقى فيها القلب ويسمو. ومكث النبي هنالك ثلاثة أيام بلياليها مع صاحبه أبي بكر t الذي يُعَدُّ خير الناس بعد الأنبياء. فكان خير صديق وأفضل صاحب للنبي، وفي هذه المعية التي حُرِم منها الآخرون، انتقلت الفيوضات والروحانيات من نبينا الصادق r إلى صاحبه الصديق أبي بكر t ، فنال سيدنا أبو بكر الصديق شرف كونه أحدَ الاثنين في ذلك الغار كما جاء في الحديث الشريف.[٥٩] وقد خاطب النبي r صاحبه معلِّمًا إياه سرَّ المعية مع الله تعالى، فقال:

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا)[٦٠]

---

٥٩ انظر: البخاري، التفسير، ٩/٩؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١.

٦٠ التوبة: ٤٠.



ويرى العارفون هذه الحال، أي اطمئنان القلب بالله والسكينة به، بدايةَ تعليم «الذكر الخفي». وببركة هذه المعية القلبية كان سيدنا أبو بكر t يدرك أقوالَ رسول الله r وأفعاله وأحواله ومعاملاته إدراكًا أعمق من إدراك غيره من الصحابة. وقد شكَّل سيدنا أبو بكر الصديق t ، الذي ورث عن النبي r ظاهرًا وباطنًا، الحلقةَ الأولى في «السلسة الذهبية» بعد النبي الكريم r ، تلك السلسلة التي تستمر حلقاتها- إن شاء الله- إلى قيام الساعة.

وقد علَّم النبي r الذكرَ الجهري لسيدنا علي t . ولا بد أن نعلم أن النبي r قد علَّم أورادًا مختلفة لعدد من الصحابة،[٦١] وكان أحيانًا يشكل حلقات ذكر جماعية منهم.[٦٢] وقد كان تنوعُ تطبيق الأوراد والأذكار- أهم وسائل التربية الصوفية- واختيارها سببًا رئيسًا في تنوع أصول التربية المعنوية وظهور الطرق، وهذا ما يشير إلى أن مصدر الطرق الصوفية إنما هو نفسه مصدر المذاهب الفقهية؛ ألا وهو الكتاب والسنة.

وينبغي لنا هنا أن نوضِّح أننا في هذا الكتاب سنتحدث عن «السلسلة الشريفة» الباقية إلى يومنا هذا لفرع من فروع الطريقة النقشبندية الخالدية.



٦١ انظر: البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩، الدعوات ١١؛ مسلم، الذكر ٧٩، ٨٠، المساجد ١٤٤، ١٤٥؛ أبو داود، الوتر ١٥٢٢/٢٦؛ الترمذي، الدعوات، ٣٣٧٥/٤، القيامة ٢٤٥٧/٢٣؛ النسائي، السهو ١٣٠١/٦٠؛ ابن ماجة، الأدب، ٥٦؛ أحمد، جـ٤، ص١٨٨، جـ٥، ٢٤٤-٢٤٥؛ الهيثمي، جـ١٠، ٧٤.

٦٢ انظر: أحمد، جـ٤، ص١٢٤، جـ٣، ص٢٦٥؛ مسلم، الذكر، ٤٠؛ أبو داود، العلم، ٣٦٦٧/١٣؛ الترمذي، الدعوات، ٣٥١٠/٨٢؛ الحاكم، جـ١، ٤١٩/٢١٠؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٦، ص٥٩؛ الهيثمي، جـ١٠، ص٧٦، ٧٧؛ أبو نعيم، حلية الأولياء جـ٥، ص١١٨.

يقول الشيخ يوسف الهمداني:

«لقد انتقل الذكر إلى قلب سيدنا أبي بكر t ونضج فيه، ثم انتقل إلى سلمان الفارسي، ومنه إلى جعفر الصادق، ومنه إلى أبي يزيد البسطامي، ومنه إلى أبي الحسن الخرقاني، ومنه إلى الشيخ الكبير أبي علي الفارمدي، ومنه إليَّ».[٦٣]

ويذكر صلاح بن مبارك البخاري الذي كان يحضر مجالس الشيخ بهاء الدين نقشبند وجود قاسم بن محمد بين جعفر الصادق وسلمان الفارسي.[٦٤]

وثمة بعض من أولياء الله، وفي مقدمتهم الشيخ بهاء الدين نقشبند، كانوا قدوة للناس في الأويسيَّة[٦٥]؛ أي إنهم إضافة إلى إفادتهم من شيوخهم الأحياء، أخذوا الروحانيات من الشيوخ الذين عاشوا قبلهم وتربوا على أيديهم.

ولقد كُتِبَت كثير من المؤلفات عن السلاسل الصوفية على مدى التاريخ وأطلق عليها اسم «كُتُب السلاسل». وسُمِّيت كل سلسلة كان في إحدى حلقاتها وليٌّ من أهل البيت باسم «سلسلة الذهب» تعظيمًا واحترامًا له.

لزوم السلسلة الشريفة

كان من الواجب في العصور الأولى من الإسلام- لا سيما قبل التدوين- وجودُ سلسلة للرواة في العلوم الإسلامية، مثل الفقه والتفسير والحديث والقراءات. وكان علماء الدين أثناء نظرهم وتدقيقهم في آراء الصحابة الكرام

---

٦٣ عبد الخالق غجدواني، الرسالة الصاحبية (مقامات يوسف الهمداني) جـ١/١، ١٩٥٣، ص٨١.

٦٤ صلاح الدين بن مبارك البخاري، المصدر السابق، ص٦٠.

٦٥ هو أويس القرني اليمني الذي أخذ عن روحانية النبي r مع أنه لم يره، وقد أثنى عليه النبي r . لذلك يُقال في التصوف عن الذي يأخذ من روحانية المرشد الكامل وفيوضاته في العالَم المعنوي دون أن يراه ظاهرًا «أويسي» ويُسمَّى هذا الأصل «الأويسية».

والتابعين والعلماء الآخرين في علمَي الحديث والتفسير يتتبَّعون سلسلة الرواة التي توصلهم إلى صاحب القول نفسه. وبعد تدوين هذه العلوم في الكتب كانت تُسجَّل سلسلة الشيوخ الذين قرَّؤوا هذه الكتب حتى يومنا هذا، وكانوا يرون لزوم هذه السلسلة كي تكون مرجعًا علميًّا. وثمة كثير من العلماء ممن يراعون هذه السلاسل ويأخذون الإجازات ويعطونها في أيامنا هذه.

وعلى هذا المنوال عَمِلَ أهل التصوف حين دوَّنوا أسماء شيوخهم الذين أخذوا منهم العلم وتربَّوا على أيديهم، وأسماءَ شيوخ شيوخهم، ثم نقلوها لطلَّابهم؛ فاستطاع الناس بهذه الطريقة أن يأخذوا هذه التربية الضرورية من أنسب طريق لمَشْربهم.

فكان ينبغي وجود نظام الإجازة وهذه السلسلة من أجل حماية العلوم الظاهرة والباطنة، وتجنُّب الأخطاء فيها، والحفاظ على صفائها ونقائها، وعدم ضياعها، وانتقالها إلى الأجيال القادمة بصورة صحيحة، لا سيما إن كان الحديث عن المحافظة على الأصول والأركان التي كانت نتيجة تجارب طويلة في الآداب والأخلاق الإسلامية. فالإجازات التي تتبع أسلوبًا معيَّنًا ولها سلسلة خاصة بها تحفظ المصداقية وتقف في وجه كلِّ متشيِّخ يدَّعي فهمه للدين.

ذكر الصالحين وسيلة للبركة

من أصول التربية الصوفية ذكر أسماء الصالحين في السلسلة الشريفة من حين لآخر، والغاية من ذكرهم نيلُ نصيب من الرحمة المرجوة نزولها إلى القلوب، ومن أحوال المذكور اسمه. وكان من أقوال سفيان بن عيينة وكبار أهل العلم:

«عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة».[٦٦]

---

٦٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٧، ص٢٨٥؛ أحمد بن حنبل، الزهد، بيروت ١٤٢٠، ص٢٦٤؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ص٧٠.



ويقول محمد بن يونس:

«ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين».[٦٧]

فالقصص المعبرة والحوادث المليئة بالحِكم في حياة أولياء الله تعالى تحيي القلوب، وتزيد الرغبة في تقليد تلك الأحوال السامية لأولياء الله والميل نحوها.

لذلك فإن من وسائل البركة والرحمة العظيمة قراءةَ السلسلة الشريفة من أجل المعية مع الصالحين لا في الظاهر فقط، بل بالقلب أيضًا. والهدف من تأليف الكتب التي تتحدث عن مناقب أولياء الله إنما هو زرع هذا الإلهام في قلوب المؤمنين الذين يكنون مشاعر المحبة للأولياء.

ويقول الإمام أبو حنيفة رحمة الله عليه:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من الفقه، لأنها آداب القوم».[٦٨]

وقد جاء في القرآن الكريم:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[٦٩]

وقال بعض المشايخ: «الحكايات جند من جنود الله يثبت بها قلوب أوليائه». وشاهِده قوله تعالى:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)[٧٠]

وانطلاقًا من هذه القاعدة القرآنية، فإن قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين تصير مصدرًا للموعظة، وينبوعًا للحكمة، وسِجِلًّا للذكرى، وملهِمًا للعقول والقلوب، وزادًا للأرواح، ونبراسًا للطريق.

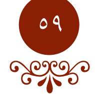
---

٦٧ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١، ص١٨.

٦٨ القاضي عياض، ترتيب المدارك، المغرب ١٩٦٥، جـ١، ص٢٣.

٦٩ الأنعام: ٩٠.

٧٠ هود: ١٢٠.



فهي أمثلة واقعية ونماذج حية لأناس جاهدوا، فارتقوا من الثرى إلى الثريا، وارتفعوا من أدنى دركات الدنيا إلى أسمى درجات الجنة في الفردوس الأعلى، وفيهم القدوة والأسوة لكل حال، ولكل موقف يمر به الإنسان، فيتعلم المواجهة، ويمارس الجهاد، دون اللجوء إلى الأساليب التربوية الجامدة التي تستخدم عبارات الأمر والزجر مثل: «افعل هذا، ولا تفعل ذاك».

وثمة سبب آخر يوجِبُ قراءة السلسلة الشريفة في أوقات مختلفة، إذ إن قراءتها تجعلك مطلعًا على كل أحوال الصالحين والأولياء الذين استمدوا من القبس النبوي، وعاشوا في كنف سيرته ونورانيته، فتتجذر محبتهم في قلبك، ويترسخ اتباعهم في روحك، ويصح نسبك إليهم.

ويمكن للمريد أن يبتهل إلى المولى U متوسِّلًا بالأولياء في السلسلة الشريفة، ويقول الشيخ أبو سعيد محمد خادمي رحمة الله عليه:

«من قرأ سلسلة المشايخ بعد ختم الخوجكان وعند تلقين الذكر وعند الشروع في ذكره وتمام ورده، تحصل له الترقيات والمكاشفات، ويقرؤها صاحب الورد والذكر خصوصًا حين تغلب عليه الروحانية، ويقرؤها لتفريج الكروب والهموم والغموم، وتيسير المراد، وقضاء الحوائج، ولشفاء المريض، وتكتب أيضًا وتُحمل».[٧١]

الاستغاثة والتوسل بأولياء الله

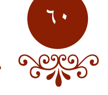
إن الوسيلة كلُّ شيء يُقرِّب من الله تعالى ويقضي الحاجات. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)[٧٢] [المائدة: ٣٥]

---

٧١ محمد أمين الكردي الأربيلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، حلب 1411، ص598.

٧٢ المائدة: ٣٥.



والتوسل هو أحد طرق الدعاء، وباب من أبواب التوجه إلى الله سبحانه، والمقصود من التوسل الطلبُ من الله لا غيره.

ويأمرنا الله U أن نولِّي وجوهنا شطرَ الكعبة، لكن هذا لا يعني أننا نعبد الكعبة ذاتها. وكذلك تقبيل الحجر الأسود إنما هو تعبير عن عبوديتنا لله تعالى واتِّباع لنبينا الكريم لا تقديس للحجر ذاته.

والمؤمن يتوسل بإنسان أو شيء إيمانًا منه بمحبة الله تعالى لما يتوسَّل به، ولا يرى البتة أن الأشياء التي يتوسل بها تجلب النفع أو الضرر له.

وعن عثمان بن حنيف t أن رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان t في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد r نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، ورُحْ إلي حين أرُوحُ معك. فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة[٧٣]، وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما ذَكرتَ حاجتَك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله r ، وأتاه رجل ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي r : «أَوَ تصبر؟» فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليَّ، فقال له النبي r : «ائت الميضأة، فتوضأ، ثم صلِّ ركعتين ثم ادع بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى

٧٣ الطنفسة: البساط.

ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ». فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط.[٧٤]

والأحسن أن نقول نحن إذا دعونا بهذا الدعاء: «يا رسول الله»، بدل «يا محمد»، لحرمة ندائه r باسمه. وما ذُكِرَ في هذا الحديث مستثنى لتصريحه r بالإذن فيه لذلك الرجل.[٧٥]

وعن أنس بن مالك، أن عمر بن الخطاب t كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب t ، فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، قال: فيُسقَون.[٧٦]

ولَعمري إن الله تعالى يجيب الدعوات، وهو الذي يسمع الابتهالات والتضرعات. ويمكن لنا أن ننسب شيئًا للإنسان كأن نقول: «هذا كتاب فلان» ما دام المالك الحقيقي لكل شيء في هذا الكون إنما هو الله Y ، ولكن نسبَ الشيء للإنسان يعني أنه سبب لحصوله، وذلك ليس إلا تعبيرًا مجازيًّا لا حقيقيًا.

ولقد أذِنَ الله تعالى للناس أن يطلب بعضهم العون من بعض، وأمَرَ الإنسان أن يقضي حاجات أخيه.

وقد استعمل رسول الله r كلمة «الاستغاثة» في الحديث الذي قال فيه:

«إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد r ».[٧٧]

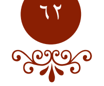
---

٧٤ انظر: الترمذي، الدعوات، ١١٨ /٣٥٧٨؛ ابن ماجه، الإقامة، ١٨٩؛ النسائي، السنن الكبرى، جـ٦، ١٦٩؛ أحمد، جـ٤، ص١٣٨؛ الحاكم، جـ١، ص٧٠٧-٧٠٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، جـ٥، ص٤٦٤؛ الهيثمي، جـ٢، ص٢٧٩.

٧٥ العلامة يوسف بن إسماعيل النبهاني، الفضائل المحمدية، حلب ١٤١٤، ص٢٣٠- ٢٣١.

٧٦ البخاري، الاستسقاء، ٣.

٧٧ البخاري، الزكاة، ٥٢.



وصفوة الكلام أنه مما يجلب الرحمة الإلهية توسلُ العبد بالأنبياء والعباد الصالحين أثناء دعائه، فالمؤمن يبتهل ويتضرع إلى الله متوسِّلًا بمن يحبهم U. والدعاء لا يكون إلا له سبحانه، لا لمن يُتوسَّل بهم، فالفاعل المطلق الوحيد إنما هو ربنا U.

وثمة أناس يزورون قبور الصالحين أو يدعون في غيابهم، فترى أحدهم يقول: «يا كذا وكذا! اشفني، واقضِ حاجاتي». إن مثل هذه الأدعية التي يطلب فيها المرء من هؤلاء الاستجابة ذنبٌ عظيمٌ قد يفتح بابًا للشرك. ولا ريب أنه يمكن تقديم تأويلات كثيرة لمثل هذه الاستغاثات، غير أنه يجب الحذر بشدة من أقوال كهذه، لأنها قد تفسد جوهر عقيدة التوحيد. فالحذرَ الحذرَ من مثل هذه الكلمات التي قد تترك انطباعًا بوجود من يتصرف تصرفًا مطلقًا في الكون غير الله تعالى، ويزيل الصعوبات والمشاكل، ويدبر الكون بأمره.

اللهم أحْيِ قلوبنا بروحانية أوليائك وفيوضاتهم لا سيما أوليائك من السلسلة الذهبية. آمين...




أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ
السلسلة الذهبية

١. سيدنا محمد r
٢. أبو بكر الصديق t
٣. سلمان الفارسي t
٤. القاسم بن محمد (رحمه الله)
٥. جعفر الصادق (رحمه الله)
٦. أبو يزيد البسطامي (رحمه الله)
٧. أبو الحسن الخرقاني (رحمه الله)
٨. أبو علي الفارمدي (رحمه الله)
٩. يوسف الهمداني (رحمه الله)
١٠. عبد الخالق الغجدواني (رحمه الله)
١١. محمد عارف الريوكري (رحمه الله)
١٢. محمود الإنجيرفغنوي (رحمه الله)
١٣. علي الرامتني (رحمه الله)
١٤. محمد باب السماسي (رحمه الله)
١٥. السيد أمير كلال (رحمه الله)
١٦. بهاء الدين شاه نقشبند (رحمه الله)
١٧. علاء الدين العطار (رحمه الله)
١٨. يعقوب الجرخي (رحمه الله)
١٩. عبيد الله أحرار (رحمه الله)
٢٠. محمد الزاهد (رحمه الله)
٢١. الدرويش محمد الأمكنكي (رحمه الله)
٢٢. المرشد محمد الأمكنكي (رحمه الله)
٢٣. محمد الباقي بالله (رحمه الله)
٢٤. الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي (رحمه الله)
٢٥. محمد المعصوم السرهندي (رحمه الله)
٢٦. محمد سيف الدين السرهندي (رحمه الله)
٢٧. السيد نور محمد البدايوني (رحمه الله)
٢٨. مرزا مظهر جان جانان (رحمه الله)
٢٩. عبد الله الدهلوي (رحمه الله)
٣٠. مولانا خالد البغدادي (رحمه الله)
٣١. السيِّد طه الحكّاري (رحمه الله)
٣٢. طه الحريري (رحمه الله)
٣٣. محمد أسعد أربيلي (رحمه الله)
٣٤. محمود سامي رمضان أوغلو (رحمه الله)
٣٥. المرشد موسى طوبّاش (رحمه الله)

١- الرسول الكريم سيدنا محمد r

[٥٧١ – ٦٣٢م]

إن رسول الله r خير مخلوقات الله تعالى وأرفعهم درجة وأعلاهم شأنًا. فهو معجزة تجلَّت فيه قدرة الله تعالى، وهو الإنسان الوحيد الذي نال ثناء الله تعالى إذ اتخذه «**حبيبًا**».[٧٨] ويبيِّن القرآن الكريم سموه ورفعته ويثني في كثير من آياته عليه، فيصرح بالثناء تارة ويشير إليه تارة أخرى.

وقد جعل المولى Y لحبيبنا الكريم r مكانةً عظيمةً يصعب على البشر أن يدركوا قدْرَه العظيم إدراكًا تامًّا. ولا يمكن لأحد الدنو من فضل هذا النبي العزيز وكماله، وتعجز الكلمات عن تمام وصفه، وما وصفنا له بلغاتنا كلها إلا كغيض من فيض.فمن الآيات الكريمة التي تشير إلى مقامه الرفيع عند المولى قوله U:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [٧٩]

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)[٨٠]

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)[٨١]

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) [٨٢]

---

٧٨ انظر: الترمذي، المناقب، ١/٣٦١٦؛ الدارمي، مقدمة، ٨؛ أحمد، جـ٤، ص٢٤١؛ الهيثمي، جـ٩، ٢٩؛ علي المتقي، كنز العمال، جـ١١، ٣١٨٩٣/٤٠٦.

٧٩ الأنبياء: ١٠٧.

٨٠ النساء: ٨٠.

٨١ آل عمران: ٣١-٣٢.

٨٢ الفتح: ١٠.



ناظر أبو جعفر المنصور أميرُ المؤمنين الإمامَ مالكًا في مسجد رسول الله r فقال له الإمام مالك:

«يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدَّبَ قومًا فقال:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) [٨٣]

ومدح قومًا فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) [٨٤]

وذمَّ قومًا فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [٨٥]

وإن حرمته ميتًّا كحرمته حيًّا».

فاستكان لها أبو جعفر وقال:

«يا أبا عبد الله، أستقبلُ القبلة وأدعو أم أستقبلُ رسول الله r » فقال:

«ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم u إلى الله تعالى يوم القيامة! بل استقبله واستشفع به، فيُشَفِّعُه الله. قال الله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) [٨٦]». [٨٧]

---

٨٣ الحجرات: ٢.

٨٤ الحجرات: ٣.

٨٥ الحجرات: ٤.

٨٦ النساء: ٦٤.

٨٧ القاضي عياض، الشفا، جـ٢، ص٤١.



ويوضِّح المولى جلَّ وعلا في آية أخرى محبَّته لنبيه وقَدْره العظيم فيقول:

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)[٨٨]

ويقول ابن عباس t في هذه الآية:

«كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك؛ إعظامًا لنبيه r، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله».[٨٩]

ولم يخاطب الله تعالى نبيَّه كما خاطب الأنبياء غيره باسمه، بل رفع شأنه وأعلى مكانتَه، فخاطبه في القرآن الكريم بوصفه «رسولًا ونبيًّا»، فعلَّم عباده بذلك درسًا جميلًا في الأدب.

وإكرام الرحمن نبيَّه الكريم وإحسانُه إليه غير محدود، بل سيستمر إلى الأبد، فالله تعالى يقول في الآية الكريمة:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[٩٠]

جلس ناس من أصحاب النبي r ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فتسمَّع حديثهم، فإذا بعضهم يقول: عجبًا! إن الله اتخذ من خلقه خليلًا، فإبراهيم خليله، وقال آخر: ماذا بأعجب من (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: وآدم اصطفاه الله. فخرج عليهم، فسلَّم وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا

---

٨٨ النور: ٦٣.

٨٩ أبو نعيم، دلائل النبوة، جـ١، ص٤٦.

٩٠ الضحى: ٥.



أول من يحرِّك غَلَق الجنة ولا فخر، فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر.[٩١]

رسول الله r : الأسوة الحسنة

إن للإنسان طبعًا ميَّالًا للخير والشر في آن واحد لأنه خُلِق في هذه الدنيا امتحانًا له، فيعيش حياته في صراع بين الخير والشر ظاهرًا كان ذلك أم خفيًّا. ولن تكفي الإنسانَ ملَكَاتُه مثل العقل، والإدراك، والفهم، والإرادة وحدها كي ينتصر الخير، لذلك يوجِّه الله سبحانه وتعالى الإنسانَ كل حين إلى الحق والخير بالوحي الإلهي وإرسال الأنبياء.

والإنسان بطبعه يميل إلى التقليد والاقتداء بغيره أثناء تلقِّيه التربية، فتراه يحتاج دائمًا إلى قدوة يتبعها. وكما أن الماء يأخذ شكل الإناء الموضوع فيه، فكذلك المجتمعات تأخذ شكلها من قاداتها. واتباع الإنسان قدوتَه وتقليده إياه منوط بمقدار إعجابه وتعلقه به؛ فكلما كانت محبة المُحِبِّ لحبيبه عظيمة ازداد تأسِّيه واقتداؤه به، فلا يفتئ يذكره بلسانه ويستشعره في قلبه.

وربُّنا الرحمن الرحيم بعباده أكرمنا بنبيِّه الكريم المبعوث رحمة للعالمين فجعله أسوة لنا وخير هادٍ في هذه الدنيا. ولا شكَّ أن محبة الله تعالى لنبينا الكريم وجعله على هذا الخُلُق العظيم مظهرٌ من مظاهر محبته لعباده ورحمته بهم. فيريد الله تعالى من الناس بعد أن أكرَمهم بهذه الأسوة الحسنة أن يقتدوا به r ويتخلَّقوا بأخلاقه؛ فهو القائل في كتابه العزيز:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا)[٩٢]

---

٩١ الدارمي، مقدمة، جـ١، ص١١٠؛ انظر أيضًا: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦.

٩٢ الأحزاب: ٢١.



وعن أحمد بن حنبل أنه قال: نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله r في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٩٣]

وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة؟ الشركُ، لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)[٩٤] [٩٥]

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)[٩٦]

ولقد عرَضَ لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام الفضيلةَ والكمالَ في كل صفحة من صفحات حياته، فكان في شخصه جمالُ السلوك وحسن المعاملة في كل أمر، لذلك يجد كل إنسان في حياة النبي المباركة وسنته المطهرة أفضل سلوك يقتدي به.

وإن نظرنا في التاريخ نجد أن أكثر الناس حبًّا للنبي r وأشدهم اتباعًا لسنته الشريفة إنما هم أهل التقوى؛ أي أرباب التصوف الحقيقي. فمحبة هؤلاء للنبي r محبة خالصة ليس من ورائها قصد أو غاية نفسية. وبهذه المحبة وبالتضحية في سبيل الله التي تعلمناها منه وصل الإسلام إلى بلاد بعيدة، وبقي

---

٩٣ النور: ٦٣.

٩٤ النساء: ٦٥.

٩٥ ابن بطة العكبري، الإبانة الكبرى، الرياض، دار الراية، ص ٢٦٠، رقم: ٩٩؛ ابن تيمية، الصارم المسلول، بيروت، ١٤١٧، جـ١، ص٥٩.

٩٦ الأحزاب: ٥٧.



ذكرُ هذا النبي الكريم حيًّا في القلوب حتى في صفحات التاريخ السوداء التي شاعَ فيها الظلمُ والعدوانُ.

والحياة الإسلامية التي تشرحها الآيات والأحاديث؛ أي الحال الروحانية التي كان يعيشها النبي وأصحابه، إنما هي أعظم الأحوال التي يسعى أهل التصوف لبلوغها. والصالحون من عباد الله يتلقون فيوضات القلب بتقليدهم- على حسب طاقاتهم- حياةَ النبي r وأحواله، ثم ينقلونها من قلب إلى آخر بالانعكاس المعنوي؛ أي إن أعظم أهداف أرباب التصوف الاقتداءُ بحياة النبي وأصحابه وأحوالهم الروحانية قدر المستطاع.

عبادات رسول الله r

لقد اختار نبيُّنا الكريم أن يكون نبيًّا عبدًا على أن يكون نبيًّا ملِكًا[٩٧]، فكان للعبادات التي تقرَّب من الله تعالى شأنٌ عظيم عنده.

وكان في حال عبادة لله تعالى، ويسعى ليكون طاهرًا بين يدي ربه كل حين. متوضِّئًا كل أوقاته، وحثَّ الصحابة على ذلك ما استطاعوا.[٩٨]

وكان عليه الصلاة والسلام يتوضأ لكل صلاة[٩٩]، ويوصي بالوضوء قبل النوم،[١٠٠] ويراعي الطهارة في الليل والنهار، فالطهارة البدنية تؤدي إلى الطهارة المعنوية. والطهارة في كل الأحوال تقِّرب العبد من خالقه وترفع درجته. والله تعالى لا يقرِّب من عباده إلا من تطهر من الحدث والنجاسة.

٩٧ انظر: عبد الرزاق، مصنف، جـ٣، ص١٨٣؛ الهيثمي، جـ٩، ص١٩٢.

٩٨ انظر: ابن ماجه، الطهارة، ٤؛ الموطأ، الطهارة، ٣٦؛ أحمد، جـ٥، ص٢٧٦، ص٢٨٢؛ الدارمي، الطهارة،٢.

٩٩ انظر: الترمذي، الطهارة، ٤٤/ ٦٠؛ أبو داود، الطهارة، ٦٦/ ١٧١.

١٠٠ انظر: البخاري، الوضوء، ٧٥؛ مسلم، الذكر، ٥٦.



صلاته r

لقد كانت الصلاة قرة عين النبي r ومعراجه الدائم. وكان دقيقًا محافظًا على الفروض من الصلوات، يصليها على وقتها في جماعة. وقد أُمِر بإقامة الصلاة عند تكليفه بالنبوة، وصلَّى مع سيدتنا خديجة وسيدنا علي V صلاة جماعة في الأيام الأولى من نبوته، فكانوا يبتعدون عن مكة ويخرجون إلى أودية منعزلة كي يجدوا الطمأنينة والخشوع في صلواتهم.

وكانت أيام رسول الله r ولياليه مليئة بالنوافل التي دأب على صلاتها إلى جانب الفروض. فكان عليه الصلاة والسلام يصلي صلوات السنة قبل الفروض وبعدها، وصلاة التهجد في الليل، وصلاة الإشراق بعد ٤٥ دقيقة من طلوع الشمس، وصلاة الضحى حينما تبدأ حرارة الشمس بالارتفاع، وصلاة الأوابين بعد صلاة المغرب، وأربع ركعات قبل نومه، وركعتين بعد كل وضوء، وصلاة تحية المسجد كلما دخل مسجده، فكل ذلك يبيِّن لنا أن قلبه r كان يبلغ السعادة عندما يكون في حال صلاة دائمة. وكان النبي r يصلي قبل خروجه في غزوة، ويصلي كثيرًا من النوافل وهو على ناقته في سفره، وعندما يعود يدخل المسجد أولًا فيصلي فيه ركعَتين ثم يذهب إلى بيته.

وكان رسول الله r يسجد لله شاكرًا ويصلي حينما يسرُّ، أو يُبشَّر بخبر، أو يُقبَل دعاؤه.[١٠١] وعندما يقرأ آية في القرآن الكريم تأمر بالسجود يسجد فورًا. وإن جاءه ما يحزنه يجد في الصلاة سلوى.[١٠٢] ويقف إلى الصلاة في كل أمر يُظهِر عظمة الله تعالى وقدرته مثل الكسوف أو الخسوف أو الزلزلة.[١٠٣] ويصلي إن

---

١٠١ انظر: أبو داود، الجهاد، ١٦٢/ ٢٧٧٤ - ٢٧٧٥؛ ابن ماجه، الصلاة، ١٩٢.

١٠٢ انظر: مسلم، الذكر، ٨٣؛ أبو داود، التطوع، ٢٢/١٣١٩.

١٠٣ انظر: البخاري، الكسوف، ٢-٤؛ ابن حبان، صحيح، جـ٧، ٦٨، ص١٠٠؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٢، ص٢٢٠.

طلبَ قضاء حاجة من الله تعالى، ويصلي صلاة الاستسقاء في القحط، وصلاة التسابيح بين الحين والآخر. ويصلي الاستخارة طالبًا من الله تعالى الخير في كل أمر حينما يريد اتخاذ قرار، ويصلي صلاة التراويح في شهر رمضان المبارك.

وعندما ننظر إلى القرآن الكريم نجد أنه أشار إلى هذه الصلوات كلها.[١٠٤]

لقد كان رسول الله r يصلي صلواته بتأنٍّ وخشوع مراعيًا تعديل الأركان. فكان يعجز كل من يرى صلاته عن وصف جمالها وكمالها. وكان يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل.[١٠٥]

وعن أبي هريرة t أن رسول الله r نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وهي العصر، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وأن جبريل u أتى النبي r ، فأمره أن يقسم أصحابه شطرين فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم، فتكون لهم ركعة ركعة، ولرسول الله r ركعتان.[١٠٦]

فنفهم من هذا أن رسول الله وصحابته كانوا يصلون الصلاة على وقتها وفي جماعة حتى أثناء الحرب.

---

١٠٤ انظر: البقرة: ٤٥، ١٥٣؛ آل عمران: ٤١، ١١٣؛ هود، ١١٤؛ الحجر: ٩٨-٩٩؛ الإسراء: ٧٨-٧٩، ١٠٧؛ مريم: ٥٨؛ الأنبياء: ١٣٠؛ النور: ٣٦؛ الفرقان: ٦٤؛ الشعراء: ٢١٨-٢١٩؛ السجدة: ١٥-١٦؛ ص: ١٧-١٩؛ الزمر: ٩؛ غافر: ٥٥؛ الفتح: ٢٩؛ ق: ٣٩-٤٠؛ الطور: ٤٨-٤٩؛ الإنسان: ٢٦؛ العلق: ١٩... يبيِّن ابن عباس V أن كلمة «تسبيح» المذكورة في القرآن الكريم تعني الصلاة. [الطبري، تفسير، جـ١٩؛ ص١٩١، (النور: ٣٦)] أما في الأحاديث الشريفة فمعناها الصلاة النافلة. انظر: البخاري، التهجد، ٥؛ مسلم، الحيض، ٧١، المساجد، ٢٦؛ أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٥١.

١٠٥ أبو داود، الصلاة، ١٥٦-١٥٧/ ٩٠٤؛ النسائي، السهو، ١٨.

١٠٦ الترمذي، تفسير، ٤/ ٢١.



أوقات السَّحَر

كان رسول الله عليه الصلاة والسلام في وقت السحر، الذي هو خير الأوقات وفيها أكثر البركات، كأنه في عالَم آخر يدخل في حال روحانية مختلفة. يقول الله U:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)[١٠٧]

لقد أُمِر نبينا الكريم بالتهجد مع بدء نبوته، إذ بعد أن أُمِر بأن يقرأ باسم ربه الذي خلق[١٠٨] أتاه أمر التهجد:

(يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا)[١٠٩]

وبعد نزول هذه الآية لم يترك رسول الله عليه الصلاة والسلام الصلاة في الأسحار، ولا قراءة القرآن والدعاء والاستغفار والأذكار. حتى إنه كان يُحيي الليل قاعدًا إذا كان به مرض أو لم يقدر على الوقوف على قدميه.[١١٠]

---

١٠٧ الإسراء: ٢.

١٠٨ انظر: العلق: ١-٣.

١٠٩ المزمل: ١-١٠.

١١٠ أبو داود، التطوع، ١٨ /١٣٠٧.

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي t أنه قال: كنت أبيت عند باب رسول الله r أعطيه وضوءه فأسمعه بعد هَويٍّ من الليل[١١١] يقول: «**سمع الله لمن حمده**»، وأسمعه بعد هويٍّ من الليل يقول: «**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**».[١١٢]

فتوضِّح لنا هذه الرواية أنه r كان يصلي صلاة التهجد بخشوع وطمأنينة وسكينة.

صومه r

لقد كان رسول الله r يصوم رمضان ثم يُتبعه بصيام النوافل. وكان يصوم يومَي الاثنين والخميس، ويوضِّح سبب ذلك في قوله:

«**تُعرَض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحِبُّ أن يُعرَض عملي وأنا صائم**»[١١٣]

وعندما سُئِل عن صوم الاثنين، قال:

«**فيه ولدت وفيه أُنزِل عليَّ**».[١١٤]

وكان النبي r يحرص على صيام الأيام البِيض، وهي أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري، ويوصي الصحابة بصيامها.[١١٥]

وكان رسول الله r يصوم ستًّا من شوال،[١١٦] ويصوم عاشوراء يومَي التاسع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر من شهر محرَّم.[١١٧]

---

١١١ طائفة منه، قسم منه.

١١٢ أحمد، جـ٤، ص٥٧؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٣١٣.

١١٣ الترمذي، الصوم، ٧٤٧/٤٤.

١١٤ مسلم، الصيام، ١٩٨.

١١٥ النسائي، الصوم، ٧٠.

١١٦ انظر: مسلم، الصيام، ٢٠٤.

١١٧ انظر: البخاري، الصوم ٤٧، ٦٩، الأنبياء ٢٤؛ مسلم، الصيام، ١١٣-١٣٣؛ الترمذي، الصوم، ٤٨؛ أحمد، جـ١، ص٢٤١.



وكان يبيِّن عِظم قيمة الأعمال الصالحة عند الله تعالى في الأيام العشر الأولى من ذي الحجة، ويحث على صيام يوم عرفة.[١١٨]

ولم يمر عليه شهر إلا وصام فيه حتى وفاته r ، وكان يصوم أكثر شعبان.[١١٩]

وكان يصوم أحيانًا صوم الوصال، أي يصوم بضع أيام دون أن يُفطِر، غير أنه r نهى الصحابة عن ذلك رحمةً بهم.[١٢٠]

حجُّه وعمرتُه r

يقول رسول الله r :

«من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة».[١٢١]

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».[١٢٢]

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة».[١٢٣]

«النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف».[١٢٤]

---

١١٨ انظر: البخاري، العيدَين ١١؛ مسلم، الصيام ١٩٦، ١٩٧؛ أبو داود، الصوم، ٦١؛ الترمذي، الصوم، ٥٢؛ ابن ماجه، الصيام، ٣٩.

١١٩ انظر: مسلم، الصيام، ١٧٢-١٧٣، ١٧٦.

١٢٠ انظر: البخاري، الصوم، ٤٨.

١٢١ أحمد، جـ١، ص٢١٤؛ ابن ماجه، المناسك، ١.

١٢٢ البخاري، العمرة، ١.

١٢٣ الترمذي، الحج، ٨١٠/٢؛ ابن ماجه، المناسك، ٣؛ أحمد، جـ٣، ص٤٤٦-٤٤٧.

١٢٤ أحمد، جـ٥، ص٣٥٤- ٣٥٥.

وقد وضَّح نبينا الكريم r فضيلة ذبح الأضحية في سبيل الله، وذَبَحَ الأضاحي لنفسه وآله وأمته.[١٢٥]

إنفاقه r

لقد كان إنفاق النبي r إنفاقًا لا مثيل له، فقد كان يحب العطاء أكثر من الأخذ، وكان كثير الكرم لا يخشى الفقر. فعن عائشة c أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي r : «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها قال: «**بقي كلها غير كتفها**».[١٢٦]

وكان يعلِّم الناس أن الصدقة تقع في يد الله قبل وقوعها في يد المحتاج.[١٢٧] فكان ينفق ما في يده رأسًا، ولا يجد الطمأنينة وفي بيته شيء دنيوي يمكن التصدق به.

عن أم سلمة t قالت: دخل على رسول الله r وهو ساهم الوجه[١٢٨]، فحسبت أن ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله مالك ساهم الوجه؟ قال: «من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس، أمسينا وهي في خُصمِ[١٢٩] الفراش».[١٣٠]

لقد كان رسول الله r يحيا حياته مُؤْثِرًا على نفسه، ويعطي الصدقات وكل ما يُهدَى إليه لأصحاب الصُّفَّة؛ أي للمؤمنين الفقراء الذين جعلوا أنفسهم في خدمة دين الله تعالى. فكانت رحمته تعمُّ المخلوقات كلها، وكان صلوات الله عليه وسلامه يفكر في حال الفقراء والمحتاجين كل حين.

---

١٢٥ انظر: أبو داود، الأضاحي، ٣-٤ /٢٧٩٢؛ الترمذي، الأضاحي، ٢٠ /١٥٢١؛ ابن ماجه، الأضاحي، ١؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص٢٤٩.

١٢٦ الترمذي، القيامة، ٣٣/ ٢٤٧٠.

١٢٧ انظر: أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٤، ص٨١؛ انظر أيضًا: الهيثمي، جـ٣، ص١١٠، ص١١١؛ علي المتقي، جـ٦، ٣٧٧/ ١٦١٣٤.

١٢٨ سَهُمَ وجهه: عبس، أو تغير لونه.

١٢٩ الخُصم: الجانب والناحية.

١٣٠ أحمد، جـ٦، ص٢٩٣؛ الهيثمي، جـ١٠، ص٢٣٨.



ولم يكن عنده شيء يزيد على حاجته، فإن لم يكن عنده شيء يُعطى، وعَدَ بالعطاء حين يأتيه، أو استقرضَ كي يقضي حاجة الفقراء.(١٣١)

وعن أبي أمامة بن سهل قال دخلت أنا وعروة بن الزبير يومًا على عائشة C فقالت: لو رأيتما نبي الله r ذات يوم في مرض مرضه، قالت: وكان له عندي ستة دنانير- قال موسى: أو سبعة- قالت: فأمرني نبي الله r أن أفرِّقها، قالت: فشغلني وجع نبي الله r حتى عافاه الله، قالت: ثم سألني عنها، فقال:

«**ما فعلت الستة- قال أو السبعة-؟**»

قلت: لا والله لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها ثم صفها في كفه، فقال:

«**ما ظن نبي الله لو لقي الله U وهذه عنده**».(١٣٢)

فهذا هو نبينا الكريم r ، أكرمُ الكرماء وأجود الأجاويد حتى في آخر أيامه، وهو قدوة لنا في الإنفاق لا مثيل لها بين البشر جميعًا...

خشوع رسول الله r

لقد علَّم رسول الله r أصحابه الكرام الشروط الظاهرة والباطنة للعبادات، ومن أعظم الشروط الباطنة «**الخشوع**».

والخشوع رقةُ القلب وخضوعه أمام تجليات عظمة الله تعالى وقدرته الظاهرة في الكون... وهذه الحال في القلب عندما تنعكس على أعضاء البدن كلها تعطي السلوك والمعاملات سكينةً وتوازنًا وروحانية.

١٣١ انظر: أبو داود، الخراج، ٣٣-٣٥/٣٠٥٥؛ ابن حبان، صحيح، جـ١٤، ص٢٦٢-٢٦٤؛ الهيثمي، جـ١٠، ص٢٤٢.

١٣٢ أحمد جـ٦، ص١٠٤؛ الهيثمي، جـ١٠، ص٢٣٩-٢٤٠؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ص٢٣٧-٢٣٨.



ويصوِّر لنا الصحابي عبد الله بن الشخير t حال الخشوع في صلاة النبي r فيقول:

«رأيت رسول الله r يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء عليه الصلاة والسلام».(١٣٣)

وعن الفضل بن عباس v، قال: قال رسول الله r :

«**الصلاة مثنى مثنى، تشهد في كل ركعتين، وتخشع، وتضرع، وتمسْكن، وتُقنع يديك، يقول: ترفعهما إلى ربك، مستقبلًا ببطونهما وجهك، وتقول: يا رب يا رب، ومن لم يفعل ذلك فهو كذا وكذا**»، وقال غير ابن المبارك في هذا الحديث: «**من لم يفعل ذلك فهي خِداجٌ**(١٣٤)».(١٣٥)

وعن أبي هريرة t ، أن رسول الله r دخل المسجد فدخل رجل، فصلى، فسلَّم على النبي r ، فردَّ وقال: «**ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ**»، فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء، فسلَّم على النبي r ، فقال: «**ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ**» ثلاثًا، فقال: والذي بعثك بالحق ما أُحسِن غيره، فعلِّمني، فقال:

«**إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تَعدِل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها**».(١٣٦)

وقال لرجل آخر: «**إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودِّع**».(١٣٧)

---

١٣٣ أبو داود، الصلاة، ص١٥٦-١٥٧/ ٩٠٤؛ أحمد، جـ٤، ص٢٥-٢٦.

١٣٤ الخِداج: النقصان.

١٣٥ الترمذي، الصلاة، ١٦٦/ ٣٨٥.

١٣٦ البخاري، الأذان ٩٥، ١٢٢، الإيمان ١٥، الاستئذان ١٨؛ مسلم، الصلاة ٤٥.

١٣٧ ابن ماجه، الزهد، ١٥؛ أحمد، جـ٥، ص٤١٢.



وعن علي t قال: أبصر رسول الله r رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**».[١٣٨]

وأهدى أبو جهم t لرسول الله r خميصةً[١٣٩] شاميةً لها عَلَم، فشهد فيها الصلاة، فلما انصرف، قال: رُدِّي هذه الخميصة إلى أبي جهم، فإني نظرت إلى علمها في الصلاة فكاد يفتنني.[١٤٠]

والعبادات التي تؤدَّى بلا خشوع يفرغ محتواها، ولا يبقى لها معنى، فتصبح هيكلًا لا روح فيه. وفي هذا يقول رسول الله r :

«**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته تُسعُها ثُمنها سُبعها سُدسها خُمسها رُبعها ثُلثها نِصفها**».[١٤١]

ويقول في حديث آخر:

«**أسوأ الناس سرقةً الذي يسرق من صلاته**».

قالوا: يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟ قال:

«**لا يتم ركوعها ولا سجودها**» أو قال: «**لا يُقِيمُ صُلْبَهُ في الركوع والسجود**»[١٤٢]

وعن ابن طاوس، عن أبيه قال:

«إن الملائكة يكتبون أعمال بني آدم، فيقولون: فلان نقص من صلاته الربع، ونقص فلان الشطر».[١٤٣]

---

١٣٨ علي المتقي، جـ٨، ١٩٧ / ٢٢٥٣٠. انظر: عبد الرزاق، مصنف، جـ٢، ص٢٦٦-٢٦٧.

١٣٩ الخميصة: ثوب أسود أو أحمر فيه رسومات؛ أو أي رسم في الثوب.

١٤٠ موطأ، الصلاة، ٦٧؛ البخاري، الصلاة، ١٤.

١٤١ أبو داود، الصلاة، ١٢٣-١٢٤/٧٩٦؛ أحمد، جـ٤، ص٣٢١.

١٤٢ أحمد، جـ٥، ص٣١٠؛ الدارمي، الصلاة، ٧٨.

١٤٣ عبد الرزاق، مصنف، جـ٢، ص٣٧١.

وعن عبادة بن الصامت t أنه قال حينما سمع حديثًا نُقِل إليه عن النبي r :

«أول علم يرفع من الناس؟ الخشوع. يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا».[١٤٤]

ويصف لنا ربنا Y الصالحين من عباده الذين يعبدونه بخشوع فيقول:

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)[١٤٥]

وعن السيدة عائشة c أنها سألت النبي r في سبب نزول آية: **(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)** أَهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:

«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تُقبَل منهم».[١٤٦]

ومن أعظم ما تسعى إليه التربية الصوفية إيصال القلوب إلى هذه الحال من الخشوع.

استغفاره ودعاؤه r

من أعظم مظاهر العبودية لله سبحانه وتعالى الاستغفارُ والدعاء؛ فالذي يدأب على الاستغفار والدعاء، يُدرك عجزه، ويذكر ربه، فيعيش في معيته U القائل في كتابه العزيز:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)[١٤٧]

---

١٤٤ الترمذي، العلم، ٥/٢٦٥٣؛ الدارمي، المقدمة، ٢٩.

١٤٥ المؤمنون: ٦٠-٦١.

١٤٦ الترمذي، تفسير، ٢٣/٣١٧٥؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٠.

١٤٧ التحريم: ٨.



﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[١٤٨]

ويقول رسول الله r :

«يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفِروه، فإني أتوب إلى الله وأستغفره في كل يوم مئة مرة أو أكثر من مئة مرة».[١٤٩]

«ما أصبحتُ غداةً إلا استغفرت الله فيها مئة مرة».[١٥٠]

فكان وقت السحر والفجر عند السلف الصالح **«وقتَ استغفار ودعاء»**.[١٥١]

ويقول أبو هريرة t :

«ما رأيت أحدًا أكثر أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، من رسول الله r »[١٥٢]

ويقول رسول الله r :

«من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هَمٍّ فَرَجًا، ورَزَقَه من حيث لا يحتسب».[١٥٣]

«سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال:

١٤٨ الذاريات: ١٧-١٨.

١٤٩ أحمد، جـ٤، ص٢٦١؛ النسائي، السنن الكبرى، جـ٩، ص١٦٨؛ قارن: مسلم، الذكر، ٤٢.

١٥٠ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٦، ٥٧/ ٢٩٤٤٥؛ النسائي، السنن الكبرى، جـ٩، ص١٦٧.

١٥١ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٧، ص٤٧؛ المباركفوري، تحفة الأحوذي، جـ٢، ص٤٧٣-٤٧٤. ابن حجر، تلخيص الحبير، جـ٤، ص٢٠٦.

١٥٢ النسائي، السنن الكبرى، جـ٩، ص١٧١؛ ابن حبَّان، صحيح، جـ٣، ٢٠٧/ ٩٢٨.

١٥٣ أبو داود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٨؛ ابن ماجه، الأدب، ٥٧؛ أحمد، جـ١، ص٢٤٨؛ الحاكم، جـ٤، ٢٩١/ ٧٦٧٧.

«**ومن قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**».[١٥٤]

دعاؤه r

يقول المولى Y :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[١٥٥]

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[١٥٦]

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)[١٥٧]

ويقول رسول الله r :

«**الدعاء مخ العبادة**».[١٥٨]

«**الدعاء هو العبادة**».[١٥٩]

«**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**».[١٦٠]

«**سلوا الله من فضله، فإن الله U يحب أن يُسأل**».[١٦١]

---

١٥٤ البخاري، الدعوات، ٢، ١٦؛ أبو داود، الأدب، ١٠٠-١٠١؛ النسائي، الاستعاذة، ٥٧/٥٥٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ١٥/٣٣٩٣.

١٥٥ الأعراف: ٥٥.

١٥٦ السجدة: ١٦-١٧.

١٥٧ الفرقان: ٧٧.

١٥٨ الترمذي، الدعوات، ١/٣٣٧١.

١٥٩ أبو داود، الوتر، ٢٣/١٤٧٩؛ الترمذي، تفسير، ٢/٢٩٦٩.

١٦٠ الترمذي، الدعوات، ١/٣٣٧٠.

١٦١ الترمذي، الدعوات، ١١٥/٣٥٧١.

لقد كان رسول الله r يدعو الله في أحواله كلها. وإذا نظرنا في الكتب التي تجمع أدعيته، نجد أن قلبه المبارك متوجه تلقاء ربه U كل حين؛ عند التهجد، وعند دخوله الخلاء والخروج منه، وعند الوضوء، وعند الأذان، وعند دخول المسجد والخروج منه، وبعد الصلاة، وبعد الأكل، وعند الإفطار، وعند الخروج من البيت في الصباح، وعند السفر والرجوع منه، وعند ركوب الدابة، وعند الاستراحة في السفر، وعند شراء شيء، وعند أكل الثمار في أول موسمها، وعند اللباس، وعند الخروج من مجلس، وعند طلوع الشمس، وعند غروبها، وعند النوم، وعند القيام بالليل، وفي السرَّاء والضراء... فكان r يدعو دعاءً في كل حال من أحواله، حتى إن الصحابة الكرام كانوا يجدون صعوبة في حفظ أدعيته r كلها.[١٦٢]

لذلك يسعى أرباب التصوف للاقتداء بحال النبي r والدعاء كل حين، لا سيما الابتهال إلى الله تعالى بالأدعية التي كان يدعو بها نبي الله r ، فالأدعية النبوية خير الطرق التي تقرِّب العبد من ربه U .[١٦٣]

ذِكرُهُ r وتلاوته القرآن

يأمر الله U عباده فيقول:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)[١٦٤]

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)[١٦٥]

---

١٦٢ انظر: الترمذي، الدعوات، ٨٨/٣٥٢١.

١٦٣ عبد الحميد بن محمد علي،الذخائر القدسية في زيارة خير البرية، بيروت ١٤٢٨، ص١٩٢.

١٦٤ الأعراف: ٢٠٥.

١٦٥ الأحزاب: ٤١-٤٢.



لقد كان رسول الله r قرآنًا حيًّا بأخلاقه الحسنة وسلوكه وأحواله التي تُأتسى، وكان في ذكر دائم لله U بأدعيته وتسبيحاته وتفكره.

تقول السيدة عائشة c :

«كان النبي r يذكر الله على كل أحيانه».(١٦٦)

وقد سأل سيدنا الحسين أباه عليًّا v عن أخلاق النبي وآدابه، فحدَّثه طويلًا، وكان من قوله:

«كان رسول الله r لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر».(١٦٧)

وكان رسول الله r يذكر الله تعالى دائمًا حتى في أشد أسفاره، فكان وأصحابه يصلون على ظهور النوق إن لم يكن وقت كراهة، وكانوا إذا صعدوا في ثنية كبَّروا وهلَّلوا، وإذا نزلوا سبَّحوا المولى جلَّ وعلا.(١٦٨)

ولم يتركوا ذِكر الله تعالى حتى عند لقائهم العدو، فالله تعالى بعد أن علَّمهم كيفية الصلاة في جماعة أثناء القتال، قال:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)(١٦٩)

ويأمرنا الله U في آية أخرى بترك الأعمال والسعي إلى ذكر الله تعالى إذا نودي لصلاة الجمعة، ثم يبيِّن في الآية التي تليها وظيفة المؤمنين بعد الصلاة فيقول:

---

١٦٦ مسلم، الحيض، ١١٧؛ أبو داود، الطهارة، ٩/١٨؛ الترمذي، الدعوات، ٩/٣٣٨٤.

١٦٧ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص٤٢٤.

١٦٨ انظر: البخاري، الجهاد، ١٣١-١٣٢؛ مسلم، الذكر، ٤٤-٤٦؛ أحمد، جـ٣، ص٣٣٣.

١٦٩ النساء: ١٠٣.



(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[١٧٠]

وكان رسول الله r إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«**يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**».[١٧١]

الذِّكر الدائم

لقد جعل المولى Y نبينا الكريم أسوةً نقتدي به في كثرة الذِّكر.[١٧٢] فقد كان نبينا r يذكر الله تعالى في أحواله كلها؛ في الخوف والرجاء، وفي السراء والضراء، وفي الراحة والعمل، وفي المشي والوقوف، وفي الليل والنهار. وأوصى أصحابه وأمته من بعده أن يكونوا على هذه الحال.

فعن معاذ بن جبل t قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال:

«**عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية**».[١٧٣]

ويوصينا رسول الله r بذكر اسم الله عند الشروع بأعمالنا كلها فيقول:

«**وأغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأَوْكِ سقاءك**[١٧٤] **واذكر اسم الله، وخمِّر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرُض عليه شيئًا**».[١٧٥]

---

١٧٠ الجمعة: ١٠.

١٧١ الترمذي، القيامة، ٢٣/ ٢٤٥٧.

١٧٢ انظر: الأحزاب: ٢١.

١٧٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ص٧٤.

١٧٤ من الإيكاء وهو الشد والوكاء اسم ما يشد به في فم القربة ونحوها. والسقاء ما يوضع فيه الماء أو اللبن ونحو ذلك.

١٧٥ البخاري، بدء الخلق، ١١.

الذِّكر الجماعي

إن ذكر الله سبحانه وتعالى يكون تضرعًا وخفية، وذكرُ الله تعالى في جماعة بين الحين والآخر فضيلةٌ كبيرةٌ.

يقول رسول الله r :

«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: (هلمُّوا إلى حاجتكم)، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا».[١٧٦]

وعن الأغر أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري V أنهما شَهِدا على النبي r أنه قال:

«لا يقعد قوم يذكرون الله U إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».[١٧٧]

وخرج رسول الله r على حلقة من أصحابه، فقال:

«ما أجلسكم؟»

قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال:

«آلله[١٧٨] ما أجلسكم إلا ذاك؟»

قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال:

«أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله U يباهي بكم الملائكة».[١٧٩]

---

١٧٦ البخاري، الدعوات، ٦٦.

١٧٧ مسلم، الذكر، ٣٩.

١٧٨ آلله: أَوَالله.

١٧٩ مسلم، الذكر، ٤٠؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٦، ص٥٩؛ قارن: أحمد، جـ٣، ص٢٦٥.



وعن أنس بن مالك، أن رسول الله r قال:

«**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَق الذكر**».[١٨٠]

وعن شداد بن أوس t قال: كنا عند النبي r فقال:

«**هل فيكم غريب؟**»- يعني أهل الكتاب-

فقلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب وقال:

«**ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله الا الله**».

فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله r يده ثم قال:

«**الحمد لله، اللهم بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد**»

ثم قال:

«**أبشروا فإن الله U قد غفر لكم**».[١٨١]

فعلينا هنا أن نقف ونتفكر في هذا الأمر، ونسأل أنفسنا: أين نحن اليوم من حياة الذكر؟ هل ذِكرنا كذِكر رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه؟ ولا ننسى البتة أن الذكر للقلب كالماء للسمكة، فماذا تكون حال السمكة إن خرجت من الماء؟!.

---

١٨٠ الترمذي، الدعوات، ٨٢/٣٥١٠.

١٨١ أحمد، جـ٤، ص١٢٤.



تلاوة القرآن الكريم

إن أعظم الذكر تلاوة القرآن الكريم. يقول الحاكم الترمذي:

«ذكر المولى بكلامه أفضل من ذكره بكلامنا».[١٨٢]

ويقول سفيان الثوري رحمة الله عليه:

«للقرآن الكريم نور عظيم يليق بشأن صاحب الكلام فيه: الله تعالى»[١٨٣]

والمؤمن ينتفع من القرآن الكريم حتى لو لم يكن لمعنى آياته عارفًا، فقد قال أحد السلف:

«يشرب أحدهم دواءً ولا يعلم ما هو، فيجد الشفاء فيه. وتأثير القرآن الكريم على هذا النحو، فكل حرف منه كالجبل ينزل على الجسد البشري [الأنانية] فيمحقه ويمحي آثار صفاته البشرية [يترقَّى روحانيًّا]. ونور القرآن يتحد مع نور قلب المؤمن، فيزداد نورًا».[١٨٤]

وقد كان رسول الله r يتلو القرآن الكريم حقَّ تلاوته، ويتدبر معانيه، ويطبِّق أوامره، ويجتنب نواهيه. فيتلوه بقلبه وكأنه يحياه ويشعر به. وإذا مرَّ بآية فيها «سبحان الله» سبَّح، وإذا مرَّ بآية فيها دعاء ابتهل إلى ربه، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذَ.[١٨٥] وقد يردِّد الآية حتى يُصبِح.[١٨٦]

---

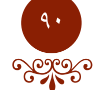
١٨٢ محمد بارسا، مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ص٥٩.

١٨٣ محمد بارسا، المصدر السابق، ص٥٩.

١٨٤ محمد بارسا، المصدر السابق، ص٦٠.

١٨٥ انظر: مسلم، المسافرين، ٢٠٣؛ النسائي، قيام الليل، ٢٥.

١٨٦ انظر: النسائي، الافتتاح، ٧٩؛ أحمد، جـ٥، ص١٥٦.



وكان النبي r يقرأ القرآن الكريم كل يوم، ويجعله سبعة أقسام فيختمه كل أسبوع، وكذلك كان يفعل الصحابة الكرام.[١٨٧]

وقد كانت قراءة النبي r للقرآن مُفسَّرةً حرفًا حرفًا، أي بتأنٍ وتدبر، وكان يرتل القرآن ترتيلًا.[١٨٨]

وإذا نظرنا إلى حياته r سنجد أنه كان يقرأ القرآن الكريم كل حين؛ عند تبليغه الدين للناس، وجلوسه مع أصحابه، ويأتي بآية عند إيضاح مسألة، ويطيل في تلاوة القرآن الكريم في عباداته في الليل، ويتلوه أثناء السفر. وقد روى سراقة بن مالك الذي كان يقتفي أثر النبي r أثناء هجرته أنه اقترب منه بالقدر الذي كان يسمع فيه تلاوة النبي للقرآن.[١٨٩]

وكان النبي r يولي أهمية كبرى للقرآن الكريم في شهر رمضان، فيلقاه جبريل u في كل ليلة من هذا الشهر، فيعارضه القرآن، وفي آخر رمضان عارضَه مرتين.[١٩٠] وكان بعض الصحابة يَعرِضُون على النبي r.[١٩١]

تفكر رسول الله r

كان رسول الله r يحب الصمت والتفكر منذ صغره، وكان يُكثر من العزلة والخلوة في الآونة الأخيرة قبل تكليفه بالنبوة، إذ كان يمكث أيامًا في غار حراء الذي كان يبعد خمسة كليومترات عن مكة. وكان تعبُّده في عزلته التفكرَ والاعتبارَ

١٨٧ انظر: مسلم، المسافرين، ١٤٢؛ أحمد، جـ٤، ص٩؛ ابن ماجه، الصلاة، ١٧٨.

١٨٨ انظر: الترمذي، فضائل القرآن، ٢٣.

١٨٩ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥؛ أحمد، جـ٤، ص١٧٦؛ ابن هشام، جـ٢، ص١٠٣؛ الحاكم، جـ٣، ص٧.

١٩٠ انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، فضائل القرآن ٧، الصوم ٧؛ مسلم، فضائل ٥٠.

١٩١ انظر: أحمد، جـ١، ص٤٠٥؛ الطبري، جـ١، ٢٨؛ طاهر الجزائري، التبيان، ص٢٦.



من السماء والأرض كاعتبار جده إبراهيم u ، ورؤية الكعبة.[١٩٢] فعلى هذا النحو أعده الله تعالى للمهمة المقدسة.

وعن هند بن أبي هالة t أنه قال في وصف النبي:

«إذا مشى كأنما ينحط من صبب،[١٩٣] وإذا التفت التفت جميعًا خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلُّ نظره الملاحظة... متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السَّكت».[١٩٤]

يقول رسول الله r :

«إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكرًا، وصمتي فكرًا، ونظري عبرة».[١٩٥]

ويروي لنا التابعي عطاء بن أبي رباح رحمة الله عليه صورة مشرقة تبيِّن لنا حال التفكر التي كان عليها النبي r ورِقَّةَ قلبه فيقول:

دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة c ... قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله r ، قال: فسكَتَت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال:

«يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي»

قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرَّكَ. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حِجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤْذِنُه

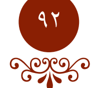
---

١٩٢ بدر الدين العيني، عمدة القاري، جـ١، ص٦١؛ جـ٢٤، ص١٢٨، بيروت، بدون تاريخ.

١٩٣ أي «النظر إلى القدم»، وقد صار هذا عند أهل التصوف قاعدة تُطبَّق.

١٩٤ الطبراني، المعجم الكبير، جـ٢٢، ص١٥٥؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٣، ص٢٤؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص٤٢٢-٤٢٣.

١٩٥ القضاعي، مسند الشهاب، رقم: ١١٥٩؛ الجزري، جامع الأصول، جـ١١، ٦٨٧/٩٣١٧.



بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لَمَ تبكِ وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليَّ الليلة آية، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[١٩٦] .[١٩٧]

حينما نزلت هاتان الآيتان الكريمتان في تلك الليلة تدفقت قطرات الدمع من مقلتي النبي r كاللآلئ الدُّريَّة. لذلك فإن الدموع التي يذرفها عباد الله المؤمنون متفكرين بتجليات قدرة الله وعظمته ستكون- بإذن الله- زينة للياليهم في هذه الدنيا الفانية، ونورًا ينير ظلمة قبورهم، وقطرات الندى في جنات عدن.

وقد أرسل العباس t ابنه ذا العشر سنوات إلى حجرة خالته ميمونة كي يتعلم صلاة التهجد من رسول الله r . ويخبرنا ابن عباس v عن تلك الليلة فيقول: بتُّ في بيت ميمونة ليلة، والنبي r عندها، لأنظر كيف صلاة رسول الله r بالليل، فتحدث رسول الله r مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، أو بعضه، قعد فنظر إلى السماء فقرأ:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إلى قوله **(لِأُولِي الْأَلْبَابِ)** .[١٩٨]

إن دأب رسول الله r على قراءة هذه الآية الكريمة المتعلقة بالتفكر في قيام الليل يشير إلى أن أفضل أوقات التفكر إنما هو وقت السَّحر.

---

١٩٦ آل عمران: ١٩٠-١٩١.

١٩٧ ابن حبان، صحيح، جـ٢، ص٣٨٦؛ الألوسي، روح المعاني، جـ٤، ص١٥٧.

١٩٨ البخاري، تفسير، ٣/١٧-١٩؛ التوحيد، ٢٧؛ أحمد، جـ١، ص٢٤٢.



وعن أبي سعيد t أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: **(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)**[199] يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله r فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّهَا [يراها قليلة]، فقال رسول الله r :

«**والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن**».[200]

التفكر في الموت

لم ينسَ رسول الله r قط أن الدنيا فانية، فمن أحاديثه عن الدنيا:

«**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بِمَ ترجع؟**».[201]

وعن عبد الله بن مسعود t قال:

نام رسول الله r على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال:

«**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».[202]

وعن البراء t قال:

كنا مع النبي r في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى، حتى بَلَّ الثرى، ثم قال:

«**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**».[203]

---

١٩٩ الإخلاص: ١.

٢٠٠ البخاري، الأيمان، ٣. قارن: البخاري، الأذان ١٠٦، التوحيد ١.

٢٠١ مسلم، الجنة، ٥٥.

٢٠٢ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧.

٢٠٣ ابن ماجه، الزهد، ١٩.



ويقول r مُحرِّضًا أُمَّتَه على التفكر في الموت:

«**ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا**».[٢٠٤]

«**من أكثر ذكر الموت أحبه الله**».[٢٠٥]

وجاء رجل من الأنصار، فسلم على النبي r ، ثم قال: أي المؤمنين أكيس؟ قال:

«**أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس**».[٢٠٦]

فأهل التصوف يحيون قلوبهم بالتفكر في الموت حينًا كل يوم، وبذلك يحذرون من السيئات وارتكاب الموبقات والأخطاء، ويسعون إلى كل عمل صالح وفعل نافع.

وأفضل وسيلة لتذكر الموت زيارة القبور. قال رسول الله r :

«**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور... فزوروها فإنها تذكر الآخرة**».[٢٠٧]

وكان رسول الله r يكثر من زيارة البقيع حيث يرقد أصحابه وشهداء أحد.

وعن عائشة C أنها قالت:

«كان رسول الله r - كلما كان ليلتها من رسول الله r - يخرج من آخر الليل إلى البقيع».[٢٠٨] فيسلِّم عليهم ويدعو لهم.

وقد جاءه جبريل u ليلةً، وقال له:

---

٢٠٤ الترمذي، القيامة، ٢٤.

٢٠٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ص٣٢٥.

٢٠٦ ابن ماجه، الزهد، ٣١.

٢٠٧ الترمذي، الجنائز، ٦٠؛ انظر: مسلم، الجنائز، ١٠٦.

٢٠٨ مسلم، الجنائز، ١٠٢.

«إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم».[٢٠٩] فامتثل النبي r لأمر ربه، وزار البقيع.

وعن عبد الله بن أبي فروة، عن أبيه، أن النبي r زار قبور الشهداء بأحد فقال: «**اللهم إن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه**».[٢١٠]

ويقول التابعي الكبير الإمام الشعبي رحمة الله عليه: «كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن».[٢١١]



ولا بد هنا أن نذكُرَ أن أساسَ أعمال النبي r وعباداته الدوامُ عليها، ويقول في الحديث الشريف:

«**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها، وإن قل**».[٢١٢]

فلم تخْلُ صفحة من صفحات حياته من العبادات، حتى إننا إذا أمعنا النظر في حياته، فسيبدو وكأنه لم يكن عنده شغل شاغل سوى العبادات. وإذا نظرنا إلى اهتمامه بشؤون أمته، فقد نظن أنه لم يكن عنده وقت للعبادات؛ غير أنه r كان أعظم الخلق اهتمامًا بشؤون الناس، وأدومَهم على العبادات والطاعات.

وهو الذي بلَّغ دين الله تعالى للناس مع كل الصعوبات والمشقات، وشرح آيات الله التي يصعب فهمها بأقواله وأفعاله، وداوم على العبادات في الليل

---

٢٠٩ مسلم، الجنائز، ١٠٣.

٢١٠ الحاكم، جـ٣، ٤٣٢٠/٣١.

٢١١ أبو بكر بن الخلال، القراءة عند القبور، بيروت ١٤٢٤، ص٨٩، رقم: ٧.

٢١٢ مسلم، المسافرين، ٢١٨؛ أحمد، جـ٦، ص٦١.



والنهار، واهتم بشؤون أسرته، وشارك هموم الفقراء، وكان بجنب المنكسرة قلوبهم، وكان أسوة حسنة لأمته، وأسَّس دولة قوية سليمة، وأرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واستقبل الرسل وأكرمهم، وسيَّر الجيوش وقادها، وضحَّى تضحيات عظيمة في سبيل إزالة العوائق أمام تبليغ دين الله...

وهو الذي أنجز أصعب المهام التي قد ينأى عنها الأشاوس من الرجال، وعَبَدَ الله تعالى عبادةً أكمل ممن زهدوا في هذه الدنيا فعاشوا في الجبال ناذرين أنفسهم لله تعالى، فكان عليه الصلاة والسلام مضربَ مثل في كمال الأخلاق الحميدة مثل الرحمة، والرأفة، والعفو، والحِلم، والتواضع، والكرم، والخدمة؛ وأمثلة ذلك كثيرةٌ لا تعد ولا تحصى.[٢١٣]

زهد رسول الله r

لم يدرك أحد مثل رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الحياة الأساسية ليست حياة الدنيا الفانية بل حياة الآخرة؛ فهو الذي التجأ إلى ربه سبحانه وتعالى فقال:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».[٢١٤]

وكان يردد هذا الدعاء أثناء بناء مسجده وحفر الخندق وفي أوقات الشدائد عندما يخرج إلى الحرب، وكذلك في أوقات النصر والسرور مثل فتح مكة وحجة الوداع؛ أي إنه كان ينأى عن لذة الدنيا ومغرياتها في كل حال وحين، ويسعى لإعمار دار القرار.

---

٢١٣ يمكنكم مراجعة كتابنا (حضارة الفضائل) في هذا الأمر.

٢١٤ انظر: البخاري، الجهاد٣٣، ١١٠، مناقب الأنصار٩، المغازي ٢٩، الرقاق ١؛ مسلم، الجهاد ١٢٦، ١٢٩؛ الترمذي، مناقب ٥٥؛ ابن ماجه، المساجد ٣؛ الواقدي، جـ٢، ص٨٢٤.



وعن عبيد الله بن عباس قال: قال لي أبو ذر: يا ابن أخي، كنت مع رسول الله r آخذًا بيده فقال لي:

«**يا أبا ذر، ما أُحِبُّ أن لي أُحُدًا ذهبًا وفضة أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت أدَعُ منه قيراطًا**».

قلت: يا رسول الله، قنطارًا؟ قال:

«**يا أبا ذر، أَذهبُ إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر! أريد الآخرة وتريد الدنيا، قيراطًا**». فأعادها عليَّ ثلاث مرات.[٢١٥]

وعن أبي مويهبة t مولى رسول الله r قال: قال لي رسول الله r :

«**إني قد أُمِرتُ أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي**».

فانطلقت معه في جوف الليل فلما وقف عليهم، قال:

«**السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيُهْنِكُمْ ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها: الآخرة أشرُّ من الأولى**»،

ثم أقبل عليَّ، فقال:

«**يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت بمفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي**».

قلت: بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة قال:

«**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي**».

ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبُدِئَ رسول الله r بوجعه الذي مات فيه.[٢١٦]

---

٢١٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ص٢٣٩.

٢١٦ الدارمي، المقدمة، ١٤؛ أحمد، جـ٣، ص٤٨٨، ٤٨٩؛ الحاكم، جـ٣، ٥٧ / ٤٣٨٣.



لقد اختار نبينا الكريم الآخرة إذ لم يكن للدنيا في قلبه أي شأن، وكان يرى المال والمُلكَ بضاعةً للآخرة ينفقها في سبيل الله تعالى.

وعن أنس بن مالك t ، قال: أُتِيَ النبي r بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**» وكان أكثر مال أتي به رسول الله r ، فخرج رسول الله r إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه... فما قام رسول الله r وثَمَّ منها درهم.[٢١٧]

لقد كان رسول الله r أكثر الناس تواضعًا، ويقول في الدنيا:

«**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».[٢١٨]

فلم يكن في بيته r إلا حصير ينام عليه، ويقول سيدنا عمر بن الخطاب t :

رأيت أثر الحصير في جنب رسول الله r ، فبكيت، فقال:

«**ما يبكيك؟**»

فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال رسول الله r :

«**أما ترضى أن تكون لهما الدنيا، ولك الآخرة**».[٢١٩]

وبعد هذا الحديث أنزل المولى Y آيةً كريمةً تصوِّر الجنة، إذ قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)[٢٢٠]. [٢٢١]

---

٢١٧ البخاري، الصلاة ٤٢، الجزية ٤، الجهاد ١٧٢.

٢١٨ الترمذي، الزهد، ٢٣٧٧.

٢١٩ مسلم، الطلاق، ٣١.

٢٢٠ الإنسان: ٢٠.

٢٢١ السيوطي، لباب النقول، بيروت ١٤٢٦، ص٢٠٧.

وقد كانت حجرات النبي r صغيرة، وقد تربَّى الحسن البصري في تلك الحجرات، فأمُّه كانت مولاة لأم المؤمنين أم سلمة، فكان يتناول السقف بيده وهو صغير.[٢٢٢]

وقد قال التابعي الكبير سعيد بن المسيب رحمة الله عليه:

«والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله r في حياته فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر».[٢٢٣]

وكان لباس النبي والأشياء التي يستعملها على قدر كفايته، فإن كان عنده شيء يزيد على حاجته، تصدَّق به. فعن أبي بردة، قال: أخرجت إلينا عائشة C إزارًا وكساءً ملبَّدًا، فقالت:

«في هذا قبض رسول الله r ».[٢٢٤]

وكان رسول الله r زاهدًا في طعامه وشرابه، فعن عائشة C، أنها قالت لعروة: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلَّة في شهرين، وما أُوقِدت في أبيات رسول الله r نار»،

فقلت يا خالة: ما كان يُعيشُكم؟ قالت:

«الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله r جيران من الأنصار، كانت لهم منائح،[٢٢٥] وكانوا يمنحون رسول الله r من ألبانهم، فيسقينا».[٢٢٦]

---

٢٢٢ ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص١٦١.

٢٢٣ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص٤٩٩-٥٥٥.

٢٢٤ مسلم، اللباس، ٣٥؛ الترمذي، اللباس، ١٠.

٢٢٥ المنائح: جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة التي تُعطَى للغير ليحلبها وينتفع بلبنها ثم يردها على صاحبها، وقد تكون عطية مؤبدة بعينها ومنافعها كالهبة.

٢٢٦ البخاري، الهبة ١، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨.



وكان رسول الله r يأمر آل بيته بحياة الزهد، فعن ثوبان t مولى رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال:

كان رسول الله r إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة، فقدم من غَزَاةٍ له وقد علَّقت مِسحًا- أو سِترًا- على بابها، وحَلَّت الحسن والحسين قُلبَين من فضة، فقدم فلم يدخل، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأى، فهتكت الستر، وفَكَّكت القلبين عن الصبيَّين، وقطَّعته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله r وهما يبكيان، فأخذه منهما، وقال:

«يا ثوبان، اذهب بهذا إلى آل فلان- أهل بيت بالمدينة- إن هؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا. يا ثوبان، اشتر لفاطمة قلادة من عَصَب، وسوارين من عاج».[٢٢٧]

لقد ربَّى رسول الله r أهله على حياة التواضع؛ فابنته فاطمة أمٌّ لأهل البيت وللسلسلة الذهبية؛ أي لاتباع عبد القادر الجيلاني، وشاه نقشبند، وأحمد الرفاعي، وكثير من أولياء الله وأصفيائه والمقربين إليه، وهي خير قدوة تقتدي بها نساء أمة محمد r .

فنتعلم من حياة النبي r أنه على المسلم أن يجني المال بنفسه ثم يستعمله على قدر كفايته دون إسراف، ويعتدل في حاجاته، وينفق ما يزيد عليها كي ينال رضا الله سبحانه وتعالى، وعليه أن يفيد المخلوقات كلها بيديه ولسانه وقلبه. فلا ضير في أن يكون المسلم غنيًّا ما دام أنه مدرك لما ذكرناه، وليس ذلك مما يناقض مفهومَي الزهد والتقوى، غير أن الخطر كل الخطر إن دخلَ حبُّ المال القليل في القلب وتجذَّر فيه فجعلَ صاحبه يميل إلى تقديسه.

---

٢٢٧ أبو داود، الترجل، ٢١/٤٢١٣.



تقوى رسول الله r

التقوى وقايةُ العبد نفسه من كل شيء يُبعِده عن الله سبحانه وتعالى.

والتقوى القضاءُ على الرغبات النفسانية والترقي بالاستعدادات الروحانية.

والتقوى تربيةُ النفس وأداءُ الأحكام الدينية والمعاملات والعبادات في ظلال المحبة والسعي والتضحية والوجد.

ولا ينال هذه الخصال الحميدة إلا من يحب الله تعالى كما يليق به، ويخشى أن يفوته رضا الله ومحبته. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)[٢٢٨]

(وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)[٢٢٩]

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ)[٢٣٠]

ويقول رسول الله r :

«**وأحبُّ العبيد إلى الله تبارك وتعالى الأتقياء الأخفياء**».[٢٣١]

«**إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا**».[٢٣٢]

وكان رسول الله r كثيرًا ما يدعو قائلًا:

«**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**[٢٣٣]».[٢٣٤]

---

٢٢٨ الحجرات: ١٣.

٢٢٩ الجاثية: ١٩.

٢٣٠ البقرة: ١٩٧.

٢٣١ الحاكم، جـ٣، ص٣٠٣. انظر: ابن ماجه، الفتن، ١٦.

٢٣٢ أحمد، جـ٥، ص٢٣٥؛ الهيثمي، جـ٩، ص٢٢.

٢٣٣ الغنى هنا غنى النفس والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم.

٢٣٤ مسلم، الذكر، ٧٢.



وقلَّما كان رسول الله r يقوم من مجلس حتى يدعو بهذا الدعاء لأصحابه:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك».[٢٣٥]

وقد رآه الصحابة ودموعه بلَّتْ لحيته فقالوا: إنا نراك تبكي، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟، فقال:

«إنَّ خشيتي منه أبكتني، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف إن زغت منه هلكت».[٢٣٦]

وعن ابن عمر v أن رسول الله r سمع قارئًا يقرأ:

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا)[٢٣٧] فصُعِق.[٢٣٨]

وقد أوصى النبي r أمته فقال:

«لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس».[٢٣٩]

«من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأتِ التقوى».[٢٤٠]

وخلاصة القول أنه على المؤمن حينما يأتي بأي حركة أن يسأل نفسه: «أَيرضى الله عنها، أم أنها تجلب غضبه سبحانه؟». ويسعى إلى تقوى الله تعالى قبل كل شيء. وما أكثر الأمثلة لأُناسٍ انجروا إلى الهلاك بعد أن حصَّلوا العلوم دون التقوى.

---

٢٣٥ الترمذي، الدعوات، ٧٩.

٢٣٦ أبو نعيم، دلائل النبوة، جـ١، ص٢٣٧.

٢٣٧ المزمل: ١٢.

٢٣٨ علي المتقي، كنز العمال، جـ٧، ٢٠٦/١٨٦٤٤.

٢٣٩ الترمذي، القيامة، ١٩/ ٢٤٥١؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٤.

٢٤٠ مسلم، الأيمان، ١٥.

الارتباط بالقلب مع رسول الله r : الصلوات الشريفة

يقول الله U:

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[٢٤١]

إن ربنا سبحانه وتعالى وملائكته الذين لا يحصيهم سواه يصلون على النبي r ، فعلينا أن نذكره r كل حين، ونصلِّي عليه ونسلِّم كما يليق به.

وعن أُبَي بن كعب t قال:

يا رسول الله إني أُكثِرُ الصلاةَ عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئت**». قال: قلت: الربع، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قال: قلت: فالثُّلُثَين، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها قال: «**إذًا تُكفَى همَّك، ويُغفَر لك ذنبك**».[٢٤٢]

وإذا صلَّى المؤمن على رسول الله وسلَّم عليه فإن رسول الله r يجيبه بأحسن منها.[٢٤٣] وبحسبِ المؤمن هذا الجوابُ ثوابًا له، فدعاء النبي مقبول عند الله تعالى ولا يُردُّ.

يقول رسول الله r :

«**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام**».[٢٤٤]

---

٢٤١ الأحزاب: ٥٦.

٢٤٢ الترمذي، القيامة، ٢٣/٢٤٥٧؛ الحاكم، جـ٢، ٤٥٧/٣٥٧٨؛ البيهقي، شعب، جـ٣، ١٤١٨/٨٥؛ عبد الرزاق، مصنف، جـ٢، ص٢١٤.

٢٤٣ انظر: النساء: ٨٦.

٢٤٤ أبو داود، المناسك، ٩٦.



«من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ نائيًا أبلغته».[٢٤٥]

وعن أبي الدرداء t ، قال: قال رسول الله r :

«أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة؛ فإنه مشهود، تشهده الملائكة، وإن أحدًا لن يصلي عليَّ، إلا عُرِضَت عليَّ صلاته، حتى يفرغ منها».

قال: قلت: وبعد الموت؟ قال:

«وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حي يرزق».[٢٤٦]

إن كثرة الصلاة على النبي علامة على محبته r ، وهذا ما يقرِّب العبد من رسول الله الذي يقول في الحديث الشريف:

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاةً».[٢٤٧]

والله سبحانه وتعالى يرضى عمَّن يصلي ويسلم على نبيه، ويُكرِمه إكرامًا تعجز الأقلام عن وصفه. ومن صلىَّ على النبي مرةً، صلَّى عليه الله تعالى عشرًا،[٢٤٨] وحُطَّت عنه عشر خطيئات، ورُفِعت له عشر درجات.[٢٤٩] وما من أحد يصلي عليه إلا صلَّى عليه جبريل u عشرًا، ولا يسلم عليه أحد إلا سلَّم عليه جبريل عشرًا.[٢٥٠]

---

٢٤٥ البيهقي، شعب، جـ٣، ١٤٠/ ١٤١٨.

٢٤٦ ابن ماجه، الجنائز، ٦٥. انظر: أبو داود، الصلاة ٢٠١/ ١٠٤٧، الوتر ٢٦.

٢٤٧ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٤.

٢٤٨ انظر: الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٥. انظر أيضًا: مسلم، الصلاة، ٧٠؛ أبو داود، الوتر، ٢٦/ ١٥٣٠؛ النسائي، الأذان، ٣٧/ ٦٧٦.

٢٤٩ انظر: النسائي، السهو، ٥٥/ ١٢٩٠.

٢٥٠ انظر: النسائي، السهو، ٥٥/ ١٢٩٣.



ولا يرضى الله سبحانه وتعالى أن لا نعمل شيئًا أمام كرمه إذ أرسل رسوله وحبيبه رحمة للعالمين، فمن بخل عن الصلاة عليه، خَطِئَ طريق الجنة.[٢٥١]
ويقول رسول الله r في هذا الشأن:

«ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم تِرَةً،[٢٥٢] فإن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم».[٢٥٣]



٢٥١ انظر: ابن ماجه، الإقامة، ٢٥.

٢٥٢ الترة: الحسرة والندامة.

٢٥٣ الترمذي، الدعوات، ٨/ ٣٣٨٠.



٢- سيدنا أبو بكر الصديق t

[٥٧٣- ٦٣٤م]

عبدُ الله بن عثمان التميمي القرشي ذو النسب الأصيل الذي يلتقي مع نسب رسول الله r في الجد السادس مُرَّة بن كعب. ويصغر سيدنا أبو بكر النبيَّ بسنتَين، وعندما كُلِّف رسول الله r بالنبوة كان أول من آمن به من الرجال.

وسيدنا أبو بكر الصديق t أحب الناس إلى الله ورسوله،[٢٥٤] وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[٢٥٥]، وهو الذي فَدَى النبي بروحه وماله وأهله، وجعل حياته وكل ما يملك في سبيل الحفاظ على الإسلام وتبليغه.

لقد كان سيدنا أبو بكر t ذا فراسة في إدراك الدين، فاهمًا أسراره وحِكَمه، بليغًا، ليِّن العريكة، جوادًا، قليل الكلام؛ وكان يوصي أثناء خلافته قادته وولاته بقِلَّة الكلام.

وكان أفضل الصحابة فهمًا لآيات الله تعالى وأحاديث نبيِّهِ r ،[٢٥٦] إذ رافق النبي r طوال عمره، وإن فارق النبي بجسده لحين، إلا أن قلبه كان معه دائمًا بحال الرابطة.

---

٢٥٤ انظر: البخاري، أصحاب النبي، ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٨؛ الترمذي، المناقب، ١٤.

٢٥٥ انظر: التوبة: ٤٠.

٢٥٦ انظر: البخاري، أصحاب النبي، ٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢؛ أبو داود، الملاحم، ١٧/ ٤٣٣٨؛ الترمذي، التفسير ٢٢/ ٣١٧١، المناقب ١٥/ ٣٦٥٩؛ النسائي، الجهاد ١.



وكان الصحابة الكرام يعرفون قيمة أبي بكر ، فكانوا يقولون:

«إياكم...فيغضب فيأتي رسول الله r فيغضب لغضبه، فيغضب الله U لغضبهما».[٢٥٧]

وقد بشَّره النبي r في قوله:

«**أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي**».[٢٥٨]

صِدقُه

عندما أراد رسول الله r إخبار مشركي قريش بحادثة الإسراء والمعراج قال لجبريل u :

«**يا جبريل، إن قومي لا يصدِّقونني**»

فقال جبريل u : «يصدِّقك أبو بكر وهو الصديق».[٢٥٩]

ولا يمكن تفسير تصديق أبي بكر لحادثة المعراج وعدم شكِّه البتة إلا بقوة الإيمان المتجذِّر في قلبه. وقد قال سيدنا علي t في متانة قلب الصديق:

«كنتَ كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله الرواجف».[٢٦٠]

معيته الدائمة للنبي r

كان رسول الله r يحب أبا بكر كثيرًا ولا يمر يوم قط إلا يأتيه.[٢٦١]

وعن عائشة أم المؤمنين c أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله r أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفَي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي

---

٢٥٧ انظر: أحمد، جـ٤، ص٥٨؛ الحاكم، جـ٢، ١٨٨/ ٢٧١٨.

٢٥٨ أبو داود، السنة، ٨/ ٤٦٥٢.

٢٥٩ ابن سعد، الطبقات، جـ١، ص٢١٣؛ ابن هشام، جـ٢، ص٥.

٢٦٠ أبو نعيم، فضائل الصحابة، جـ١، ص٢٦٤.

٢٦١ انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص١٧٢.



أذن فيه لرسول الله r في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله r بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها: قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله r هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله r وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله r : «**أَخرِجْ عني من عندك**». فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي! فقال: «**إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة**». قالت: فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسول الله. قال: «**الصحبة**». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.[٢٦٢]

وكان سيدنا أبو بكر t أثناء سيرهما تلقاء غار ثور، يمشي ساعة بين يدي النبي، وساعة خلفه حتى فطِنَ له رسول الله r ، فقال:

«**يا أبا بكر، ما لك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟**»

فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد، فأمشي بين يديك.

فلما انتهيا إليه قال أبو بكر t : والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشقَّ إزاره وسدها به، وبقي منها اثنان فألقمها رجليه ثم قال لرسول الله r : ادخل. فدخل رسول الله r . فلما أصبح قال له النبي r :

«**فأين ثوبك يا أبا بكر؟**»

فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي r يده ودعا له.[٢٦٣]

---

٢٦٢ ابن هشام، جـ٢، ص٩٧-٩٨.

٢٦٣ انظر: الحاكم، جـ٣، ٧/٤٢٦٨؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٢٢٢-٢٢٣؛ علي القاري، مرقاة، جـ١٠، ص٣٨١- ٦٠٣٤/٣٨٢؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٣.

وجاءت قريش يطلبون النبي r ... وكان النبي r قائمًا يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر t للنبي r : هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أَئِلُ(٢٦٤)، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره.فقال له النبي r :

«**يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا**».(٢٦٥)

وعنه t أنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال:

«**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».(٢٦٦)

وذَكَرَ رجالٌ على عهد عمر t ، فكأنهم فضَّلوا عمر على أبي بكر v ، فبلغ ذلك عمر t ، فقال:

«والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر».(٢٦٧)

وما أكثر ما أخذ سيدنا أبو بكر t عن صدر النبي r من حكم وأسرار تجلت في ذلك الغار طوال ثلاثة أيام بلياليها، ونال فيه ذلك الشرف العظيم بأن حظيَ بالقرب من النبي r وانتفع من روحانيَّته. ووصل إلى درجة أن كان أحدَ الاثنين في ذلك الغار المبارك الذي صار محلًّا يترقَّى فيه القلب بالغوص في الأسرار الإلهية، وإليه توجه النبي r فقال له:

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا)(٢٦٨) فعلَّمه «**سرَّ المعية**»؛ أي حال الطمأنينة التي يبلغها القلب حين يكون مع الله تعالى.

---

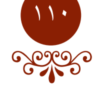
٢٦٤ أَئِل: أحزن، وأَلَّ المريض: رفع صوته عند ابتلائه بالمصيبة.

٢٦٥ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٢٢٢؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، جـ١، ص٣٢٨- ٣٢٩.

٢٦٦ البخاري، التفسير، ٩/ ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١.

٢٦٧ الحاكم، جـ٣، ٧/ ٤٢٦٨.

٢٦٨ التوبة: ٤٠.



ويرى العارفون هذه الحال بدايةَ تعليم الذكر الخفي، وأنها من أعظم مظاهر التعليم المعنوي الذي يوصل القلوب إلى الاطمئنان بالله سبحانه وتعالى.

فمحبة الله ورسوله تكون بمقدار التضحية والخدمة في سبيلهما، وشرط المحبة محبةُ ما يحبه الحبيب، وهذي المحبة خطوة مهمة في طريق انتقال حال الحبيب إلى المُحِب، وفي حياة أبي بكر t أمثلة كثيرة لهذه الحال.فقد قال له رسول الله r :

«**أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار**».[٢٦٩]

وعن ابن عمر v، أن رسول الله r خرج ذات يوم ودخل المسجد وأبو بكر وعمر v، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما، وقال:

«**هكذا نبعث يوم القيامة**».[٢٧٠]

فناؤه في رسول الله r

لقد كانت أحوال سيدنا أبي بكر t كأحوال رسول الله r، إذ كان t أقرب الناس إلى نبينا r وأحبَّهم إليه.

غير أن سيدنا أبا بكر t لم يبلغ هذا المقام إلا بكثير من التضيحات والمجاهدات، فالإنسان لا يعطي أغلى ما عنده إلا لمحبة، وأعظم محبة في هذه الدنيا الفانية المحبة في الله تعالى.

وعاش سيدنا أبو بكر t ساعيًا إلى محبة الله ورسوله آخذًا بالأسباب وبكل ما استطاع من قوة، كي يتلذذ بذلك المقام حينما يكون مقرَّبًا من الله ورسوله.

ولما أسلم أبو بكر t قام خطيبًا، فكان أول خطبته دعا إلى الله ورسوله، فثار المشركون على أبي بكر، فضربوه ضربًا شديدًا، ودنا منه عتبة بن ربيعة

٢٦٩ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧٠.

٢٧٠ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٦٩.



وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما بوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف أنفه من وجه.

فجاءت بنو تيم فحملت أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، لا يشكُّون في موته، وجعل أبوه وبنو تيم يكلمونه، فأجابهم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله r ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعَذَلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله r ؟... [فلما عَلِم أنه] في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو أتَى رسول الله r . [فلما جاء الدار] أكبَّ عليه رسولُ الله r فقبَّلَه وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله r رِقَّةً شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي.(٢٧١)

ولقد بلغ سيدنا أبو بكر t مقامًا عاليًا في الفناء في رسول الله r ، وخير دليل على ذلك الحادثة التالية:

لما دخل رسول الله r [مكةَ] ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله r قال:

«ألا تركت الشيخ في بيته حتى نأتيه؟»

قال: أردت أن يؤجره الله. لأَنَا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحًا مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك يا رسول الله.(٢٧٢)

وكان سيدنا أبو بكر t يقول:

«والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله r أحب إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي».(٢٧٣)

---

٢٧١ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٧، ص٣٢٦؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٨١.

٢٧٢ انظر: الهيثمي، جـ٦، ص١٧٣-١٧٤؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص٤٥١.

٢٧٣ البخاري، أصحاب النبي ١٢، المغازي ١٤.



وقد قال النبي r : «**ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر**»

فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله.[٢٧٤]

الصحابي الأقرب إلى أسرار النبي r

لقد كان قلب سيدنا أبي بكر t كالمرآة البراقة التي تعكس أحوال قلب رسول الله r ، فكان من أعظم الصحابة في فهم آيات الله وإدراك حِكَم أحاديث رسول الله r . وما أكثر ما أدركه t من دقائق تلك الأحاديث بفراسته وبصيرته وعجز غيره عن إدراكها؛ ففي حجة الوداع نزلت الآية الكريمة:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[٢٧٥]

فَسُرَّ الناس بكمال الدين، غير أن أبا بكر t أدرك بفراسته أن الله تعالى سيدعو رسوله وحبيبه إلى العالم الأبدي بعد وقت قريب، فأصابَ قلبَه الشوق بعد أن أحسَّ بقرب الفراق ومكثَ حزينًا مغمومًا.

وعندما لم يستطع النبي r الخروج إلى مسجده في أيامه الأخيرة لشدة مرضه، اختار أبا بكر ليؤمَّ الناس. وخرج يومًا وهو عاصب رأسه فصعد على المنبر وقال:

«**إن عبدًا عُرِضَت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة**».

فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر ذو القلب الرقيق، إذ أحسَّ أن كلام النبي هذا وداع لهم، فهو المقرَّب من أسرار النبي، فشرع يبكي، وقال:

«بأبي أنت وأمي بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا».[٢٧٦]

---

٢٧٤ ابن ماجه، المقدمة، ١١؛ أحمد، جـ٢، ص٢٥٣.

٢٧٥ المائدة: ٣.

٢٧٦ انظر: أحمد، جـ٣، ص٩١.



فتساءل القوم بِحيرة:

«ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؟». [٢٧٧]

فقال رسول الله r مخففًا عن أبي بكر ومبيِّنًا عِظَم شأنه بين الصحابة:

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله به يوم القيامة». [٢٧٨]

«يا أبا بكر لا تبكِ، إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته»[٢٧٩]. [٢٨٠]

وقد قال رسول الله r قبل انتقاله إلى دار القرار:

«لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر،[٢٨١] **إني أرى على باب أبي بكر نورًا».** [٢٨٢]

فسُدَّت كل الأبواب ما عدا باب أبي بكر t ، والمعنى الإشاري في ذلك أن باب القرب من رسول الله r لا يُفتَح إلا بولاء الصدِّيقِ وتسليمه وطاعته وتضحيته ومحبته.

---

٢٧٧ البخاري، الصلاة، ٨٠.

٢٧٨ الترمذي، جـ٥، ص٦٠٩/٣٦٦١.

٢٧٩ كلمة «خليلاً» هنا تعني حصر المحبة بالله تعالى لا غيره، فالحديث هنا يبيِّن لنا خطأ رفع محبة الناس إلى درجة محبة الله تعالى، ولزوم بقاء المحبة في إطار الأخوة في الدين.

٢٨٠ البخاري، الصلاة، ٨٠.

٢٨١ انظر: البخاري، أصحاب النبي ٣، مناقب الأنصار ٤٥، الصلاة ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢؛ الترمذي، المناقب ١٥.

٢٨٢ ابن سعد، الطبقات، جـ٢، ٢٢٧؛ علي المتقي، كنز العمال، جـ١٢، ٣٥٦٨٦/٥٢٣؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٣٠، ص٢٥٠.



فداؤه بكل شيء في سبيل الله U

لقد كان سيدنا أبو بكر t من أغنياء الصحابة، لكنه حينما فنى في رسول الله، فدا بروحه وماله في سبيله. وعندما كُلِّف نبينا الكريم بالنبوة، كانت ثروة أبي بكر t أربعين ألف درهم، فأنفق جزءًا كبيرًا من ماله في سبيل الإسلام، إذ أعتق كثيرًا من العبيد المسلمين، وكان عونًا وسندًا للمؤمنين. وقد أخذ في هجرته ما بقي معه وكان خسمة آلاف درهم، وظلَّ يُنفِق في سبيل الله في المدينة المنورة.

وكان سيدنا أبو بكر t قدوة في الإنفاق لا مثيل لها إذ جاء غير مرة بماله كله ووضعه بين يدي رسول الله r كي ينفقه في سبيل الله، فقال له النبي r :

«ما أبقيت لأهلك؟»

فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.[٢٨٣]

فلم يأذن رسول الله r لأحد من أصحابه بإنفاق ماله كله إلا لسيدنا أبي بكر t . فالمرء إن أنفق ماله ومُلكَه قد يقع في الفقر والحاجة، فتصيب الندامةُ قلبه بإغواء النفس والشيطان، ومثل هذه الندامة تمحو فضيلة العمل الصالح وتُضيع أجره. غير أن قلب الصِّدِّيق t كان مليئًا بمحبة الله ورسوله فصار إيمانه كالصرح الشامخ أمام عواصف المغريات الدنيوية.

عشقه العبادات

لمَّا لم يأذن مشركو قريش لأبي بكر بالعبادة في الكعبة، ابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن،

---

٢٨٣ أبو داود، الزكاة، ٤٠/ ١٦٧٨؛ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧٥.

وأفزع ذلك أشرافَ قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدَّغِنَة الذي أجار أبا بكر يسألونه ردَّ جواره.

فقال أبو بكر لابن الدَّغِنَة:

«فإني أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله U» والنبي r يومئذ بمكة.(٢٨٤)

وكان سيدنا أبو بكر t كغيره من أحباب المولى U يولي أهمية كبيرة للعبادات لا سيما في أوقات السحر.

وقد أخَّر رسول الله r العِشاءَ تسع ليال- قال أبو داود: ثمان ليال- إلى ثلث الليل، فقال أبو بكر t :

«يا رسول الله لو أنك عجلت لكان أمثل لقيامنا من الليل». فعجَّل بعد ذلك.(٢٨٥)

وعن أبي هريرة t ، أن رسول الله r قال:

«مَن أنفق زوجَين في سبيل الله، نُودِيَ من أبواب الجنة: (يا عبد الله هذا خير)، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة»

فقال أبو بكر t : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دُعِيَ من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعَى أحد من تلك الأبواب كلها، قال:

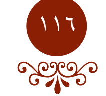
«نعم وأرجو أن تكون منهم».(٢٨٦)

---

٢٨٤ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥؛ ابن هشام، جـ١، ص٣٩٥- ٣٩٦.

٢٨٥ أحمد، جـ٥، ص٤٧.

٢٨٦ البخاري، الصوم، ٤، أصحاب النبي ٥؛ مسلم، الزكاة ٨٥، ٨٦.



وعن أبي هريرة t أن رسول الله r قال:

«**مَنْ أصبح منكم اليوم صائمًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضًا**» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله r : «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**».(٢٨٧)

وعن أبي بكر الصديق t ، أنه قال لرسول الله r : عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال:

«**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».(٢٨٨)

وعن أبي بكر الصديق t أنه قال: يا رسول الله مُرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت، وإذا أمسيت، قال:

«**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيء ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه**».(٢٨٩)

حرصه على اللقمة الحلال

كان لأبي بكر الصديق t مملوك يَغُلُّ(٢٩٠) عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية

٢٨٧ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢.

٢٨٨ البخاري، الأذان ١٤٩، الدعوات ١٧، التوحيد ٩؛ مسلم، الذكر ٤٨.

٢٨٩ أبو داود، الأدب، ١٠٠-١٠١/٥٠٦٧؛ الترمذي، الدعوات، ١٤/٣٣٩٢.

٢٩٠ أغلَّ الرجل: خان في المغنم وغيره.



فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرسٌ لهم فأعطوني، قال: إن كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله r يقول:

«**كل جسد نَبَتَ من سُحْت**(٢٩١) **فالنار أولى به**».(٢٩٢)

وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(٢٩٣)(٢٩٤)

خلافته

رأى رسول الله r أبا بكر وعمر v فقال:

«**هذان السمع والبصر**».(٢٩٥)

وقال فيهما:

«**اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر، وعمر**».(٢٩٦)

وعن جبير بن مطعم t أنه قال: أتت امرأةٌ النبيَّ r، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول: الموت، قال r:

---

٢٩١ السُّحت: ما خبث وقبح من المكاسب فلزم عنه العار كالرشوة ونحوها.

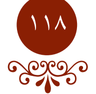
٢٩٢ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٢٦؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣١؛ أحمد بن عبد الله الطبري، الرياض النضرة، جـ١، ص١٩٨.

٢٩٣ النازعات: ٤٠-٤١.

٢٩٤ القرطبي، جـ١٩، ص١٣٥.

٢٩٥ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٧١.

٢٩٦ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٦٢.



«إن لم تجديني فأتي أبا بكر».[٢٩٧]

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة c أن النبي r قال في مرضه الأخير:

«لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد، أن يقول القائلون- أو يتمنى المتمنون- ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون[٢٩٨]- أو يدفع الله ويأبى المؤمنون-».[٢٩٩]

وهذه الأحاديث كلها أدلة قطعية وأحكام واضحة لا تدع مجال للجدال في موضوع خلافة سيدنا أبي بكر الصديق t .

وبعد وفاة رسول الله r بايع المهاجرون والأنصار سيدنا أبا بكر في السقيفة، ثم بايعوه بيعة عامة في اليوم التالي، فخطبَ سيدنا أبو بكر t - خير الناس بعد الأنبياء- في الناس فقال:

«أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. ولا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهُم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».[٣٠٠]

---

٢٩٧ البخاري، أصحاب النبي، ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠؛ الترمذي، مناقب، ١٦/٣٦٧٦.

٢٩٨ أي يأبى الله إلا خلافة أبي بكر ويدفع المؤمنون خلافة غيره لاستخلافي له في الإمامة الصغرى. [إرشاد الساري، القسطلاني، جـ٨، ص٣٥٣].

٢٩٩ البخاري، المرضى ١٦، الأحكام ٥١؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١.

٣٠٠ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص١٨٢-١٨٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٦٩، ٧١-٧٢.

وفي خطبة أخرى قال:

«والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله U في سر ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلِّدت أمرًا عظيمًا ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله U، ولوددت أنَّ أقوى الناس عليها مكاني اليوم».

فقَبِلَ المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به، قال علي t والزبير:

«...إنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد النبي r، إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعلم بشرفه وكبره، ولقد أمره النبي r بالصلاة بالناس وهو حي».[٣٠١]

وبعد وفاة رسول الله r بشهر، خطب أبو بكر t فقال:

«أما بعد، فإني وليت هذا الأمر وأنا له كاره، ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه، ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله r لم أقم به، كان رسول الله r عبدًا أكرمه الله بالوحي وعصمه به، ألا وإنما أنا بشر، ولست بخير من أحد منكم، فراعوني، فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإن رأيتموني زغت فقوِّموني».[٣٠٢]

وقد طلب سيدنا أبو بكر t من الصحابة الكرام أن يعينوه، فتولى أبو عبيدة t بيت المال، وتولى سيدنا عمر t القضاء؛ وقد كان ذلك المجتمع الذي ربَّاه رسول الله r خير المجتمعات وأفضلها، فكانت تمضي عليه السنة ولا يتخاصم اثنان أمام القاضي، وتولَّى سيدنا علي الكتابة والمشورة،[٣٠٣] فكان دائمًا في مجلس الخليفة يعينه ويشير إليه لحفظ النظام وأمن الأمة.[٣٠٤]

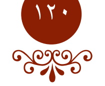
---

٣٠١ الحاكم، جـ٣، ٧٠/٤٤٢٢؛ البيهقي، السنن الكبرى، جـ٨، ص٢٦٣.

٣٠٢ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ٢١٢؛ أحمد، جـ١، ص١٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٧١.

٣٠٣ انظر: الطبري، تاريخ، بيروت ١٣٨٧هـ، جـ٣، ص٤٢٦؛ ابن الأثير، الكامل، بيروت ١٤١٧هـ، جـ٢، ص٢٦٣.

٣٠٤ أحمد جودت باشا، قصص الأنبياء، إسطنبول ١٩٧٦، جـ١، ص٣٢٨.



لقد كان سيدنا أبو بكر الصديق أحبَّ الناس إلى النبي، وصاحبَه في الغار، وحماه، ووزيره، ومستشاره، وخليفته؛ وقد تغلَّب بفضل الله تعالى ولطفه على كثير من المصائب في خلافته، لا سيما حينما قمعَ المرتدين بعد وفاة النبي بحكمة ودراية، فلم يسمح بتفكك دولة الإسلام، وضَمِنَ استمرار الفتوحات الإسلامية.

كما أنه حاربَ بعزيمة من امتنع عن دفع الزكاة بعد وفاة النبي r ، وقال: «لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه». فقضى على الفتنة، وسدَّ جميع الأبواب التي قد تؤدي إلى تحريف الدين، حتى إن سيدنا عمر t العادل الشديد في دينه قد أُعجِبَ به وغبطه حينما رأى عزمه وغيرته على الدين.[٣٠٥]

وفي خلافته t جُمِع القرآن الكريم كما نزل على رسول الله r في مصحف واحد، فقضى بذلك على كل فتنة قد تظهر في أمور الدين.

فنستخلص من كل ما ذكرناه أن سيدنا أبا بكر t قد قدَّم خدمات عظيمة، وسعى وجاهد في سبيل امتثال أمة محمد لما جاء في القرآن والسنة، وسموها متوحدة مجتمعة.

تواضعه ورحمته وعفوه

لقد كان سيدنا أبو بكر t متواضعًا زاهدًا في حياته قبل خلافته وبعدها، فكانت إماء الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن قبل خلافته، وبعد أن صار خليفة ظن جيرانه أن مشاغله ستزداد وتتغير حياته ولن يقدر على تقديم مثل تلك الخدمات، لكن لم يتغير شيء عند سيدنا أبي بكر، بل ظل بتواضعه نفسه يحلب غنم اليتامى ويقضي حاجاتهم.[٣٠٦]

٣٠٥ انظر: علي القاري، مرقاة، جـ١٠، ٣٨١-٣٨٣/٦٠٣٤.

٣٠٦ انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨٠.



وقد قال رسول الله r فيه:

«**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**».[٣٠٧]

وكان أبو بكر يسمى «الأوَّاه» لرأفته ورحمته.[٣٠٨]

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: بينما رسول الله r جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أَوَجدْتَ عليَّ يا رسول الله؟

فقال رسول الله r :

«**نزل ملك من السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**».[٣٠٩]

تفضيله الآخرة دائمًا

لم يمِل t يومًا إلى الدنيا، وكان مثل رسول الله r إذ كانت غايته أن ينهي رحلته في هذه الدنيا بشوق للوصال مع الله تعالى وتحرير قلبه من ثقل الدنيا وهمومها، ولما حضرته الوفاة أوصى أن تُبَاعَ أرض له، ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.[٣١٠]

ولما احتضر قال:

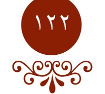
---

٣٠٧ الترمذي، المناقب، ٣٢/ ٣٧٩٠-٣٧٩١.

٣٠٨ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص١٧١.

٣٠٩ أبو داود، الأدب، ٤١/ ٤٨٩٦.

٣١٠ ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٤٢٨ - ٤٢٩.



«يا عائشة، انظري اللقحة[٣١١] التي كنا نشرب من لبنها، والجفْنَة[٣١٢] التي كنا نصطبغ فيها، والقطيفة[٣١٣] التي كنا نلبسها. فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا متُّ فارددیه إلى عمر».

فلما مات أبو بكر t أرسلت به إلى عمر t ، فقال عمر t :

«رحمك الله يا أبا بكر! لقد أتعبت من جاء بعدك».[٣١٤]

وكان سيدنا أبو بكر t يقول في دعائه:

«اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك».[٣١٥]

وفاته

عن ابن عمر v أنه قال: كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله r ، ما زال جسده يجري- أي ينقص- حتى مات.[٣١٦]

وعن عائشة c ، قالت:

دخلت على أبي بكر t ، فقال: في كم كفَّنتم النبي r ؟ قالت: «في ثلاثة أثواب بيض سحولية[٣١٧]، ليس فيها قميص ولا عمامة».

---

٣١١ اللَّقْحَةُ : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

٣١٢ القصعة الكبيرة.

٣١٣ قطيفة: كساء له خمل.

٣١٤ أحمد، الزهد، ص١١٠-١١١؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ١٩٢-١٩٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٧٨-٧٩.

٣١٥ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٣.

٣١٦ الحاكم، جـ٣، ٦٦/٤٤١٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨١.

٣١٧ السَّحْل: الثوب الأبيض الرقيق، والثوب لا يُبَرَم غزله.

وقال لها: في أي يوم توفي رسول الله r ؟ قالت: «يوم الاثنين» قال: فأي يوم هذا؟ قالت: «يوم الاثنين» قال: أرجو فيما بيني وبين الليل.

[«فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحبَّ الأيام والليالي إليَّ أقربها من رسول الله r ».[318]]

فنظر إلى ثوب عليه، كان يمرض فيه به رَدْعٌ من زعفران[319]، فقال: «اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين، فكفنوني فيها»، قلت: «إن هذا خَلَقٌ[320]»،

قال: «إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة». فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودفن قبل أن يصبح[321].[322]

فنال t الوصال مع سيد الأنبياء والمرسلين بعد أن أمضى سنتَين وثلاثة شهور وعشرة أيام مشتاقًا إليه.

وتوفي وعمره ٦٣ سنة كعمر النبي r ، وذلك في ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣هـ الموافق لـ ٢٣ آب/ أغسطس عام ٦٣٤م. وكان آخر ما تكلم به:

(تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[323] [324]

---

٣١٨ أحمد، جـ١، ص٨.

٣١٩ أي أثرٌ من الزعفران.

٣٢٠ الخَلَق: البالي من الثياب والجلد وغيرها.

٣٢١ تعليق مصطفى البغا: (أرجو فيما بيني وبين الليل) أتوقع أن تكون موتتي فيما بين ساعتي هذه وبين الليل. (ردع) لطخ وأثر. (خلق) بال غير جديد. (للمهلة) للقيح والصديد الذي يذوب من جسم الميت.

٣٢٢ البخاري، الجنائز، ٩٤.

٣٢٣ يوسف: ١٠١.

٣٢٤ الكوثري، إرغام المريد، ص٢٣.



من حِكَمه

- لا خيرَ في قولٍ لا يُرَادُ به وجه الله تعالى، ولا خيرَ في مال لا يُنفَق في سبيل الله U، ولا خيرَ فيمَنْ يغلب جَهلُه حِلمَه، ولا خير فيمَنْ يخاف في الله لومة لائم.[٣٢٥]
- إن الله ليس له شريك وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره.[٣٢٦]
- اعلم أن لله U عملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملًا بالليل لا يقبله بالنهار.[٣٢٧]
- لا تماظ[٣٢٨] جارك، فإنه يبقى ويذهب عنك الناس.[٣٢٩]
- فُرَّ من الشُهْرَةِ يتبعك الشرف، واحرص على الموت توهبْ لك لاحياة.[٣٣٠]
- سلوا الله العافية فإنه لم يُعطَ عبدٌ شيئًا أفضل من العافية.[٣٣١]
- كان أبو بكر إذا مُدِحَ قال: «اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وأعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون».[٣٣٢]

---

٣٢٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٦.

٣٢٦ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠١.

٣٢٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٦.

٣٢٨ المماظة: المنازعة والمخاصمة.

٣٢٩ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨٣.

٣٣٠ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص٦٧.

٣٣١ أحمد، جـ١، ص٨.

٣٣٢ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٤.

- إن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربُّه U ، حتى يفارق تلك الزينة.[٣٣٣]
- إياكم والفخر، وما فخر من خُلِقَ من تراب، ثم إلى التراب يعود، ثم يأكله الدود، ثم هو اليوم حي وغدًا ميت.[٣٣٤]
- أين الوضَّاءةُ الحسنةُ وجوهُهم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يُعطُون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع أركانهم، حين أضنِيَ بهم الدهر، وأصبحوا في ظلمات القبور، الوَحَا الوَحَا[٣٣٥]، ثم النجا النجا.[٣٣٦]
- تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟[٣٣٧]



٣٣٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٧؛ الخاني، الحدائق، ص٢٨٨.

٣٣٤ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠١.

٣٣٥ أي السرعة السرعة.

٣٣٦ البيهقي، شعب، جـ٧، ٣٦٤/١٠٥٩٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٢.

٣٣٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٣٥-٣٦.



٣- سلمان الفارسي t

[توفي سنة ٦٥٤م]

عزمه على بلوغ الحق والحقيقة

إن قصة سلمان t في بحثه عن الدين الحق مليئة بالعِبر، وقد حكاها لابن عباس V فقال:

كنت رجلًا فارسيًّا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جَيٌّ، وكان أبي دِهقَانَ[٣٣٨] قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبَس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطَنَ النار[٣٣٩] الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يومًا، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطَّلعها، وأَمَرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

---

٣٣٨ رئيس قريته.

٣٣٩ قَطَنُ النار: القيِّم على نار المجوس وموقدها.



قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته، قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذِنُوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه.

قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغِّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قِلالٍ[٣٤٠] من ذَهبٍ ووَرِقٍ[٣٤١]، قال: وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويُرغِّبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعطِ المساكين منها شيئًا، قالوا: وما علمك بذلك؟، قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم

٣٤٠ القُلَّة: الجرَّة العظيمة، وقيل: كوز صغير.

٣٤١ الوَرِق: الفضة.



موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبًا وورِقًا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاؤوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه، قال: فأحببته حبًّا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبًّا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلًا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنتُ عليه، فالْحَقْ به.

قال: فلما مات وغَيَّبَ، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أَقِم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانًا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله U ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلًا على مثل ما كنا عليه إلا بنَصِيبين، وهو فلان، فالحَقْ به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته بخبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبَيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلًا بعمورية، فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أَقِمْ عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى صارت لي بقرات وغُنَيمةٌ، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع

فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرًا إلى أرض بين حرَّتَين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث.

ثم مر بي نفر من [قبيلة] كلب تُجَّارًا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغُنَيمتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقْ لي في نفسي، فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة.

فوالله إني لفي رأس عَذْقٍ(٣٤٢) لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان، قاتل الله بني قَيلَةَ [يعني الأوس والخزرج]، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُبَاءَ على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال: فلما سمعتها أخذتني العُرَوَاءُ(٣٤٣)، حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي

٣٤٢ العَذْقُ: النخلةُ بحملها.

٣٤٣ العُرَوَاءُ: برد الحمى أول مسِّها.



فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبِلْ على عملك، قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبت عمَّا قَالَ.

وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله r وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه، فقال رسول الله r لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا، وتحول رسول الله r إلى المدينة، ثم جئت به، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله r منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله r وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان[٣٤٤] له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله r استدرته، عرف أني أستثبت في شيء وُصِفَ لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله r : «تحول» فتحولت.

فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول الله r أن يسمع ذلك أصحابه.[٣٤٥]

ثم شغلَ سلمانَ الرِّقُّ حتى فَاته مع رسول الله r بدر وأحد، قال: ثم قال لي رسول الله r : «كاتِبْ يا سلمان » فكاتبت صَاحبي على ثلاثمئة نخلة أحييها له

٣٤٤ الشَّملة: كساء من صوف أو شعر يُتغطَّى به.

٣٤٥ أحمد، جـ٥، ص٤٤١-٤٤٤؛ ابن هشام، جـ١، ص٢٤٢،٢٣٣؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٧٥-٨٠.



بالفَقير[٣٤٦]، وبأربعين أوقية، فقال النبي r لأصحابه: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين وَدِيَّة[٣٤٧]، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمئة وَدِيَّةٍ.

فقال لي رسول الله r :

«**اذهب يا سلمان ففقِّر[٣٤٨] لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي**».

قال: ففقَّرتُ لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله r معي إليها فجعلنا نقرب له الوَدِيَّ ويضعه رسول الله r بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ المال. فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب، أصابه من بعض المعادن، فقال:

«**ما فعل الفارسي المُكَاتَب؟**»

قال: فدُعِيتُ له، فقال:

«**خذ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان**»

فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال:

«**خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك**»

قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فلو وُزِنَت بأُحد لكانت أثقل منه، فأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله r الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد.[٣٤٩]

---

٣٤٦ الفقير: حفيرٌ يُحفَر حول الفسيلة إذا غُرِسَت.

٣٤٧ الوديُّ: صغار الفسيل، الواحدة وَدِيَّة.

٣٤٨ فَقَّرَ: حَفَرَ لها حُفرة لتُغرس فيها.

٣٤٩ انظر: أحمد، جـ٥، ص٤٤٣-٤٤٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ص٤١٩؛ ابن عبد البر، جـ٢، ص٦٣٤-٦٣٨.



فكان سلمان t من أصحاب الصُّفَّة الذين لم يفارقوا النبي حتى وفاته.

وأضحَت قصة حياته t مثالًا حيًّا لنا نفهم منه التضحية في سبيل بلوغ الحق والحقيقة، ونتعلم معنى الحياة بإيمان ثابت لا يتزعزع. لذا فإننا كلما أحببنا رسول الله r في هذه الدنيا، واقتدينا به في أحوالنا ومعاملاتنا، كنَّا قريبين منه- إن شاء الله- في ذلك اليوم العصيب.

سلمان من آل البيت

لقد ضَحَّى سلمان t في سبيل الله تعالى، وكان محبًّا للنبي r متَّبعًا سنته. وقد احتجَّ المهاجرون يومًا وقالوا: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فأراد رسول الله r أن يُنهِيَ ذلك الاحتجاج فأثنى على سلمان t فقال:

«**سلمان منا أهل البيت**».[٣٥٠]

ويقول رسول الله r في حديث آخر:

«**ألا إن آل أبي- يعني فلانًا- ليسوا لي بأولياء، إنما وليي اللهُ وصالحُ المؤمنين**».[٣٥١]

وعن عائشة c أنها قالت:

«كان لسلمان مجلس من رسول الله r ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله r ».[٣٥٢]

وعن سلمان t قال: «دخل علي النبي r يعودني فلما أراد أن يخرج قال:

---

٣٥٠ انظر: الحاكم، جـ٣، ٦٩١/٦٥٤١؛ الهيثمي، جـ٦، ص١٣٠؛ ابن هشام، جـ٣، ص٢٤١؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٨٣.

٣٥١ مسلم، الإيمان، ٣٦٦؛ البخاري، الأدب، ١٤؛ أبو داود، الفتن، ٤٢٤٢/١.

٣٥٢ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ص٦٣٦؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ص٥١٠.



«**يا سلمان كشف الله ضُرَّك، وغفر ذنبك، وعافاك في دينك وجسدك إلى أجلك**».[٣٥٣]

ولم يأخذ t صدقةً،[٣٥٤] ولم يقبل من أحد شيئًا.[٣٥٥]

ولما فرض سيدنا عمر t العطاء وعمل الديوان، أعطى لسلمان الفارسي مثل ما أعطى للحسن والحسين.[٣٥٦] غير أن سلمان t الزاهدَ في الدنيا كان يتصدَّق بما خُصِّص له، واختار أن يعيش مما يعمله من حصير وسلال من ورق النخل.[٣٥٧]

فضائله

كان سلمان الفارسي سابق الفرس... والكادح الذي لا يبرح، والزاخر الذي لا ينزح، والحكيم، والعابد العليم...

رافع الألوية والأعلام، وأحد الرفقاء والنجباء، ومن إليه تشتاق الجنة من الغرباء، ثبت على القلة والشدائد، وكان من الذين يفتون في زمان النبي.[٣٥٨]

وعن ابن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله r :

«**إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم**».

---

٣٥٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٢، ص٢٩٩.

٣٥٤ ابن الجوزي، صفة الصوة، جـ١، ص٥٤١؛ الشعراني، الطبقات الكبرى، بيروت، بدون تاريخ، جـ١، ص٢٣؛ الخاني، حدائق، ص٢٩٥.

٣٥٥ ابن عبد البر، الاستيعاب، جـ٢، ص٦٣٥.

٣٥٦ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص٦١٤؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٣٣١-٣٣٢.

٣٥٧ انظر: إبراهيم خطيب أوغلو، مادة «سلمان الفارسي»، الموسوعة الإسلامية، جـ٣٦، ص٤٤٢.

٣٥٨ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص١٨٥.

قيل: يا رسول الله سمِّهم لنا، قال:

«**عليٌّ منهم**»، يقول ذلك ثلاثًا «**وأبو ذر، والمقداد، وسلمان أمرني بحبهم، وأخبرني أنه يحبهم**».[٣٥٩]

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله r :

«**إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان**».[٣٦٠]

وكان الصحابة الكرام يأتون سيدنا سلمان ويطلبون الدعاء منه.

وكان الإنسانُ إذا ظُلِمَ اشتكى إلى سلمان.[٣٦١] وكان t من الصحابة الذين يُؤخَذ منهم العلم.[٣٦٢]

وقد جاء رجلٌ يومًا دارَ سلمان t فما رأى فيه إلا سيفه وقرآنه، فأخبره أنه أنفق ماله كله كي يصل سالمًا إلى دار عصيبة؛ أي الآخرة.

صلته بسيدنا أبي بكر t وقاسم بن محمد (رحمه الله)

بعد وفاة النبي r لم يترك سلمان t المدينة المنورة بل بقي مصاحبًا سيدنا أبا بكر، وكانت صلته به قريبة، فتلقى الفيوضات منه، وبلغ مبلغًا عظيمًا في العلوم الظاهرة والباطنة.

وربَّى سيدنا سلمان t طلبة كانوا من صفوة الطلبة، فمنهم أبو سعيد الخدري، وابن العباس، وأنس بن مالك رضي الله عنهم جميعاً؛ وروى أبو هريرة t عنه الحديث، وكان من طلبته قاسم بن محمد الذي كان من كبار التابعين

٣٥٩ الترمذي، المناقب، ٣٧١٨/٢٠.

٣٦٠ الترمذي، المناقب، ٣٧٩٧/٣٤.

٣٦١ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠١.

٣٦٢ انظر: الحاكم، جـ٣، ٥١٨٣/٣٠٤.



وأحد فقهاء المدينة السبعة، وقد تربى على يد سيدنا سلمان وحضرَ مجالسَه المعنوية، فارتقى قلبه فيها وبلغ الكمال.

وكان سلمان t في الصفوف الأولى لجيش المسلمين الذي حارب المرتدين.[٣٦٣]

ودخل سلمان t يومًا على أبي بكر الصديق t في مرضه، فقال:

«يا خليفة رسول الله، اعهدْ إليَّ عهدًا، فإني لا أراك تعهد إليَّ بعد يومي هذا»، قال: «أجل يا سلمان، إنها ستكون فتوح، فلا أعرفن ما كان من حظك منها، ما جعلت في بطنكَ، أو ألقيتَهُ على ظهرك».[٣٦٤]

وشارك سلمان t في فتوحات فارس في خلافة سيدنا عمر، ووقف في الصفوف الأولى يدعو أهل فارس إلى دين الإسلام بلسانهم. وكان إذا دارت رحى الحرب تحدَّث في أجناد الإسلام ليرفع معنوياتهم ويذكِّرهم بيوم الآخرة، وقد نفع جيش الإسلام أيما نفع لخبرته وعلمه بعادات أهل فارس.

وتولى سلمان إمارة جيش من جيوش المسلمين، فحاصروا قصرًا من قصور فارس، فقالوا: يا أبا عبد الله، ألا ننهد[٣٦٥] إليهم؟ قال: دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله r يدعوهم فأتاهم سلمان، فقال لهم:

«إنما أنا رجل منكم فارسي، ترون العرب يطيعونني، فإن أسلمتم فلكم مثل الذي لنا وعليكم مثل الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم عليه، وأعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون».[٣٦٦]

---

٣٦٣ صابر عبده إبراهيم، سلمان الفارسي، بغداد، بدون تاريخ، ص٣٥.

٣٦٤ البيهقي، شعب، جـ٧، ص٣٦٥؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٣، ص١٩٣.

٣٦٥ نهدَ إلى العدو: برز له وشرع في قتاله.

٣٦٦ الترمذي، السير، ١/ ١٥٤٨.



عباداته

كان سلمان t في عصابة يذكرون الله U، فمرَّ بهم رسول الله r، فجاءهم قاصدًا حتى دنا منهم، فكفُّوا عن الحديث إعظامًا لرسول الله r، فقال:

«ما كنتم تقولون؟ فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها».[٣٦٧]

وكان إذا جنَّ الليل صلَّى، فإذا أعيا، ذكر الله U بلسانه، فإذا أعيا، تفكَّر في آيات الله وعظمته، ثم يقول لنفسه: «استرحتِ فقومي». فإذا صلَّى زمانًا قال للسانه: «استرحتَ فاذكرْ». وهكذا طوال الليل.[٣٦٨]

تواضعه

عندما فُتحَت (**المدائن**) في فارس عيَّن سيدنا عمر t سلمان الفارسي واليًا عليها، فكان t واليًا عادلًا أحبه الناس، وبلَّغ دين الله لأهله وقومه بكلماته الحكيمة ونصائحه القيمة، وسلوكه الرائع وأحواله السامية، فانتشر الإسلام هناك في وقت قصير.

وعندما كان سلمان أميرًا على (**المدائن**)، جاء رجل من أهل الشام من بني تيم الله، معه حِمْلُ تين، وعلى سلمان أَنْدَرْوَرْدُ[٣٦٩] وعباءة، فقال لسلمان: تعالَ احملْ، وهو لا يعرف سلمان، فحمل سلمان، فرآه الناس، فعرفوه، فقالوا: هذا الأمير، قال: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا حتى أبلغ منزلك.[٣٧٠]

---

٣٦٧ الحاكم، جـ١، ٢١٠/٤١٩.

٣٦٨ الخاني، حدائق، ص٢٩٤.

٣٦٩ سروال قصير إلى الرُّكبة أو ما فوقها يستر العورة.

٣٧٠ ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٨٨.

فلما بلغ به منزله دعاه فقال: «لا تُسخِّر بعدي أحدًا».[٣٧١] وتفاخرت قريش عنده يومًا فقال: «لكني خُلِقتُ من نطفة مذرة ثم أعود جيفة منتنة إلى الميزان، فإن ثقل ميزاني فأنا كريم وإن خفَّ فأنا لئيم».[٣٧٢]

وأتى رجلٌ سلمانَ الفارسي t فوجده يعجن، فقال: أين الخادم؟ فقال: «أرسلته في حاجة، فلم يكن لنجمع عليه اثنتين، أن نرسله ولا نكفيه عمله».[٣٧٣]

وكان سلمان t يعمل الخُوصَ[٣٧٤]، ويقول: أشتري خُوصًا بدرهم، فأعمله، فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهمًا فيه، وأنفق درهمًا على عيالي، وأتصدق بدرهم.[٣٧٥]

وكان يعمل بيديه، فإذا أصاب شيئًا اشترى به لحمًا- أو سمكًا- ثم يدعو المُجذَّمِين فيأكلون معه.[٣٧٦]

فراسته

كان رسول الله r قد آخى بين سيدنا سلمان وأبي الدرداء V.

وكان سلمان الفارسي وأبو الدرداء يأكلان من صحفة[٣٧٧]، فسبَّحت الصحفة، أو سبَّح ما فيها.[٣٧٨]

---

٣٧١ ابن عساكر، جـ٢١، ص٤٣٣؛ الذهبي، سير، جـ١، ص٥٤٦.

٣٧٢ الخاني، حدائق، ص٢٩٥.

٣٧٣ معمر بن راشد، جامع، جـ١٠، ٣٩٣/١٩٤٦٤.

٣٧٤ ما يُصنَع من الخوص، والخوص ورق النخيل.

٣٧٥ ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٨٩؛ الخاني، حدائق، ص٢٩٥.

٣٧٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠٠.

٣٧٧ الصحفة: إناء من آنية الطعام.

٣٧٨ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ١، ص٢٠٩-٢١٠؛ البيهقي، دلائل، جـ٦، ص٦٣.



وزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتبذِّلَةً[٣٧٩]، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ؟ قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نَمْ، فلما كان من آخر الليل قال: سلمان قُم الآن، فصلَّيَا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه، فأتى [أبو الدرداء] النبيَّ r ، فذكر ذلك له، فقال النبي r :

«**صدق سلمان**».[٣٨٠]

وفي رواية أخرى قال: «**سلمان أعلم منك**».[٣٨١]

وكانت للأخوة في الدين شأن عظيم عند سلمان t ، إذ كان يزور أخاه أبا الدرداء من (المدائن) إلى الشام ماشيًا.[٣٨٢]

وكانت فكرة الخندق فكرة سلمان t ، وفي حصار طائف أشار للنبي r باستعمال المنجنيق والدبابة[٣٨٣] وقد عمل المنجنيق بنفسه.[٣٨٤]

---

٣٧٩ لابسة ثياب البذلة وهي المهنة أي تاركة لباس الزينة.

٣٨٠ البخاري، الصوم ٥١، الأدب ٨٦.

٣٨١ الهيثمي، جـ٣، ص١٩٩-٢٠٠؛ الخاني، الحدائق، ص٢٩٧.

٣٨٢ البخاري، الأدب المفرد، ص١٢٧، رقم: ٣٤٦.

٣٨٣ آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرّجال فيندفعون بها إلى الأسوار لينقبوها.

٣٨٤ البيهقي، دلائل، جـ٥، ص١٦١؛ ابن كثير، البداية، جـ٤، ص٣٤٨؛ الواقدي، جـ٢، ص٤٤٥-٤٤٧.

تقواه

وجاء [رجلان] إلى سلمان الفارسي t ، فدخَلا عليه في حصن في ناحية (المدائن)، فأتياه، فسلَّما عليه وحيَّياه، ثم قالا: أنت سلمان الفارسي؟

قال: نعم.

قالا: أنت صاحب رسول الله r ؟

قال: لا أدري، فارتابا

وقالا: لعله ليس الذي نريد، قال لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان، إني قد رأيت رسول الله r وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة.(٣٨٥)

وكتبَ أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي أن هلُمَّ إلى الأرض المقدسة. فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُهُ، وقد بلغني أنك جُعِلْت طبيبًا [أي قاضيًا] تداوي. فإن كنت تُبرِئ فنِعِمَّا لك، وإن كنت متطبِّبًا فاحذر أن تقتل إنسانًا فتدخل النار. فكان أبو الدرداء، إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه، نظر إليهما، وقال: ارجعا إليَّ، أعيدا عليَّ قصتكما. متطبِّبٌ والله.(٣٨٦)

وفاته

لما حضرت سلمانَ الوفاةُ، قال لصاحبة منزله: هلُمِّي خِبْأَكِ الذي استَخْبَأْتُكِ، قالت: فجئته بِصُرَّةِ مسك، فقال: ائتيني بقدح فيه ماء، فنثر المسك فيه، ثم مَاثَهُ(٣٨٧) بيده، ثم قال: انضحيه حولي، فإنه يحضرني خلق من خلق الله يجدون الريح ولا يأكلون الطعام، ثم اجْفَئِي(٣٨٨) عليَّ الباب وانزلي،

٣٨٥ الهيثمي، جـ٨، ص٤٠-٤١؛ الذهبي، سير، جـ١، ص٥٤٩.

٣٨٦ موطأ، الوصية، ٧.

٣٨٧ ماثَ الشيء في الماء: خلطه وأذابه.

٣٨٨ جفَأَ الباب: أغلقه.



قالت: ففعلتُ وجلستُ هنيهة، فسمعتُ هسهسة، قالت ثم صعدت، فإذا هو قد مات.[٣٨٩]

وتوفي t شهيدًا في سنة ٣٤ أو ٣٦هـ (٦٥٤ أو ٦٥٦ م) في داء البطن بالمدائن.[٣٩٠]

لقد عاش سلمان t طويلًا، وعندما توفي جُمِع ماله فكانت قيمة ما ترك بضعة وعشرون درهمًا أو بضعة وثلاثون درهمًا.[٣٩١]

من حِكَمه

- إنما مَثَل المؤمن في الدنيا كمثل مريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهى ما يضره منعه وقال: لا تقربه؛ فإنك إن أصبته أهلكك، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه. وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فُضِّلَ به غيره من العيش فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه حتى يتوفاه فيدخله الجنة.[٣٩٢]
- لا تكونن إن استطعت أوَّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته.[٣٩٣]
- إذا أسأتَ ربَّك سرًّا فأطعْه سرًّا؛ وإذا أسأته علانية فأطعه علانية، لكي تمحو هذه بهذه.[٣٩٤]

---

٣٨٩ انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ٤، ص٩٢؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠٧.

٣٩٠ الخاني، الحدائق، ص٢٩٨؛ مسلم، الإمارة، ١٦٥.

٣٩١ أحمد، جـ٥، ص٤٣٨؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص١٩٧.

٣٩٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠٦.

٣٩٣ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠٠.

٣٩٤ الخاني، الحدائق، ص٢٩٨.

- العلم كثير والعمر قصير فخذ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك ودع ما سواه.[٣٩٥]
- الصلاة مكيالٌ، من أوفى أُوفِيَ به، ومن طفَّف فقد علمتم ما للمطففين.[٣٩٦]

يقول الله تعالى: (**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**)[٣٩٧]

- يُوضَع الصراط وله حدٌّ كحد الموسى فتقول الملائكة: ربنا من تجيز على هذا؟! فيقول: أجيز عليه من شئت».[٣٩٨]
- إنما يُهلِكُ هذه الأمة نقضها عهودها.[٣٩٩]
- أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله U.[٤٠٠]

---

٣٩٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص١٨٨.

٣٩٦ عبد الرزاق، مصنف، جـ٢، ٣٧٢/٣٧٥٠.

٣٩٧ المطففين: ١-٦.

٣٩٨ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٧، ٥٩/٣٤١٩٥.

٣٩٩ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٧، ٥٤٣/٣٧٨١٧.

٤٠٠ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠٢.



٤- القاسم بن محمد (رحمه الله)

[٦٥٠- ٧٢٦م]

هو حفيد سيدنا أبي بكر t ، وُلِد في عام ٣٠ هجرية (٦٥٠ م)، وهو ابن خالة سيدنا زين العابدين حفيد رسول الله r .

وحين استُشهِد أبوه محمد بن أبي بكر V في مصر كان القاسم في السنة السادسة من عمره، فتربى يتيمًا على يد عمَّته أم المؤمنين السيدة عائشة C ،[٤٠١] فتعلَّم منها القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأحكام الدين.

وعنه قال: كنت إذا غدوت، أبدأ ببيت عائشة C أسلِّمُ عليها. فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ:

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)[٤٠٢]

وتدعو وتبكي وترددها. فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي، تصلي وتبكي.[٤٠٣]

---

٤٠١ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٤٩، ص١٦٤ . قارن: الموطأ، الزكاة، ١٠.

٤٠٢ الطور: ٢٧.

٤٠٣ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ٢، ص٣١. قارن: ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٢، ٢١١.



فضائله

كان القاسم بن محمد (رحمه الله) ثقةً، وكان رفيعًا، عاليًا، فقيهًا، إمامًا، كثير الحديث، ورعًا. وكان أفضل أهل زمانه.(٤٠٤)

وعن يحيى بن سعيد (رحمه الله)، قال:

«ما أدركنا بالمدينة أحدًا نُفَضِّلُه على القاسم بن محمد».(٤٠٥)

وكان (رحمه الله) صاحب علم وعرفان يحيا حياته بإيمان ثابت لا يلين. وكان كجدِّه أبي بكر t عاقلًا عاليَ الهِمَّة، عازمًا في قضاء حاجات أمة محمد. وقد قال عمر بن عبد العزيز فيه:

«لو كان لي من الأمر شيء لولَّيت القاسم بن محمد الخلافةَ».(٤٠٦)

وكان (رحمه الله) خاشيًا الله تعالى، دائم التفكر، كثير السجود.

وعنه (رحمه الله)، قال: دخلتُ على عائشة، فقلتُ:

«يا أُمَّهِ، اكشفي لي عن قبر النبي r وصاحبيه v، فكشفت لي عن ثلاثة قبور».(٤٠٧)

وكان القاسم بن محمد زاهدًا في الدنيا، وقد جيء يومًا بمئة ألف درهم فوزَّعها على الفقراء. وكان ينفق في سبيل الله من الأموال التي تعطى له حتى في أوقات ضيقه، ولا يقبل شيئًا من الناس.(٤٠٨)

---

٤٠٤ ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ١٩٣؛ الذهبي، سير، جـ٥، ص٥٣.

٤٠٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٢، ص١٨٤.

٤٠٦ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١، ص٣٥١.

٤٠٧ أبو داود، الجنائز، ٦٦-٦٨/٣٢٢٠.

٤٠٨ انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٨٩؛ الذهبي، سير، جـ٥، ص٥٩.



تعمقه في علم الحديث

كان القاسم بن محمد أفضل طلبة الصحابة الكرام في المدينة المنورة، ومن أعظم التابعين علمًا وصلاحًا. وعن أبي الزناد- أحد فقهاء المدينة- قال:

«ما رأيت أحدًا أعلمَ بالسُّنَّة من القاسم بن محمد، وكان الرجل لا يعد رجلًا حتى يعرف السُّنَّة».[٤٠٩]

وقد أخذ القاسم بن محمد كثيرًا من العلم من السيدة عائشة C وروى عنها الأحاديث، وأخذ العلم من الصحابة الكبار مثل سلمان الفارسي، وأبي هريرة، وابن العباس، وابن عمر y . وكان بحرًا في علم الحديث، وقد روى أرباب العلم من التابعين الحديثَ عن طريقه.

وكان القاسم بن محمد يحدِّث بالحديث على حروفه لحرصه ودقته في رواية الحديث، ولم يروِ كثيرًا من الأحاديث خشية أن يخطئ فيها أو يُنقِص.[٤١٠]

تعمقه في الفقه

كان القاسم بن محمد (رحمه الله) من كبار التابعين وأحد فقهاء المدينة السبع، ويحلُّ أصعب المسائل التي تعرض عليه. وقد قال عنه أبو زناد:

«ما رأيت فقيهًا أفضل من القاسم بن محمد».[٤١١]

وكان يأتي المسجد أول النهار، فيصلي رَكعَتين، ثم يجلس بين الناس، فيسألونه. وكان الناس يقعدون إليه بكرة، وكان يتحدث بعد العشاء الآخرة هو وأصحابه.[٤١٢]

---

٤٠٩ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٢، ص١٨٤.

٤١٠ ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٨٧؛ الذهبي، سير، جـ٥، ص٥٨.

٤١١ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٢، ص١٨٣.

٤١٢ ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٨٨، ١٨٩.



وفاته

توفي القاسم بن محمد (رحمه الله) بين مكة والمدينة حاجًّا أو معتمرًا بقديد في سنة ثمان ومئة هجرية، وكان قد ذهب بصره. وقال لابنه قبل وفاته: «كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها: قميصي، وإزاري، وردائي. فقال ابنه: يا أبتِ، لا تريد ثوبَين؟ فقال: «يا بني، هكذا كُفِّنَ أبو بكر في ثلاثة أثواب، والحي أحوج إلى الجديد من الميت. وإياك أن تقول: كان وكان (رحمه الله)».(٤١٣)

وكان يقول عند وفاته: «أنت ربي وحبي وسيدي».(٤١٤)

من حكمه

- إن من أعظم الذنب أن يستخف المرء بذنبه.(٤١٥)
- أدركت الناس وما يَعجَبُون بالقول. [يريد بذلك العمل. إنما يُنظَر إلى عمله، ولا يُنظَر إلى قوله](٤١٦)
- لقد نفع الله تعالى باختلاف أصحاب النبي r في أعمالهم، لا يعمل العالم بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة ورأى أنه خير منه قد عمله.(٤١٧)

---

٤١٣ انظر: ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٩٣؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، جـ١، ص٣٥٢.

٤١٤ أبو إسحاق الختلي، المحبة لله، الرياض، ص٢١.

٤١٥ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٤٩، ص١٨١.

٤١٦ موطأ، الكلام، ٢٤.

٤١٧ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، جـ٢، ص٩٠٠؛ ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص١٨٩.



٥- جعفر الصادق (رحمه الله)

[٦٩٩- ٧٦٥م]

وُلِد جعفر الصادق (رحمه الله) سنة ٨٠ هجرية في المدينة المنورة، ولُقِّب بالصادق لصدق كلامه وأمانته.

أبوه محمد باقر (رحمه الله)، وجدُّه علي زين العابدين (رحمه الله)، وأبو جده سيدنا الحسين t . فهو من نسل سيدنا علي من جهة أبيه، ومن نسل سيدنا أبي بكر من جهة أمه؛ ففيه يجتمع النسب المادي والمعنوي لأهل البيت وسيدنا الصديق، وهذا ما يزيد حُسنَ «السلسلة الذهبية» حُسنًا.

لقد تربَّى جعفر الصادق في أسرة تميَّزت بالعلم والعبادة والفضيلة والأخلاق. وأخذ العلوم الإسلامية، مثل العقيدة والتفسير والحديث والفقه، عن الصحابة الكرام أمثال أنس بن مالك وسهل بن سعد v ، ومن كبار علماء التابعيين مثل عطاء، والزهري، وعروة، وعكرمة، ونافع. وأخذ العلم عن جدَّيه زين العابدين والقاسم بن محمد ومن أبيه محمد الباقر، وروى عنهم كثيرًا من الأحاديث.[418]

---

٤١٨ روى كثيرًا من الأحاديث عن الصحابة مثل جابر t وابن العباس v ، وعن جده القاسم بن محمد وعن غيره من آل البيت. انظر في ذلك: مسلم، الحج، ١٤٧-١٤٨؛ أبو داود، المناسك، ٥٦/١٩٠٥؛ الترمذي، الحج ٨٦٢/٣٨، المناقب ٣٧٣٣/٢٠؛ ابن ماجه، المقدمة ٦٥/٩، التجارة ٢٢٣٨/٤١؛ ابن أبي شيبة، مصنف، جـ٢، ٧١٤٢/١١٥؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٢، ٢٠٢-٢٠٣، ٢٠٦؛ الذهبي، سير، جـ٦، ص٢٥٥.



ولما توفي القاسم بن محمد كان عُمرُ حفيده جعفر الصادق (رحمه الله) ٢٨ عامًا، وصار يعطي [العلم] بعد أن كان يأخذ.[٤١٩]

عباداته

يقول الإمام مالك (رحمه الله):

«كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم فإذا ذُكِرَ عنده النبي عليه الصلاة والسلام اخضرَّ واصفرَّ. ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن. وما رأيته قط يحدث عن رسول الله r إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه. وكان من العباد الزهاد الذين يخشون الله وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي».[٤٢٠]



ويقول سفيان الثوري (رحمه الله):

«قدمت مكة فإذا أنا بجعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت: يا بن رسول الله، لِمَ جُعِلَ الموقف من وراء الحرم ولم يصير في المشعر الحرام؟

فقال: الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصدوه أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم بالدخول، أدناهم من الباب الثاني، وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تَفَثَهُم، وتطهروا من الذنوب أمرهم بالزيارة لبيته.

---

٤١٩ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص٢٦.

٤٢٠ القاضي عياض، ترتيب المدارك، جـ٢، ص٥٢؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، جـ٢، ص١٠٤-١٠٥؛ محمد أبو زهرة، المصدر السابق، ص٧٦-٧٧.



فقلت: فلِمَ كُرِهَ الصوم أيام التشريق؟

قال: لأنهم في ضيافة الله ولا يُحِبُّ للضيف أن يصوم.

قلت: جعلت فداك، فما بال الناس يتعلقون بأستار الكعبة وهي خرق لا تنفع شيئًا؟ فقال: ذلك مثل رجل بينه وبين آخرَ جُرمٌ، فهو يتعلق به ويطوف حوله رجاء أن يَهَبَ له جرمه». [٤٢١]



يقول جفعر الصادق (رحمه الله):

«إن التعوذ تطهير الفم عن الكذب والغيبة والبهتان تعظيمًا لقراءة القرآن». [٤٢٢]

ويقول جفعر الصادق (رحمه الله) في قول الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾:

«لذة في النداء أزال بها تعب العبادة والعناء». [٤٢٣]

ويقول (رحمه الله):«ذِكْرُ الله حقيقةً لا يصير إلا بنسيان ما سوى الله». [٤٢٤]



وكان جعفر الصادق (رحمه الله) يأتي القبور ليلاً، ويقول:

«يا أهل القبور، ما لي إذا دعوتكم لا تجيبون؟» ثم يقول: «حيلَ والله بينهم وبين الجواب، وكأني أكون مثلهم، وأدخل في جملتهم».

ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر. [٤٢٥]



---

٤٢١ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص٩٢.

٤٢٢ البورصوي، روح البيان، جـ٥، ص٨١، [النحل: ١٠٠].

٤٢٣ البورصوي، المصدر السابق، جـ١، ص٢٨٩، [البقرة: ١٨٣].

٤٢٤ فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ص ٣٨.

٤٢٥ المنبجي، تسلية أهل المصائب، ص١٩٢-١٩٣.

وقيل له: على ماذا بنيت أمرك؟

فقال : «على أربعة أشياء:

- علمت أنَّ عملي لا يعمله غيري فاجتهدت،
- وعلمت أنَّ الله U مطّلع عليّ فاستحييت،
- وعلمت أنَّ رزقي لا يأكله غيري فاطمأننت،
- وعلمت أنَّ آخر أمري الموت فاستعددت».[٤٢٦]

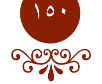
والإنسان لم يُخلَق للَّعب واللهو، بل للارتقاء في درجات الروحانية حتى يبلغ الوصال مع خالقه، فعليه أن يحيا عبدًا لله تعالى ولا يضيِّع عمره الذي هو أثمن بضاعة عنده. أَفلا يعلم الإنسان أن ورقةً تسقط من تقويم عمره مع شروق شمس كل يوم؟! ألا يعلم تعاقب الليل والنهار، وأن بركات الأسحار والأصباح يُحرَم منها الغافلون النائمون؟! لذلك فإن من يحيا بغفلة لن يجد بين يديه أي شيء حين يُبعَث يوم القيامة، وستنفد من بين يديه بضاعة عمره، ولن تكفيه في نجاته الأعمالُ القليلة التي عملها بغفلة.

أخلاقه الحسنة

كان جعفر الصادق (رحمه الله) قمةً في الأخلاق الحميدة مثل الرأفة والرحمة والحِلم والصبر والعفو والكرم، ولم يكُ يخاف سوى الله تعالى، ولا تلومه لائمة في سبيل الله، ولم يكن يخشى حاكمًا لمقامه ولا رجلًا لموقعه، ولا يغرُّه مدحُ مادح، ولا يُفتِر ذمُّ العدو عزيمتَه.

ونُقِلَ أنه سُرِق من شخص صُرَّةٌ مملوءةٌ من الدنانير، فتعلَّق بالصادق، واتَّهمه بالسرقة، وما كان يعرفه، فقال له الصادق: كم كانت دنانيرك؟ قال: ألفًا.

٤٢٦ انظر: فريد الدين عطار، إلهي نامه، إسطنبول ٢٠١٠، ص١٢١.



فذهب به إلى البيت، وأعطاه ألف دينار. وبعدَهُ قد وجد الشخص دنانيرهُ، وجاء بدنانير الصادق إليه، واعتذر إليه، وقال: أخطأت في ظني. فلم يقبل الصادق، فقال: لا نرجع إلى ما أعطينا، ولا نستردُّ ما بذلنا. فسأل ذلك الشخصُ من بعض الحاضرين: من هذا؟ فقالوا: جعفر الصادق. فخجل ذلك الشخص، ومضى لطريقه.[٤٢٧]



وحُكِيَ أن غلامًا لجعفر الصادق (رحمه الله) سكب على يده الماء في الطَّشْت[٤٢٨]، فطار الماء على ثوبه، فنظر إليه جعفر نظرة منكرة، فقال العبد: يا مولاي: **(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)**[٤٢٩] قال: كظمت غيظي. قال الغلام: **(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)** قال عفوت عنك. قال الغلام: **(وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**، قال اذهب، أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، ولك من مالي ألف دينار.[٤٣٠]



ولقد كان أبو عبد الله الصادق صابرًا شاكرًا خاشعًا قانتًا عابدًا، صبر في الشدائد، وصبر في فراق الأحبة، وصبر في فقد الولد، مات بين يديه ولد له صغير من غُصَّة اعترته، فبكى وتذكر النعمة في هذا الوقت، وقال:

«لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت».

ثم حمله إلى النساء فصرخن حين رأينه، فأقسم عليهن ألا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول:

---

٤٢٧ فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ص٣٦؛ القشيري، الرسالة، جـ٢، ص٣٨٤.

٤٢٨ الطَّشت: إناء كبير مستدير من نحاس أو نحوه.

٤٢٩ آل عمران: ١٣٤.

٤٣٠ ابن الجوزي، بحر الدموع، ص١٤٢.

«سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلا حبًّا».

ويقول بعد أن واراه التراب:

«إنا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أنزل ما نكره فيمن نحب رضينا».[٤٣١]

فهذا مظهر من مظاهر العبودية والتأدب مع الله سبحانه وتعالى... والسرُّ في سمو القلوب في فضاءات الروحانية إنما هو ترك التذمر والشكوى حتى عندما يبتلينا الله تعالى، والتوجه إلى المولى Y برضا وتسليم وحمد وشكر ومحبة.

فضائله

لقد كان جعفر الصادق (رحمه الله) رجلًا فاضلًا، وكان من ينظر إليه يعلم أنه من سلالة النبيين.[٤٣٢]

وكان يُلَقَّب بـ «**شيخ بني هاشم**» لعلو شأنه وعِظَم فضله.[٤٣٣]

وإذا أردنا أن نعرفَ فضيلة آل البيت، فحسبُنا أن نعرف أن المؤمنين كلهم عندما يصلُّون على رسول الله r يدعون لآل البيت، حتى إن الصلاة لا تؤدَّى كما ينبغي إن لم يُصلِّ المؤمن على النبي r وآله بعد التحيات.

لقد كان جعفر بن محمد (رحمه الله) كريمًا سخيًّا، يُنفِق على المحتاجين، ويُطعِم الفقراء حتى لا يبقى لعياله شيء.[٤٣٤]



٤٣١ محمد أبو زهرة، المصدر السابق، ص٨٠.

٤٣٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٣؛ الذهبي، سير، جـ٦، ص٢٥٧.

٤٣٣ الذهبي، سير، جـ٦، ص٢٥٥.

٤٣٤ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص٨٩.



وكان في إنفاقه واهتمامه بالمهمومين مثل جده زين العابدين؛ إذ لما مات زين العابدين غسلوه، فجعلوا ينظرون إلى آثار سوداء بظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جرب الدقيق ليلًا على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة، فكانوا يعيشون ولا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات زين العابدين فقدوا ما كانوا يُؤْتَون به في الليل.[٤٣٥]



وكان جعفر الصادق (رحمه الله) مُجابَ الدعوة، فإذا سأل الله شيئًا لا يُتِمُّ قوله إلا وهو بين يديه،[٤٣٦] وله كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة.[٤٣٧]

لذا ظهرت بعض الاعتقادات الخاطئة والغلو في تعظيمه وأكاذيب من بعضهم أثناء حياته، فكان ينكرها ويرفضها (رحمه الله) وطيَّب ذكراه العطرة.[٤٣٨]

وعن عبد الجبار بن العباس الهمداني أنه قال:

أن جعفر بن محمد أتاهم وهم يريدون أن يرتحلوا من المدينة، فقال:

«إنكم- إن شاء الله- من صالحي أهل مِصركم، فأبلغوهم عني: من زعم أني إمام معصوم، مُفتَرَض الطاعة، فأنا منه بريء، ومن زعم أني أبرأ من أبي بكر وعمر، فأنا منه بريء».[٤٣٩]

إن هذه الرواية وغيرها من الروايات المشابهة توضِّح لنا جليًّا محبة جعفر الصادق وآل البيت لسيدنا أبي بكر وعمر ~، وكلُّ ما يُنسَب لآل البيت سوى

٤٣٥ أبو نعيم، حلية الأولياء الأولياء، جـ٣، ص١٣٦؛ ابن كثير، البداية، جـ٩، ١١٢، ١٢٢.

٤٣٦ الخاني، الحدائق، ص١٢٩.

٤٣٧ الخاني، الحدائق، ص١٢٨-١٢٩.

٤٣٨ انظر: محمد أبو زهرة، المصدر السابق، ص٣٧، ٥٨.

٤٣٩ الذهبي، سير، جـ٦، ص٢٥٩، تاريخ، جـ٩، ص٩٠؛ المزِّي، تهذيب الكمال، جـ٥، ص٨٢.

هذا الكلام إنما هو افتراء عليهم. وكان (رحمه الله) يغضب من الرافضة، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر ظاهرًا وباطنًا.[٤٤٠]

تواضعه

كان جعفر الصادق (رحمه الله) رجلًا متواضعًا لا يستحقر أحدًا، ويرى كل مؤمن خيرًا منه.

ونُقِل أنه كان جالسًا مع أصحابه ومواليه، فقال: تعالوا حتى نتبايع ونتعاهد على أن من يكون منَّا ناجيًا يوم القيامة يشفع للباقين. فقالوا: يا بن رسول الله، كيف تكون لك حاجة إلى شفاعتنا، وجدُّك شفيعٌ لجميع الأنام؟! فقال (رحمه الله): إني لأستحيي من جدي أن أنظرَ إليه يوم القيامة مع هذه الأعمال.[٤٤١]



ونُقِل أنه جاء إليه داود الطائي، وقال: يا بنَ رسول الله، عِظْنِي؛ فإن قلبي قد اسودَّ. فقال له: يا أبا سليمان، لا حاجة لك إلى وعظي، وأنت زاهد زمانك.

فقال داود: يا بن رسول الله، لكم فضلٌ على جميع الناس، وكلامكم مقبول، والعمل به لازم. فقال: يا أبا سليمان، إني لأخاف من أن يعاتبني جدي ويقول: ما أدَّيتَ حقَّ مُتابعتي، يا أبا سليمان، هذا ما يتمُّ بالنسب الصحيح، بل إنما يتمُّ بحسن المعاملة.فبكى داود، وقال: إلهي، هذا حالُ من عُجنَت طينتُهُ بماء النبوة، وركِّبت صورتُهُ من أهل البرهان والحجَّةِ، وجدُّه الرسول وجدَّتُهُ البتول، فمَنْ داود؟ وما اسمه حتى يعجبَ بعمله ومعاملته؟.[٤٤٢]



---

٤٤٠ الذهبي، سير، جـ٦، ص٢٥٥.

٤٤١ عطار، تذكرة، ص٥٣.

٤٤٢ عطار، تذكرة، ص٥٣.



وقال (رحمه الله) تعالى:

«كلُّ معصية أوله خوفٌ وآخره عذرٌ يكون مقرِّبًا للعبد إلى الله، وكلُّ طاعة أوله أمنٌ وآخره عُجْبٌ يكون مُبعِدًا للعبد من الله تعالى، فإن المطيع مع العُجْبِ عاصٍ، والعاصي مع العُذر مطيع».(٤٤٣)

وكان (رحمه الله) راغبًا عن الرياسة، راغبًا في العزلة والصمت. فمَن يغوص في بحر معرفة الله لا يطمع في البقاء في شاطئها، ومن يأنَس بالله تعالى، يستغني عن مدح الناس وثنائهم.

تقواه

يقول جعفر الصادق (رحمه الله):

«لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضرَّ من الجهل، ولا داء أدوى من الكذب».(٤٤٤)

وكان يدعو في آخر رمضان فيقول:

«اللهم رب رمضان مُنَزِّلَ القرآن هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقد تصَرَّمَ، أي رب فأعوذ بوجهك الكريم أن يطلع الفجر من ليلتي هذه أو يخرج رمضان، ولك عندي ذنب تريد أن تعذبني يوم ألقاك».(٤٤٥)



---

٤٤٣ عطار، تذكرة، ص٣٧.

٤٤٤ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٦.

٤٤٥ ابن الجوزي، التبصرة، جـ٢، ص١٠٣.

وذُكِرَ عن الإمام مالك (رحمه الله) أنه قال: صحبت جعفر الصادق (رحمه الله) فلما أراد أن يُلَبِّيَ، تغيَّرَ وجهه، وارتعدت فرائصه،

فقلت: مَا لَكَ يا بنَ رسول الله r .

فقال: أردت أن أُلبِّي.

قلت: فما يوقفك؟

قال: أخاف أن أسمع غير الجواب!.[٤٤٦]



وكان من دعائه (رحمه الله):

«اللهم أعزني بطاعتك، ولا تخزني بمعصيتك، اللهم ارزقني مواساة من قَتَرْتَ عليه رزقه بما وَسَّعْتَ عليَّ فضلك».

فقيل عن هذا الدعاء: هذا دعاء الأشراف.[٤٤٧]

سعة اطلاعه على علوم الظاهر والباطن

لقد سعى والدُ جعفر الصادق وأجداده لأخذ العلم الذي جاء به رسول الله r ، فسارعوا إلى الصحابة الكرام يسألونهم ويتعلمون منهم أحوال رسول الله r ، وحياته المباركة، وسنته الشريفة، وهذا ما نراه في الروايات الموجودة في كتب الأحاديث القيِّمة.

فتربَّى جعفر الصادق (رحمه الله) في هذه الأسرة المباركة التي لم تأْلُ جهدًا في سبيل تحصيل العلوم. وقد نذر (رحمه الله) نفسه للعلم في المدينة المنورة التي كانت مركز العلم النبوي، ولم يكتفِ بما أخذه من علم من أسرته،

٤٤٦ ابن الجوزي، التبصرة، جـ٢، ص١٤٢.

٤٤٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٦؛ المزِّي، المصدر السابق، جـ٥، ص٩١.



بل كان يسعى لتحصيل كل أنواع العلوم من الصحابة الكرام y الذين أدركهم وكبار التابعين.

ثم تتلمذَ على يديه علماء عظام، ورووا الحديث عنه مثل الإمام مالك، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وأبو حنيفة، وابن جُريج، ويحيى بن ساعد، ويحيى القطان.(٤٤٨)

لقد قضى جعفر الصادق (رحمه الله) عمرَهُ في تصحيح الاعتقاد، وبيان الشرع، وبيان الحق في الأمور، والصبر على الظنون، وليس له ناصر إلا الله العلي القدير.(٤٤٩)

وكان (رحمه الله) بعيدًا عن السياسة مشغولًا بالعلم. وكان يقول:

«الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم».(٤٥٠)

وكان (رحمه الله) قدوة المشايخ ورأسهم ورئيسهم، والكل ينتمون إليه...

وكان إمامًا في العلوم الإسلامية، مُعتمَدًا عليه في الطريق الصوفية، شيخًا لأهل الحق، مشهورًا بالصواب والصدق، مُقدَّمًا في العباد، مكرمًا بين الزهاد، صاحبَ تصانيف شريفة، ومحقق تحقيقات لطيفة، كاشفًا لرموز التنزيل، موفَّقًا في أسرار التأويل.(٤٥١)



---

٤٤٨ مصطفى أوز، «جعفر الصادق»، الموسوعة الإسلامية رئاسة الشؤون الدينية -تركيا، جـ٧، ص١.

٤٤٩ محمد أبو زهرة، المصدر السابق، ص٦٣.

٤٥٠ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٤؛ الذهبي، تاريخ، جـ٩، ص٩٢.

٤٥١ عطار، تذكرة، ص٥١.

وكان (رحمه الله) مُحدِّثًا عظيمًا، وفقيهًا مجتهدًا، وعلَّامةً وإمامًا كثير الإلهام، طيب الكلام، موثوق الرواية، صائب الفكرة.[٤٥٢]

وقد فُتِن العلماء والناس بغزارة علمه وفضيلته (رحمه الله).[٤٥٣]



وقال المحدِّثون عن الحديث الشريف الذي رواه جعفر عن آبائه الطيِّبين الطاهرين: «لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لبرأ».[٤٥٤]

وقولهم هذا دليل على عِظَم الاحترام الذي يكنُّه علماء الإسلام لآل بيت النبي الأطهار، وبيان فضيلتهم وسموهم، حتى إن ذكر أسمائهم غدَت وسيلةً للشفاء والبرءِ من الأمراض.

إرشاده الإمامَ الأعظم

لقد كان الإمام الأعظم أبو حنيفة يصحب محمد باقر (رحمه الله)، وكذلك صحب ابنه جعفر الصادق وتبادلا العلوم. وكان جعفر الصادق يُعدُّ من أساتذة الإمام أبو حنيفة مع أنه كان سَنِينَه[٤٥٥]، ولمَّا سُئِل أبو حنيفة: من أفقه من رأيت؟ فقال: ما رأيت أحدًا أفقه من جعفر.

وروى الحادثة الآتية:

لما أقدمه [يعني جعفر] المنصورُ الحيرةَ بعث إليَّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فُتِنُوا بجعفر بن محمد، فهيِّئ لنا من مسائلك الصعاب، فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلي المنصور فأتيته، فدخلت، وجعفر جالس عن يمينه،

٤٥٢ مصطفى أوز، «جعفر الصادق»، الموسوعة الإسلامية، جـ٧، ص١.

٤٥٣ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص٨٩-٩٠.

٤٥٤ ابن ماجه، مقدمة، ٩/٦٥؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٢.

٤٥٥ سَنِيُن الرجل: من كان في مثل سِنِّه.



فلما بصُرتُ بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور، ثم التفت إلي جعفر فقال: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا؟ قال: نعم هذا أبو حنيفة، ثم أتبعها: قد أتانا، ثم قال: يا أبا حنيفة هات من مسائلك فاسأَلْ أبا عبد الله، فابتدأت أسأله، فكان يقول في المسألة:

«أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن- يريد أهل البيت- نقول كذا وكذا، فربما تابعنا، وربما تابع أهل المدينة، وربما خالفنا معًا»، حتى أتيت على أربعين مسألة، ما أخرِمُ[٤٥٦] فيها مسألة، ثم يقول أبو حنيفة: أليس قد روينا أن أعلم الناس أعلم الناس بالاختلاف.[٤٥٧]

وقد صحب الإمامُ أبو حنيفة جعفرَ الصادق في المدينة المنورة سنَتَين وأخذ منه العلم، وعندما قدم جعفرُ (رحمه الله) العراقَ صحبه أبو حنيفة هناك أيضًا، وإلى لقائهما يشير قول الإمام أبو حنيفة: «لولا السَّنَتَان لهلك النعمان».[٤٥٨]

ولقد تعلَّم الإمام الأعظم من جعفر الصادق (رحمه الله) الحِكَم من الأحكام الدينية، والأسس المهمة الواجب اتباعها كي لا يخفق العقل في الأحكام.[٤٥٩]

وقد روى أبو حنيفة (رحمه الله) عن الإمام جعفر الصادق كثيرًا من الروايات، ونرى ذلك جليًّا في كتاب (الآثار) وهو مسند لأبي حنيفة رواه الإمام أبو يوسف.[٤٦٠]

---

٤٥٦ أي ما أنقص منه.

٤٥٧ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص٨٩-٩٠؛ المزِّي، المصدر السابق، جـ٥، ص٧٩-٨٠؛ محمد أبو زهرة، أبو حنيفة، ص٩٠.

٤٥٨ الألوسي، صب العذاب على من سبَّ الأصحاب، ص١٥٧؛ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص٣٧-٣٩، ٢٥٤.

٤٥٩ انظر: أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٦؛ الخاني، الحدائق، ص١٣٠.

٤٦٠ انظر: محمد أبو زهرة، المصدر السابق، جـ٣٨، ٢٥٣-٢٥٤.

وفاته

أمضى جعفر الصادق (رحمه الله) عمرَه في المدينة المنورة منبع العلم، وتوفِّي هنالك عام ١٤٨ هجرية (٧٦٥ م).

وكان كدأبه طول حياته هاديًا مرشدًا داعيًا إلى الحق، حتى وهو يذهب إلى ربه، فقد قالوا إنه شدَّد في الوصية بالصلاة والمداومة عليها وإقامتها على وجهها[٤٦١] كما فعل جدُّه رسول الله r .

ودُفِن في البقيع بجانب أبيه محمد الباقر (رحمه الله)، وجده زين العابدين (رحمه الله)، وعمِّ جدِّه الحسن t .[٤٦٢]

من حِكَمه

- قيل لجعفر الصادق: ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟

فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه».[٤٦٣]

[أي لإنكم بعيدون عن العبودية المقبولة، ولستم أصحاب تقوى، ولا تؤدون أمر الله إذ يأمركم بذكره كثيرًا، ولا تدركونه كما ينبغي بأحوالكم وأفعالكم، ولا تعرفونه حق المعرفة؛ فإن دعوتموه بمثل هذا القلب الفارغ، فلن يُقبَل دعاؤكم].

- من عاش في ظاهر الرسول فهو سُنِّي، ومن عاش في باطن الرسول فهو صوفي.

(وأراد جعفر بباطن الرسول r أخلاقه الطاهرة، واختياره للآخرة).[٤٦٤]

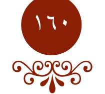
---

٤٦١ محمد أبو زهرة، المصدر السابق، ص٦٣-٦٤.

٤٦٢ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٤٨.

٤٦٣ القشيري، الرسالة، جـ٢، ص٤٢٤-٤٢٥؛ الخاني، الحدائق، ص١٣٠.

٤٦٤ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١، ص٢٠.



- لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.[٤٦٥]
- وقع الذباب على المنصور فذبَّهُ عنه، فعاد فذبَّه حتى أضجره، فدخل جعفر بن محمد عليه، فقال له المنصور: يا أبا عبد الله لِمَ خلق الله الذباب؟
  قال: «لِيُذِلَّ به الجبابرة».[٤٦٦]
- لا تصحب خمسة: الكذَّاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرِّبُ منك البعيد ويُبعِد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلِّمُك ويفر عند الشدة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها.[٤٦٧]
  وفي رواية أخرى: ولا تصحبَنَّ قاطع رحم؛ فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع.[٤٦٨]
- إن الله تعالى خبَّأ ثلاثاً في ثلاث:

١. رضاه في طاعته، فلا تحتقروا منها شيْئًا لعلَّ رضاه فيه.
٢. وخبأ غضبه في معاصيه، فلا تحتقروا منها شيئاً لعلَّ غضبه فيه.
٣. وخبأ ولايته في عباده المؤمنين، فلا تحتقروا منهم أحدًا لعلّه وليُّ الله تعالى.[٤٦٩]

وزاد، وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.[٤٧٠]

---

٤٦٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٨.

٤٦٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٨؛ صفة الصفوة، جـ١، ص٣٩٢.

٤٦٧ الغزالي، إحياء، جـ٢، ص١٧٢.

٤٦٨ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٨٣ - ١٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٤١، ص٤٠٩.

٤٦٩ أبو طالب المكي، قوت القلوب، جـ١، ص٣٤٧؛ الغزالي، إحياء، جـ٤، ص٤٩.

٤٧٠ الغزالي، إحياء، جـ٤، ص٤٩.

- لَأَنْ أندم على العفو أحب إليَّ من أَن أندم على العقوبة.[٤٧١]
- أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك.[٤٧٢]
- إذا بلغك عن أخيك شيء يسوءك، فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عُجِّلَت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم يعملها.[٤٧٣]
- عن سفيان الثوري قال: دخلت على جعفر الصادق فقلت له: يا ابن رسول الله أوصني، قال: يا سفيان لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا إخاء لملول، ولا سؤدد لسيِّئ الخلق، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان كُفَّ عن محارم الله تكن عابرًا، وارْضَ بما قسم الله لك تكن مسلمًا، واصْحَبِ الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمنًا، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره- أي حديث: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٤٧٤]- وشاوِر في أمرك الذين يخشون الله. قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان من أراد عزًّا بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله. قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: أدَّبني أبي بثلاث، قال لي: أي بني إن من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يُتَّهم، ومن لا يملك لسانه يندم.[٤٧٥]
- الغضب مفتاح كلِّ شرٍّ.[٤٧٦]

---

٤٧١ ابن عبد البر، أدب المجالسة، ص١١٦.

٤٧٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٤.

٤٧٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٨.

٤٧٤ أبو داود، الأدب، ١٦/ ٤٨٣٣.

٤٧٥ ابن حجر الهيتمي، الزواجر، جـ١، ص٢٨؛ الخاني، الحدائق، ص١٣٠-١٣١.

٤٧٦ الغزالي، إحياء، جـ٣، ص١٦٦.



- سُئِل جعفر الصادق (رحمه الله): لِمَ حرَّم اللهُ الرِّبا؟ قال: لئَلَّا يتمانع الناس بالمعروف.[٤٧٧]
- إذا أذنبت فاستغفر...وإياك والإصرار.[٤٧٨]
- من استبطأ رزقه فليكثر من الاستغفار.[٤٧٩]
- إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا، فقل لعل له عذرًا لا أعرفه.[٤٨٠]

وصيته لابنه

أوصى جعفر الصادق (رحمه الله) ابنه موسى الكاظم فقال:

«يا بني، من رضي بما قُسِمَ له استغنى، ومن مدَّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيرًا، ومن لم يرضَ بما قسمه الله له اتهم الله في قضائه... ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

يا بني، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلَّ سيف البغي قُتِلَ به، ومن احتَفَرَ لأخيه بئرًا سقط فيها، ومن داخل السفهاء حُقِّر، ومن خالط العلماء وُقِّر، ومن دخل مداخل السوء اتُّهِم.

يا بني، إياك أن تُزرِي بالرجال فيُزرَى بك، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتَذِلَّ لذلك.

يا بني، قل الحقَّ لك أو عليك تُستَشَانُ بين أقرانك.

---

٤٧٧ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص٩٢.

٤٧٨ الخاني، الحدائق، ص١٣٠.

٤٧٩ الخاني، الحدائق، ص١٣١.

٤٨٠ الخاني، الحدائق، ص١٣٢.



يا بني، كن لكتاب الله تاليًا، وللسلام فاشيًا، وبالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا، ولمن قطعك واصلًا، ولمن سكت عنك مبتدئًا، ولمن سألك معطيًا، وإياك والنميمة؛ فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإياك والتعرض لعيوب الناس، فمنزلة التعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف...

يا بني، إن زرت فَزُرِ الأخيار، ولا تزر الفجار، فإنهم صخرة لا يتفجر ماؤها، وشجرة لا يخضَرُّ ورقها، وأرض لا يظهر عشبها».[481]



481 أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص١٩٥-١٩٦؛ إسماعيل بن محمد، سير السلف الصالحين، ص٧٢٣-٧٢٤.



٦- أبو يزيد البسطامي (رحمه الله)

[٧٧٧ -٨٤٨ م]

وُلِد أبو يزيد طيفور بن عيسى في بسطام[٤٨٢] سنة ١٦١ هجرية (٧٧٧ م). وكان أبوه عيسى صالحًا تقيًّا. وكانت أمه في قيد الأحياء أَمَةً غريبة في النساء مع الضياء والبهاء، والستر والحياء، والتواضع والدعاء، والخوف والرجاء، زاهدة عابدة، صائمة قائمة، عفيفة شريفة، راضية مرضية.[٤٨٣]

أخذ أبو يزيد البسطامي (رحمه الله) عن حفيد جعفر الصادق الإمام علي الرضا (رحمه الله).[٤٨٤]

وكان له (رحمه الله) في الحقائق والأسرار نظر نافذ وجدٌّ بليغ، ودائمًا كان في مقام القرب والهيبة، غريقًا في بحر الأُنس والمحبة، ولا يزال جسده في المجاهدة، وقلبه في المشاهدة... وله استنباطٌ عظيم في علم الطريقة،[٤٨٥] لذلك سمِّي بسلطان العارفين.

ولما تكلم في علوم الحقائق لم يفهم أهل عصره كلامه، فرموه بالعظائم.[٤٨٦]

---

٤٨٢ بسطام بلدة في إيران بين طهران ومشهد، تقع على مسافة ٤١٠ كم شرقي طهران، وعلى مسافة ٦ كم شمالي مدينة شهرود.

٤٨٣ السهلكي، النور، ص٦٣.

٤٨٤ نجم الدين بن محمد، خلاصة المواهب، ص١٠٩؛ الكوثري، إرغام المريد، ص٣١.

٤٨٥ عطار، تذكرة، ص١٨٣.

٤٨٦ الخاني، الحدائق، ص٣١١-٣١٢.



عفَّته في شبابه

دخل أبو يزيد البسطامي (رحمه الله) الكُتَّابَ وهو صغير، فلما وصل إلى قوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلا)[٤٨٧]

فقال لأبيه: يا أبتِ من ذا الذي يقول له الحق سبحانه وتعالى هذا الخطاب؟

فقال: يا بني ذلك محمد r ، ثم خُفِّفَ عنه في سورة طه، فلما قرأ ووصل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...)[٤٨٨]

قال: يا أبتِ إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون من الليل، قال أبوه: نعم، أولئك أصحابه عليه الصلاة والسلام،

قال: يا أبت فأي خير في ترك شيء فعله رسول الله r وأصحابه؟!

فكان أبوه بعد ذلك يقوم الليل كله، فانتبه أبو يزيد ليلة فقال: يا أبت علمني أصلي معك فقال: يا بني ارقد فإنك صغير بعد، فقال: يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، وقال لي ربي U: ما فعلت؟ أقول لربي: قلت لأبي: علمني أصلي معك قال: أرقد فإنك صغير بعد، فقال أبوه: لا والله ما أريد أن تقول ذلك، ثم علمه يصلي معه وكان بعد ذلك يقوم الليل ويصلي عامته.[٤٨٩]



---

٤٨٧ المزمل: ١-٢.

٤٨٨ المزمل: ٢٠.

٤٨٩ السفيري، المجالس الوعظية، جـ٢، ص٢٩٣.



ونُقِلَ أنه كان في الكُتَّاب يقرأ القرآن، وله أمٌّ، فوصلَ في القراءة إلى قوله تعالى:

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)(٤٩٠)

فاستفسر عن الشيخ معنى الآية، ثم استجاز منه، وذهب إلى أمه، فقالت أمه بالعجل: جئتَ اليوم يا طيفور؟ قال: نعم، قرأتُ اليومَ هذه الآية، وأنا أرى في نفسي أني لا أطيق الشُّكرَين جميعًا، فإما اطلبيني من الله تعالى، لأكون في خدمتك، وإما اتركيني لأشتغل بخدمة الله تعالى. فقالت أمه: تركتك لخدمة الله تعالى، ووهبتك منه.(٤٩١)

اتِّباعه للسُّنَّة الشريفة

يروي أحد مريدي الشيخ البسطامي أنه (رحمه الله) قال له: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية. وكان رجلًا مقصودًا مشهورًا بالزهد، فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلِّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله r ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه؟.(٤٩٢)



ومن الدلائل الجليَّة على ولائه للسنة الشريفة قوله:

«لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله r إياه، فلم اسأله».(٤٩٣)

---

٤٩٠ لقمان: ١٤.

٤٩١ عطار، تذكرة، ص١٨٤.

٤٩٢ القشيري، الرسالة، ص٥٧، ٤١٦-٤١٧.

٤٩٣ القشيري، المصدر السابق، ص٥٧؛ المناوي، فيض القدير، جـ٦، ص١٠٨.

وكان أبو يزيد (رحمه الله) يقيس أحواله بأحوال النبي r ، ويقول:

«من ترك قراءة القرآن، والتقشف، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن [التصوف] فهو مبتدع».[٤٩٤]



ونُقِلَ أنه كان يمشي في طريق، ويمشي خلفه شخص، كلما يرفع الشيخ قدمه، يضع هذا الشخص قدمه في موضع قدمه، فالتفت إليه الشيخ، وقال: يا فلان، لا تتبع المشايخ كذلك. قال ذلك الشخص: اعطني فِلقةً من فرْوَتِك، أتبرَّك بها. قال الشيخ: فإن لبست جلدَ أبي يزيد لا ينفعك إن لم تعمل بأعماله.[٤٩٥]

مجاهدته نفسَه

يوضِّح أبو يزيد البسطامي المراحل التي مرَّ بها في حياته المعنوية، فيقول:

«كنت اثنتي عشرة سنة حدَّادًا لنفسي، أحمِّيها من كُورة[٤٩٦] الرياضة بنار المجاهدة، وأحضُّها على المداومة، وأضرب عليها بمطرقة الملامة، حتى صنعت من نفسي مرآةً، ثم صقلتها في خمس سنين بمصقل أنواع العبادات والطاعات، ثم نظرت فيها بنظر الاعتبار، رأيت على وسطي الزنار من العُجب والغرور والاعتماد على الطاعة والعمل، فاجتهدت خمس سنين أخرى في قطع الزنار، حتى قطعت الزنار، وجدَّدت الإسلام».[٤٩٧]



---

٤٩٤ ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٥١؛ البيهقي، شعب، جـ٣، ص٣٠٥.

٤٩٥ عطار، تذكرة، ص٢٠٦.

٤٩٦ الكُورَة: مجْمَرة الحداد، جهاز لإحماء المعادن وصهرها.

٤٩٧ عطار، تذكرة، ص١٨٧.



ويقول (رحمه الله):

«عالجت كل شيء فما عالجت أصعب من معالجة نفسي وما شيء أهون عليَّ منها».[٤٩٨]

«دعوت نفسي إلى الله فأبت علي واستصعبت فتركتها ومضيت إلى الله».[٤٩٩]

❀

فمن الضروري التخلص من شهوات النفس وغوائلها للوصال مع الله تعالى، وعندئذ يكون من اليسير التركيز على الحِكَم من وراء الامتحانات والابتلاءات في هذه الحياة.

وذات يوم وقع رماد على البسطامي (رحمه الله) وهو يمشي، فاتَّسَخت ثيابه، لكن لم يبدُ عليه أي غضب، بل شكر الله تعالى ومسح وجهه بيدَيه. ثم قال وقد نظر إلى هذه الحادثة بعين الحكمة والعبرة:

«الأصل أني للنار مستحق، غير أن الله تعالى عفا عنِّي، فألقى عليَّ الرماد بدل النار، وأيقظني، فلا شيء يُحزِن في هذا أو يُغضِب».[٥٠٠]

خشيته من الله وتقواه

كان أبو يزيد البسطامي (رحمه الله) إذا قام إلى الصلاة يخرج من صدره قعقعة يسمعها من كان قريبًا منه، وهذه القعقعة من هيبة الحق وخشيته، وتعظيم الشريعة.[٥٠١]

---

٤٩٨ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١٠، ص٣٦.

٤٩٩ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١٠، ص٣٦.

٥٠٠ سعدي، بستان، طهران ١٣٦٨، ص١٨٣.

٥٠١ الجامي، نفحات، ص١٨٣.

وكان (رحمه الله) يجلس على ركبتيه حتى عندما يكون وحيدًا في محرابه.[٥٠٢] ويقول:

منذ ثلاثين سنة أُصلِّي واعتقادي في نفسي عند كل صلاة أصليها كأني مجوسي أريد أن أقطع زناري.[٥٠٣]

ونُقِلَ أنه جاء إليه شخص وقال: علِّمني شيئًا يكون سببًا لنجاتي، قال:

«احفظ حرفَين من العلم، واعلم أنك لا تحتاج بعدهما إلى شيء، فاعلم أن الله مطلعٌ عليك، ويراك وعملك».[٥٠٤]

وقصد (رحمه الله) الجامع يوم الجمعة، وكان في الطريق وحل، فزلقت رجله، فوضع إصبعه على جدار في الطريق، فأمسك نفسه بسببه، فلما ثبت تفكر في وضع إصبعه على الجدار، وقال: إن الوقت متسع، فنفحص عن صاحب الجدار ليجعلني في حلٍّ مما تعاطيت، فانصرف وتعرف عنه، فقيل: إنه مجوسي، فتقدَّم إلى باب داره وناداه، فخرج إليه فأخبره بالقصة، وطالبه أن يجعله في حلٍّ من ذلك، فقال المجوسي:

وفي دينكم هذه الدقة، وكل هذا الاحتياط؟ آمنت بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وآمن كل من في داره ببركة ذلك الفعل.[٥٠٥]

وقال: «منذ أربعين سنة لم أستند إلى حائط مسجد أو رباط، فقيل له: لِمَ لا تستند وفي ذلك رخصة؟ فقال: قال الله U:

---

٥٠٢ انظر: الخاني، الحدائق، ص٣٢٥.

٥٠٣ القشيري، المصدر السابق، جـ١، ص٥٨.

٥٠٤ عطار، تذكرة، ص٢٠٦.

٥٠٥ الخاني، الحدائق، ص٣٣٤؛ السهلكي، المصدر السابق، ص٩٣-٩٤.



﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٥٠٦] فهل ترى من رخصة؟»[٥٠٧]

ولم يُرَ أبو يزيد إلا وهو صائم ما خلا يومَي العيد، وكان في وصال مع الله تعالى بهذه الحال. وله فضائل كثيرة نقلتها الكتب.[٥٠٨]

زهده

يقول أبو يزيد (رحمه الله):

«إنما الزاهد من لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء»، ويقول: «حقيقة الزهد لا يكون إلا عند ظهور القدرة والعاجز لا يصحُّ زهده».[٥٠٩]

فلا ضير أن يكون المؤمن صاحب ثروة كسبها من ربح حلال ويكون عند الله مقبولًا، فالزاهد الحقيقي يعرف أن «المُلْكَ لله، وأننا لسنا إلا مؤتمنين عليه» فينفق ما بين يدَيه في سبيل الله، ولا يعطي قلبه لملاهي هذه الدنيا الفانية، ويحفظه من أن يكون مستقرًا لمال الدنيا.

وقال (رحمه الله):

«ليس للزهد منزلة».فقيل: لماذا؟ فقال:

«لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد فلما كان اليوم الرابع خرجت منه، اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله».[٥١٠]

---

٥٠٦ الزازلة: ٧-٨.

٥٠٧ الخاني، الحدائق، ص٣٣١.

٥٠٨ السراج، اللمع، ص٣٨٥.

٥٠٩ أبو طالب المكي، قوت القلوب، جـ١، ص٤٤٧.

٥١٠ القشيري، المصدر السابق، ص٥٨.

نظره إلى المخلوقات بنظر الخالق

قال (رحمه الله):

«لا شيء أعون على دينكم من تعظيم أخيكم المسلم وحفظ حرمته، ولا شيء أضرَّ بكم في دينكم من تهاونكم بإخوانكم وتضييع حرمتهم».[٥١١]

وقال أيضًا:

«من نظر إلى الخلق بالخلق أبغضهم، ومن نظر إلى الخلق بالخالق رحِمَهم».[٥١٢]



وجاء رجل إلى أبي يزيد وقال: بمَ وصلت هذه المنزلة؟

فقال: دع عنك وجود المنزلة، ولكن أكرمَني الحق بثماني كرامات...

أوله: رأيت نفسي متأخرًا، ورأيت الخلق سبقوني. [**التواضع**]

والثاني: رضيت بأن أُحرَقَ بالنار بدل خلقه شفقة عليهم. [**الرأفة**]

والثالث: كان قصدي إدخال الفرح في قلب المؤمن. [**الإيثار**]

والرابع: لم أمسك شيئًا قط لغد. [**الإنفاق، والكرم، والتوكل**]

والخامس: أردت رحمة الله بالناس أكثر مما أردتها بنفسي. [**الرحمة**]

والسادس: بذلت جهدي في إدخال السرور على المؤمن وإخراج الغم من قلبه. [**الوقوف بجنب اليتامى والفقراء والمساكين**]

والسابع: ابتدأتُ بالسلام على من لقيني من المؤمنين من شفقتي عليهم. [**السلام، والدعاء للمسلم، والثناء عليه، وإرضائه، ومحبته**]

٥١١ الخاني، الحدائق، ص٣٣١.

٥١٢ السهلكي، المصدر السابق، ص١٠٩.



والثامن: قلتُ: لو غفر الله لي يوم القيامة وأذن لي بالشفاعة لشفعتُ أولًا مَن آذاني وجفاني، ثم من برَّني وأكرمني.[٥١٣]



وذات مرة رأى (رحمه الله) حمارًا يُضرَب وينزف دمًا، فجعلت ساقه (رحمه الله) تنزف دمًا في تلك اللحظة تأثُّرًا مما رآه.[٥١٤]

فلا ريب أنَّ هذه الحال ذروة مقام النظر إلى المخلوقات بنظر الخالق الرؤوف الرحيم.

واشترى سلطان العارفين أبو يزيد بهمدانَ حبَّ القُرطُم، ففَضَل منه شيء، فلما قَفَلَ إلى بسطام رأى فيه نملتين، فرجع إلى همدان فوضع النملتين.[٥١٥]

الكرامة الأصلية: الاستقامة

كان أبو يزيد البسطامي (رحمه الله) يولي أهمية للاستقامة لا الكرامة مع أنه نُقِل عنه كثير من الكرامات، وكان يقول:

«لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء، فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة».[٥١٦]

فالأحوال الغريبة التي تظهر ممن لا يراعي كتاب الله وسنة نبيه ليست كرامة بل استدارج[٥١٧].

---

٥١٣ عباس، أبو يزيد، ص٩٧؛ السهلكي، ص٨٨-٨٩.

٥١٤ صافي، رشحات عين الحياة، ص٤٨٧.

٥١٥ القشيري، الرسالة، جـ١، ص٢٢٩؛ سعدي، بستان، ص٧٨.

٥١٦ البيهقي، شعب، جـ٣، ص٣٠٤؛ القشيري، المصدر السابق، ص٥٨.

٥١٧ الاستدراج ضدُّ الكرامة، وهو الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ؛ أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية، وهذه الأحوال إنما هي امتحان إلهي يأخذهم شيئًا فشيئًا إلى الهلاك.



وقيل له: أنت تمشي على الماء! قال: عودٌ من الحطب يمشي على الماء. قيل: تطير في الهواء! قال: الطير أيضًا يطير في الهواء. قيل: تصلُ إلى الكعبة في ليلة! قال: ساحرٌ يأتي من الهند إلى دماوند– جبل قرب همدان– بليلةٍ. قيل: فما شغل الرجال؟ قال: ألّا يتعلّقَ قلب الرجال بغير الله تعالى.[518]

ونُقِل أنه قال:

وصلت إلى دجلة يومًا، وأردت العبور عليها، فإذ التأمَت حافتا دجلة لأعبر، فقلت: أنا لا أغترُّ بذلك، فإن الناس يعبرون على دجلة بنصف درهم، فإني لا أضيع عمري وحاصله لأجل نصف درهم؛ فإني أريد الكريمَ لا الكرامة.[519]

معرفة الله U

سُئِلَ سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي عن حقيقة المعرفة فقال:

«الحياة بذكر الله[520]».[521]

ويقول: «طوبى لمن كان همُّه همًّا واحدًا، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه. فمن عرفَ الله فإنه يزهد في كل شيء شغله عنه».[522]

وسئل أبو يزيد (رحمه الله) عن العارف فقال:

«لا يرى في نومه غير الله تعالى، ولا في يقظته غير الله تعالى، ولا يوافق غير الله تعالى، ولا يطالع غير الله تعالى».[523]

---

٥١٨ عطار، تذكرة، ص٢١٧؛ سراج، ص٤٠٠ ؛ عباس، أبو يزيد، ص٩٨.

٥١٩ عطار، تذكرة، ص١٩٩.

٥٢٠ فالله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٥٢١ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٢، ص١٨٧.

٥٢٢ السهلكي، المصدر السابق، ص١٧٠؛ عباس، أبو يزيد، ص٧٣.

٥٢٣ القشيري، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٨١.



وكان (رحمه الله) يُذكِّر الناس كل حين أن طريق الوصال مع الحق تعالى طويلٌ مليء بالتقلُّبات، وليس بالأمر اليسير. ويبيِّن لهم أن الذين يظنون أنهم قد حقَّقوا الوصال ليسوا إلا في بداية الطريق، ويقول:

«تركت خلفي مقامات كثيرة، فوجدت أنني في بداية الطريق وما وصلت إلى الحقيقة».[٥٢٤]

محبة الله U

نُقِل عن أبي يزيد (رحمه الله) قوله:

«الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله أن يحاسبني!، فقيل: لِمَ، قال: لعله يقول لي فيما بين ذلك: (يا عبدي)، فأقول: لبَّيك!. فقوله لي: (يا عبدي) أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، ثم يفعل بي ما يشاء».[٥٢٥]



ويقول (رحمه الله):

«إن لله خواصًّا من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار».[٥٢٦]

«لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالًا لله أن أذكره».[٥٢٧]

٥٢٤ انظر: عطار، تذكرة، ص٢٠٦.

٥٢٥ ابن الملقِّن، طبقات الأولياء، القاهرة ١٤١٥، ص٣٩٩-٤٠٠؛ الخاني، الحدائق، ص٣٢٠.

٥٢٦ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١٠، ص٣٤؛ القشيري، المصدر السابق، ص٤٩٩.

٥٢٧ أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ١٠، ص٣٥.



وفاته

توفي أبو يزيد البسطامي (رحمه الله) سنة ٢٣٤ هجرية (٨٤٨ م)، وبقي ذاكرًا الله تعالى حتى خروج أنفاسه الأخيرة، إذ كان يقول:

«إلهي، ما ذكرتك بالحضور ساعةً، والآن حضرني الوفاة، وإني غافلٌ عن طاعتك، ما أدري متى أذكرُكَ وأطيعُكَ على حضور القلب؟» ففي الذكر والتكلم بكلمة (الله) جادَ بنفسه.[٥٢٨]

وقبره المتواضع (رحمه الله) في بسطام في إيران، وله مقامات في أماكن مختلفة.

من حِكَمه

- الصوفي هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه، وسنة رسوله بشماله، وينظر بإحدى عينَيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار، ويأتزر بالدنيا، ويرتدي بالآخرة، ويلبي بينهما للمولى: لَبَّيك اللهمَّ لبَّيك.[٥٢٩]
- سُئِلَ: كيف الطريق إلى الحق؟ قال: أنت قمْ من الطريق، وقد وصلت.[٥٣٠]
- أقرب الناس إلى الحق من يحتمل أذى الناس كثيرًا، ومع ذلك يكون صاحب خُلُقٍ حسن.[٥٣١]
- قيل له: شهادة أنْ لا إله إلا الله مفتاح الجنة، فقال: صحيح، لكن لا يفتح المفتاح إلا مغلاقًا، ومغلاق لا إله إلا الله أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا

٥٢٨ عطار، تذكرة، ص٢٢٤-٢٢٥؛ الجامي، نفحات، ص١٨٣.

٥٢٩ عباس، أبو يزيد، ص٧١؛ السهلكي، المصدر السابق، ١٢٤.

٥٣٠ عطار، تذكرة، ص٢١٦.

٥٣١ عطار، تذكرة، ص٢١٤.



غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة.[٥٣٢]

- نسيان النفس عينُ ذكر الله تعالى.[٥٣٣]
- أحِبَّ أولياء الله وتحبَّب إليهم ليحبُّوكَ، فإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب أوليائه في كل يوم وليلة سبعين مرة، فلعلَّه ينظر إلى اسمك في قلب وليِّه، فيحبك ويغفر لك[٥٣٤]
- نُقِل قلبي إلى ملكوت السموات، فسار فيها ورجع، فقلتُ: وبماذا رجعتَ؟ قال: بالمحبة والرضا[٥٣٥]



---

٥٣٢ الخاني، الحدائق، ص٣٢٠.

٥٣٣ عطار، تذكرة، ص٢١٤.

٥٣٤ عباس، أبو يزيد، ص٧٠؛ السهلكي، المصدر السابق، ص٩٩، ١١٥.

٥٣٥ عطار، تذكرة، ص٢١٨.

٧- أبو الحسن الخرقاني (رحمه الله)

[٩٦٣-١٠٣٣م]

وُلِد أبو الحسن الخرقاني في قرية خرقان شمالي بسطام سنة ٣٥٢ هجرية، وكانت أسرته تعمل في الحراثة، فانشغل بها حين كَبُر.

وقد لُقِّب بـ «شيخ العصر» لعلمه ودينه ومجاهدته نفسه ودوام ذكره ومراقبته، وكانت له كرامات وأحوال.[٥٣٦]

كان من أجلَّة المشايخ وقدمائهم، وممدوحًا في وقته من جميع أولياء الله.[٥٣٧]

عباداته

كان الشيخ الخرقاني حريصًا على العبادات منذ صغره، وكان يصلِّي كثيرًا من النوافل، وقد يصيبه حال فيجد حاجة إلى قضاء الصلاة خشية أن يكون صلَّاها غافلًا.[٥٣٨]

وقال يومًا لمريديه: «أيُّ شيء أعظم وأقيَم؟ فقالوا: «يا شيخنا، لا نعلم، ما هو؟» فقال: «القلب المليء بذكر الله في كل صفحات الحياة وفي كل زمان ومكان».[٥٣٩]

---

٥٣٦ انظر: الذهبي، سير، جـ١٧، ص٤٢١.

٥٣٧ الهجويري، كشف المحجوب، ص٣٧٧.

٥٣٨ انظر: عطار، تذكرة، ص٦٠٦.

٥٣٩ الجامي، نفحات، ص٤٤٤.



يقول (رحمه الله):

«للرجال [أولياء الله] حزن لا تَسعُهُ الدنيا والآخرة، وذلك لأجل أنهم يريدون أن يذكروا الله تعالى لأجله ذكرًا لائقًا به، ولا يقدرون، فيحصل لهم لذلك حزن طويل».[٥٤٠]

فالنبي r كان يدعو:

«**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».[٥٤١]

لقد كان في قلب الشيخ الخرقاني تعظيم ومحبة لله تعالى جعلته يقول:

«لا تصاحبوا من يتكلم بكلام آخر عندما تقولون: (الله Y)».[٥٤٢]

دائمًا مع الله U

كان أبو الحسن الخرقاني (رحمه الله) متفكرًا بتجليات قدرة الله تعالى وعظمته كل حين، ويحيا في حال المراقبة والإحسان، ويوصي مريديه بذلك، وتعكس كلماتُه التالية شعورَه بمعية الله:

«الناس يستغيثون بالله في ثلاثة مواضع: وقت النزع، وفي القبر، وفي القيامة. وأنا أستغيث به في جميع الأحوال».[٥٤٣]

«اختم لسانك حتى لا يذكر غيره، وعلى قلبك حتى لا يُحبَّ غيره، وكذا على الفم وسائر الأعضاء حتى لا تأكل إلا من الحلال، ولا تعمل إلا بالإخلاص».[٥٤٤]

---

٥٤٠ عطار، تذكرة، ص٦٠٢؛ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٤٨.

٥٤١ مسلم، الصلاة، ٢٢٢.

٥٤٢ الجامي، نفحات، ص٤٤٤.

٥٤٣ عطار، تذكرة، ص٦٠٨.

٥٤٤ عطار، تذكرة، ص٥٩٩.



«إن آذيتُ عبدًا من عبادك أعرضَ عنِّي، وأُؤذيك ولا تُعرضُ عني، وأنت معي».[٥٤٥]

تزكية النفس وبلوغ الكمال

يقول الخرقاني (رحمه الله):

«لقد خلقكم الله أطهارًا، فلا ترجعوا إليه أقذارًا».[٥٤٦]

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[٥٤٧]

«إنما يترقَّى الرجال بطهارة الباطن لا بكثرة العمل».[٥٤٨]

«الصلاة والصوم وسائر العبادات عظيمة، ولكن تصفية القلب من الكِبر والحِرص والحسد وغيره من الصفات الذميمة أعظم وأجلُّ».[٥٤٩]

«إذا ما أصاب ثوبَك شررٌ من التنور، فإنك تهرع لإطفائه! فكيف تأذن للنيران التي تحرق دينك مثل الكبر والحسد والرياء أن تفتِكَ بقلبك».[٥٥٠]

«ابكوا كثيرًا واضحكوا قليلًا، اصمتوا كثيرًا وتكلموا قليلًا، أنفقوا كثيرًا وكلوا قليلاً، واهجروا طيب المنام!»[٥٥١]

---

٥٤٥ عطار، تذكرة، ص٥٩١.

٥٤٦ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٥٨.

٥٤٧ الزمر: ٧٣.

٥٤٨ عطار، تذكرة، ص٥٩٦.

٥٤٩ عطار، تذكرة، ص٦٠٢.

٥٥٠ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٣٩.

٥٥١ عطار، تذكرة، ص٦٣٠.



تحرِّيه اللقمة الحلال

صنع خادمه له يومًا المُخلَّل، ووضع فيه شيئًا من القرنفل الذي كان قد زرعه شيخه بيده. وكانت دأب الشيخ الخرقاني ألا يأكل حتى يصلي العشاء، ويقول:

«اللهم إني لا أريد أن أُطعِم بدني حتى أُكمِلَ عباداتي بخشوع».

فجِيءَ بالطعام بعد الصلاة، فقال الشيخ:

«إني لأجد رائحة ظلمة في هذا الطعام».

وفي اليوم التالي ذهب مريدوه إلى البستان فرأوا أن بعض الناس جعلوا الماء يجري في سواقيهم كي يسقوا قمحهم، فجرى الماء في سواقي بستان الشيخ، فسُقِيَ بعض ما زرعه من ذلك الماء.[٥٥٢]

يقول رسول الله r :

«**اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».[٥٥٣]

وهذي الفراسة والبصيرة والتقوى فنُّ القلوب المقربة من الحق سبحانه وتعالى.

قلة طعامه وكلامه

ما خُبِزَ في بيته (رحمه الله) خبزٌ، ولا طُبِخ طعامٌ أربعين سنة إلا للضِّيفان، وهو وأهله يتبعونهم إلا في الأكل، ومع هذا يقول: لو كانت الدنيا لي، وجعلتُها لقمة، ووضعتها في فم الضيف، ما أدَّيت حقَّ ذلك الضيف.[٥٥٤]

وينقل لنا الخرقاني (رحمه الله) القصة الآتية:

---

٥٥٢ الخرقاني، نور العلوم، ص٣١٥-٣١٦.

٥٥٣ الترمذي، تفسير، ١٥/ ٣١٢٧.

٥٥٤ عطار، تذكرة، ص٦٠٧.

قال لقمان الحكيم لابنه يومًا:

«يا بني، صُمِ اليوم واكتب ما تحدثت به! ثم اعرض عليَّ حديثك في المساء فأحاسبك عليه، ثَم أفطِر».

وفي المساء عرضَ ابنه عليه ما تحدث به، ومضى الوقت وازداد جوعًا. وفي اليوم التالي طلب منه لقمان الشيء نفسه، فتأخر إفطاره في اليوم الثاني أيضًا، وعندما كان اليوم الثالث كاليومَين السابقَين، لم يتحدث ابنه إلا عند اللزوم في اليوم الرابع، وعندما طلب منه لقمان في المساء عرض ما تحدث به قال ابنه:

«تحدثتُ قليلًا خوفًا من الحساب».

فقال لقمان: تعالَ وكُلْ طعامَك!.

ثم قال الخرقاني (رحمه الله):

«من ترك الحديث في الدنيا إلا عند اللزوم، سَلِمَ يوم القيامة كما سَلِم ابن لقمان».[٥٥٥]

الرأفة والرحمة والخدمة

يقول أبو الحسن الخرقاني (رحمه الله):

«يُصبِح العالِم وهو يرغب في زيادة علمه والزاهدُ زهدَه، أما أبو الحسن فينشغل بإدخال السرور والسعادة على قلب أخيه».[٥٥٦]

«من أصبح وأمسى ولم يُؤذِ مؤمنًا، فكأنما صاحبَ النبي r ، وإن آذى مؤمنًا لا تقبلُ طاعاته في ذلك اليوم».[٥٥٧]

٥٥٥ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٦٥.

٥٥٦ عطار، تذكرة، ص٦١١.

٥٥٧ عطار، تذكرة، ص٦٠٠.



«يا رب إني لأستحي أن يكون في هذه الدنيا من هو أرأف مني بخَلْقِك».[٥٥٨]

«إن أيَّ أخ لي في الدين من الشام إلى تركستان إذا ما دخلت إصبعه شوكةٌ، فكأنما دخلت إصبعي؛ وإذا أُصيبت قدمه بحجرة، فستؤلم قدمي؛ وإن كان هناك حزن في قلب ما، فذاك القلب قلبي».[٥٥٩]

«إلهي، أنا على أي حال عتيقك ومحبُّك ومحبٌّ لرسولك، وخادمٌ لعبادك».[٥٦٠]

«الكرامة العظمى خدمةُ مخلوقات الله بغير تعب ونَصَب».

نصائحه لمحمود الغزنوي

نُقِل أن السلطان محمود [الغزنوي فاتح الهند] (رحمه الله) جاء من غزنة إلى مكان الشيخ أبي الحسن (رحمه الله) زائرًا له، ونزل خارج القرية، وبعث إليه شخصًا، وأمره أن يقول للشيخ: إن السلطان قطع منازل، وجاء إليك، فعليك أن تأتي إلى خيمته من بيتك، وإن لم يقبل، تقرأ عليه هذه الآية:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)[٥٦١]

فلما اطلع [الشيخ] على المقصود، تبرَّم عن الذهاب إليه، واعتذر، فقرأ عليه الرجل الآية، قال الشيخ: [قل للسلطان] قد استغرقت في (أَطِيعُوا اللهَ) بحيث ما أتفرغ [إليك]... فرجع الرجل، وأخبر السلطان بما سمع، فرقَّ قلبُ السلطان، وقال: قوموا نذهب إليه، فإنه ليس مما ظنناه... ثم استوصاه وصية، فقال الشيخ: حافظ على أربع: التقوى، والصلاة بالجماعة، والسخاوة،

---

٥٥٨ أبو الحسن الخرقاني، نور العلوم، ص٢٤٧.

٥٥٩ عطار، تذكرة، ص٦٠٤.

٥٦٠ عطار، تذكرة، ص٥١٩.

٥٦١ النساء: ٥٩.



والشفقة على خلق الله. ثم قال: ادعُ لي. قال: أدعو لك كل يوم وأقول: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات. قال: نعم، ولكن أريد دعاءً خاصًّا. قال: اللهم اجعل عاقبة محمود محمودة... ثم حين المفارقة قام له، فقال السلطان: إنك لم تقمْ لي عند الدخول، وتقومُ عند الخروج؟ قال: لأنَّك دخلتَ- مع دعوتك- بالسَّلطنة والامتحان، والآن ترجع وعليك انكسار الفقر، فإن أنوار شموس الفقر تلألأت عليك، فما قمتُ لك أولًا نظرًا إلى سلطنتك، وأقومُ الآن اعتبارًا لفقرك. ثم سافر السلطان بعده يغزو.[٥٦٢]

ومن مريدي الشيخ الخرقاني الشيخُ عبد الله الأنصاري الهروي، وهو من أعلام التصوف ومؤلِّف كتاب (منازل السائرين) الذي شرَحَ فيه الأحوال والمقامات المعنوية. يقول الشيخ الهروي:

«درسْتُ على كثير من الشيوخ الحديثَ والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى. وكان الشيخ أبو الحسن أستاذي في التصوف، ولو لم أَرَه لما بلغت الحقيقة».[٥٦٣]

بعض من كرامته

نُقِل أنه (رحمه الله) كان يعملُ الحراثة أيضًا، فإذا جاء وقتُ الصلاة، تركَ العمل واشتغل بالصلاة، وثيرانه تعملُ وتحرث إلى فراغه من الصلاة.[٥٦٤]

وكان يأتي قبر أبي يزيد بعد صلاة العصر، ويرجع إلى تكيته في خرقان عند الصبح ووجهه إلى القبر، وهكذا إلى خرقان مدة طويلة، ويعمل هذا احترامًا لقبر أبي يزيد، ثم بعد اثنتي عشرة سنة سمع صوتًا من تربة الشيخ أبي يزيد: يا أبا

---

٥٦٢ عطار، تذكرة، ٥٧٩-٥٨٢؛ الخرقاني، نور العلوم، ص٢٩٨-٣٠٠.

٥٦٣ الجامي، نفحات، ص٤٨٢. قارن: المرشد عبد الله الانصاري، اللسان والروح، إسطنبول ٢٠١٢، ص١٦، ٦٠.

٥٦٤ عطار، تذكرة، ص٥٧٥.



الحسن، حان حينُ إرشادك الناسَ. فقال أبو الحسن: يا شيخ، أنا رجلٌ عاميٌّ أُمِّيٌّ، لا خبرة لي بالقرآن ولا بالشريعة.

فسمع من قبر أبي يزيد: افتتح بالفاتحة. قال أبو الحسن: ما وصلت إلى خرقان إلا وأتممت القرآن وختمته.[٥٦٥] وزاد اطلاعه على القرآن والسنة منذ ذلك اليوم.

ونُقل أن واحدًا من تلاميذه استأذنه ليسافر لعله يلاقي قطب العالَم، غير أن التلميذ حينما وصل إلى المكان المنشود بعد مدة طويلة وتعب عظيم، رأى أبا الحسن الخرقاني هناك، فاستحى وندم. فرأف به الخرقاني (رحمه الله) وأظهر التواضع ووصاه بالكتمان، وقال:

«إني سألت الله تعالى أن يسترني في الدنيا والآخرة».[٥٦٦]

وفاته

حين حضرته الوفاةُ، وصَّى أصحابَه أن يحفروا في قبره ثلاثين ذراعًا، وقال: لأن أرضنا أعلى من أرض بسطام، والأدب أن لا يكون مرقدُ أبي يزيد البسطامي (رحمه الله) أسفلَ من قبري.[٥٦٧]

وتوفي (رحمه الله) يوم عاشوراء من سنة ٤٢٥ هجرية (١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٠٣٣ م).

ويُروى أن قبره الشريف في إيران في بلدة بسطام التي تقع على بُعد اثنا عشرَ كيلومترًا من بلدة خرقان. ويُروى أنه (رحمه الله) خرج مع جيش الإسلام إلى الجهاد واستُشهِد في مدينة (قارس) بتركيا ودُفِن هناك، وله اليوم في هذه المدينة مقام.

---

٥٦٥ انظر: الخرقاني، نور العلوم، ص٣٠٧؛ عطار، تذكرة، ص٥٧٤.

٥٦٦ عطار، تذكرة، ص٥٧٦.

٥٦٧ عطار، تذكرة، ص٦٠٨-٦٠٩.



من حِكَمه

- لا بد من إشغال عضو من أعضاء المؤمن [على الأقل] مع الله تعالى؛ فالمؤمن يجب أن يدرك اللهَ تعالى بقلبه، أو يذكره بلسانه، أو يرى تجليات عظمَته بعَينه، أو يسخى بيده، أو يزور إخوته برجله، أو يخدم المؤمنين بجسده، أو يسعى لبلوغ المعرفة بالتفكر بعقله، أو يعمل بإخلاص، أو يخشى من القيامة، أو يحذِّر الناس في هذا الشأن.

 وعندها أضمن له أن يذهب إلى الجنة جارًّا كفنه ما إن يُبعَث.[٥٦٨]

- لا فتنة من الشيطان في الدين، إنما الفتنة فيه من رجلين: عالم حريض على الدنيا، وزاهد عارٍ عن العلم.[٥٦٩]

- الرجال يتركون العملَ لئلا يتركَهُم العمل. [أي إنهم يتركون الالتفات بالعمل، والنظر إليه، والسرور به، وإلا فالعملُ يتركُهم. يعني إذا التفتوا إلى العمل واغترُّوا به فلا ينفعهم ذلك العمل إذ ليس خالصًا لوجه الله، فكأن العملَ تركَ صاحبَه وهربَ منه. وأما إذا لم يكن للعامل نظرٌ إلى عمله، وهو يرى تقصيره في جميع أحواله وأعماله، فإن العمل حينئذ ينفعه لا محالة، ولا يتركه البتة].[٥٧٠]

- من جميع ما أعطى اللهُ تعالى عبدَهُ ليس أفضلَ من قلب صافٍ، ولسانٍ صادق.[٥٧١]



٥٦٨ خرقاني، نور العلوم، ص٢٤٠.

٥٦٩ عطار، تذكرة، ص٥٩٨.

٥٧٠ عطار، تذكرة، ص٦٠١-٦٠٢.

٥٧١ عطار، تذكرة، ص٦٠٠.



٨- أبو علي الفارمدي (رحمه الله)

[١٠١٠- ١٠٨٤م]

وُلِد الشيخ أبو علي الفارمدي في قرية فارمد القريبة من مدينة طوس بخراسان سنة ٤٠١ هجرية، وبعد المرحلة الأولى من تحصيل العلم دخل مدرسة المتصوف المشهور عبد الكريم القشيري في نيسابور، فكان من أميز الطلبة فيها خلال مدة قصيرة. وبعدما أكمل علوم الظاهر استأذن أستاذه في ترك المدرسة والتوجه إلى التكيَّة كي يبدأ علوم الباطن، فانشغل مدة في المُجاهَدات والرياضات.

وتلقَّى العلم عن كثير من العلماء والمرشدين، إلى أن انتسب إلى الشيخ أبي الحسن الخرقاني، فبلغ المراتب العليا، وانتفع من علم أستاذه وروحانياته.

ثم كُلِّف بالإرشاد، فكانت له جهود عظيمة، وكان حديثه فصيحًا بليغًا مؤثِّرًا، وكان يزيِّن مجالسه بالأمثلة والتشابيه التي تبعث الروحانية والفيوضات في القلوب، ومجلس وعظه كروضة فيها ضروب الأزهار والثمار.[٥٧٢]

وتربَّى على يديه علماء كبار مثل الإمام الغزَّالي ويوسف الهمداني.

وقد ابتدأ الإمام الغزالي بصحبة الشيخ أبي علي الفارمدي، فأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يأمره به من العبادات والنوافل والأذكار والاجتهاد طلبًا للنجاة، إلى أن جاز تلك العِقَاب، وتكلَّف تلك المشاق.[٥٧٣]

٥٧٢ السمعاني، الأنساب، جـ١٠، ص١٢٥؛ عبد الغفور، تاريخ نيسابور، ص٦٢٨.

٥٧٣ الذهبي، سير، جـ١٩، ص٣٢٤-٣٢٥؛ السبكي، طبقات، جـ٦، ص٢٠٩.



ويقول الإمام الغزَّالي:

«سمعت الشيخ أبا علي الفارمدي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه».[٥٧٤]

ولقد أولى أبو علي الفارمدي (رحمه الله) أهمية عظيمة لأسس الدين الظاهرة والباطنة. وكان يُسرُّ بأهل الله ممن يحيون حال الجذب ويحترمهم. وكان (رحمه الله) من أهل التفكر والعرفان، وكان جدِّيًّا وقورًا في كثير من أحواله إلا أن رحمته ورأفته بالناس كانت أعظم.

الخدمة بأدب وفراسة

كان الفارمدي (رحمه الله) يعظِّم شأن الخدمة، ويؤدِّيها بأدب وفراسة. دخل شيخُه حمَّام التكيَّة يومًا، فذهب الفارمدي وأتى ببضع دلاء من ماء البئر وملأ حوض الحمام، فسُرَّ شيخه بهذه الخدمة، ولمَّا خرج سأل عمَّن ملأ الحوض، فسكت الفارمدي. ولمَّا سأل شيخه بضع مرات، قال الفارمدي: أنا ملأته. فأثنى عليه شيخه ثناءً عظيمًا وبشَّره بالبركات وبلوغ أعلى الدرجات، لخدماته التي أدَّاها بفراسة وأدب وتواضع.[٥٧٥]

فالخدمة بأدب تأتي على رأس الصفات الحسنة التي تكون وسيلة للترقي في الحياة المعنوية.

إرشاده نظام الملك

كان أبو علي الفارمدي (رحمه الله) يبلِّغ الحقيقة بِقول ليِّن، ويرشد الحُكَّام فيقوِّم أخطاءهم بأسلوب لطيف، ومن أولئك الحكام الذين تلقوا إرشاده الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك مؤسِّس المدارس النظامية. وكان نظام الملك

---

٥٧٤ الغزالي، إحياء، جـ٤، ص١٧٨.

٥٧٥ الجامي، نفحات، ص٥١٤؛ أحمد حلمي، حدائق الأولياء، ص١٣.



عالمًا فاضلًا، لا يخلو مجلسه عن العلماء في أي قطر كان، وكان بابه مجمع الأفاضل من الفقهاء للمناظرة بين يديه. وكان إذا انتقده من حوله وقالوا له:

«إن هؤلاء يشغلونك عن عملك!»

ردّ عليهم بقوله:

«هؤلاء زينة الدنيا والآخرة، ولو حملتهم على رأسي لما كان ذلك بالأمر العظيم».

وكان نظام الملك إذا دخل عليه العلماء والعارفون يقوم لهم ويجلس في مسنده كما هو، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمدي يقوم إليه ويُجلِسه في مكانه، ويجلس بين يديه.

ولمَّا قيل له: يدخل عليك فلان وفلان، لا تكرمه هذا الإكرام الذي تكرم به هذا الشيخ- يعني أبا علي الفارمدي-؟!»

أجاب نظام الملك:

«أمثال هؤلاء العلماء إذا دخلوا عليَّ يقولون لي: أنت كذا وأنت كذا، ويثنون علي، ويطرونني بما ليس فيَّ. فيزيدني كلامهم عجبًا وتيهًا في نفسي، وإذا دخل علي هذا الشيخ- يعني أبا علي الفارمدي- يذكر لي مثالب نفسي وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي وأرجع عن كثير مما أنا فيه».

وكان نظام الملك يراعي أداء الصلوات في وقتها ببركة الشيخ الفارمدي وإرشاده، فلم يكن يشغله عن الصلاة أي عمل إن دخل وقتها. وكان يدأب على صيام الاثنين والخميس، وبنى أوقافًا كثيرة وأنفق الكثير في سبيل الله U.

وكان نظام الملك يحضر مجلس الشيخ أبي علي الفارمدي، فبكى يومًا حتى ابتلّت ثيابه، فقال له الشيخ الفارمدي (رحمه الله): لا تبكِ كي ترشوي- يعني تصير ثيابك مبلولة- ثم قال بعد ساعة:

«لو كانت الدنيا بحذافيرها لإنسان وأنفقها في المصالح وسبل الخير، لا يصل إلى الله بها» أي لا يصل إلا برحمة الله.

ثم قال بعد ساعة:

«ينتقل من الدست[٥٧٦] إلى موضع الحساب».

ثم نبَّه نظام الملك فقال:

«ولا تنسَ أنهم آخذونك من دستك إلى موضع الحساب».[٥٧٧]



توفي أبو علي الفارمدي (رحمه الله) في طوس سنة ١٠٨٤ ميلادية.



٥٧٦ صدر المجلس.

٥٧٧ انظر: العقيلي، بغية الطلب في تاريخ حلب، دار الفكر، جـ٥، ص٢٤٨٨-٢٤٨٩.



٩- يوسف الهمداني (رحمه الله)

[١٠٤٩- ١١٤٠م]

وُلِدَ الشيخ سنة ٤٤١ هجرية في قرية من قرى همدان، وعندما بلغ الثامنة عشر من عمره توجه إلى بغداد عاصمة الخلافة ومركز العلم، فدرَسَ هناك العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وكلام على يد كبار العلماء، وفاق هناك أقرانه في الذكاء والبصيرة وصار من أفضل طلاب شيوخه.

وكان الهمداني (رحمه الله) يحفظ كثيرًا من كتب العلوم الإسلامية، وقد جلس بين يدي كثير من المشايخ وحضر مجالسهم.[٥٧٨]

وتعلم علم الحديث، وكان واعظًا وانتفع به خلق كثير.[٥٧٩]

وحضر كثير من علماء بغداد وأصفهان وسمرقند دروسه في الحديث.[٥٨٠]

ثم ضاق ذرعًا بما في الفقه والكلام من جدال وخلاف وتوجَّه إلى التصوف، وانتسب إلى الشيخ أبي علي الفارمدي.[٥٨١]

---

٥٧٨ الغجدواني، مقامات، ص٤٠.

٥٧٩ رشحات، ص٤٠.

٥٨٠ الجامي، نفحات، ص٥٢١.

٥٨١ الغجدواني، مقامات، ص٤١-٤٢.



إرشاده

بعد أن أنهى يوسف الهمداني (رحمه الله) تعلمه في التصوف، أقام تكيَّةً في مرو لإرشاد الناس، فكانت تلك التكيَّة تقدم خدمات عظيمة، وكان أرباب العلم –إضافة إلى المتصوفة– يترددون عليها. غير أن الهمداني (رحمه الله) لم يظل مقيمًا في التكيَّة، بل ساح في كثير من البلدان مرشدًا الناس. وعندما كان في الخامسة والستين من عمره رجع إلى بغداد صوفيًّا وواعظًا كبيرًا، وعقد مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية وصادف بها قبولًا عظيمًا.[٥٨٢]

وقد ربَّى الشيخ يوسف الهمداني (رحمه الله) علماءَ وعارفين أجلَّاء مثل أحمد يسوي، وعبد الخالق الغجدواني.

وحضر الشيخ عبد القادر الجيلاني مجلس يوسف الهمداني واستفاض منه.[٥٨٣] ونُقِل أن الهمداني (رحمه الله) هو الذي شجَّع الشيخ الجيلاني على الإرشاد والوعظ.[٥٨٤]



وقد سُئِل الهمداني: إذا مضى هذا الزمان وارتحل الشيوخ إلى الآخرة فماذا أفعل كي أبلغ السلامة؟

فأجاب (رحمه الله):

«عليك بقراءة ثماني ورقات [١٦ صفحة] من كتب أولياء الله كل يوم»، فكان قوله ذلك سببًا لوضع فريد الدين عطار (رحمه الله) كتابه «**تذكرة الأولياء**».[٥٨٥]

٥٨٢ انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٢٩، ص٤٧-٤٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١١، ص٦٤٣.

٥٨٣ الجامي، نفحات، ص٥١٠-٥١١.

٥٨٤ انظر: الذهبي، سير، جـ٢٠، ص٤٤٦-٤٤٧.

٥٨٥ الهمداني، ما الحياة، (ترجمة: نجدت طوسون)، ص١٤، ٩١.



أخلاقه الحميدة

يقول الشيخ عبد الخالق الغجدواني (رحمه الله) مبيِّنًا أخلاق مرشده يوسف الهمداني:

لم يَجِد هذا الشيخ العزيز قيد أنملة عن سنة نبينا رسول الله r ، وعاش حياته متَّبعًا الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والسلف الصالحين... وكان هذا الشيخ الجليل السائر على الطريق المنير يدعو أحبابه وأتباعه إلى العيش بِهدي الكتاب والسنة، ويحذِّرهم من اتباع شهوات النفس، والبدع، ومخالفة الشريعة، وطرق أهل الفتنة والباطل، وتقليد المقلِّدين. وقال مرةً:

«يا عبد الخالق، اعلم أن السلوك؛ أي الرحلة في سبيل الوصال مع الحق تعالى، قسمان:

الأول سلوكٌ ظاهري؛ أي مراعاة أوامر الله ونواهيه كل حين، والحفاظ على موازيين الشريعة، والهرب من رغبات النفس.

والآخر سلوكٌ باطني؛ أي بذل الجهد من أجل تطهير القلب واجتثاث جذور الصفات النفسانية، وذلك هو الطهارة الباطنية، فلا بد للسالك من العزيمة والاجتهاد في ذكر القلب حتى يجعله بذكر الله دائمًا».

ثم نصح فقال:

«كن على درب سيدنا محمد r وإياك أن تتجاوز حدود الشريعة ولو ذرة! وامنع أن يأتي أحدُهم بشيء يخالف الدين».

وفي سنة ٥٠٤ هجرية أرسل السلطان السلجوقي سنجر في الحادي عشر من شهر رمضان رسالةً إلى مريدي الشيخ الهمداني، ذكرَ فيها:

«أعلمنا شيوخ سمرقند أن عُمرَ الشيخ يوسف الهمداني قد بلغ الكمال. ولا طاقة لنا في أن نزوره، فسليمان شاه قادم إلينا بجيش عظيم. غير أننا أرسلنا

خمسين ألف دينار من ربح حلال كي يصرفها الدراويش على التكيَّة، واقرؤوا الفاتحة تيسيرًا لعملنا، وكل ما نرجوه منكم أن تكتبوا إلينا أخلاق الشيخ وأحواله، فقد سمعنا أن طريق الشيخ وسلوكه أشبه بطريق الصحابة. فاهتموا بهذا الأمر وشرِّفوا الداعي لكم بهذا الطلب».

فقرأ الهمداني (رحمه الله) الفاتحة على نية حلِّ معضلاته، ودعا له، ثم قال دليلًا على تواضعه:

«أيها الدراويش، ماذا نكتب لِسنجر ولم يظهر منَّا إلا العيوب؟».

وعندما قال بعض من نجباء طلَّابه:

«يا شيخنا، إن دراويشك يطلبون الإذن كي يكتبوا عن أخلاقك وأحوالك!»،

قال الهمداني (رحمه الله):

«إذن اكتبوا ما تجدونه موافقًا لشريعة رسول الله».

وفي ما يلي بعض من الأحوال الحسنة التي ظهرت في حياة الشيخ يوسف الهمداني:

ذهب الشيخ إلى الحج ماشيًا عدة مرات، وكان يصوم كثيرًا، ودأبه صيام الأيام العشر الأخيرة من شهرَي جمادى الآخرة ورجب، وكان يسأل الله التوفيق في عباداته وطاعاته، ويستغفر ربه ويصلي على النبي كثيرًا، ويُصلِّي صلاتي التهجد والتسبيح في وقت متقارب. ويدأب على أداء صلاة الإشراق والأوابين والتهجد والاستخارة، ويدعو كثيرًا ويوصي المريدين بذلك.

وكان يشعر بالسعادة والطمأنينة حين يؤدِّي العبادات كالصدقة والزكاة، ويحب الاعتكاف، وذبح الأضاحي، وعتق العبيد.

وكانت تظهر على أعضائه علامات الذكر القلبي الذي يؤدِّيه بكتم أنفاسه، وكان- إضافة إلى قراءة الأوراد اليومية- يتلو سورة يس وجزءًا من القرآن بعد

كل صلاة فرض، ويقرأ جزءًا من القرآن في ركعتين، لكنه ما كان يطيل الصلاة إن أَمَّ الناس، وكان ينشغل بتلاوة القرآن عندما يمشي في الطريق وفي كل فرصة يجدها.

وكان يسوح في سبيل الله، ويذهب إلى بيوت الكفار والنصارى والمجوس والزردشتيين ويعلمهم فضائل رسول الله r ، ويبيِّن لهم الثواب والعقاب الذي أعده الله في الآخرة، فكان وسيلة لهداية كثير منهم. وكان ينبِّه المذنبين، فإن لم يستطع تحسين أحوالهم، نأى عنهم. ولا أحد يعلم كم من الناس تابوا على يديه.

وكان يذهب كثيرًا إلى المساجد والمفازات والبلدات والقرى والجبال، فيعرِّف أحكام الإسلام لساكنيها من تُركٍ وعرب، وأسياد وعبيد، ودراويش وتجار، و(آغوات) ورعاة، سواء أعرفهم أم لم يعرفهم، فيقيم فيهم ويعلمهم أمور دينهم والفقه الواجب تعلمه.

وكانت مجالسه الروحانية ذات فيوضات عظيمة، يشرح فيها دائمًا فضائل الخلفاء الراشدين ومناقبهم... وكان يدعو أكابر سمرقند كل شهر، ويشرح لهم موضوعات صوفية، فيحضر مجالسَه أكابر سمرقند وشيوخها وقادتها.

وكان يزور كبار المشايخ في ليلتي الخميس والجمعة وليالي العيد، ويسأل ضيوفه عن مكان البلاد التي جاؤوا منها وعن الدراويش هناك، وأسماء المتصوفة المدفونين فيها.

وكان كثير البكاء، معظِّمًا أمر الله تعالى فما مدَّ قدميه يومًا في حياته، وكان يبكي خشية من الله تعالى، ويخاف من الآيات الكريمة التي تُوعِد بالعقاب، ويستبشر بالآيات التي تبشِّر المؤمنين وتعدهم بالجنات، وكان قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء (الخوف من أن يحلَّ عليه غضب الله، ورجاء رحمته).

وكان يحمل معه مصحفًا وسجادة الصلاة ومِشطًا وسواكًا ومنشفة. وكان على وضوء دائمًا، لا يترك الصلاة في جماعة بغير عذر. وكان يقابل بالحسنة إن جافاه أحد أو آذاه، فالله تعالى يقول:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [٥٨٦]

وكان يُخفي كراماته وولايته، ويُجيبُ من يدعوه من المؤمنين أَفقيرًا كان أم غنيًّا، ضعيفًا أم قويًّا. ولا يستحقر أحدًا أو يستخفُّ بشيء، ولا يمدح من مدَحَه. ولا يفضل غنيًّا على فقير لغناه، ويشرح أحوال الصحابة الفقراء والأغنياء، ويأمر مريديه بالاقتداء بهم.

ويُكثِر من زيارة القبور، ويسلِّم على أهلها، ويدعو بما جاء في القرآن والحديث. وكان يزور كثيرًا قبر قُثَم بن العباس ٧. وكان يذكر الموت والقيامة وخروج الروح وسؤال القبر والبعث وعرض صُحُف الأعمال والميزان والصراط، فيبكي كثيرًا. وكان يخاف من سوء الخاتمة، ويسعى للاستعداد للموت كل لحظة، ويحيا مدركًا أن العيش إنما هو عيش الآخرة.

وكان يكسب قوته من الحراثة وصناعة (الجزمات)، ويصادق الذين يعملون في الحلال ويكسبون منه؛ وينبِّه الكسالى الذين يرغبون في العيش من كد الآخرين، ويذكر لهم أن العمل والسعي والربح من أمر الله تعالى. ويحث الناس على الأكل واللبس من الحلال والعمل في طرق الحلال، ولم يمنع أحدًا قط عن نصيبه ولقمة عيشه.

وكان ينفق ما أعطاه الله على الفقراء واليتامى والغرباء والمساكين، ويحيميهم ويرعاهم. ويستغني عن غيره ولا يطلب منهم شيئًا ويوصي مريديه بذلك. ويحيا

---

٥٨٦ فصلت: ٣٤.



متوكلًا على الله في تسليم تام لقضائه، ولا يتنازل البتة لمنفعة دنيوية، وينصح من يميل إلى الدنيا ومغرياتها.

ولا يتوضأ ولا يغتسل بآنية الفضة والذهب، ولم يكن في بيته سوى حصير ورداء من صوف متلبد وإبريق ووسادتَين وقِدر.

وكان قليل الذهاب إلى الأسواق، ولا يأكل من الطعام المطبوخ فيها، ويأكل طعامه بغير دسم، أكثر طعامه من الخبز الجاف والخل، حتى إنَّ ظَهْرَه انحنى من الجوع والرياضات، وكان في مجاهدة لنفسه كل حين.

وكان يأكل مع إخوته المؤمنين من القصعة نفسها، ويغسل يدَيه قبل الطعام وبعده، ويقول في أوله: «بسم الله» وفي آخره: «الحمد لله»، ويبدأ الطعام بالملح وينهيه بالملح.

ولا يأكل طعامًا ما لم يذكر الله تعالى، وكان يقول:

«أكل اللقمة كزرع البذرة، فلابد من إلقاء البذرة بإدراك ووعي كي يتحول الأكل إلى طاعة».

وكان يبيِّن الكلام الذي يحمل الإنسان إلى الكفر، ويدعو قائلًا: «اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك، واغفر لي ما لا أعلم، فإنك علام الغيوب».

وكان لا يتكلم في حضور شيخه تأدبًا، ولا يقول البتة «أنا» في كلامه، فإن كان لا محالة قال عن نفسه: «العاجز أو المسكين» أو ما شابه، تواضعًا منه. وكان لا يجرح أحدًا بكلامه، بل كان ليِّن القول، لا يلعن شيئًا أو أحدًا ولا يدعو عليه، ويمنع مريديه من أكل لحوم إخوانهم (الغيبة) ومن كثرة الكلام. وكان بليغًا في كلامه، ولا يدعو على أحد، ويسلِّم على كل مسلم يراه، وكان يقوم لكل من يأتيه لطفًا وظرافة منه، ويخاطب كل من يراه بقوله: «يا سيِّد».

وكان دائمًا في حال من الحزن والتفكر، ولا يضحك بصوت عال، بل يكتفي بالتبسم، ويفضِّل الوحدة والعزلة.

وكان لا يخصُّ أحدًا بالكلام في مجالسه، ويدخل المجلس والتكيَّة بقدمه اليمنى ويخرج باليسرى، ويأكل بيمينه ولا يأكل ولا يصلي حاسر الرأس، ولا يقرأ القرآن بصوت عال، وكان كثير الوضوء ويحرص على البقاء متوضئًا، ويلجأ إلى الله تعالى من كل خطر مادي أو معنوي، ويحذِّر مريدِيه من أعدائهم من الجن والإنس، ويقول:

«هؤلاء الأعداء لا يُردُّون إلا بالوضوء الدائم والقلب الذاكر».

إن أحسن إليه أحد، أحسن إليه ضِعفَين، وكان دائمًا معه التمر والزبيب والكَعْكَ، يُكرِم بها ضيوفه.

وكان ينظر إلى أمامه حينما يمشي، ولا يسير في حقول الناس، ويميط الأذى عن الطريق، ويؤدي عمله بنفسه، ويذهب إلى المطحنة بنفسه.

وكان يودُّ لو أنه يلقى ربه شهيدًا، وإن سمع أن صاحبًا له مات شهيدًا، صلَّى عليه صلاة الغائب.

وكان (رحمه الله) يحب الناس ويحبونه، وكان من أهل الإخلاص والتقوى والصدق والصفاء، يشكر الله تعالى دائمًا ولا يشكو من تبدُّل الأحوال، ويحيا بنفس «**راضية**»، في رضا وتسليم تام بقضاء الله وقدره، ولم يشكُ قط مع أن رأسه كان يؤلمه دائمًا، وقال يومًا: «إن هذا الهمَّ عندي منذ ثلاث وأربعين سنة»

ثم قال: «ومن الصحابة من كان في همٍّ دائم غير أنهم كانوا يخفون أحوالهم عن الناس».

ولم يحسد أحدًا يومًا، ولم يشكُ من حرٍّ أو برد، وكان راضيًا عن المخلوقات كلها، يُكرِم النباتات فلا يتبوَّل عليها ولا يبصق.

ولم يكُ يجادل المسلمين، وكان يصلي وراء أي إمام محسنًا الظن به، ولا يكفِّر أهل القِبلة، ويصلي على من مات أَصغيرًا كان أم كبيرًا، ويحسن معاملة كل الناس حتى أعداءه.



وكان من أهل الإيثار لإخوته في الصحب والخدمة، ويفضِّلُهم على نفسه. وكان يعود المرضى، ويعين المحتاجين، ويُدين الدائن ولا يطلب ردَّ الدَّين.

وكان لا يستعجل في عمله، ويصبر على البلاء، ولا يخبر أسراره لمن هو ليس أهلًا لها. وكان يحزن إن لم يلحق بعمل صالح أو خدمة، ويستغفر ربه، ويحاسب نفسه كل مساء، ويقي ثيابه من النجاسة بحذر، وكان إذا وعد أوفى، وإذا شمَّ رائحة زكية صلَّى على النبي ودعا قائلًا:

«لا إله إلا الله الملك الحق المبين، سبحان الله العظيم وبحمده، أستغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه».[٥٨٧]

مراعاته أحكام الشريعة

كان يوسف الهمداني (رحمه الله) يراعي أوامر الإسلام ونواهيه الظاهرة والباطنة كلها، ولم يرغب في الكرامات وإظهارها، ولم يقبل الأقوال والأحوال التي تخرج عن إطار الدين نتيجة أحوال الجذب والسُّكْر المعنوي.

وقال في المتصوف المشهور الحلَّاج:

«لو بلغ الحسين بن منصور المعرفة بحق، لقال: (أنا تراب) بدل قوله: (أنا الحق)».[٥٨٨]

وقال (رحمه الله):

«من لا يسير في طريق الدين والشريعة، فهو تابع للشيطان ولو أظهر ألف كرامة في اليوم. ومن اعتقد بشيء مخالف للسنة فهو قاطع طريق ولو حفظ علوم الدنيا كلها».[٥٨٩]

---

٥٨٧ انظر: الغجدواني، المقامات، ص٣٨-٤٧.

٥٨٨ الهمداني، ما الحياة، ص١٦.

٥٨٩ الهمداني، ما الحياة، ص٩٢.



وفاته

أمضى يوسف الهمداني (رحمه الله) السنوات الأخيرة من عمره في مرو وهراة، أكبر مدينَتَين في خراسان. وتوفي (رحمه الله) في بلدة (بامين) وهو عائد من هراة إلى مرو في ٢٢ ربيع الأول ٥٣٥ هجرية (٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١١٤٠م). فدفنوه في تلك البلدة، غير أن أحد مريديه واسمه ابن نجار نقل قبره إلى مرو بعد حين. وقبره اليوم في تركمانستان بالقرب من مرو، في موضع اسمه (بايرام علي) يزور الناس قبره باسم «الخواجة[٥٩٠] يوسف».

من حِكَمه

- أغلِقْ باب الأنانية، وافتحْ باب الخدمة والصحبة.[٥٩١]
- اجلسوا في حضور المشايخ بأدب واحترام وتعظيم ظاهرًا وباطنًا.[٥٩٢]



٥٩٠ الخواجة: كلمة فارسية بمعنى الشيخ ورئيس البيت وعزيز القوم وعظيمهم، ويطلق على الحاكم والوالي وكل صاحب جمعية، واشتهر به مشايخ ما وراء النهر، الواو كواو (الحيوة) تكتب ولا تقرأ.

٥٩١ أحمد الكاساني، آداب السالكين، مكتبة جامعة إسطنبول، رقم:٦٤٩، ورقة: ٥٧ب، ٦٢أ.

٥٩٢ الغجدواني، مقامات، ص٤٥.



١٠- عبد الخالق الغجدواني (رحمه الله)

[١١٧٩ - ١٢٢٠م]

وُلِد عبد الخالق الغجدواني في بلدة غجدوان التي تبعد أربعين كيلومترًا عن بخارى، أبوه عبد الجميل أفندي من نسل الإمام مالك، وُلد في مدينة ملاطيا التركية، وكان عالمًا في علوم الظاهر والباطن.

رحل عبد الخالق وهو صغير السِّن إلى بخارى لتحصيل العلم.

وذكر أنه كان يقرأ تفسير القرآن عند الشيخ صدر الدين فوصل إلى قوله تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [٥٩٣]

فقال للشيخ:

ما حقيقة الذكر الخفي، وكيف طريقه، فإن العبد إذا ذكر بالجهر وبتحريك الأعضاء يطلع الناس عليه، وإن ذكر بالقلب فالشيطان يطلع عليه، لقوله r :

«**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[٥٩٤]؟

فقال له الشيخ:

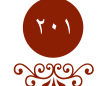
إن هذا علم لدني، وإن شاء الله تعالى يجمعك الله على أحد من أوليائه فيلقنك الذكر الخفي.[٥٩٥]

---

٥٩٣ الأعراف: ٥٥.

٥٩٤ البخاري، الأحكام، ٢١.

٥٩٥ الخاني، الحدائق، ص٣٥٣؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، ورقة: ٥٣ب-٥٤أ؛ رشحات، ص٥٣-٥٤؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ورقة: ٧٥أ.



فضائله

يقول عبد الرحمن الجامي (رحمه الله):

«إن سلوك الشيخ الغجدواني قدوةٌ معتبرةٌ للطرق كلها. فقد سعى الشيخ دائمًا للصدق والصفاء والتمسك بالكتاب والسنة، والفرار من البدع، ومخالفة الأهواء والوساوس، وأخفى عن غيره ما ناله من أحوال ومقامات».[٥٩٦]

لقد كان الشيخ الغجدواني (رحمه الله) في قمة التواضع، ويحذِّر مريديه من الغرور والكِبر والعُجب أشدَّ التحذير. وذات مرة قال له ضيف:

«يا شيخنا، ادعُ الله لنا أن ننقذ إيماننا! فيكون وسيلة لإنقاذ قلوبنا من مكائد الشيطان، فنبلغ السلامة!».

فقال الشيخ:

«إن الإنسان إذا ما دعا ربَّه بعد أداء الفرائض، يُقبَل دعاؤه. فعليك بعمل الصالحات، واذكرنا بالخير في دعائك بعد أدائك الفرائض، نذكُرْك، لعلَّ الله تعالى يقبل أدعيتنا».[٥٩٧]

وعبد الخالق الغجدواني (رحمه الله) مؤسس «طريقة الخواجكان»، وهو واضع القواعد الأساسية للطريقة النقشبندية لا سيما الذكر الخفي، وكان يُلَقَّب بـ «رأس سلسلة الخواجة».

وقد كان كبار علماء بخارى وقادتها مريدين عنده.

أدب العبودية

سُئِل (رحمه الله): هل يتعرَّض الشيطان لسالكي هذا الطريق؟ فقال: إن لم يصل السالك إلى حد فناء النفس، يجد الشيطان إليه سبيلاً عند الغضب، وأما

---

٥٩٦ الجامي، نفحات الأنس، ص٥٢٣.

٥٩٧ الجامي، المصدر السابق، ص٥٢٥.



السالك الواصل إلى فناء النفس، فلا يكون له غضب بل غيرة، وعند الغيرة يفر الشيطان.[٥٩٨]

يقول الله تعالى:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[٥٩٩]

أي إنه لا ينجو من شر الشيطان إلا من أخلص لله تعالى من عباده المؤمنين الصالحين، ولا بد أن نلتجأ إلى الله بإخلاص كل حين كي نكون من عباده هؤلاء.

أهمية الصحبة

انقطع أحد مريدي الشيخ الغجدواني عن مجالسه مدة، فكان هذا المريد يرى في منامه كل ليلة جماعة من الناس يقولون له:

«لقد بلغت الكمال، فلنأخذك إلى الجنة» ثم يحملونه على ناقة، ويأخذونه إلى أرض فيها أرائك مزينة وأشياء نفيسة وأطعمة لذيذة ومياه جارية، وعندما يُصبِح يجد نفسه على سريره. فانتبه الغجدواني (رحمه الله) إلى حال المريد بنور الفراسة، فذهب إليه وسأل عن حاله. وأخبره المريد بما يراه، فنصحه الغجدواني قائلًا:

«إن ذهبت إلى ذلك المكان فَقُلْ ثلاثًا: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم افتح عينَيك».

ففعل المريد في ذلك اليوم ما وصَّاه به شيخه، وعندما فتح عينَيه وجده نفسه بين جيف حيوانات، وأدرك أنها رؤيا شيطانية، فلم يفارق مجالس شيخه بعد ذلك اليوم».[٦٠٠]

---

٥٩٨ الجامي، المصدر السابق، ص٥٢٤؛ بارسا، فصل الخطاب، ص٥٩٩؛ الخاني، الحدائق، ص٥٧٥.

٥٩٩ الحجر: ٣٩-٤٠.

٦٠٠ مقامات عبد الخالق الغجدواني وعارف ريوكري، ص١٤-١٥؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ1، ورقة: 83ب84-ب.



الكلمات القدسية

تُعدُّ القواعد الثمانية التي وضعها الشيخ الغجدواني القواعدَ الأساسية في السير والسلوك في الطريقة النقشبندية، وقد أُطلِق على هذه القواعد اسم «الكلمات القدسية» وهي:

١- هوش دردم: والمعنى المراد أنه ينبغي للسالك العاقل أن يحفظ النَفَس عن الغفلة عند دخوله وخروجه، ليكون قلبه حاضرًا مع الله تعالى في جميع الأنفاس.

وقد قال الشيخ بهاء الدين نقشبند:

«إن مبنى هذا الطريق على النَفَس، فينبغي لك أن تحفظ النَفَس وقت الدخول والخروج، بل تحفظ ما بين النَفَسَين».[٦٠١]

٢- نظر بر قدم: والمعنى المراد أنه ينبغي للسالك أن يكون نظره إلى قدميه عند المشي، لئلا ينظر إلى الآفاق، لأن النظر إليها يورث الحجاب في القلب، لأن أكثر الحجب التي في القلوب هي الصور المرتسمة فيها من طريق النظر.[٦٠٢]

والنظر إلى القدمين عند المشي فيه فضائل شتى، مثل صون العين عن الحرام، والأدب، والحياء، والتواضع، واتباع السُنَّة.

٣- سفر در وطن: أي سفر السالك إلى جناب الحق سبحانه وتعالى، والسفر من حال إلى حال أحسن منه بالتجرد من شهوات النفس وهواها، والترقي المعنوي. وفي الظاهر السفر من أجل زيارة المرشد وتلقي تربيته.

٤ – خلوة در أنجمن: أي أن يكون السالك مع الخلق في الظاهر ومع الحق بقلبه.

---

٦٠١ الخاني، الحدائق، ص٣٦٠.

٦٠٢ الخاني، الحدائق، ص٣٥٧.



سأل الملك حُسين الشيخَ نقشبند: «كيف تكون خلوة در أنجمن؟» فأجاب الشيخ نقشبند:

«إن هذه الخلوة تكون لمن يألَف الخلقَ ظاهرًا، وينشغل بالله تعالى كل حين باطنًا، فلا تُشغِله تلك الأُلفة عن ذكر الله تعالى والتفكر في آياته».

فسأل الملك: «وهل يكون ذلك ممكنًا؟» فتلا الشيخ نقشبند عليه قول الله تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)[٦٠٣]. [٦٠٤]

٥- يادكرد: أي أن يكون الذكر بالقلب واللسان، وهو «النفي والإثبات» أي التعمق في حقيقة كلمة التوحيد. فعندما يقول السالك «لا إله» ينفي عن قلبه الهوى والوساوس التي تجعله غافلًا عن ربه، ويُخرج منه كل مقصود غير الله سبحانه وتعالى، ثم يثبت حقيقة «إلا الله» بقلبه الطاهر، ويسعى ليكون قلبه لله تعالى وحده.

٦- بازكشت: أي قول السالك بعد كلمة التوحيد: «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي».

٧- نِكاه داشت: أي حفظ القلب عن الخواطر، والمحافظة على معنى النفي والإثبات في القلب.

٨ – ياد داشت: أي أن يداوم السالك على حضور القلب الحاصل من الذكر، وأن يدرك أنه في حضرة الله كل لحظة.[٦٠٥]

---

٦٠٣ النور: ٣٧.

٦٠٤ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٦٧.

٦٠٥ الخاني، الحدائق، ص٣٦٨.



وثمة ثلاث أسس معروفة تُضاف إلى هذه القواعد الثمان، وهي:

١. **وقوف زماني**: أي اطلاع السالك على زمانه المستمر عليه، وعلمه بكيفية حاله عند مضيه، من حيث الحضور المستوجب للشكر، والغفلة الموجبة للمعذرة، فالطالب يجتهد كل الاجتهاد في أن لا يمضي عليه زمان، ولا يجري عليه آن إلا وهو على توجه إلى المقصود الأصلي.

٢. **وقوف عددي**: أي مراعاة العدد في الذكر، فينبته السالك إلى أن يكون العدد فرديًّا لا سيما في الذكر الخفي وذكر النفي والإثبات، فيحفظ قلبه من الخواطر. وفي مراعاة الأعداد المذكورة كثير من الحِكَم والأسرار، لا يدركها بقلبه إلا من أوتي الحكمة. فعدد الذكر كأسنان المفتاح، إن زاد عدد أسنان المفتاح أو نقص فلن يفتحَ القفل، وكذلك إن لم يُراعَ العدد في الذكر يقلُّ تأثيره. وقد أمر رسول الله r بالذكر بأعداد واضحة.

٣. **وقوف قلبي**: أي وقوف الذاكر في أثناء الذكر على قلبه، أو وقوف قلب الذاكر على المذكور عند ذكره، وهذا يعني أن يشعر السالك بـ«**الإحسان**» كل آن. فعلى السالك أن يطلع على قلبه في كل فرصة، ويرى حاله، فالمطلوب الأساس في الذكر إدراكُ القلب المذكورَ، وليس الذكر تكرار اللفظ الذي لا ينزل من الفم إلى القلب. فلا بد أن يسعى الذاكر أثناء الذكر للتركيز على المذكور، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا)[٦٠٦] .[٦٠٧]

---

٦٠٦ المزمل: ٨.

٦٠٧ انظر: رشحات، ص٦٢-٦٤؛ نظام الدين حاموش، رسالة، مكتبة السليمانية، عاشر أفندي، رقم: ٤٤٣، ورقة: ١٥٣ب–١٥٤أ؛ تاج الدين بن زكريا، رسالة في طريق السعادة النقشبندية، مكتبة السليمانية، رشيد أفندي، رقم: ٤٧٤، ورقة: ٥١أ–٥٢ب؛ الخاني، الحدائق، ص٣٥٥-٣٦٩.



وفاته

عاش عبد الخالق الغجدواني (رحمه الله) في بلدة غجدوان معظم حياته، وتوفي فيها. ولم يُعلم تاريخ وفاته، وتشير الروايات أن وفاته كانت بين ١١٧٩ و١٢٢٠ م.

يقول خليفته عارف الريوكري (رحمه الله) مبيِّنًا حادثة شهدها:

«كان من أقوال الشيخ الغجدواني في آخر عمره: (يا أصحابي، اعملوا كثيرًا، والزموا هذا الطريق، فأسأل الله ألَّا يحرمكم منه!)

ثم سمعنا صوتًا من الغيب يقول:

(يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي)[٦٠٨]

ثم خرجت روح المرشد. وكانت شفتاه تردِّدان: «الله، الله» حتى عند إعدادنا لصلاة الجنازة. وكان القوم في دهشة، ويسأل بعضهم بعضًا عن الحكمة في ذلك».[٦٠٩]

وقد وَرد أوقيل:

«كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تُبعثون».[٦١٠]

وقد نبَّه عبد الخالق الغجدواني (رحمه الله) مريديه في حياته أن لا يبنوا له مقامًا بعد موته، فلم يُبنَ له مقام لسنوات طويلة.[٦١١] وقبره اليوم من رخام مستطيل الشكل يدل على البساطة بغير تكلف أو فخفخة.

---

٦٠٨ الفجر: ٢٧-٣٠.

٦٠٩ المرشد محمد عارف الريوكري، عارف نامه، طشقند ١٩٩٤، ص١٥-١٦.

٦١٠ النيسابوري، تفسير، جـ٦، ص٩٢.

٦١١ مقامات عبد الخالق الغجدواني وعارف الريوكري، ص١٨؛ بدر الدين سرهندي، المصدر السابق، جـ١، ورقة: ٩١ب.

من حِكَمه

- لا بد من مراعاة أوامر الدين ونواهيه دائمًا، ووضع القدمَين في سجادة الشريعة والاستقامة، والعمل بعزيمة باتباع السنة، والفرار من الرُخَص والبدع. ولا بد من الاقتداء بكلام رسول الله r، وتعلُّم الحديث وأقوال الصحابة.[٦١٢]

وليس المقصود من الرخص في قوله الأحكام الشرعية التي وضعها الله تعالى تيسيرًا لعباده مثل المسح على الخفَّين وقصر الصلاة في السفر، فرسول الله r يقول:

«**إن الله يحب أن تؤتَى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**».[٦١٣]

لكن المراد بالرخص في هذا المقام ما ينبغي لطالب الحق البعد عنه كالانهماك في فضول اللذات المباحة، والاسترسال في الضحك والمزاح، والاستغراق في الغفلة، والمداومة على الشبع.[٦١٤]

- اِعلمْ أن بدايةَ الطريق التوبةُ، والتوبةُ ترك كل الأقوال والأفعال التي لا يرضى عنها الله تعالى.[٦١٥]
- الوضوء كل حين أدبٌ ضروري في هذا الطريق، وصلاة ركعتي الوضوء- ما لم يكن في وقت كراهة- أدبٌ آخر.

٦١٢ بارسا، القدسية، ص٨-٩؛ محمد قاضي سمرقندي، سلسلة العارفين وتذكرة الصديقين، مكتبة السليمانية، ورقة: ٢٨٣٠، ورقة: ٤٤أ-ب.

٦١٣ أحمد، جـ٢، ص١٠٨.

٦١٤ الكردي، تنوير القلوب، ص٥٦٢.

٦١٥ المرشد عبد الخالق الغجدواني، مكتبة المعهد الشرقي في طشقند، رقم: ١٤٩٤، ورقة: ١٢٥ب-١٣٧أ.



١١- محمد عارف الريوكري (رحمه الله)

[توفي سنة ١٢٣٧م]

وُلِد الشيخ محمد عارف الريوكري في قرية ريوكر شمالي بخارى، وهي قرية تبعد سبع كيلومترات تقريبًا عن غجدوان.

خدَمَ في صغره الشيخ عبد الخالق الغجدواني، وكان يولي أهمية للعبادة والخدمة، حتى إنه كان يُجبر نفسه على عدم النوم.[٦١٦]

وقد نصح الغجدواني (رحمه الله) الشيخَ عارفًا عند حضوره مجالسه الأولى فقال:

«على سالك هذا الطريق أن يعلم قيمة وقته، ويحاسب نفسه، وينظر في أمر يومه. فإن كان صاحيًا بقلبه ومطمئنًا، فعليه أن يشكر الله على ذلك؛ وإن غفلَ لحظة، فعليه أن يعوضها ويطلب العفو من الله».[٦١٧]

وبعد وفاة الغجدواني تولى الريوكري (رحمه الله) أمر الإرشاد لسنوات طوال، وكان دقيقًا في هذا الشأن مثل أستاذه.

وفي آخر حياته علَّمَ مريديه الذكر الجهري وأذِنَ في ذلك، ورغِب الناس في الذكرالجهري بعد أن سمعوه ولبثوا أمدًا طويلًا غافلين عنه.

وكان عارف الريوكري (رحمه الله) يبدأ مجالسه أكثر وقته بقوله:

«اللهم أعزنا وشرِّفنا باتِّباع سيد الدنيا والآخرة وخير الناس وأفضلهم سيدنا محمد رسول الله r ، فالله تعالى يحب أن نكون أتباعًا لنبيِّه الكريم. واتباعنا

---

٦١٦ انظر: مقامات عبد الخالق الغجدواني وعارف الريوكري، ص٤-٥.

٦١٧ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ٣، ص٢٣٣.



له- ولو ذرة- أعظم من لذات الدنيا ونِعَمِ الآخرة كلها، والفضيلة الحقيقية إنما هي اتباع سنَّته الشريفة». [٦١٨]

وتوفي الريوكري (رحمه الله) في ريوكر قرابة سنة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٧م)، وقبره هناك يُزار إلى الآن.

من حِكَمه

- بداية الطريقة وسعادتها ومفتاحها وأمر الدين إنما هي الالتجاء إلى الله تعالى بتوبة وخشوع. والتوبة أعظم أوراد المؤمن. [٦١٩]
- اخدم الناسَ جميعًا بنفسِك ومالِك، ولا تأمر أحدًا. [٦٢٠]
- العارف من يسلِّم قلبه لله مع كل نَفَس أعطاه إياه ربه، ويداوم على هذه الحال حتى خروج أنفاسه الأخيرة، وهو الذي يُخفي حاله هذا عن الناس. [٦٢١]
- الانشغال بالتأمل والتفكر في بدائع الله تعالى من مفاتيح الإيمان، وإن كنت تريد رؤية الله تعالى، فانظر إلى بدائعه (بنظر العبرة والحكمة). [٦٢٢]
- تخيَّل طائرًا على رقبته حِملٌ ثقيل، أتراه يطير؟! وكذلك حال السالك إن كان مشغولًا بالدنيا، فلن يسير إلى الله تعالى ولن يخطو خطوة في وادي الطلب!. [٦٢٣]

---

٦١٨ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ٣، ص٢٣٣.

٦١٩ عارف الريوكري، المصدر السابق، ص٥.

٦٢٠ عارف الريوكري، المصدر السابق، ص٤.

٦٢١ عارف الريوكري، المصدر السابق، ص٨-٩.

٦٢٢ عارف الريوكري، المصدر السابق، ص٩.

٦٢٣ عارف الريوكري، المصدر السابق، ص٦.



١٢- محمود الأنجيرفغنوي (رحمه الله)

[توفي سنة ١٢٨٦م]

وُلِد الشيخ في قرية أنجيرفغن التي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من بخارى. أبوه أمير يحيى أفندي، وقيل إنه من آل النبي محمد r .[٦٢٤]

بعد أن أقام الشيخ محمود سنوات في قريته، انتقل إلى مدينة (وابْكَنْت). وعمل في البناء (رحمه الله)، وانتسب إلى الشيخ عارف الريوكري، وبعد أن أنهى السير والسلوك صار خليفته.

وقد أَذِنَ الشيخ عارف الريوكري لمحمود الأنجيرفغنوي بالذكر الجهري في آخر أيامه.

فتوجَّه الشيخ محمود إلى الذكر الجهري أكثر، لحاجة عصره وأحوال الطالبين لذلك. وفي إحدى مجالسه التي كان يحضرها العلماء سأل حافظ الدين كبير- وهو من علماء بخارى وجدُّ والد محمد بارسا- الشيخَ محمود عن النية أثناء الذكر الجهري، فأجابه الشيخ:

«بِنيَّة إيقاظ النائم، وتنبيه الغافل، حتى يقبل على الطريقة ويستقيم على الشريعة، ويرغب في الحقيقة، فيصير سببًا لتوبته التي هي مفتاح جميع الخيرات وأصل كل السعادات».

---

٦٢٤ محمد طالب، مطلب الطالبين، ورقة ١٩أ.



فقال له حافظ الدين: إذا نيَّتكم صحيحة فيحلُّ لكم الاشتغال به.[٦٢٥]

توفي الشيخ محمود الأنجيرفغنوي قرابة سنة ٦٨٥ هجرية (١٢٨٦م)، وقبره اليوم في قرية إنجيرباغ التابعة لمدينة وابكنت في بخارى بأوزبكستان.[٦٢٦]



٦٢٥ رشحات، ص٧٠؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ص٩٦أ-٩٦ب؛ منيب الدين النقشبندي، كنز السعادة، ص٦٩٤.

٦٢٦ ناصر الدين بخاري، تحفة الزائرين، ص٤٣؛ صدر الدين سليم، بهاء الدين نقشبند، ص٩.



١٣- علي الرامتني (رحمه الله)

[توفي ما بين سنة ١٣١٥ - ١٣٢١م]

وُلِدَ الشيخ في قرية رامتن على بُعد فرسخَين من مدينة بخارى، وانتسب إلى الشيخ محمود الإنجيرفغنوي، وخضع للتربية الصوفية على يدَيه، وصار خليفته. وبعد أن أرشد الناس مدةً في رامتن رحلَ إلى (بافرد)، وصار له مريدون هناك، ثم انتقل في نهاية المطاف إلى خوارزم وبقي فيها.[٦٢٧] ويُلقَّب أيضًا بالبافردي.

والشيخ مشهور باسم «عزيزان» عند أهل التصوف، ذلك أنه كان إن قال شيئًا من عنده يقول لتواضعه: «قال عزيزان».

وقيل: إن حضرة عزيزان لما توجَّه من ولاية بخارى إلى خوارزم... ووصل إلى باب البلد وقف هناك وأرسل اثنين من أصحابه إلى خوارزم شاه وقال لهما: قولا لخوارزم شاه أن نسَّاجًا قدم بلدك يريد الإقامة فيه، فإن أذن له الملك يدخل، وإلا فيرجع من حيث جاء، وقال لهما: فإن أذِن الملك فخُذا منه حُجَّةً مختومة بختمه...

فكان يذهب في كل صباح عند موقف العمال ويأخذ أجيرًا أو أجيرَين، ويجيء به في بيته، ويقول له: توضأ وضوءً كاملًا، واقعد معي اليوم على الطهارة إلى وقت العصر فتذكر الله سبحانه، ثم خذ مني أجرتك ثم اذهب حيث شئت. فاغتنم العمال ذلك وصاروا يشتغلون في صحبة عزيزان بالذكر إلى وقت العصر

٦٢٧ محمد طالب، مطلب الطالبين، ورقة: 20أ.



بطيب القلب والنشاط، وصار كل من اشتغل في صحبته يومًا واحدًا بهذا الطريق يحصل له حالة عجيبة ببركة صحبته الشريفة وتأثير الذكر... بحيث كان لا يقدر في اليوم الثاني مفارقة صحبته، ولا يمكن له الذهاب من عنده، حتى مضت مدة مديدة على هذا المنوال، ودخل أكثر أهل تلك الديار في طريقته، فكان الطالبون في بابه لا يُحصَون... فلمَّا زاد الازدحام سعى اللئام إلى خوارزم شاه بأنه ظهر شيخ في تلك الديار، ودخل في طريقته وربقة إرادته كثيرون من اللئام، وقاموا في ملازمته وخدمته على الإقدام، فيُخشَى من كثرة اتباعه أن يحدث خلل في المملكة...فعزم أن يخرج حضرة عزيزان من بلاده فأرسل حضرة عزيزان الشخصَين المذكورين بالورقة المكتوبة المختومة بختمه إليه... وذهبوا [أي الملك وأركانه] إلى صحبته لملازمته وكانوا من جملة المحبين والمخلصين له.[٦٢٨]

ويُروى أن وفاته كانت سنة ٧٢١ هجرية (١٣٢١م)، وقبره اليوم شمالي تركمانستان في ولاية طاشهاوظ في بلدة (كونه أورغنج)، وله مقام بالقرب من بخارى.

وله كتاب اسمه «**محبوب العارفين**».[٦٢٩]

من حِكَمه

- «العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في طلب الحلال، وجزء في صيام النهار وقيام الليل»[٦٣٠].
- من لا يأكل الحلال لا يجد طاقة لطاعة الله، ويميل إلى عصيانه؛ ومن يأكل الحلال لا يعصي الله...[٦٣١]

٦٢٨ رشحات، ص٧٧- ٧٨.

٦٢٩ النفيسي، تاريخ النظم والنثر، جـ١، ص٢٢٠.

٦٣٠ الديلمي، مسند الفردوس، جـ٣، ١٠٧/ ٤٠٦٢.

٦٣١ الرسائل الست الظاهرية، دلهي ١٣٠٨، ص١٤.



- عندما تجتمع القلوب الثلاثة يترقَّى المؤمن:

١. قلب القرآن (يس).

٢. قلب المؤمن المخلِص.

٣. قلب الليل (وقت السحر).[٦٣٢]

- إن من يخدم مع المنة في الخدمة كثير، ولكن من يخدم مع قبول المنة قليل، فاجتهدوا في الخدمة مع قبول المنة حتى لا يكون أحد ساخطًا عليكم.[٦٣٣]
- شرط المحبة الرضا، فمَن يدَّعي محبة النبي r ، فلا بد أن يتَّبعه.[٦٣٤]
- الدنيا والآخرة كالأختَين، ولا يجوز أن ينكح المرءُ أختَين. ولا يجتمع حب الدنيا والآخرة، فهما مخلوقان، فكيف يجتمع محبة الخالق والمخلوق؟![٦٣٥]
- يقول الله تعالى: **(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)**[٦٣٦] ولا بد لطائر الذكر من جناحين كي يطير إلى الآفاق السامية: جناح الطمأنينة، وجناح الإخلاص.[٦٣٧]
- سُئِل الشيخ الرامتني: «بأي نية تشتغلون بذكر؟» فقال:

«إن تلقين المحتضر كلمة (لا إله إلا الله) جهرًا جائز بإجماع العلماء... وكل نَفَس نفَسٌ أخير عند الصوفية، فهم في حكم المحتضر».[٦٣٨]

---

٦٣٢ محمد بارسا، مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ص٦٠.

٦٣٣ رشحات، ص٣٧.

٦٣٤ الأرزنغي، شرح رسائل عزيزان، ص٣٩.

٦٣٥ الأرزنغي، المصدر السابق، ص٨٦.

٦٣٦ فاطر: ١٠.

٦٣٧ علي الرامتني، محبوب العارفين، (في كتاب الرسائل الست الظاهرية)، ص١١-١٢.

٦٣٨ رشحات، ص٧٢.

- الصديق الصالح أعظم من العمل الصالح.[٦٣٩]
- إن في قوله تعالى **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[٦٤٠] إشارةٌ وبشارة، أما الإشارة فهي التوبة والرجوع؛ وأما البشارة فقبول التوبة، فإنه تعالى لو لم يقبل التوبة لما أمر بها، والأمر دليل القبول لكن مع رؤية القصور.[٦٤١]
- ينغبي [للمرء] أن يعمل ويعتقد أنه لم يعمل، وأن يرى نفسه مقصرًا في العمل، وأن يستأنفه من الأول.[٦٤٢]
- حافظوا على أنفسكم في وقتَين: وقت الكلام، ووقت الطعام.[٦٤٣]
- ادعوا الله تعالى بلسان لم تعصوا به الله حتى تترتب عليها الإجابة.[٦٤٤]
- أنشد شخص يومًا عند عزيزان هذا المصراع:

وللعاشق عيدان في كل أنفاس

فقال: بل ثلاثة أعياد. فالتمس المنشد بيان ذلك، فقال: إن الذِّكر الواحد من العبد بين الذِّكرَين من الحق سبحانه، الأول: التوفيق لذكره. والآخر: قبوله منه. فيكون التوفيق والذكر والقبول ثلاثة أعياد.[٦٤٥]



٦٣٩ الأرزنغي، المصدر السابق، ص١٢.

٦٤٠ النور: ٣١.

٦٤١ رشحات، ص٧٣.

٦٤٢ رشحات، ص٧٣.

٦٤٣ رشحات، ص٧٣.

٦٤٤ رشحات، ص٧٤.

٦٤٥ رشحات، ص٧٤.



١٤- محمد بابا السماسي (رحمه الله)

[توفي سنة ١٣٣٥م]

وُلِد الشيخ في قرية سماس وهي قرية من قرى رامتن، واشتغل (رحمه الله) في شبابه بتحصيل العلوم، وانتسب إلى الشيخ محمود الإنجيرفغنوي بعد أن وصَّاه أبوه بذلك، فأرسله الإنجرفغنوي (رحمه الله) إلى خليفته علي الرامتني (رحمه الله).[٦٤٦]

وانتقل السماسي (رحمه الله) مع أستاذه إلى خوارزم، وهناك أنهى السير والسلوك، وصار من خلفائه. ثم رجع إلى قريته وهناك شرع يرشد الناس في مجالسه الملئية بالروحانيات.[٦٤٧] وقال مشيرًا إلى الشرط الأول للانتفاع من الصُحَب:

«صاحب الحياء المجتهد يرى أن كل كلمة [في الصحبة] موجَّهةٌ إليه، فيعتبر منها».[٦٤٨]

وكان الشيخ محمد بابا السماسي (رحمه الله) وليًّا، له أحوال استغراق وغيبة، فكان كلما يمر بـ(قصر هندوان) قبل ولادة المرشد بهاء الدين، يقول:

«يفوح من هذه الأرض رائحة رجل، وسيصير قصر هندوان قصر عارفان».

٦٤٦ محمد طالب، مطلب الطالبين، ورقة: ٢٠ب.

٦٤٧ اللاهوري، خزينة الأصفياء، جـ١، ص٥٤٥.

٦٤٨ رشحات، ص٧٩؛ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص١٨٦.



فلمَّا مرَّ به يومًا قال:

«قد ازدادت تلك الرائحة وأظن أنه قد ولِد ذلك الرجل».

وكان قد مضى في ذلك الوقت ثلاثة أيام من ولادة المرشد بهاء الدين.

وبعد مدة مرَّ على تلك القرية مع أصحابه فقال:

«إني أجد تلك الرائحة قد ازدادت، لا ريب أن ذلك العارف قد وُلِد، وشرَّف دار الفناء هذه».

وما هي إلا ثلاثة أيام بعد ذلك حتى أتى جدُّ بهاء الدين به إلى الشيخ محمد بابا السماسي كي يتبارك بنظره. فقال السماسي (رحمه الله): «هذا ولدي، لقد قبِلتُه». ثم قال للصوفيين من حوله: «إن هذا العارف الذي كنت أجد ريحه مدةً سيكون قطب الزمان وشيخ الطريقة».

ثم أقبلَ على خليفته السيد أمير كلال وقال له:

«إن هذا ولدي، فلا تقصِّر في تربيته، ولا أجعلك في حِلٍّ مني إن كنت مقصرًا».

فقام أمير كلال (رحمه الله) على قدميه ووضع يده على صدره وقال:

«لا أكون رجلًا إن كنت مقصِّرًا».[٦٤٩]

ولما بلغ نقشبند (رحمه الله) الثامنة عشر من عمره أراد جدُّه أن يزوِّجه، ويحدِّثنا نقشبند عن تلك الحادثة فيقول:

أرسلَني جدي إلى الشيخ بابا السماسي كي أدعوه إلى مراسم زواجي، طالبًا البركة من زيارة الشيخ. فكانت أول كرامة رأيتها من الشيخ السماسي لمَّا صحبته

---

٦٤٩ انظر: صلاح الدين بن مبارك البخاري، المصدر السابق، ص٣٨؛ الجامي، نفحات، ص٥٢٦؛ رشحات، ص٧٩؛ منيب الدين النقشبندي، كنز السعادة، ص٦٩٨؛ مجد الدين بدهشاني، جامع السلاسل، ص٧٠٨.



أنني حضرت مجلسه ليلة، فوجدت ببركته بنفسي سكينة وخشوعًا، وتضرعًا ورجوعًا، ثم إني قمت وقت السحر فتوضأت، وأتيت المسجد الذي فيه أصحابه فأحرمت بالصلاة، فلما سجدت دعوت الله تعالى وتضرعت إليه كثيرًا، فمرَّ على لساني في أثناء دعائي:

(إلهي، أعطني قوة على تحمل البلاء ومحنة المحبة).

ثم إني صليت الفجر مع الشيخ (رحمه الله) فما انصرف من الصلاة، التفت إليَّ وذكر لي كل ما صدر مني على طريق الكشف، ثم قال لي: يا ولدي! ينبغي أن تقول في دعائك: (إلهي أعطِ هذا العبد الضعيف ما فيه رضاك)، فإنه تعالى لا يرضى أن يكون عبده في بلاء، وإن ابتلى حبيبه على مقتضى حكمته يعطِه قوةً على تحمله، ويطلعه على حكمته، فلا ينبغي للعبد أن يختار البلاء فإنه ينافي مقام الأدب.[٦٥٠]

ثم أُعِدَّ الطعام، وبعد أن أكلنا أعطاني الشيخ رغيف خبز. فقلت في نفسي:

«أكلنا هنا حتى شبعنا، وسنصل بعد مدة إلى البيت، فما الحاجة لهذا الرغيف!».

فخرج إلى الطريق ومشيت وراءه احترامًا وأدبًا، فكلما حضرتني الوساوس والخواطر السيئة، قال لي:

«يا ولدي، لا بد أن تصون نفسك من خواطر القلب!».

فوصل إلى دار واحد من محبِّيه، فاستقبله صاحب الدار بابتسامة واحترام، فلمَّا دخل الدار، وجد صاحبه في ضيق وحاجة.

ولمَّا سأله الشيخ: «ما حاجتك؟ أخبرني بصدق».

قال صاحب الدار:

---

٦٥٠ الخاني، الحدائق، ص٣٩٢.



«عندي شيء من القِشدة، لكن لا أجد خبزًا بجانبه!».

فنظر الشيخ السماسي إليَّ وقال:

«أخرِج ذلك الرغيف، أَرأيتَ كيف نفعنا!».

فلمَّا شاهدت هذه الحال عليه، زاد تصديقي به.[٦٥١]

وتوفي الشيخ محمد بابا السماسي (رحمه الله) قرابة ٧٣٦ هجرية (١٣٣٥م) بعد مدة من زيارته قرية (قصر عارفان)، وقبره في قرية سماس من قرى رامتن القريبة من بخارى.



٦٥١ الجامي، نفحات، ص٥٢٦-٥٢٧؛ صلاح الدين بن مبارك البخاري، المصدر السابق، ص٣٦-٣٧.



١٥- السَّيد أمير كلال (رحمه الله)

[١٢٨١- ١٣٧٠م]

لُقِّب الشيخ بالسيد والأمير لأن نسبه متصل بنسب رسول الله r ، ولُقِّب بكلال لأنه كان يكسب قوت يومه من صناعة الفخار، ومن الراجح أن مولده كان سنة ٦٨٠ هجرية،[٦٥٢] وأبوه أمير حمزة أفندي.

كان أمير كلال (رحمه الله) يهوى المصارعة في شبابه، وأثناء مصارعته في إحدى ساحات قرية رامتن، نظر إليه الشيخ محمد بابا السماسي، فسأله مريدوه عن نظره إلى المصارعة، فقال:

«إن في هذه الساحة رجلًا يصل في صحبته رجال كثيرون إلى درجة الكمال، وإني أسعى لصيده». فوقع نظر الأمير في هذا الحال على حضرة المرشد، وجذبته جاذبة نظر المرشد مما كان فيه، فلما ذهب المرشد ترك الأمير معركته من غير اختيار، وتوجه من عقبه، ولما وصل المرشد إلى بيته وأدركه الأمير من عقبه أدخله في محله وعلَّمه الطريقة وقبله. [٦٥٣]

ولازم أمير كلال (رحمه الله) الشيخَ السماسي عشرين سنة، وكان يأتي في كل اثنين وخميس من قريته سوحار إلى قرية الشيخ لحضور مجالسه وخدمته، وينشغل بذكر الله أثناء رحلته الطويلة هذه.[٦٥٤]

---

٦٥٢ مولانا شهاب الدين، السيد أمير كلال، ص٧-٨.

٦٥٣ رشحات، ص٨٠.

٦٥٤ مولانا شهاب الدين، المصدر السابق، ص١٤.



واشتغل مدة ملازمته بطريقة خواجكان قدَّسَ الله أرواحهم بحيث لم يطَّلع أحد من الأغيار على حاله حتى وصل في ظل تربية المرشد الشيخ السماسي إلى مقام التكميل والإرشاد.[٦٥٥]

وفاته

توفي الشيخ أمير كلال (رحمه الله) بعد عمر طويل يوم الخميس في ٨ جمادى الأولى سنة ٧٧٢ هجرية (٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٣٧٠م) وكانت وفاته وقت السحر، ودُفِن في قريته سوحار القريبة من بخارى.[٦٥٦] وصار اسم القرية بعد وفاته (مير كلال) واليوم تسمى (يانغي حياة).[٦٥٧]

وصيته الأخيرة

لمَّا حضر السَّيد أمير كلال (رحمه الله) الوفاةُ جمع طلَّابه وأوصاهم فقال:

«يا أولادي الأعزاء! إياكم وأن تفصلوا بين تعلم العلم واتباع نهج سيدنا محمد r ! فذلكم وسيلة المؤمن لبلوغ السعادة والنِّعَم... وأكثر الناس يهلكون لجهلهم وعدم عملهم بما يعلمون.

يا أولادي، اعملوا المعروف وانهوا عن المنكر! يقول الفضيل بن عياض (رحمه الله):

(رأيت الشيخ عبد العلَّام في يوم بارد، وعليه ثوب رقيق، وكان يتعرَّق على شدة برودة ذلك اليوم،

فقلت: «كيف تتعرق في يوم كهذا؟»

---

٦٥٥ رشحات، ص٨١.

٦٥٦ صدر الدين سليم بخاري، بهاء الدين نقشبند، ص١٢.

٦٥٧ انظر: مولانا شهاب الدين، المصدر السابق، ص٥٦-٥٨؛ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ١٠، ص٣٣٨-٣٤٢.



فقال:

«لقد ارتُكِبَت معصية في هذا المكان يومًا، فأردت أن أمنع ذلك، غير أني ما استطعت. فكلما أرى هذا المكان أتعرق، وأخشى من عدم نجاتي من مسؤولية ذلك يومَ القيامة»)

وأنتم، كم تضيعون فرصة الأمر بالمعروف عليكم وعلى غيركم! فانظروا إلى أحوالكم!

يا أحبَّائي! ليس شيء أشد سوءًا من جهل المؤمن حالَه، فذلك دليل غفلته.

إن الله تعالى يخلق في كل قرن رجلًا عظيمًا يحبه ويختاره من عباده، فيحمي الجميع من البلايا والمِحن.

يا طلابي! اطلبوا مثل هذا الرجل، تنالوا السعادة في الدنيا والآخرة. واقتربوا من العلماء فإنهم القناديل التي تُشِع النور لأمة محمد!»[٦٥٨]

من حِكَمه

- لن تبلغ المقصود ما لم تكن لقمتك وخرقتك حلالًا، حتى لو أمضيت لياليك بالعبادات، ورقَّ خصرك فصار كوَتَرِ (الكمنجة) من الجوع.[٦٥٩]
- يا أصحاب! تنبَّهوا وَعُوا! إن المرء ما لم يترك هواه كالصياد يعود خاويَ اليدَين لا فريسة في شباكه. إن نسيَ الإنسانُ الله تعالى، فسيغفل ويقع في البلايا والمصائب.[٦٦٠]

---

٦٥٨ انظر: مولانا شهاب الدين، المصدر السابق، ص٥٦-٥٨؛ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ١٠، ٣٣٨-٣٤٢.

٦٥٩ مولانا شهاب الدين، المصدر السابق، ص٢٧.

٦٦٠ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ١٠، ص٣٣٤.



- العمل دون إخلاص كقطعة النقود لا تجد عليه نقش السلطان، وقطعة النقود بلا نقش السلطان لا يأخذها أحد منك، فإن نُقِش عليها أخذوها... والرجل مَن يتفكر جيدًا ثم يبدأ بالعمل، وبذلك لن يستحيي مما عمل.[٦٦١]
- ما لم يتخلص الإنسان من حب الدنيا وحبائلها، فلن ينفعه صلصال جسده، فحبُّ الدنيا وحبائلها في الإنسان كالرطوبة في الفخَّار؛ ولكي يُصنَع الفخار يُوضَع في الموقد بصورة صحيحة، ثم يخرج بعضه سالمًا، وبعضه مكسورًا... ونحن لا نفقد الأمل بذلك الفخار الذي يخرج مكسورًا، إذ نجمعه مرة أخرى مع صلصال آخر، ونصنعه فخارًا ثم نضعه في الموقد، ونداوم على ذلك حتى يخرج سالمًا؛ أي نداوم على تربيتهم دون كلل أو ملل.[٦٦٢]



٦٦١ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ١٠، ص٣٣٨.

٦٦٢ محمد بارسا، مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ص٣٦.



١٦- بهاء الدين شاه نقشبند (رحمه الله)

[١٣١٨- ١٣٨٩م]

وُلِد الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري في قرية (قصر هندوان) من قرى بخارى في شهر محرم سنة ٧١٨ هجرية. أما نسبه، فيتصل بنسب رسول الله r من جهة أبيه، وبنسب سيدنا أبي بكر الصديق t من جهة أمِّه.[٦٦٣]

وقد لُقِّب بنقشبند لاشتغاله بالنقش مع أبيه منذ صغره، وتذكرُ بعض الكتب أنه لُقِّب بهذا اللقب لأنه داومَ على الذكر الخفي أمدًا طويلًا حتى نُقِش لفظ «الله» في قلبه.[٦٦٤]

وكان الشيخ بابا السماسي (رحمه الله) يزور قرية (قصر هندوان) كثيرًا قبل ولادة الشيخ نقشبند، ويقول:

«سيغدو قصر هندوان هذا قصر عارفان بعد حين».[٦٦٥]

---

٦٦٣ ناصر الدين البخاري، تحفة الزائرين، ص٥٤؛ صدر الدين سليم البخاري، بهاء الدين نقشبند، ص١٣.

٦٦٤ الشيرازي، طرائق الحقائق، جـ٢، ص٣٥١.

٦٦٥ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٣٦. انتسب مؤلف كتاب (أنيس الطالبين) صلاح الدين بن مبارك البخاري سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م إلى الشيخ شاه نقشبند عن طريق الشيخ علاء الدين العطار. ولم يأذن الشيخ نقشبند بتأليف مثل هذا الكتاب، غير أن المؤلف بعد وفاة الشيخ نقشبند وبعد أن استخار الله ورأى إشارة معنوية، شرع بتأليف هذا الكتاب. وقد جمع فيه ما سمعه بنفسه في مجالس الشيخ نقشبند، والأحوال التي شاهدها، وما نقله إليه خليفته ومريدوه المقربون؛ لذلك فإن هذا الكتاب يعد من أول المصادر التي تحتوي على معلومات عن حياة الشيخ شاه نقشبند. فصار من أهم كتب الطبقات المشهورة مثل (الرشحات) و(النفحات).

يقول شاه نقشبند (رحمه الله) عن تلك الأيام:

«من أعظم ألطاف الله تعالى عليَّ أن شرَّفني بنظر الشيخ السماسي منذ طفولتي، وأن قبِلني عندَه مريدًا».[٦٦٦]

«لمَّا توفي السماسي (رحمه الله) حملني جدِّي إلى سمرقند. وكان جدي إن سمع عن درويش من أهل القلوب حملني إليه فورًا، فيرجوه كي لا يحرمني من نظره المبارك، فكان الدراويش يثنون عليَّ».[٦٦٧]

وتشرف بخدمة الشيخ أمير كلال، فلقَّنه الذكر، وأمره بالمداومة على ذكر كلمة التوحيد (ذكر النفي والإثبات) سرًّا. وما كان يذكر جهرًا.[٦٦٨] ولم يكن ضد الذكر الجهري والسماع، وقال في ذلك:

«نحن ما نفعل هذا الأمر ولا ننكره».[٦٦٩]

وقد كان الشيخ شاه نقشبند ينفِّذ كل أمر يأمره به شيخه رأسًا وبدقة، ويجد شرفًا عظيمًا في خدمة المخلوقات كلها بإخلاص في سبيل الله U.

ويقول واصفًا أحواله في أيامه الأولى في هذا الطريق:

«كنت أنتبه لكل حديث حولي، فأُسَرُّ إن كان متعلقًا بهذا الطريق المعنوي، وأحزن كثيرًا إن كان غير ذلك».[٦٧٠]

٦٦٦ أنيس الطالبين، ص٣٥.

٦٦٧ أنيس الطالبين، ص٣٧.

٦٦٨ أنيس الطالبين، ص٤٣؛ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ١٥أ–ب؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٤.

٦٦٩ محمد باقر، المصدر السابق، ص٤١؛ رشحات، ص١٠٥.

٦٧٠ أنيس الطالبين، ص٥٣.



وبعد أن وصل شاه نقشبند إلى درجة من النضج، كلَّفه أمير كلال (رحمه الله) بتربية ابنه أمير برهان، ليرى إن صار أهلًا للإرشاد.[٦٧١]

فأدرك أمير كلال (رحمه الله) بلوغ شاه نقشبند مرتبة عالية في هذا الطريق، والقدرة على السمو في المراتب، فقال له:

«يا ولدي بهاء الدين، إني قمت بموجب أمر محمد بابا في حقك حيث قال: (كما أني بذلت جهدي في تربيتك كذلك لا تقصر أنت في تربية ولدي بهاء الدين) ففعلت ما أمرت». ثم أشار إلى صدره الشريف وقال:

«قد أفرغت ندى العرفان لأجلك، فتخلص طائر روحانيتك من بيضة البشرية، ولكن بازَ همَّتِك عالية الطيران، فأجزتك الآن أن تطوف في البلدان، فإذا وصل إلى مشامك رائحة المعارف...فاطلبها منه ولا تقصر في أمر الطلب بموجب همتك». [٦٧٢]

حياته في الإرشاد

لمَّا شرَعَ الشيخ شاه نقشبند بمهمة الإرشاد كان يقيم في قريته (قصر عارفان)، غير أنه كان يذهب- إضافة إلى بخارى- إلى بلاد ما وراء النهر مثل نسف، وخوارزم، وكرمينا، وتكون له مجالس فيها.[٦٧٣]

وكان الناس يأتون من بلاد أخرى مثل سمرقند كي يحضروا مجالسه ويستمعوا إلى فضائله وكمالته المعنوية أو ينتسبوا إليه.[٦٧٤]

٦٧١ جامي، نفحات، ص٣٨٧-٣٨٨.

٦٧٢ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٤٢أ؛ جامي، نفحات، ص٣٨٧؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٣٤؛ رشحات، ص٩٤.

٦٧٣ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ١٢٣أ، ١٠٤أ، ١٠٨أ-١٠٩أ، ١٢٧ب، ١٣٠ب، ١٣١أ؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٤١، ١٥٨، ١٧٣.

٦٧٤ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٥٧-١٥٨.



وكان انتساب عالِم بخارى الكبير حسام الدين المرشد يوسف إلى الشيخ نقشبند نقلة مهمة في حياته، إذ صار علماء بخارى وطلابها يأتون بعد ذلك حلقة الشيخ نقشبند حتى فاضت من كثرة الناس.[٦٧٥]

وقد حجَّ بهاء الدين نقشبند (رحمه الله) مرتين أو ثلاث مرات.[٦٧٦] وتوفي الشيخ أمير كلال (رحمه الله) في اليوم الذي رجع فيه شاه نقشبند من الحج أول مرة، وقد أشار الأمير كلال في مرض موته إلى أصحابه بمتابعة المرشد بهاء الدين.[٦٧٧]

وذَكَرَ شاه نقشبند (رحمه الله) حادثةً جرت أثناء حجه، فقال:

رأيت في مكة اثنين، أحدهما في غاية علو الهمة، والآخر في نهاية الخسة.

أما خسيس الهمة:

فقد رأيته في الطواف قد تعلق بحلقة باب الكعبة يسأل الله سبحانه شيئًا غيره في مثل هذا المحل الشريف والوقت العزيز.

وأما عالي الهمة:

فرأيته في سوق منى، كان شابًّا اتَّجر فيه وحصل مقدار خمسين ألف دينار تقريبًا ولم يغفل قلبه لحظة في تلك الفرصة عن الحق سبحانه حتى جاء الدم من باطني من الغيرة من هذا الغلام.[٦٧٨]

٦٧٥ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٧٥أ–ب؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٧٩-٨١.

٦٧٦ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٦٢ب؛ رشحات، ص٩٤؛ الخاني، الحدائق، ص٤٠٤.

٦٧٧ أنيس الطالبين، ص١٩٤؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٣٦؛ رشحات، ص٩٤.

٦٧٨ رشحات، ص٣٢٩.



تحرِّيه اللقمة الحلال

كان شاه نقشبند (رحمه الله) يراعي موضوع الحلال رعاية كبيرة، فيحذر أشد الحذر من المشبوه من الأمور. وكان كثيرًا ما يتكرر في صحبه قول:

«العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في طلب الحلال وواحد سائر العبادات»[٦٧٩]
ويأمر مريديه بالعمل بمحتواه.[٦٨٠]

وكان الشيخ (رحمه الله) يحتاط لطعامه احتياطًا عظيمًا، لا يأكل إلا من شعير ولوبياء ومشمش يزرعه، ويتحرى في بذره وحرثه وسقيه وجوه الحِلِّ، حتى صارت كبار العلماء والعباد يقصدون زيارته للتبرك بطعامه.[٦٨١]

ولم يكن نقشبند (رحمه الله) يأكل من موائد الملوك ولا يقبل هداياهم، وقد أرسلت إليه زوجة الملك حسين ثيابًا صنعتها بيدها، فلم يقبلها مع إصرارها. وكان آنذاك يلبس قميصًا من صوف، ونعلين وعمامة رثَّة.[٦٨٢]

وقد سأل أحد علماء بخارى الشيخَ نقشبند يومًا:

«كيف يحضر القلب في الصلاة؟»

فأجاب الشيخ:

«حضور القلب يبدأ من اللقمة الحلال وأنت تتفكر في نِعَم الله عليك، ثم بيقظة القلب عند الوضوء حتى تصل إلى التكبيرة الأولى عندها يبدأ حضور القلب في الصلاة».[٦٨٣]

---

٦٧٩ الديلمي، مسند الفردوس، جـ٣، ١٠٧/٤٠٦٢.

٦٨٠ أنيس الطالبين، ص٦٣.

٦٨١ الخاني، الحدائق، ص٤١٧-٤١٨؛ أنيس الطالبين، ص٦٤؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٣٧، ١١٢، ١٣٨؛ رشحات، ص١١٨.

٦٨٢ أنيس الطالبين، ص٦٥، ٦٧.

٦٨٣ أنيس الطالبين، ص٨٤.



وقال مرة لأحد طلبته حين اشتكى من فقد حال الروحانية التي كان فيها:

«اذهب وفتِّشْ عن لقمتك التي تتناولها حلال هي أم لا!»، وحين ذهب ذاك الطالب وبحث، اشتبه بقطعة من الحطب في موقد الطعام، فتَاب.(٦٨٤)

وكان يولي أهمية للعمل والرزق الحلال، ويقول:

«على المتوكل ألا يتكبر، ويخفي توكله أثناء عمله».(٦٨٥)

فكان شعاره الكسبُ من عمله في الدنيا دون أن يكون عبئًا على أحد، وعدم الغفلة عن الله تعالى أثناء العمل.

تحذيره من الغفلة

كان الشيخ (رحمه الله) يصنع الطعام للفقراء بيده المباركة، ويخدم مائدتهم بنفسه الشريفة، وإذا اجتمعوا للطعام يوصيهم بالمحافظة على الحضور، ويؤكد عليهم في ذلك أشد التأكيد، وكلما أراد احدهم أن يتناول لقمة مع الغفلة ينبهه من طريق الكشف عليها، ويمنعه من أكلها، ويقول:

«صدور الأعمال الصالحة إنما هو من الطعام الحلال إذا أكل مع الحضور، ولا يحصِّل العبد الحضور في جميع الأوقات، لا سيما أوقات الصلوات إلا بهذا».

وكان إذا قدم إليه طعام صُنع في حال غضب، أو كراهية، أو حصل فيه أدنى مشقة بل لو كان وضع فيه أحد ملعقة على هذه الحالة لا يمد يده إليه، ولا يدع أحدًا ممن معه أن يتناول منه شيئًا.(٦٨٦) ويقول:

---

٦٨٤ هيئة، موسوعة الأولياء، جـ٣، ص٤٤١.

٦٨٥ محمد باقر، المصدر السابق، ص٧٠.

٦٨٦ الخاني، الحدائق، ص٤١٨.



«إن لهذا الطعام ظلمة لا يجوز لنا أكله»[٦٨٧].[٦٨٨]

وروِي أنه ذهب مرة إلى (غزيوت)، فقدم إليه أحد مريديه طعامًا، فقال له: كان صانعه منذ عجن عجينه إلى أن أتم طبخه في حالة غضب، فلا يليق بنا أن نأكل منه، فإن كل ما جُعِلَ في مثل هذه الأحوال لا خير فيه ولا بركة، بل يجد الشيطان فيه سبيلًا فكيف ينتج.[٦٨٩]

إن العمل الصالح والسلوك الجميل لا يكون إلا باللقمة الحلال، واللقمة الحلال لا تؤكَل بغفلة، بل بوعي وحضور القلب. ومراعاة الوقوف القلبي كل الأوقات والسعي للوعي دائمًا تدريبٌ معنوي للمرء، وهذا ما يكون وسيلة لحضور القلب في الصلاة.[٦٩٠]

ومرَّ الشيخ (رحمه الله) بباب المطبخ ورأى فيه غلامين قد ملآ القدور الكبار بالماء وسخَّناها لطهارة الأصحاب، ويتكلمان في ذلك الأثناء بالهزل، فوقف ودعاهما... وعاتبهما كثيرًا وقال:

ألم تعرفا هذا القدر، أنه ينبغي أن يحضر على القلب وقت تسخين الماء وطبخ الطعام، وأن يحفظ اللسان عما لا يعني من فضول الكلام، حتى يظهر نور

---

٦٨٧ رشحات، ص٣٥٥.

٦٨٨ لا بد هنا من القول إن ما يظهر على الشيخ شاه نقشبند وبعض أهل الله إنما هو فراسة وبصيرة وكشوفات ينالونها بعد أن تبلغَ قلوبهم درجة سامية، لذلك فمن الخطأ أن يرى مَن لم يصل إلى ذلك المقام نفسه مثل شاه نقشبند وغيره من أولياء الله فيأتي بمثل أقوالهم. ويجب الحذر من مثل هذا الكلام الذي يؤدي إلى الرياء، ومن يقلِّد أقوال مقام لم يصل إليه يلقى ضررًا معنويًّا.

٦٨٩ الخاني، الحدائق، ص٤١٨-٤١٩.

٦٩٠ أنيس الطالبين، ص٦٤-٦٥؛ رشحات، ص٣٥٥.



الحضور في قلب من توضأ بهذا الماء أو أكل من ذلك الطعام، فإن الماء المسخَّن بالغفلة والطعام المطبوخ بالفترة تحصل منهما ظلمة في الباطن وغفلة.[٦٩١]

العلم والعمل

يقول شاه نقشبند (رحمه الله):

«بحثت في أحاديث رسول الله r وأخبار صحابته الكرام كما أمرني الشيخ عبد الخالق الغجدواني. ولازمت مجالس العلماء ودرست الحديث، وعرفت أخبار الصحابة ورواياتهم، وعملت بما علمت وشاهدت نتائج ذلك بفضل الله».[٦٩٢]

وكان الشيخ نقشبند يخدم التكيَّة ويداوم على تحصيل العلوم، ويقول:

«كنت آخذ من الشيخ الديغَّراني التفسير والحديث، وكنت في (نسف) حيث يعمل شيخي في بستان، فاحتاج الشيخ إلى فأس، وقال: (لقد بقي الفأس معلقًّا عند حسام الدين أفندي في بخارى). فأدركت ما يريد قوله، فذهبت دون علمه من نسف إلى بخارى، وأحضرت له الفأس التي يريدها في اليوم التالي».[٦٩٣]

وكان شاه نقشبند (رحمه الله) يعظم شأن الحكيم الترمذي (توفي سنة ٣٢٠هـ) ويستفيد من روحانياته وأفكاره ومؤلفاته، ويصحب العلماء الكبار والصالحين في زمانه.

وكان الشيخ يوسف وهو من كبار العلماء آنذاك يحضر مجالس الشيخ نقشبند بين الفينة والأخرى ويستمع لكلامه، ويجيب عن المسائل الدينية التي يطرحها الدراويش.[٦٩٤]

---

٦٩١ رشحات، ص٣٥٥.

٦٩٢ أنيس الطالبين، ص٤٤.

٦٩٣ انظر: أنيس الطالبين، ص٥٢؛ مولانا شهاب الدين، السيد أمير كلال، ص٣٤-٣٦.

٦٩٤ الجامي، نفحات، ص٥٣٩.



يقول علاء الدين العطار (رحمه الله):

«لقد كانت علاقة الشيخ نقشبند بكبار علماء ذلك العصر علاقة وطيدة تتصف بالمحبة والصدق والإخلاص. وكم من طالب ومدرِّس كبير ترك المدرسة الدينية وأعاد أموال الوقف المكلَّف بإدراته، ليكون في صحبة الشيخ نقشبند ليل نهار.

واجتمع كثير من علماء بخارى يومًا مع المرشد (رحمه الله)، فقال بعض من المتعصِّبين منهم:

«لم يبقَ نور العلم في مدارسنا اليوم، وما عادَ للجدال والبحث والتدقيق العلمي أي أهمية. ومالَ كثيرٌ من الطلبة إلى طريقكم وتركوا لذة العلم، وانزووا إلى زاوية الفناء والكسل. فما هذه الحال؟»

فقال الشيخ نقشبند لهم:

«يا جماعة العلماء الكرام، إننا مرتبطون معكم في طريق الشريعة، ونسير وراءكم. ونتبع كل ما تنقلونه عن رسول الله r وتوضحونه، فإذا كان في طريقنا ما هو مخالف لسنة النبي عليه الصلاة والسلام فأرونا، نتركه، ونبِّهونا في إطار قول الله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[٦٩٥]

وأخبرونا أنحن في طريق الهداية أم لا».

فقال العلماء:

«لقد بحثنا في طريقكم بدِقَّة، ولم نجد فيه ما لا يوافق السنة الشريفة».

غير أن أحد كبار العلماء واسمه (مُلَّا هورد) قال:

---

٦٩٥ الأنبياء: ٧.



«إن العباءة التي تلبسونها سبب للشهرة من وجهَين: الأول أن العباءة أكثر ما يفتخر بها الدراويش، والآخر أنكم بلبسكم العباءة تظهرون التميز. فهل يجوز هذا؟ إن الأشياء التي تكون للشهرة تجر صاحبها للمصائب!».

فقال المرشد: «إن هذه العباءة التي عليَّ ليست بالشيء القيِّم الذي يجلب لي الشهرة، بل هي ما يلبسه الدراويش، لكن إن كانت سببًا للنميمة فلن ألبسها!».

ثم خلعها وأهداها لأحد الدراويش. فلما رأى علماء بخارى ما جرى وشاهدوا من فضائله الكثيرة وأخلاقه الحميدة قالوا:

«إننا في حاجة إليكم كحاجة العين لبياضها وسوادها كي ترى».[٦٩٦]

وكان شاه نقشبند (رحمه الله) كثيرًا ما يشرح الأحاديث الشريفة في مجالسه لعلمه بالحديث، ويشرحها من حيث التصوف، وكان يتقن العربية والتركية والفارسية.[٦٩٧]

الاستقامة

يقول شاه نقشبند (رحمه الله):

«لا ينبغي الميل إلى الأفعال الخارقة للعادة وإظهار الكرامات، فالمعرفة الحقيقية أن تكون على استقامة».[٦٩٨]

«يمكن الركون إلى خوارق العادات والكرامات بشرط الاستقامة في العمل، والتمسك بالسُنة الشريفة. فإذا لم يكن هناك تمسك بالسُنة، فلا يُركَن إلى خوارق ولا كرامة».[٦٩٩]

---

٦٩٦ أنيس الطالبين: ص٢٧٨-٢٧٩.

٦٩٧ أنيس الطالبين، ص٣٨، ٥٤، ٥٧، ٧٧-١١٣، ٢٤٩-٢٥٠؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٦٨.

٦٩٨ أنيس الطالبين، ص٨٨.

٦٩٩ أنيس الطالبين، ص٢٦.



وكان الشيخ نقشبند ينقل كلام أحد أولياء الله الذي يقول:

«إذا دخل الولي بستانًا، فنادته كل ورقة من أوراق أشجارها: (يا ولي الله)، فعليه ألا يلتفت إلى ذلك الصوت لا ظاهرًا ولا باطنًا، بل عليه أن يسعى كل حين لزيادة حال العبودية والتقوى والتواضع التي هو عليها، وإظهار الرِّقَّة والعناية، فمرتبة الكمال في هذا الموضوع مخصوصة لسيدنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فمهما كان يحظى النبي عليه الصلاة والسلام بالنعم والمكارم الإلهية، كان يزيد من عبوديته والتجائه وتضرعه إلى المولى جل جلاله، ويقول: (**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**)[٧٠٠]».[٧٠١]

وكان (رحمه الله) يذكر قول أبي عبد الرحمن السلمي:

«اطلبِ الاستقامة لا الكرامة! فربُّك يريد منك الاستقامةَ ونفسُكَ الكرامةَ».[٧٠٢]

وكان نقشبند (رحمه الله) يُخفِي كراماته كي يقي نفسه من مدح الناس، وحين طُلِب منه إظهار كرامة قال:

«مشْيُنا على وجه الأرض مع وجود هذه الذنوب أوضح الكرامات».[٧٠٣]

وعندما ذَكَر المريدون الكرامات التي رأوها عليه، قال متواضعًا: «بل هي كرامات المريدين».[٧٠٤]

وعندما كانت تظهر عليه أحوال خارقة للعادة، كان ينبِّه الدراويش بقوله:

---

٧٠٠ البخاري، التهجد، ١٦.

٧٠١ أنيس الطالبين، ص٨٨؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٥٧.

٧٠٢ السلمي، حقائق التفسير، [هود: ١٢]؛ أنيس الطالبين، ص٨٨.

٧٠٣ أنيس الطالبين، ص١١٢؛ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٥٨أ.

٧٠٤ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٨أ.



«يا أصحاب، لا حول لنا في هذه الأحوال؛ أي ليس بإرادتنا ظهور ما ظهر، فكل ذلك لطف من الله تعالى، ولا يظهر شيء من الفقير المفلس العاجز المقصِّر».

وقال أيضًا:

«لقد خاطب الله تعالى نبيَّه r فقال: (**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**)[٧٠٥] مع أنه أكمل المخلوقات وأكثرهم تقربًا إلى الله وقبولًا للدعاء. وهذا ما يُوجِب علينا التفكير في حالنا نحن؛ أعني أمته العاجزة المقصرة! وليس في يد الدراويش إظهار الأحوال الخارقة للعادة، فقد تكون تلك الأحوال لفتح الآفاق أمام طالبي الحق سبحانه وتعالى».[٧٠٦]

«(لا يصيد الرجل الفريسة بالركض، بل بتعقُّبها) لذلك لا بد من العمل والسعي دائمًا باستقامة».[٧٠٧]

والمرء إن حادَ عن طريق الاستقامة- ولو قليلًا- فسيظهر تأثير ذلك على أحواله الروحانية؛ لذلك يقول الشيخ نقشبند:

«علة ظهور الزلة من الولي قصورٌ في تواضعه».[٧٠٨]

اتِّباعه السنة الشريفة

كان شاه نقشبند (رحمه الله) يجد لذة كبيرة في تطبيق السنة الشريفة في كل صفحات حياته.[٧٠٩] حتى إنه قال عند وفاة ولده:

---

٧٠٥ الأنفال: ١٧.

٧٠٦ أنيس الطالبين، ص١٥٦.

٧٠٧ أنيس الطالبين، ص١٠٣.

٧٠٨ أنيس الطالبين، ص88.

٧٠٩ أنيس الطالبين، ص٦٤، ٨٩-٩٠، ٩٣، ١٨٨، ١٩٨، ٢٤٩، ٢٧٧؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٥٨.



«الحمد لله! وهذا أيضًا من سنة رسول الله r ، فقد توفي أولاده في حياته. لقد حلَّ بنا كثير من الأحوال التي حلَّت برسولنا».[٧١٠]

ولذلك كان بهاء الدين نقشبند (رحمه الله) يُلقَّب بألقاب منها: «**مُحيي سنن سيد المرسلين**»، و«**موضِّح آثار الصحابة**».[٧١١]

وقد وصَّى شاه نقشبند (رحمه الله) الشيخَ يعقوب الجرخي فقال:

«عليك بالعمل- ما استطعتَ- بحديث رسول الله r : (**صِلْ من قطعك، وأعطِ من حرمك، واعفُ عمن ظلمك**)[٧١٢]؛ فكل ذلك مما يغيظ النفس، لكن إن عملت بهه وجدتَ النفع العظيم».[٧١٣]

العبادة

لقد كان بهاء الدين نقشبند (رحمه الله) دقيقًا في عباداته، والحادثة التالية دليلٌ على ذلك، يقول (رحمه الله):

«كنت أسكن في قرية (ريوَرْتون) لمَّا تُبْتُ إلى الله، وكنت أحرص على صلاة الجماعة في المسجد، وذات مرة لم أستطع أن أصلي في جماعة، وكان إمام ذلك المسجد عالمًا تقيًّا.

فقال لي:

«كنت أحسبكَ رجلًا يداوم على صلاة الجماعة، لكني أراك من المهملين في هذا الأمر».

---

٧١٠ أنيس الطالبين، ص٢٦١.

٧١١ أنيس الطابين، ص١٩.

٧١٢ أحمد، جـ٤، ص١٥٨.

٧١٣ يعقوب الجرخي، الرسالة الأنسية، ص١١٦.

فقلت له:

«يا سيدي، إنك ظننت أنني ممن يلزمون الجماعة في المسجد، غير أنني من الذين حُجِبَت قلوبهم». فقال لي (رحمه الله):

«لا يُشتَرى قلبٌ وجهه متسخ في سوق العشق، بل اللازم قلب صاف كي يخرج نقيًّا من النار».

فأصابني الغمُّ بعد هذا القول، وظلت نيرانه تحرق فؤادي، وازداد التردُّد فيَّ كل يوم.[٧١٤]

ويبيِّن بهاء الدين نقشبند (رحمه الله) أهمية العبادات في طريق الكمال المعنوي بقوله:

«قيل: (المجاز جسر الحقيقة)، والمقصود من ذلك أن العبادات الظاهرة والباطنة والقولية والفعلية كلها مجاز. ولن يصل سالكو هذه الطريقة إلى الحقيقة ما لم يهتموا بالعبادات كلها ويقطعوا هذه المراحل؛ (أي ما لم ينتقلوا من الإيمان إلى الإحسان)».[٧١٥]

وقال (رحمه الله):

«لا بد من الانشغال بالدروس الباطنة في الأسحار وبعد صلاة المغرب، والمداومة على النوافل من الصلوات».[٧١٦]

---

٧١٤ أنيس الطالبين، ص٤٠.

٧١٥ أنيس الطالبين، ص١٠٨.

٧١٦ يعقوب الجرخي، المصدر السابق، ص٩٥.



التواضع والمحوية

كان من أقوال الشيخ نقشبند (رحمه الله):

«أعظم السالكين في هذه الطريقة السامية ربحًا صاحبُ الهِمَّة العالية الذي يحيا بابتهال وتواضع وتضرع. لقد أدخلونا من هذا الباب، وكل ما وجدته كان في الابتهال والمحوية والفناء».[٧١٧]

«إن التواضع والاعتصام بالفناء وترك الأنانية ربحٌ عظيمٌ في هذا الطريق، وبذلك تخطو نحو الشرف».[٧١٨]

«من سلكَ هذا الطريق ولم يرَ نفسه أسوء من نفس فرعون مئة مرَّة، فما سلكَه».[٧١٩]

ولا بد من توضيح هذا القول هنا: لا يمكن أن يكون المؤمن عند الله أدنى درجة من فرعون لأنه كان من الكافرين، غير أن النفس خطرٌ عظيمٌ على حياة الإنسان في الآخرة، لذلك ذكر الشيخ (رحمه الله) مثل هذه المبالغة في قوله لِيُظهِرَ شدَّة ضرر النفس وخطورتها.

ولا ننسى أن عاقبة المرء مجهولة، فحتى لو كان كفره ككفر فرعون، إلا أنه قد يهتدي ويتَنقَّى من الذنوب كلها قبل خروج روحه؛ لذلك على المؤمن أن يحذر أشدَّ الحذر من استحقار عباد الله.

فالإنسان إن شعر بشيء من الأنانية والكِبر، فعليه فورًا أن يلتجأ إلى الله تعالى، ويسعى لإزالة ذلك الشعور ويحذر في هذا الأمر.



٧١٧ أنيس الطالبين، ص٤٦.

٧١٨ أنيس الطالبين، ص٤٧.

٧١٩ أنيس الطالبين، ص٤٨.



وذات مرة تخاصمَ مريدٌ له في (نَسف) مع جاره، فلمَّا سمع نقشبند (رحمه الله) ذلك، حزن كثيرًا، فخرج من بخارى إلى نسف، وما إن دخل المدينة حتى توجَّه إلى ذلك الرجل المكسور قلبه، ووصل بابه فقال:

«اعفُ عن هذا الجرم لأجلنا، فالذنب ذنبنا!»

وصار يرجوه بكل تواضع ومحوية، ورضيَ جارُ المريد في النهاية، فدُهِش سكان نسف من قدوم الشيخ نقشبند من بخارى إلى مدينتهم كي يسترضي رجلًا، وصار كثير منهم من مريدي هذا المرشد الكامل.[٧٢٠]



ويقول مسافر الخوارزمي وهو من أشد طلاب المرشد إخلاصًا له:

«كان حضرة المرشد بهاء الدين قُدِّس سِرُّه يومًا من الأيام مشغولًا بأمر بناء عمارة، وكان الأصحاب كلهم كبارهم وصغارهم مشغولين بعمل الطين بتمام الاهتمام، وكان المرشد محمد بارسا قُدِّس سِرُّه يومئذ في ما بين الطين. فلمَّا كان وقت الاستواء واشتدت حرارة الهواء، أمَرَ حضرة المرشد الأصحابَ بالاستراحة، فغسَّل الأصحاب كلهم أيديهم وأرجلهم وذهبوا إلى الظل وناموا. وجاء حضرة المرشد محمد بارسا في جنب الطين ونام هناك في الشمس من غير غسل رجليه ويديه، فجاء حضرة المرشد قُدِّس سِرُّه في هذا الوقت ومرَّ بالأصحاب واحدًا بعد واحد، فلما انتهى إلى المرشد محمد بارسا ورآه نائمًا بهذه الكيفيَّة في الشمس مسح وجهه المباركة برجله، وقال: (إلهي بحرمة هذا الرجل ارحم بهاء الدين)».[٧٢١]



٧٢٠ أنيس الطالبين، ص٢٠٩.

٧٢١ رشحات، ص105.



يقول علاء الدين العطار (رحمه الله):

«لا رجاء غير مشاهدة قصور الأفعال دائمًا في كل لحظة، ينبغي [للمرء] أن يدخل من باب القصور وأن يلاحظ كرمه تعالى وألطافه مع عدم استعداده وبُعده وهجرانه، وأن يتلجئ إلى محض لطفه وعنايته. أمرني حضرة المرشد بهاء الدين (رحمه الله) بهذه الصفة وأمسكني عليها دائمًا».[٧٢٢]



يقول شاه نقشبند (رحمه الله):

«إن طريق أهل القلوب رؤية الأعمال الصالحة قليلة، والبقاء في حال تواضع وفناء وعجز ومحوية، ومعرفة قصور الأعمال ونقصان الأحوال. ولا شيء أنفع من أن تعلم أنك مقصِّر كي تكسر أنانية نفسك، وذلك حكمة من حِكم وقوع الأنبياء في الزَّلَّة. أما حقيقة التوبة فهي ترك الكِبْر والغرور والأنانية التي هي أصل الذنوب، وإدراك الإنسان عجزه. ولا يتحقق هذا إلا بإدراك أنانية النفس ومعرفة ضررها على الحياة المعنوية، والمرء يبتهل إلى الله ويتضرع إليه وهو في هذه الحال من الألم والعجز، وذلك حقيقة التوبة.

(يا رب إن الخلق يخشونك وأنا أخشى نفسي! فمنك لا يأتي إلا الخير، ومن نفسي ما رأيت إلا السوء والشر).

وظهور عيب عند أهل الله قائمٌ على حكمة إزالة أحوالهم النفسانية وأنانيتهم، ومن هذه الحكم أن سيدنا موسى u اعترض- لارتباطه بالشريعة- على الخضر، وقد فهِم خطأه عندما اعترض فأزال أنانيَّته».[٧٢٣]



٧٢٢ رشحات، ص126.

٧٢٣ بارسا، الصُحَب، ص68-69.



ومن دلائل تواضعه أنه لم يأذن للخواجة حسام الدين يوسف أن يجمع أقواله ومناقبه في كتاب.[٧٢٤]

الكَرم

لقد كان إنفاق شاه نقشبند (رحمه الله) وإكرامه وإحسانه عظيمًا مع أنه اختار العيش فقيرًا بغير سعي وراء متاع الدنيا، وكان يستنُّ بسنة رسول الله r إن أهداه أحد شيئًا، فيهديه مثله أو أكثر.

وكذلك كان دأب أتباعه الذين كانوا يحضرون صُحبَه الروحانية؛ إذ كان مريدوه الذين تربوا على هذه الأخلاق يكرمون أصحابهم وضيوفهم ويطعمونهم بغير تكلف، حتى إنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم في ما يحتاجون إليه. فإن بات أحد عندهم- على سبيل المثال- كانوا يعطونه الثوب حتى لو لم يكن عندهم غيره، ويتحملون برودة الطقس دون أن يُشعِروا الضيف بذلك.[٧٢٥]

الخدمة

ذكَر شاه نقشبند (رحمه الله) لطلابه ذات مرة أنه نظَّف بيوت الخلاء في جميع مدارس بخارى عندما كان شابًّا، كي يحثَّهم على الخدمة، ثم قال:

«أوصاني أستاذي فقال:

(راقب القلوب وانتبه إليها! واعتنِ بأولئك العاجزين والضعفاء ومكسوري القلوب واخدمهم! وَاثْنِ على أولئك الذين يستحقرهم الناس، وأظهِرْ لهم التواضع والمحوية!)

فأشغلت نفسي بهذه الخدمات التي أشار إليها أستاذي مدةً.

---

٧٢٤ أنيس الطالبين، ص20.

٧٢٥ أنيس الطالبين، ص٦٤.



ثم قال لي: (وارْعَ الحيوانات بتواضع واعتناء، فهي خلقُ الله تعالى.[أي انظر إلى تجليات ربك فيها، وانظر إليها بنظر الرأفة التي ينظر بها خالقها، وانشغل بعلاج المرضى والجرحى منها])

فجعلت من العناية بالحيوانات دأبًا لي إلى حين، فكنت إن خرج في طريقي حيوان أنتظر حتى يمر، وبقيت على هذه الحال سبع سنين،

وقال لي أستاذي العزيز:

(واهتم بالطرق والممرات! فإن رأيت شيئًا لا يستحِبُّه الناس، فأمِطه كي لا يتأذوا!)

فانشغلت بهذه الخدمة، وكنت أتمرغ بالتراب سبع سنين. وأديت كل عمل أمرني به ولي الله هذا بإخلاص وأمانة، فشاهدت تجلياته في أحوالي كلها». [٧٢٦]

وكان نقشبند (رحمه الله) يحمل الحطب على ظهره ويأخذها إلى موقد تكية الشيخ أمير كلال، وكان ينقل الآجر فوق رأسه أثناء إنشاء مسجد القرية ويقول:

«يا رب، إني أعمل في سبيلك طوعًا. يا مسجد، إني أنقل حِملَك على رأسي». [٧٢٧]

ويقول الشيخ علاء الدين العطار:

«كانت أخلاق أستاذنا شاه نقشبند أخلاقًا سامية، فإذا ما زاره أحد في بيته، خدَمَه بنفسه، وأكرَمَه خير إكرام، ورحَّبَ به ورعاه. وكان يعتني أيضًا بدابة الضيف اعتناءً شديدًا، فلا يعود الضيف مشغولاً بها». [٧٢٨]

---

٧٢٦ انظر: أنيس الطالبين، ص٤٩-٥٠؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٧-١٨.

٧٢٧ أنيس الطالبين، ص٥٢؛ رشحات، ص٩٢.

٧٢٨ أنيس الطالبين، ص٧٠.



ويقول الشيخ شادي وهو من مريدي الشيخ نقشبند:

«عندما كان يأتي صاحبٌ للشيخ نقشبند (رحمه الله) أو ضيف إلى داره، كان الشيخ يخدمه، ثم يقدِّم الماء والعلف لدابته، فقد كانت جميع الخدمات نعمةً بالنسبة إليه، وحتى لو أتى الدراويش الذين يربيهم إلى داره، كان يُعِدُّ لهم ما يلزم من أجل طهاراتهم ونظافتهم ويقول: (إن هذه الخدمات كلها نعمة بالنسبة إلي)، وإذا ما شرَّف شيخُنا دارَ مريد من المريدين، كان يسأل عن أولاده وأقاربه وخدمه ودوابه وحتى دجاجاته، وكان يهتم بكل فرد من أفراد البيت ويُدخِل السرور في قلوبهم».[٧٢٩]

وإذا ما طُبِخ طعام في مجلس، كان الشيخ نقشبند يقدِّم الطعام بيديه لمَنْ طبخه وحضَّره.[٧٣٠]

ويقول أحد طلبته:

«كان السبب في انتسابي للشيخ نقشبند وارتباط قلبي به الحادثة التالية:

اجتمع الدراويش يومًا في بخارى ليعودوا الشيخ نقشبند الذي كان مريضًا آنذاك، والتقينا به في مكان يُسمى (باغِ مزار)، فاستقبل الشيخُ الدراويشَ بوجه طَلِق حتى في مرضه، وذهب مباشرة ليحضر الشياه التي ستُذبح لهم، حتى إنه جاء حاملاً شاة على ظهره المبارك وانشغل بنفسه في طبخ الطعام، وإلى مثل هؤلاء من أولياء الله مال قلبي لِـمَا يتحلَّون به من أخلاق حميدة».[٧٣١]

---

٧٢٩ أنيس الطالبين، ص٧١؛ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٤٦ب؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٣٨.

٧٣٠ أنيس الطالبين، ص١٩٨؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص١٥٣.

٧٣١ أنيس الطالبين، ص١٤٥.



كان الشيخ نقشبند (رحمه الله) يسعى جاهدًا لحل مشكلات كل فرد ويهتم بأمورهم، ولهذا كان يُطلق عليه اسم «الخواجة حلَّال المشكلات».[٧٣٢]

وكان الشيخ نقشبند (رحمه الله) يقول:

«إن أولياء الله يتحمَّلون الناس وأعباءهم كي يُحسِّنوا أخلاقهم، والقلوب كلها تحت نظر الله بلا استثناء، سواء أَعَلِمَ صاحب القلب أم لم يعلم! ولهذا يتحمل الأولياء الناسَ كي يُدخِلُوا السرورَ في قلوبهم فيكون ذلك وسيلة لنيل الفيوضات من النظر الإلهي في تلك القلوب!»[٧٣٣]

اهتمامه بالصحبة

يقول أحد الدراويش: «كان الشيخ نقشبند (رحمه الله) يبيِّن لنا دائمًا أن صحبة أولياء الله نعمة عظيمة ويقول: (من عيوب سالكي هذا الطريق ابتعادهم عن الصحبة). عندما ذهبت من سمرقند إلى بخارى لأنال الخير من صُحَب المرشد، وجدت أن أكثر الأشياء التي يوليها طلاب الشيخ نقشبند أهمية كبيرة أداءُ الصلوات كلها في المسجد ما استطاعوا، والاستفادة من روحانية صُحَب الشيخ وفيوضاتها».[٧٣٤]

وسُئِلَ الشيخ شاه نقشبند: «بناء طريقكم على أي شيء؟»

فقال في جوابه:

«الخلوة في الجلوة؛ في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق سبحانه وتعالى».[٧٣٥]

---

٧٣٢ عبد الجبار كافاك، ديوان مولانا خالد البغدادي، البيت: ١٣٦-١٣٧.

٧٣٣ أنيس الطالبين، ص١٠٠.

٧٣٤ أنيس الطالبين، ص٢٩١.

٧٣٥ رشحات، ص٥٩.



وقال:

«إن طريقنا هذا مبني على الصحبة، فإن في الخلوة شهرة، وفي الشهرة آفة، والخير كله في الجمعية. والجمعية في الصحبة بشرط فناء كل في الآخر».[٧٣٦]

«ثمة بذرة محبة في قلوب جماعة ممن يحضرون صُحبنا، غير أنها لا تنمو لانشغالهم بأمور الدنيا وقذاراتها. ومهمتنا هنا تطهير قلوبهم من الشهوات النفسانية وإنماء بذرة المحبة تلك. ولا أثر لبذرة المحبة في قلوب جماعة أخرى، فنسعى لزرع المحبة فيها».[٧٣٧]

وفاته

ذهب شاه نقشبند (رحمه الله) إلى الحج مرة أخرى في شيخوخته، ومرض أثناء رجوعه من السفر. ويقول طلابه:

كان شاه نقشبند (رحمه الله) يذكر الموت كثيرًا، لا سيما في أيام حياته الأخيرة، ويذكر أكابر طريق الخواجة ويقول:

«ما أجمل عالم الآخرة الذي انتقل إليه الأصحاب».

وقال حضرة المرشد علاء الدين العطار (رحمه الله):

«قرأت سورة (يس) وقت نزع حضرة المرشد، فلما وصلت إلى نصف السورة أخذت الأنوار في الظهور، فاشتغلت بالكلمة الطيبة فانقطع بعد ذلك نفس المرشد، قُدِّس سِرُّه، وقد بلغ سنه الشريف ثلاثًا وسبعين سنة وشرع في

---

٧٣٦ رشحات، ص٦٠.

٧٣٧ أنيس الطالبين، ص٩٠؛ أبو القاسم، المصدر السابق، ورقة: ٦٣ب؛ محمد باقر، المصدر السابق، ص٥٩.



الرابعة والسبعين. وتوفي ليلة الاثنين الثالثة من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبعمئة [١ آذار/ مارس ١٣٨٩]».[٧٣٨]

ودُفِن شاه نقشبند في بستانه في (قصر عارفان). وكان قد أوصى بقراءة هذا البيت أثناء حمل جنازته:

إننا المفلسون القادمون إلى قريتك

فالطف لوجه الله بنبذة من جمالك[٧٣٩]

ويقول يعقوب الجرخي (رحمه الله):

«رأيت حضرة المرشد بعد وفاته فسألته: كيف نجدك يوم القيامة؟ فقال: (بارتباطك بالشريعة) أي بالعمل بأوامر الدين».[٧٤٠]

وقبر أمه في قرية (قصر عارفان) التي تسمَّى اليوم قرية بهاء الدين، والذين يأتون لزيارة قبره يزورون قبر أمه أولًا تطبيقًا لوصيته (رحمه الله).

---

٧٣٨ رشحات، ص٩٦.

٧٣٩ أنيس الطالبين، ص١١٣. هذا البيت لمولانا جلال الدين الرومي، والأصل قوله: «نحن الصوفيون». (مولانا جلال الدين الرومي، كليات ديوان شمس، طهران ١٣٧٧، جـ٢، ص٨٣٥)

٧٤٠ انظر: يعقوب الجرخي، المصدر السابق، ص٩٣-٩٤؛ أنيس الطالبين، ص٢٩٣.

من حِكَمه

- يحتاج المرءُ إلى جناحَين كي يطير إلى عالَم القدسية؛ الجناح الأول أداءُ كثير من الأعمال الصالحة، والآخر رؤيةُ نفسه ناقصًا عاجزًا.[٧٤١]
- عليك بالتمسك باللطف الإلهي ورؤية فضله، وقطع النظر عن جزاء الأعمال، وارمِ ما صدر عنك من صفة الكمال قولًا وفعلًا في بحر العدم، وحافظ على رؤية القصور دائمًا.[٧٤٢]
- يقول عبيد الله أحرار (رحمه الله):

رأى رجل الشيخ نقشبند بعد وفاته في رؤياه فسأله عن عمل تكون المواظبة عليه سببًا لنجاته، فقال: «اشتغل في صحتك بما تشتغل به في النفَس الأخير»؛ يعني كما أنه ينبغي أن يتوجه في النفَس الأخير إلى الله سبحانه بكليَّته ويكون حاضرًا به وناظرًا إليه، كذلك ينبغي أن يكون دائمًا على هذه الصفة.[٧٤٣]

- تلقين الذكر كحجر الصوان الذي تضعه في يد المريد، فيحدِّد بنفسه النتيجة، أي إشعال فتيل العشق بذلك الحجر أو عدم إشعاله.[٧٤٤]
- ليس المقصود من الذكر قول: «الله» و«لا إله إلا الله» فحسب، بل قد يكون الانتقال من السبب إلى المُسبِّب، وإدراك أن النِعم تأتي من المُسبِّب؛ أي من الله تعالى.[٧٤٥]

---

٧٤١ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٢٣٢، رقم: ١١٩.

٧٤٢ انظر: رشحات، ص٩٧.

٧٤٣ رشحات، ص٩٩.

٧٤٤ محمد باقر، المصدر السابق، ص٦٢.

٧٤٥ محمد باقر، المصدر السابق، ص٧٨.



- كل ما يكون مرئيًا أو مسموعًا أو متخيلاً أو موهومًا فهو غيره تعالى، وينبغي نفيُه بحقيقة كلمة «لا» [في كلمة التوحيد].[٧٤٦]

[فمن صفات الله تعالى «مخالفة الحوادث». أي إنه سبحانه وتعالى منزَّه عن الشَبَه بمخلوقاته].

- مراعاة الحقوق في كل حال أدبٌ من آداب السالكين في طريق الحق تعالى؛ فبمراعاتهم الحقوق والآداب بلغوا المقصود والمطلوب.[٧٤٧]
- إن سبب ابتعاد الناس عن الله تعالى نأيهم بأنفسهم عنه واحتمالهم حملًا ثقيلًا من الدنيا بإرادتهم. [أي اتباعهم شهوات نفوسهم وغوائلها]. ذلك أنه لا عيب في الفيض الإلهي.[٧٤٨]
- على السالك في طريقنا ألَّا يعلم مقامه كي لا يكون حجابًا أمامه، ولا بد أن يكون متواضعًا كل حين! ذلك أنه «من رضيَ بمقامه، وضعَ حجابًا أمام سموه المعنوي».[٧٤٩]
- إننا وسيلة في طريق الوصول إلى الشرف العظيم، فلا بد من الانقطاع عنَّا والوصول إلى (المقصود الحقيقي).

أي على الطالب بعد بلوغ مرتبة الفناء ومعرفة بقاء الله تعالى أن يتجرد عن كل شيء، وهذا مقام الكاملين المُكمِّلين... غير أن الطالب الواصل إلى هذا المقام لا يستطيع شكر نعمة التربية التي تلقاها من مرشده حتى لو عاش إلى الأبد.[٧٥٠]

---

٧٤٦ الإمام الرباني، مكتوبات، جـ٢، ٢٠٠، رقم: ٢٧٢.

٧٤٧ أنيس الطالبين، ص٧٢.

٧٤٨ بارسا، الصُحب، ص٣٦.

٧٤٩ أنيس الطالبين، ص٩٠.

٧٥٠ أنيس الطالبين، ص٩٧.



- كان شاه نقشبند (رحمه الله) كثيرًا ما يردد البيت التالي في مجالسه مشيرًا إلى إخفاء الأحوال المعنوية:

ومِن داخل كُنْ متيقظًا غير غافل ومِن خارج خالِطْ كبعض الأجانب[٧٥١]

- مَنْ يدخل بيت الكريم ينال كرمه، كذلك حال مَنْ يخدم أولياء الله فيدخل قلوبهم.[٧٥٢]



٧٥١ أنيس الطالبين، ص٦٧.

٧٥٢ رشحات، ص١٦٥.



١٧- علاء الدين العطار (رحمه الله)

[توفي سنة ١٤٠٠م]

اسمه محمد بن محمد البخاري، ويتصل نسبه بنسب النبي r من طريق الشيخ اليسوي السيد عطا.[٧٥٣]

واشتُهِر بلقب «العطار» لتعطُّره دائمًا أو لأن من كان يحضر صُحَبه يأخذ من عِطره المعنوي.[٧٥٤]

ووُلِد المرشد علاء الدين في أسرة تعمل بالتجارة، غير أنه- على عكس أخوَيه- لم يشتغل بالتجارة، بل ذهب إلى مدرسة دينية لتحصيل علوم الدين. ولم يأخذ شيئًا من ميراث أبيه بعد وفاته، وإنما مكث يطلب العلم ويحيا زاهدًا. ثم انتسب إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند مثل كثير من طلاب المدارس الدينية في بخارى.

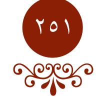
وأمره نقشبند (رحمه الله) ببيع التفاح في السوق كي يزيل الغرور والكِبر اللذان قد يسببهما العلم، فقام المرشد علاء الدين بهذا الأمر على الذوق والنشاط التام بلا تأخير. فلما رآه أخواه- وكانا من أولي المكانة والاحترام- غضِبا لذلك أشد الغضب، فبلغ شاه نقشبند (رحمه الله) خبر غضبهما، فأمره أن يذهب بطبق التفاح فيضعه قريبًا من محل أخويه ويبيعه، ففعل كما أمره.[٧٥٥]

---

٧٥٣ لاهوري، خزينة الأصفياء، جـ١، ص٦٢٤؛ نصر الدين البخاري، تحفة الزائرين، ص٥٥.

٧٥٤ نصر الدين البخاري، المصدر السابق، ص٥٥.

٧٥٥ انظر: رشحات، ص١٢١-١٢٢؛ الخاني، الحدائق، ص٤٤٥.



فمن أهم أسس التربية الصوفية وصول العبد- بمثل هذه الأصول- إلى التواضع والمحوية والشعور بالعجز. فكان علاء الدين العطار (رحمه الله) يحمي نفسه على هذا النحو من الاغترار بالعلم، ويتربى صوفيًا لا يخاف لومة لائم[٧٥٦].

فغدا علاء الدين العطار (رحمه الله) الذي كان يتلقى التربية الصوفية عند الشيخ شاه نقشبند أحدَ مريديه النجباء وأحد خلفائه.[٧٥٧] وأحال حضرة المرشد بهاء الدين تربية كثير من الطالبين في حياته إلى حضرة المرشد علاء الدين (رحمه الله) وكان يقول:

«إن علاء الدين قد خفف عني كثيرًا من الأثقال والأحمال».[٧٥٨]

ولما توفي حضرة المرشد بهاء الدين (رحمه الله) بايع أصحابه كلهم حضرة المرشد علاء الدين حتى المرشد محمد بارسا (رحمه الله) لكمال علو شأنه، ولا يخفى أن المرشد محمد بارسا (رحمه الله) أورد بعض كلماته القدسية التي صدرت عنه في المجال والصحبة إلى قيد الكتابة[٧٥٩].[٧٦٠]

---

٧٥٦ انظر: المائدة: ٥٤.

٧٥٧ ورد في كتاب (الرشحات) أن الشيخ بهاء الدين نقشبند حمو الشيخ علاء الدين العطار (ص١٢١) غير أن الصواب أن الشيخ نقشبند حمو حسن بن علاء الدين العطار. (مولانا شيخ، مناقب المرشد عبيد الله أحرار، مكتبة بيازيد العامة، قسم بيازيد، رقم: ٣٦٢٤، ورقة: ٧٠ب-٧١أ؛ دارا شوكوه، سفينة الأولياء، ص٨٠؛ الخوارزمي، السلسلة النقشبندية، ورقة: ١٢٦أ)

٧٥٨ رشحات، ص١٢٢.

٧٥٩ محمد بارسا، مقامات علاء الدين العطار، مكتبة فاشر أوزبكستان، رقم: ١١٣٩٩، ورقة: ١٥٢ب-١٧٢أ؛ رقم: ٢٥٢٠، ورقة: ٥٣أ-٦٥ب، ٨٩ب- ٩٤أ. وقد ورد جزء من هذه الرسائل في كتاب (نفحات) وجزء كبير منها في كتاب (رشحات).

٧٦٠ رشحات، ص١٢٣.



وكان من مريدي الشيخ العطار العلامة السيد شريف الجرجاني (رحمه الله) (توفي سنة٨١٦هـ/ ١٤١٣م) وأصحابه، وكانوا في خدمته بإخلاص وصدق وتسليم تام. وكان السيد شريف الجرجاني يكثر من قوله:

«إنني لم أتخلص من الوساوس والتصورات الخاطئة (الرافضية) حتى حضرت مجالس زين الدين علي كيلا. ولم أعرف الحق تعالى حتى دخلت في خدمة الشيخ علاء الدين العطار».[٧٦١]

ثم صار السيد شريف الجرجاني (رحمه الله) من أبرز خلفاء الشيخ العطار.[٧٦٢]

السعي

يقول الشيخ علاء الدين العطار (رحمه الله):

«قال المشائخ قدَّسَ الله أرواحهم: (التوفيق مع السعي)، وكذلك يكون مدد روحانية المرشد للطالب على قدر سعيه بأمر المرشد، فإنه لا بقاء لهذا المعنى بدون السعي، وليس لتوجه المرشد للطالب بقاء فوق أيام قلائل، فإن من المعلوم أن المرشد إلى متى يتوجه إلى الغير وكان من اللطف الإلهي... وكان التوفيق رفيقًا حتى صارت أوقاتنا كلها مصروفة في السعي في صحبة حضرة المرشد [بهاء الدين (رحمه الله)]...».[٧٦٣]

«ينبغي للطالب أن يكون في الباطن معتصمًا بالله، وفي الظاهر معتصمًا بحبل الله، والجمع بين هاتين الصفتَين كمال».[٧٦٤]

---

٧٦١ الجامي، نفحات، ص٥٤١.

٧٦٢ للجرجاني مؤلفات صوفية باللغة الفارسية مثل: (الرسالة الشوقية) و(الرسالة الوجودية)، وقد وضَّح في كتابه (التعريفات) بعض المصطلحات الصوفية. وله كتاب باللغة العربية يثني فيها على الشيخين بهاء الدين نقشبند وعلاء الدين العطار، وهو كتاب: تراجم المرشد بهاء الدين نقشبند والخوجة علاء الدين العطار، مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم: ٣٥٩٧، ورقة: ١٨ب-٢١أ.

٧٦٣ رشحات، ص١٢٤.

٧٦٤ رشحات، ص١٢٧.



الذِكر والمراقبة

أَولَى الشيخ علاء الدين العطار (رحمه الله) أهميةً لأداء الذِّكر بشعور وأصول واضحة، ولم يقبَل الذِّكر بغفلة، حتى إنه أضاف إلى الطريقة أصلًا جديدًا، وهو تربية المريدين بالجذبة والاستغراق وذلك بالمعيَّة الذاتية (أي الشعور بمعية الله تعالى). ورأى المشايخ أن السير والسلوك بهذا الأصل أفضل الطرق لبلوغ المقصود.[٧٦٥]

الصُّحبة

كان علاء الدين العطار (رحمه الله) ينبِّه الحاضرين في صُحَبه دائمًا بقوله:

«اصطحبوا، فإن الصحبة سنَّةٌ مؤكدة».

يقول الله تعالى: **(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)**[٧٦٦]

فالله Y صاحب النِعَم كلها يأمر نبيه في هذه الآية (أن حدِّث الناس بالرعاية الربانية ونعمة الهداية التي تليق بك، وبيِّن لهم ألطاف الربوبية).

وتفسير آخر لهذا الشأن:

«خاطَبَ الله Y داود u فقال: (تقرَّبوا منا، ومن أوليائنا، وقرِّبوا عبادنا منا). فقال داود u معبِّرًا عن عجزه وضعفه:

(يا رب، أتقرب إلى ذاتك العليَّة، ولي طاقة في التقرب إلى أوليائك، غير أنه لا طاقة لي في زرع محبتك في قلوب عبادك!). فقال الحق تعالى:

«يا داود، إنك إن تُذكِّر عبادنا بنِعمنا بالمحبة، فستكون قادرًا على زرع محبتنا في قلوبهم».[٧٦٧]

---

٧٦٥ انظر: الإمام الربَّاني، المكتوبات، رقم: ٢٩٠.

٧٦٦ الضحى: ١١.

٧٦٧ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص٨٢-٨٣.



ويقول علاء الدين العطار (رحمه الله) في موضوع الصحبة:

«دوام الصحبة مع أهل الله تعالى سبب زيادة عقل المعاد [العقل الذي يستعد للقاء يوم الآخرة]».[٧٦٨]

«الصحبة سنَّة مؤكدة ينبغي أن يكون [الطالب] في صحبة هذه الطائفة [أهل الله] في كل يوم أو في يومين مرة، وأن يحافظ على آدابهم، فإن وقع للطالب بُعدٌ صوري ينبغي أن يُعلِمَ أحواله الباطنية والظاهرية في كل شهر أو شهرين بالكتابة إما صراحة وإما إشارة وأن يكون مشغولًا بهم في منزله [أي أن يحافظ على الرابطة القلبية] لئلا تقع غيبة كلية».[٧٦٩]

وقبل وفاته (رحمه الله) أوصى الشيخَ يعقوبَ الجرخي- وهو أحد خلفائه- بإرشاد الناس.[٧٧٠]

وفاته ووصيَّته

روى الشيخ محمد بارسا (رحمه الله) أن الشيخ العطار قال في وفاته:

«قد ذهب الأحباب والأعزة وكذلك يذهبون، ولا شك أن ذلك العالَم أفضل من هذا العالَم».

وقد أريت الخضرة في نظره [أي تعلقت عينه بخضرة بعض النباتات]، فقال شخص: نِعمَ الخضرة، فقال: «التراب أيضًا طيب، لم يبقَ ميل إلى هذا العالَم أصلًا غير أن الأحباب يجيؤن ولا يجدونني فيرجعون مكسوري القلوب»...

ثم شرع في تلك الأثناء في تكرار كلمة التوحيد بصوت عال... وكان كلامه في مرضه الأخير أحيانًا في باب الرضا والوجد والمحبة والشوق، وأحيانًا في

---

٧٦٨ رشحات، ص١٢٩.

٧٦٩ رشحات، ص١٣٠.

٧٧٠ منيب الدين النقشبندي، كنز السعادة، ص٧٢٧.



النصيحة والحكمة ودعاء الخير للخلق... وقال وقت شدة مرضه مكررًا... **(هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)**[771].[772]

وقد مرض علاء الدين العطار (رحمه الله) في غرَّة رجب سنة ٨٠٢ هجرية، وتوفي في ٢٠ من رجب ليلة الأربعاء [١٧ آذار/ مارس ١٤٠٠م]. وقبره الشريف اليوم في أوزبكستان على بُعدِ اثني عشر كيلومترًا جنوبي مدينة ديناو القريبة من حدود طاجكستان، ويزور الناس قبره في المقبرة المعروفة باسم شيخ عطار ولي.[773]

من حِكَمه

- ينبغي رعاية جانب أهل العلم وستر حال نفسه، والتكلم مع كل واحد من أهل الطريقة بحسب حاله، وأن يراعى الخواطر والاحتراز عن إيذاء أهل القلوب[774].
- أنا ضامن لمن دخل في هذه الطريقة تقليدًا أن يصل إلى مرتبة التحقيق البتة، وقال: أمرني حضرة المرشد بتقليده وكل شيء قلدته فيه وأقلده الآن أشاهد أثره ونتيجته على التحقيق البتة.[775]
- ينبغي أن يكون مقصود زائر مشاهد الأكابر رضي الله تعالى عنهم أجمعين التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يجعل روح ذلك الولي الذي اجتباه

---

٧٧١ ق: ٣٠.

٧٧٢ رشحات، ص١٣١-١٣٣.

٧٧٣ انظر: بارسا، مقامات علاء الدين العطار، ورقة: ١٦٨ب؛ الجامي، نفحات، ص٥٤٣؛ رشحات، ص١٩٠.

٧٧٤ رشحات، ص١٢٦.

٧٧٥ رشحات، ص١٣٠.



الله إليه وسيلةً لكمال التوجه، كما أن التواضع للخلق وإن كان في الظاهر تواضعًا لهم ينبغي أن يكون المقصود من التواضع في الحقيقة التواضع لله تعالى، فإن التواضع إنما يكون محمودًا إذا كان لله تعالى خاصة، بمعنى أنه يرى الخلق مظاهر لآثار قدرة الله تعالى وحكمته، وإلا فيكون تصنعًا وتكلفًا وسمعة وضعة لا تواضعًا ويكون مذمومًا جدًّا.[٧٧٦]

- يقول سعد الدين الكاشغري (رحمه الله):

«إن الخوض في العلوم الظاهرة يعمي القلب، وفي ذلك يقول علاء الدين العطار (رحمه الله):

«على الطالب الاستغفار عشرين مرة بعد المناظرة والمناقشة العلمية».[٧٧٧]

- يكاد كلُّ القرآن الكريم يشير إلى التواضع والفناء[٧٧٨].



٧٧٦ رشحات، ص١٢٨.

٧٧٧ رشحات، ص٣٢٦-٣٢٧.

٧٧٨ يعقوب الجرخي، المصدر السابق، ص١١٧.

١٨- يعقوب الجرخي (رحمه الله)

[توفي سنة ١٤٤٧م]

وُلِد الشيخ يعقوب بن عثمان الجرخي (رحمه الله) في بلدة (جرخ) أو قرية (سرَّز) التابعة لها في ولاية (لوكر) الواقعة بين كابول وغزنة، ويُرجَّح أن مولده كان في القرن الثامن للهجرة. وكان والده رجلًا زاهدًا تقيًّا، حتى إن جيرانه قدَّموا له ماءً بكأس يملكه يتيم، فلم يشرب منها، وكان الجرخي (رحمه الله) ينقل هذه الحادثة ويقول:

«من يستعمل مال اليتيم لا يجد فيه أي نفع».[٧٧٩]

واشتغل الجرخي (رحمه الله) بتحصيل العلوم في مدارس مصر وهُراة وبخارى. وكان يتحرى الطعام الحلال حيث كان ويحذر أشد الحذر من الأمور المشبَّهة. فعندما رأى أن كثيرًا من المنسوبين إلى الوقف في هراة لا يراعون التقوى والحلال والحرام بالقدر الكافي، وأن ذلك مصدر شبهة وتردد لم يأكل من طعامهم. ولكنه كان يأكل من تكية عبد الله الأنصاري لأنه كان يعلم أنه وقف موثوق.[٧٨٠]

وبعد أن تعلَّم الجرخي (رحمه الله) العلوم الدينية انتقل من هراة إلى بخارى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م. ولم يقرر آنذاك في أي العلوم يشتغل، فرأى رسول الله r في رؤياه يومًا يرتِّل القرآن الكريم، ففسَّر الرؤيا أنها إشارة للاشتغال بالتفسير.[٧٨١]

---

٧٧٩ يعقوب الجرخي، تفسير، مكتبة السليمانية، نافذ باشا، رقم: ٥٩، ورقة: ١٧٢ب-١٧٣أ.

٧٨٠ مير عبد الأول، مسموعات، ص١٣٣؛ رشحات: ص١٠٨.

٧٨١ الجرخي، تفسير يعقوب الجرخي، ص٩٨.



ويقول الجرخي (رحمه الله):

لما أخذت الإجازة من علماء بخارى للفتيا والإفتاء عزمت أن أرجع إلى وطني الأصلي، فحصل لي الملاقاة يومًا بحضرة المرشد فأظهرت له التواضع والتضرع، وتمنيت منه التوجه بخاطره العاطر،

فقال: تحضر عندي الآن في وقت السفر؟

فقلت: إني أحب جنابك.

فقال: من أي حيثية؟

قلت: من حيث أنك عظيم القدر ومقبول عند جميع الخلق.

فقال: لا بد من دليل أقوى من هذا، فإن هذا القبول يحتمل أن يكون شيطانيًّا!

قلت: قد ثبت في الحديث الصحيح أنه: إذا أحب الله عبدًا يوقع في قلوب عباده محبته فيحبونه، فتبسم وقال: نحن العزيزان.[٧٨٢]

فتغير عليَّ الحال من هذا المقال، فإني قد كنت رأيت في المنام قبل هذا بشهر قائلًا يقول لي: كن مريدًا لعزيزان، وكنت نسيته فلما قال ذلك الكلام تذكرته...

ولما ظهرت في هذا الفقير داعية الطلب بعناية الله U، قادني الفضل الإلهي وَحَدَاني الكرم الغير المتناهي إلى صحبة المرشد بهاء الحق والدين قُدِّسَ سِرُّه، فصحبته في بخارى ووجدت من كرمه العميم التفاتات كثيرةً، فحصل لي اليقين بهداية الله تعالى بأنه من خواص أولياء الله تعالى وأنه كامل مكمل، وتفأَّلت بكلام الله تعالى بعد إشارة غيبية وواقعات عديدة فجاءت هذه الآية الكريمة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[٧٨٣] .[٧٨٤]

---

٧٨٢ العزيزان لقب الشيخ علي الرامتني. وكان قصد المرشد نقشبند بقوله هذا أنه ممثل طريق الشيخ الرامتني في ذلك الزمان.

٧٨٣ الأنعام: ٩٠.

٧٨٤ رشحات، ص١٠٧.



وذهب الشيخ الجرخي إلى قرية (قصر عارفان) حيث الشيخ نقشبند (رحمه الله) كي ينتسب إليه، فتلقَّاه بالإحسان. وكانت هناك صحبة بعد الصلاة، وبعد الصحبة قال نقشبند (رحمه الله):

«أنا مأمور لا أقبل أحدًا باختياري وصنعي، فننظر بماذا تكون الإشارة في تلك الليلة، فإن قبلوك نقبلك».

يقول الجرخي (رحمه الله):

«فسَرَت تلك الليلة عليَّ في غاية الصعوبة بحيث لم أرَ في عمري أصعب منها من خوف فتح باب الرد عليَّ، فلما صليت معه صلاة الصبح قال المرشد: (ابشِرْ فقد حصلت الإشارة بالقبول)»...

فكنت بعد ذلك في صحبته أوقاتًا كثيرة إلى أن صدرت لي الإجازة بالسفر من بخارى، فقال المرشد بهاء الدين وقت السفر:

«كلما وصل إليك مني بلِّغه عباد الله تعالى فيكون ذلك سببًا لسعادتك، فخَاطِب من كان بقربك، وكاتِب من هم بعيدون عنك».

وأمرني حضرة المرشد أن أصاحب المرشد علاء الدين العطار.[٧٨٥]

سنوات السير والسلوك وبدء الإرشاد

ونُقِل عن الشيخ يعقوب الجرخي أنه قال:

«انشغلت مدةً بذكر (الوقوف العددي) كما أمرني حضرة المرشد، ثم رأيتُني في المنام أسقط في ماء طاهر عظيم. فعرضت رؤياي على حضرة المرشد فقال:

٧٨٥ انظر: الجرخي، الرسالة الأنسية، ص٩٢-٩٥؛ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص١٨٠-١٨٣؛ الجامي، نفحات، ص٥٤٩؛ رشحات، ص١٠٧-١٠٨.



(إن هذه الرؤيا دليل على قبول عباداتك وطاعاتك، فالقلب يحيا بالذكر، فكما أن الماء سبب حياة الجسد، كذلك ماء الذكر سبب حياة القلب)».[٧٨٦]

يقول يعقوب الجرخي (رحمه الله) في السير والسلوك:

«غاية التصوف أن يجد القلب الطمأنينة بالله تعالى، والوصال معه، وهذا الوصال لا يكون إلا بالسير والسلوك. يقول سيدنا علي t :

(رحِم الله امرئ عَلِمَ ما عليه في الدنيا وسبيل الاستعداد للآخرة وعلَّمه)؛

أي إن مَن يجعل السير والسلوك في الدنيا شعارًا له سيسعد في الدنيا والآخرة».[٧٨٧]

«إن السير والسلوك يقتضي السعي الثابت على منهاج محدَّد، فعلى السالك أولًا أن يقتدي بالنبي عليه الصلاة والسلام فيسعى لإحياء الليالي، فمن أعظم فوائد التهجد أنه وقت يتعرف المرء فيه إلى نفسه ويحاسبها. وعلى المرء في تلك الأثناء أن ينشغل بتلاوة القرآن الكريم والتسبيح، ويُبعِد ما سوى الله عن قلبه بتوكله على ربه سبحانه وتعالى، ويتفكر ويتدبر أسباب خلق الكون».[٧٨٨]

وبعد وفاة المرشد نقشبند (رحمه الله) ذهب يعقوب الجرخي (رحمه الله) إلى الشيخ علاء الدين العطار كما أمره المرشد، وصَحِبَه أحد عشر عامًا.[٧٨٩] وبعد وفاة الشيخ العطار استقر يعقوب الجرخي (رحمه الله) في قرية (هولغاتو) في ولاية (حصار) ومكث هناك يرشد الناس قرابة خمسين سنة.

---

٧٨٦ أنيس الطالبين، ص١٨٤.

٧٨٧ الجرخي، ناي نامه، ص١٤.

٧٨٨ الجرخي، تفسير، ورقة: ٧٨أ.

٧٨٩ انظر: رشحات، ص١٠٨.

محبة الله U

كان الشيخ يعقوب الجرخي (رحمه الله) يذكر ولدًا له حسن الخلق والطباع أتمَّ السير والسلوك في أربعة أشهر، غير أنه توفي في السابعة عشر من عمره.

فكان يذكر حزنه على ولده حتى في سنواته الأخيرة، غير أن محبته لولده لم تكن تُقاس بمحبته لله U، فمحبته الأصلية كانت لله U. وكان كلما زار قبر ولده قال: «لا يمكن السير في طريق التوحيد بالغيبة واللغو. وما يلزمك هو رضا الله». ثم قال: «لا موضع لاثنَين في القلب! وكل محبة لا بد أن تُذاب في محبة الله تعالى».[٧٩٠]

الطهارة

يقول الشيخ الجرخي:

«إن الموت بغير الوصال مع الله تعالى موت كغيره. والشيء الذي يوصل إلى المقصود إنما هو (الموت قبل الموت) أي ترك الشهوات والرغبات النفسانية، أو ما نسمِّيه حال (الفناء). عندها يتطهر القلب من الصفات السيِّئة ويتزين بالأخلاق الحميدة، وتظهر الطهارة الظاهرة والباطنة. لذلك يحتاج السالك إلى المرشد الكامل المكمِّل في كل شأن».[٧٩١]

ويبيِّن الشيخ يعقوب الجرخي أن قول الله تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)**[٧٩٢]يشير إلى ضرورة تزكية النفس أولًا بالتوبة أثناء السير والسلوك، ثم إلى ذِكر اللسان والأعضاء الأخرى[٧٩٣].

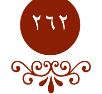
---

٧٩٠ الجرخي، تفسير، ورقة: ٥٣ب.

٧٩١ الجرخي، ناي نامه، ص٣٤.

٧٩٢ الأعلى: ١٤.

٧٩٣ الجرخي، تفسير، ورقة: ١٤٣ب-١٤٤أ.



وقد اختُلِف في تاريخ وفاة الشيخ الجرخي لكن الراجح أن وفاته كانت سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م، وقبره في قرية (هولغاتو) في ولاية (حصار). وتعد المقبرة التي تقع على بُعد خمسة كيلومترات من عاصمة طاجكستان (دوشامبة) من الأماكن التي تُزار كثيرًا في الوقت الحاضر[٧٩٤].

من حِكَمه

- على السالك أن يدقِّق في أحواله وحركاته ما إن يشعر بالقبض والفتور والوسوسة والقلق، ويحاسب نفسه ليرى إن خالفَت الشريعة الشريفة، أو ظهر منها شيء لا يرضى عنه الله تعالى. فإن ظهر منها شيء كذلك، فعليه رأسًا أن يستغفر الله سبحانه وتعالى، ويكفَّ عن ذلك الشيء[٧٩٥].
- إن الحق تعالى يزيد من رغبة من يطلب ذاته العليِّة[٧٩٦].
- كثير من العلماء يبتعدون عن مجالس أولياء الله، فتكون عباداتهم ناقصة[٧٩٧].

[أي من الواجب على العلماء أن يحضروا المجالس الروحانية كي يكونوا أصحاب تقوى]



٧٩٤ النفيسي، تاريخ النظم والنثر، جـ٢، ص٧٧٨-٧٧٩.

٧٩٥ أنيس الطالبين، ص١٨٥.

٧٩٦ الجرخي، ناي نامه، ص٤١.

٧٩٧ الجرخي، ناي نامه، ص٦٩.

١٩- عبيد الله أحرار (رحمه الله)

[١٤٠٤- ١٤٩٠م]

وُلِد الشيخ في قرية (باغستان) التابعة لمدينة طشقند في شهر رمضان سنة ٨٠٦ هجرية. ويتصل نسبه الشريف بنسب سيدنا عمر بن الخطاب t .[٧٩٨]

ولما بلغ حضرة [الشيخ] اثنتين وعشرين سنة جاء به خاله المرشد إبراهيم من وطنه المألوف إلى سمرقند بنية تحصيل العلوم، ولكن كان غلبة شغله الباطني مانعة له عن التحصيل الظاهري، فلهذا مال إلى صحبة أعزَّة هذه السلسلة وملاقاتهم قدَّسَ الله أرواحهم... وطاف حول أكابر هذه الطائفة في ما وراء النهر مدة سنتَين. [٧٩٩]

يقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«استولى التواضع والانكسار على باطني وقتًا في مبادي الحال على وجه إذا استقبل إليَّ أحد من عبيد وأحرار وصغار وكبار وأسود وأبيض، كنت أضع رأسي في قدمه وأطلب منه بذل الهمة والتفات الخاطر بكمال التضرع وتمام الانكسار».[٨٠٠]

---

٧٩٨ الجامي، نفحات، ص٥٦٤.

٧٩٩ مير عبد الأول، مسموعات، ص٧٠، ٧٨؛ محمد قاضي، سلسلة العارفين، ورقة: ٣٤أ-٣٥أ؛ رشحات، ص٢٩٥.

٨٠٠ رشحات، ص٢٨٩.



ثم رحل عبيد الله أحرار إلى الشيخ يعقوب الجرخي، وصحبه أيامًا ثم انتسب إليه. وقال الشيخ الجرخي عنه:

«ينبغي للطالب أن يحضر هكذا قد هيأ جميع أموره وإنما كان موقوفًا على الإجازة فقط... قد هيَّأ المصباح وملأه بالزيت، وأصلح فتيلته، وإنما هو محتاج للتسريج».

وبعد أن صحب عبيد الله أحرار (رحمه الله) الشيخَ يعقوب الجرخي ثلاثة أشهر، صار من خلفائه[أخذ عنه الطريقة] ورجع إلى هراة ليرشد الناس[٨٠١].

طريق الخدمة

لقد اختار الشيخ عبيد الله أحرار (رحمه الله) حياة الاستغناء والتواضع في غناه وفقره، ولم يسعَ وراء نِعَم الدنيا، بل كان جُلُّ همِّه معرفة الله تعالى. ويحدِّثنا عن أيام فقره فيقول:

كانت لي عمامة خَلِقَة ذات خروق كثيرة بحيث إذا ربطت شقة منها تنسدل الأخرى. وكنت يومًا مارًّا من سوق الملك، فسألني سائل شيئًا لله ولم يكن عندي شيء أعطيه، فأخذت تلك العمامة من رأسي ورميتها إلى طباخ وقلت: إنها طاهرة فخذها تمسح بها القدور والأواني وأعطِ في مقابلتها شيئًا لهذا المسكين. فأعطى الطباخ شيئًا للمسكين وأرضاه وردَّ العمامة عليَّ بتمام الادب، فلم أقبلها ومضيت لسبيلي.

وقال: خدمت رجالًا كثيرين وما كان لي وقتئذ فرس ولا حمار، لبست سنة قباء قد خرج قطنها من خروقها، ولبست فروة ثلاث سنين، وكنت ألبس في كل ثلاث سنين خفًّا منعلا[٨٠٢].

---

٨٠١ الجامي، نفحات، ص٥٥٠، ٥٦٤؛ محمد قاضي، المصدر السابق، ورقة ٤٧ب-٤٨ب؛ رشحات، ص٣١٢؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ورقة: ١٧٤أ.

٨٠٢ رشحات، ص٢٩٢.



ثم صار للشيخ عبيد الله أحرار ثروة عظيمة بكرم الله تعالى، حتى إن الآلاف من العمال كانوا يعملون في مزارعه. غير أن الشيخ المبارك لم يتوانَ عن الخدمة بنفسه لوجه الله مع كل هذا الثراء، إذ كان يعين كل من يعرفه أو يجهله ويرأف به منذ أن دخل هذه الطريقة حتى خروج روحه. ويروي لنا جزءًا من خدماته فيقول:

«حين كنت في مدرسة مولانا قطب الدين الصدر بسمرقند كنت أتعهد اثنين أو ثلاثة أشخاص كانوا مُبتلين بمرض الحصبة، ولم يكن لهم شعور لشدة مرضهم، فيتلوث ثيابهم وفراشهم بنجاستهم وكنت أغسلها وأدفع عنهم الأذى. وكان يقع ذلك مرارًا ومتعاقبًا حتى ابتليت أيضًا بمرض الحصبة بسبب تمريضهم ولوازمه، وكنت محمومًا في ليلة، وجئت بأربعة كيزان من الماء في تلك الليلة وغسلت أثوابهم).[٨٠٣]

وكان الشيخ (رحمه الله) يخدم الناس ما استطاع دون أن يفرِّق في الخدمة بينهم، ويهرب منهم عقب الخدمة خوفًا من إعطاء الأجرة[٨٠٤].

وقال (رحمه الله):

«ما أخذت هذه الطريقة عن كتب الصوفية، وإنما أخذتها عن خدمة رجال... قد أدخلوا كل شخص من باب، وأدخلوني من باب الخدمة، ولذلك كانت الخدمة مرضية ومحبوبة ومختارة لدي. وكل من أتوسم فيه الخير آمره بالخدمة»[٨٠٥].

---

٨٠٣ مير عبد الأول، المصدر السابق، ص٣٢-٣٣؛ رشحات، ص٢٩٧.

٨٠٤ محمد قاضي، المصدر السابق، ورقة: ٣٧ب؛ رشحات، ص٢٩٧.

٨٠٥ رشحات، ص٢٩٨.



القوتُ بعمل اليد

اشتغل الشيخ عبيد الله أحرار بالزراعة كي يحصِّل قوت يومه ولا يحتاج أحدًا.[٨٠٦] وصار شريكًا لشخص، وأعمل باتفاقه زوجًا واحدًا من العوامل[٨٠٧]، فرزق الله سبحانه بركة كثيرة في زراعته. ولا يخفى أن أموال حضرة شيخنا من الضياع والعقار والسوائم والمواشي والأسباب والأملاك كانت غير قابلة للقياس والحد، وخارجة عن دائرة الحساب والعد...ومزرعته قد جاورت ألفًا وثلاثمئة مزرعة[٨٠٨].

وقال حضرة المرشد أحرار (رحمه الله):

«إن الله قد أنزل البركة في أموالي بحيث إذا حزر الحازرون صاحبوا الوقوف كل كوم ألف مَنٍّ[٨٠٩] مثلًا يبلغ وقت الأخذ أربعمئة أو خمسمئة مَنٍّ وألف منٍّ»[٨١٠].

وقال واحد من ملازمي حضرة الشيخ، وكان بعض أنبار[٨١١] غلَّته في تصرفه: «إن خرج الغلة يزيد أحيانًا على دخلها، ثم نرى في آخر السنة تبقى غلة كثيرة

٨٠٦ مير عبد الأول، المصدر السابق، ص١٠٦؛ محمد قاضي، المصدر السابق، ورقة: ٣٤أ، ١٤٢ب-١٤٣أ.

٨٠٧ العوامل: الثور والبقر والإبل مما تُستعمل في السقي والحرث.

٨٠٨ رشحات، ص٢٩٥. ذكرت الوثائق التي نُشرِت من قريب في موسكو تحت عنوان: «وثائق سمرقند في القرنين الخامس عشر والسادس عشر» أن المرشد أحرار كان يدير مزارع مساحتها ٣٥ ألف هكتار. وإلى جانب المزارع والمراعي كانت له بساتين، وبيوت، ودكاكين، وطواحين، ومركبات زراعية، وتكيَّات، ومدارس ومساجد. (قدير كوسه- خليل إبراهيم شيمشاك، حلقات الذهب، ص٢٨٣.)

٨٠٩ المن: وِحدة قياس تساوي ٧,٦٩٧ كغ.

٨١٠ رشحات: ص٢٩٥- ٢٩٦.

٨١١ جمع نِبر، وهو بيت التاجر الذي يجمع فيه المتاع والغلال.

في الأنبار، فتكون مشاهدة هذا الحال سببًا لزيادة يقيننا لحضرة الشيخ، فسألت حضرة شيخنا يومًا عن سبب هذا المعنى فقال: (إن أموالنا مهيأة للفقراء وزيادة البركة من خواص الأموال الموصوفة بتلك الصفة)».[٨١٢]

وكان المرشد (رحمه الله) يتبرع بكل ما يرد إليه من تلك المزارع لعلماء المدارس الدينية وطلَّابها، والصوفيين في التكايا والزوايا والمساجد، ولابن السبيل، وللأوقاف التي يستفيد منها أصحاب الحاجة.[٨١٣]

الأساسُ الاحتياطُ في الأكل

يقول مولانا زاده وهو من كبار أصحاب حضرة الشيخ:

«لما تم أمر الطبخ وحضر الطعام في السفرة قال حضرة شيخنا: (قد طُبِخَ هذا الطعام من غير احتياط). فتأملنا في ذلك بالمبالغة، فبان بعد التحقيق أن القصور في الاحتياط كان في الحطب. فغضب حضرة الشيخ بعد ذلك غاية الغضب وقال: (إن مداراة الأمر في الغذاء والاحتياط فيه من آكد الواجبات، فإن كل ما يَرِدُ إلى البدن فلا بد من أن يظهر أثره في الظاهر، وما تجدونه من التفرقة وعدم الذوق أكثره من أكل لقمة غير محتاط فيها)».[٨١٤]

مرحَمتُه

أسس عبيد الله أحرار (رحمه الله) كثيرًا من الأوقاف كي يستفيد منها الناس، وكان يدفع أكثر من الضرائب المفروضة عليه كي يخفِّف من حِمل الناس. وعندما فرض حاكم طشقند ميرزا عمر ضرائب أكثر على الناس، أراد الشيخ عبيد الله

٨١٢ رشحات، ص٢٩٦.

٨١٣ شهوفيتش، وثائق سمرقند في القرنَين الخامس عشر والسادس عشر، موسكو ١٩٧٤، ص١٠٧-١٧٤، ٣٣٢.

٨١٤ رشحات، ص٤٤٠-٤٤١.



أحرار أن يخفِّف عنهم سنةً كاملة، فأرسل للحاكم ٢٥٠ ألف دينار ثم أتبعها بـ ٧٠ ألف دينار.[٨١٥]

وعندما هاجر الناس من تركستان إلى طشقند بسبب القحط والمجاعة، كلَّف الشيخ أحرار (رحمه الله) مريده محمد قاضي بإشباع الناس. فكان محمد قاضي (رحمه الله) يذبح كل يوم سبع شياه ويطبخ سبعمئة رغيف خبز، فيوزعها على الفقراء مع البطيخ الأصفر الذي يأتي من القرى. وعندما رأى المرشد أحرار خدمة مريده هذا أثنى عليه بقوله:

«كان شيوخنا يُشغِلون من يتوسَّمون فيهم الخير في المستقبل بالخدمة».[٨١٦]

سعيه لتبليغ الإسلام

لقد أمضى الشيخ عبيد الله أحرار (رحمه الله) عمره يرشد الناس ويخدمهم بالخير. وألَّفَ كتبًا قيِّمة مثل: فقرات، والرسالة الحَوْرائِية، والرسالة الوالدية، وركعات (مراسلات).

وذهب مرة إلى هراة وقابل سلطان ذلك العصر أبا سعيد، وطلب منه أن يرفع عن الناس ضريبة «الدمغة» التجارية التي لم تكن من الدين. فألغى السلطان هذه الضريبة في بخارى وسمرقند، ووعدَ المرشد أن يلغي جميع الضرائب غير الإسلامية في بلاده.[٨١٧]

يقول مولانا برهان الدين وهو من أكابر مريدي حضرة المرشد عبيد الله والمتبحِّرين في علمه:

---

٨١٥ مولانا شيخ، مناقب المرشد عبيد الله أحرار، ورقة: ١٢أ.

٨١٦ الكشمي، نسمات القدس، ص٢٤٤.

٨١٧ مير عبد الأول، المصدر السابق، ص٧٢؛ مولانا شيخ، المصدر السابق، ورقة: ١١أ؛ محمد قاضي، المصدر السابق، روقة: ٦٤ب-٦٥أ.

إن السلطان أحمد [ميرزا] عزم مرة على أن يذهب إلى تركستان في فصل الشتاء وبرودة الهواء، والتمس من حضرة شيخنا أن يذهب معه. فقبل حضرة الشيخ التماسه من غير توقف ورافقه وأخذ معه جمعًا من الموالي، وكنت أنا أيضًا فيهم. فحصلت لحضرة شيخنا وسائر ملازميه في هذا السفر محنةٌ كثيرةٌ من برودة الهواء، فوقع في قلبي مرارًا أنه إن لم يختر حضرة الشيخ هذا السفر لنفسه ما كان للسلطان أحمد مجال المبالغة ويحصل له الآن تشويش كثير وكذلك يحصل لملازميه وخدامه أنواع المحنة والمشقة، وليس له في هذا السفر منفعة ظاهرة وفائدة وعائدة. وكلما نفيت هذا الخاطر عن نفسي لم ينتفِ أصلًا وكنت من قلبي متعرضًا للسلطان أحمد ومغضبًا عليه لإيقاعه حضرة شيخنا وسائر أصحابه في المحنة والتشويش من غير فائدة. ولما نزلنا (شاهرخية) وقعدنا يومين، وقع الصياح والنياح في البلد، وكان سبب ذلك أن أربعة آلاف من كفار مُغل وأربعة آلاف من كفار أوزبك قصدوا (شاهرخية)، وأغاروا على تلك النواحي ونهبوا قصبات كثيرة منها وأخربوها، فالتجأ خواص تلك الولاية وعوامهم دفعة واحدة إلى حضرة شيخنا بالبكاء والتضرع وقالوا: إن السلطان أحمد ليس معه عساكر مستعدة للحرب حتى يقاوم هذه الكفار، فلا يمكن دفع ذلك البلاء من غير التفاتك. وجاءه السلطان أحمد أيضًا بكمال الاضطراب وتمام الاضطرار وتشبث بذيل عنايته وحبل حمايته، فخرج حضرة شيخنا مع جماعة من الموالي، وجاء عسكر الكفار، وجالس الخان وأعيان العساكر وانعقدت بينهم صحبة عالية، وسخر كلهم في أثناء الصحبة، وحصل لهم تأثر قوي حتى رمى كل من كان في هذا المجلس أصنامهم من أعناقهم إلى الصحراء وآمنوا عن آخرهم على يده. ودلَّ كلهم قومهم على الإيمان، فتشرَّف جميع من في أولئك العسكر والجمعية من الرجال والنسوان والكبار والصغار بشرف الإيمان والإسلام ووهبوا لحضرة شيخنا جميع من أسروه من تلك النواحي من الولدان والبنات والأحرار والعبيد، وكان كلهم زهاء ألفين، ووهبوا له أيضًا جميع ما نهبوه من الأموال والمواشي

مقدار عشرة آلاف من الإبل والخيل والبقر والغنم. فأرسل الأسارى إلى أوطانهم مع أموالهم ومواشيهم وضمَّ إلى هذا العسكر شخصين من خدامه، أحدهما قارئ لتعليم القرآن، والآخر فقيه لتعليم أحكام الشريعة ومعالم الإسلام. ثم قَفَلَ إلى (شاهرخية) واستأذن السلطان أحمد وتوجه إلى سمرقند.

قال مولانا برهان الدين راوي هذه الواقعة: لما سار حضرة شيخنا مرحلة من (شاهرخية) قال في أثناء الطريق متوجهًا إلى الفقير: يا مولانا برهان الدين نحن إنما نختار مشقة السفر ومحنته لأنفسنا لأمثال هذه الأمور التي شاهدتها.[٨١٨]

أصول التربية

يوضِّح عبيد الله أحرار (رحمه الله) ضرورة بذل الجهد من أجل الترقي المعنوي فيقول:

«يصل السالك بسبب الاشتغال بالذكر بالجِد والاهتمام في مدة خمسة أو ستة أيام إلى مرتبة يخيل له جميع أقوال الناس وأصوات المخلوقات ذِكرًا، بل يخيل له كلام نفسه أيضًا ذكرًا، لكن لا يحصل ذلك بدون سعي واهتمام».[٨١٩]

ولما أذِنَ حضرة الشيخ لدرويش بالرجوع إلى خراسان، قال:

«لما فارقت صحبة المرشد علاء الدين الغجدواني عليه الرحمة قال لي: قدِّر في نفسك موضعًا لئلا تغفل عن نسبتك إلى هذا الموضع، مثلًا: إذا بلغت هذا الموضع المقدَّر قدِّرْ موضعًا آخر، واثبت نفسك في النسبة إلى أن تصل فيه، وهذا من موضع إلى موضع، ومنزل إلى منزل حتى تحصل لك الملكة فيها».[٨٢٠]

---

٨١٨ رشحات، ص٤٢٣-٤٢٥.

٨١٩ رشحات، ص٦٠.

٨٢٠ رشحات، ص٣٣٠.



يقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«إذا لم تحصل ملكة حضور القلب في حال صحة المزاج، فكسب الجمعية والحضور حال المرض الذي هو وقت ضعف جميع قوى الدماغ والطبيعة وشروعها في الانحطاط والفتور في غاية التعذر».[٨٢١]

«المحاسبة هي أن نحاسب كل ساعة تمر بنا، فننظر ما الغفلة وما الحضور! فإن كان عملنا في تلك الساعة نقصانًا كله نرجع ونأخذ العمل من الابتداء».[٨٢٢]

وبيَّن عبيد الله أحرار (رحمه الله) لزوم تأسيس طريق المعنوية على «**المحبة**» إذ قال:

كان لمسجد النبي r أبواب صغيرة من كل جانب، فأمر النبي r في مرضه الأخير بسدِّها كلها غير خوخة أبي بكر t ... ففعلوا.

ولأرباب التحقيق كلام في هذا الباب، وهو أنه كان لسيدنا أبي بكر t كمال النسبة الحُبيَّة برسول الله r ، فأشار النبي r في هذا الحديث إلى أن جميع النسب والطرق مسدودة في جنب النسبة الحُبيَّة، وما هو موصل إلى المقصود ليس إلا هذه النسبة الحُبيَّة، والرابطة عبارة عن هذه النسبة الحُبيَّة إلى صاحب دولة وسعادة لائق للوساطة بين العبد وبين الله تعالى. وانتساب طريقة أكابر النقشبندية قدَّسَ الله أرواحهم إلى حضرة الصدِّيق t إنما هو من حيثية هذه النسبة، وطريقة هؤلاء الأكابر في الحقيقة هي المحافظة عليها.[٨٢٣]

ولقد ربَّى الشيخ عبيد الله أحرار (رحمه الله) كثيرًا من الأكابر. وكان العالِم الكبير مُلَّا عبد الرحمن الجامي يكنُّ للشيخ محبة عظيمة، وكمال إرادته وإخلاصه

---

٨٢١ رشحات، ص١١٥.

٨٢٢ رشحات، ص٦٣.

٨٢٣ رشحات، ص٣٢٠-٣٢١.



لحضرة الشيخ أحرار ظاهر من مصنفاته المنظومة والمنثورة للخواص والعوام، وواضح لدى جميع الأنام في العالَم، ومن أشهر مؤلفاته مثنويه الذي كتبه تخليدًا للشيخ أحرار واسمه: «**تحفة الأحرار**».[٨٢٤]

وفاته

مرض الشيخ عبيد الله أحرار غرة شهر محرم سنة ٨٩٥ هجرية، وعانى المرض ٨٩ يومًا ثم توفي وعمره ٨٩ سنة. وقد ذكَّر هذا التوافق بين أيام مرضه وسنين حياته طلابَه بالحديث الشريف: «حُمَّى يوم كفارة سنة».

وكان يهتم ليصلِّي الصلاة في أول وقتها اهتمامًا كثيرًا خصوصًا في أيام غلبة الضعف واشتداد مرضه. ولما انتهى به الضعف إلى غايته وقت المغرب من ليلة السبت سلخ[٨٢٥] ربيع الأول،

قال: هل دخل وقت الصلاة؟

قال: نعم، فصلى المغرب بالإيماء.

ولما مضى وقت يسير بعد دخول وقت العشاء، انقطع نَفَسه المبارك وتوجهت روحه إلى جوار رحمة الله[٨٢٦].

فكانت وفاته (رحمه الله) في ٢٩ من ربيع الأول سنة ٨٩٥ هجرية ٢٠ شباط/ فبراير سنة ١٤٩٠م.

ودُفِن في محلة (الخواجة كفشير) في سمرقند[٨٢٧].

---

٨٢٤ رشحات، ص١٩٥-١٩٦.

٨٢٥ سَلْخُ الشهر: آخره.

٨٢٦ رشحات، ص٤٤٩-٤٥٠.

٨٢٧ رشحات، ص٤٥٠.



من حِكَمه

- المقصود من الخلقة الإنسانية التعبد، وخلاصة التعبد وزبدته: الحضور بالله في جميع الأحوال على وجه التضرع والخضوع والابتهال[٨٢٨].
- إن حقيقة العبادة خشوع وخضوع وانكسار وتضرع، وطريق حصولها في القلب شهود عظمة الحق سبحانه، وحصول تلك السعادة موقوف على محبته تعالى. وظهور المحبة موقوف على متابعة سيد المرسلين وسند الأولين والآخرين عليه من الصلوات أتمها ومن التحيات أكملها. والمتابعة موقوفة على العلم بطريق المتابعة، فيلزم ضرورة متابعة العلماء الذين هم ورثة علوم الدين للغرض المذكور، وينبغي أن يُجتَنَب صحبة علماء السوء الذين جعلوا العلم وسيلة إلى معاش دنيوي وسببًا لحصول الجاه. وينبغي أيضًا الاجتناب عن صحبة المتصوفين الذين يركنون إلى الرقص والسماع ويأخذون كل ما يتيسر لهم من غير تحاش، ويأكلون كل ما يجدونه بلا توقف. وينبغي أيضًا الاجتناب عن استماع كلمات توحيدية ومعارف تكون سببًا لنقصان عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن يكون التحصيل لظهور المعارف الحقية التي توقف ظهورها على متابعة سيد المرسلين r .[٨٢٩]
- إن الجوع الكثير والسهر الطويل موجبان لانحراف الدماغ وضَعفه، ومانعان عن إدراك الحقائق والدقائق، ولهذا وقعت أغلاط كثيرة في كشف بعض أهل الرياضات[٨٣٠].

---

٨٢٨ رشحات، ص٣٦٠.

٨٢٩ رشحات، ص٤٣٣-٤٣٤.

٨٣٠ رشحات، ص٣٨٥.



- لو أُعطيت لنا الأحوال والوجد كله ولم يكن في قلوبنا اعتقاد أهل السنة والجماعة، فإننا نرى هذه الأحوال كلها مجرد رذالة. وإن كان جميع العيب والتقصير فينا وكانت قلوبنا معتقدة بإيمان أهل السنة والجماعة فلا بأس في ذلك[٨٣١].
- من اليسير قول: «أنا الحق»؛ ولكن المشكلة في محو «أنا»[٨٣٢].



٨٣١ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص٥٧٨؛ رقم: ١٩٣.

٨٣٢ عبد الغني بن أبي سعيد، رسالة هوفيلغاني، ص١٥٩.

٢٠- محمد الزاهد (رحمه الله)

[توفي سنة ١٥٢٩م]

هو حفيد الشيخ يعقوب الجرخي، وقد أخذ محمد الزاهد (رحمه الله) عن خلفاء الشيخ الجرخي، وكان من أكابر أهل التصوف وعاش سنين طويلة زاهدًا منعزلًا عن الناس.

ثم توجه إلى الشيخ عبيد الله أحرار كي يصحبه وينتفع من مجالسه، وحينما وصل بالقرب من سمرقند استقبله عبيد الله أحرار (رحمه الله) في طريقه، واحترمه واهتم به لكونه حفيد الشيخ يعقوب الجرخي.

وبعد أن صحبه المرشد أحرار، وجد فيه استعدادًا كبيرًا للدخول في طريق التصوف، فقَبِله مريدًا عنده. واستطاع محمد الزاهد (رحمه الله) أن يترقَّى في هذا الطريق واستُخلِف.

ثم عاد إلى بلده وأرشد الناس هناك. وتوفي في ربيع الأول سنة ٩٣٦ هجرية، وقبره اليوم بأوزبكستان في ولاية سرهاندرية في قرية فاهشيفار التابعة لمدينة ألتنصاي. ويُروَى أن له قبرًا قرب العاصمة (دوشمبة).



٢١- الدرويش محمد الأمكنكي (رحمه الله)

[توفي سنة ١٥٦٢م]

هو ابن أخت الشيخ محمد الزاهد (رحمه الله)، من قرية (أمكنه) في مدينة (شهرسبز). وهو من نسل سيدنا عمر t ، وكان يحضر مجالس خاله الشيخ محمد الزاهد ويخدمه، وارتقى في التصوف، فصار خليفته.

وانشغل الدرويش محمد (رحمه الله) بتعليم الطلاب القرآن الكريم وعلوم الدين في القرى أمدًا طويلًا كي يخفي أحواله المعنوية، وكان يحيا حياة بسيطة في تواضع. وقد أدرك الناس بعد سنوات طويلة أنه من أولياء الله وأكابر الطريقة بإشارة من نور الدين محمد الخافي الذي كان من خلفاء الطريقة الكبروية. فزاد تعلق الناس بالدرويش محمد، وبدأت حلقات الصحب تتشكَّل حوله.

وانشغل الدوريش محمد (رحمه الله) بالزراعة وكان يعيش بعمل يده، ويعمل بتقوى وعزيمة كل حين.

وكان مطَّلعًا على علوم المدارس الدينية ويدرس الحديث فيها، وله رسالة في المسائل العميقة في التصوف.

توفي الدرويش محمد (رحمه الله) في محرم سنة ٩٧٠ هجرية، ودُفِن في قرية (أسفيراز) شمالي (أمكنه)، وقبره اليوم في مدينة (كتاب) في منطقة (كاشكادريا) بأوزبكستان.



٢٢- المرشد محمد الإمكنكي (رحمه الله)

[١٥١٢- ١٦٠٠م]

هو ابن الدرويش محمد، وُلِد سنة ٩١٨ هجرية. درس في شبابه في المدارس الدينية في سمرقند وبخارى، وتلقى التربية الصوفية عن أبيه.[٨٣٣] وبعد وفاة أبيه خلفه في إرشاد الناس.

ويُروَى أن حاكم مدينة (شيباني) عبد الله خان (١٥٨٣-١٥٩٨م) رأى في منامه أنه ذهب إلى قصر النبي عليه الصلاة والسلام r . وكان أمام القصر رجل جليل يدخل القصرَ بين الحين والآخر، ويعرض أحوال الناس على رسول الله، ويأتيهم بأخبار منه. ثم أحضر هذا الرجل السيف الذي أرسله رسول الله r وعلَّقه في خاصرة عبد الله خان. فلما استيقظ عبد الله خان شرع يبحث عن الرجل الذي رآه في المنام، ثم علم أنه المرشد الأمكنكي. فصار يحترمه ويعظم قدره ويُكثر من زيارته[٨٣٤].

وقد أمضى المرشد جزءًا من حياته في الإرشاد في سمرقند، وكان يُقيم مجالسه الصوفية في المسجد، ويخدم ضيوفه، وينشغل في إعداد الموائد لهم على كِبر سِنِّه.

---

٨٣٣ محمد مراد القازاني، نفائس السانحات، ص٧.

٨٣٤ انظر: بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ورقة: ٢٠٢ب-٢٠٣ب؛ محمد حسن، حالات مشايخ النقشبندية، ص١٢٩؛ محمد نورباهش، تذكرة، ص١٦١-١٦٢.



وقد طلب أحد المريدين يومًا الإذن كي يقرأ بعض الكتب الأدبية في مجالسه، فقال له المرشد:

«إننا نقرأ من كتاب الحديث (مشكاة المصابيح) كل يوم في مجلسنا، ولا جرَم أن ذِكر كلام رسول الله خير من ذِكر كلام غيره».[٨٣٥]

توفي المرشد الأمكنكي (رحمه الله) وعمره ٩٠ عامًا سنة ١٠٠٨ هجرية (١٦٠٠م). ودُفِن في قرية (أمكنه) في مدينة (كتاب) بأوزبكستان[٨٣٦].



٨٣٥ الكشمي، نسمات القدس، ص٣٢٥.

٨٣٦ محمد فضل الله، عمدة المقامات، ص٨٣؛ لاهوري، خزينة الأصفياء، جـ١، ص٦٠٥.



٢٣- محمد الباقي بالله (رحمه الله)

[١٥٦٤- ١٦٠٣م]

وُلِد محمد الباقي بالله في كابول سنة ٩٧١ هجرية[٨٣٧]. وبدأ منذ صغره في أخذ الدروس من شيخه مولانا صادق الحلوائي، ثم ذهب معه إلى سمرقند ودرس في مدارسها الدينية.

وقد انتفع الباقي بالله (رحمه الله) من صحبة كثير من الصوفيين، وتعمق في التصوف وقرأ كتبه، ونال الإجازة من كثير من الطرق. وذات يوم رأى في منامه أنه انتسب إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند، فزادت هذه الرؤيا من اهتمامه بالنقشبندية[٨٣٨]. ثم رأى بعد مدة الشيخ عبيد الله أحرار في منامه يوصيه بالانتساب إلى المرشد محمد الأمكنكي فانتسب إليه[٨٣٩].

وصحبه المرشد (رحمه الله) ثلاثة أيام في خلوة، فوجده قد بلغ الكمال المعنوي، فأجازه، ووصَّاه بالذهاب إلى الهند لإرشاد الناس هناك[٨٤٠].

---

٨٣٧ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ١، ورقة: ٢٠٦ب؛ محمد إكرام، روض الكوثر، لاهور ١٩٩٦، ص١٩١-١٩٢.

٨٣٨ الكشمي، زبدة المقامات، ص١٠؛ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ١، ورقة: ٢١٠أ. واشتهر بالأويسي لانتسابه في هذه الرؤيا.

٨٣٩ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ١، ورقة: ٢٠٨ب-٢٠٩أ.

٨٤٠ الكشمي، المصدر السابق، ص١٤٠-١٤١؛ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣-٤٤؛ محمد مراد القازاني، نفائس السانحات، ص١٢.



ومكث محمد الباقي بالله (رحمه الله) سنةً في لاهور، ثم ذهب إلى حي فيروز أباد في دلهي، وبنى هناك تكيةً أرشد فيها الناس.[٨٤١]

وكان الإمام الرباني السرهندي آنذاك في دلهي، فأوصاه صاحبه مولانا حسن الكشميري بزيارة الشيخ الباقي بالله. فعرف الباقي بالله (رحمه الله) استعداده الكبير، فطلب منه الانتساب إليه وصحبته والبقاء في تكيته مدة، مع أنه لم يكن من دأبه أن يطلب من أحد أن يكون مريدًا له. فقبِل الإمام الرباني هذا الطلب وانتسب إلى النقشبندية.

وبعد مدة أجاز الباقي بالله (رحمه الله) الإمام الرباني في الإرشاد، وبدأ يرشد طلابه إليه، إذ دعا كل واحد منهم فردًا فردًا وودَّعهم، ثم أرسلهم إلى الإمام الرباني[٨٤٢].

فضائله

كان محمد الباقي بالله (رحمه الله) شيخًا يراعي أوامر الإسلام ونواهيه مراعاة عظيمة، وكان كثيرًا ما يتردد على الفقهاء الأتقياء.

ويحذر من الرياء ويسعى لإخفاء كراماته. وكان إذا جاءه مريض يعالجه معنويًا بإذن الله، ويضع كتابًا في الطب بين يديه ويتظاهر أنه يعالج منه كي يخفي كرامته[٨٤٣].

ولمَّا أصابت مجاعة مدينة لاهور، قال لمن يُعدُّ الطعام له: «لا يجوز لنا أكل الطعام والناس يموتون من الجوع» ثم أرسل الطعام إلى الفقراء[٨٤٤].

---

٨٤١ الكشمي، المصدر السابق، ص١٤.

٨٤٢ الكشمي، بركات، ص٣٧٨.

٨٤٣ رشدي، ملفوظات، ص٢٨، ٣١؛ الدهلوي، كلمة الصادقين، ص١٧٩؛ الكشمي، زبدة المقامات، ص١٥، ٢٤-٢٦؛ محمد فضل الله، عمدة المقامات، ص٨٩.

٨٤٤ الكشمي، المصدر السابق، ص١٩-٢١.



يقول الإمام الرباني (رحمه الله):

«كانت تحصل للطلاب في مجالس أستاذنا فوائد عظيمة يصعب علينا أن ننالها بالرياضة والمجاهدة».[٨٤٥]

وكان الباقي بالله (رحمه الله) يقول:

«لا تصحب مَنْ ليس في قلبه رغبة في معرفة الله ولا تصادقه».[٨٤٦]

تواضعه

كان المرشد الباقي بالله (رحمه الله) حينما يسافر من لاهور إلى دلهي ينزل من دابته إن رأى مسكينًا عاجزًا ويجعله يركب بدلًا منه، ثم يغطي وجهه بعمامته كي لا يرى من يعرفه هذا الإيثار، وحينما يقترب من المدينة كان يركب دابته مرة أخرى كي يخفي أحواله.[٨٤٧]

ولم يرَ نفسه أعلى شأنًا من أصحابه ولا حتى من العوام. وكان أحد الشباب يجلس قرب بيته ويشرب الخمر ويرتكب السيئات، فشكى مريده حسام الدين الدهلوي هذا الشاب ذات مرة إلى حاكم المدينة، فحَبَسَه. فلما سمع الباقي بالله ما فعله مريده حزن لذلك، فقال المريد:

«يا شيخي، إنه فاسق لا خير فيه ولا يمكن أن نحصي سيئاته، وكل من حوله يتأذّى منه». فشهق الباقي بالله (رحمه الله) وقال:

«كيف نُعيبُه ونحن لم نرَ أنفسنا خيرًا منه يومًا». ثم رجَا الحاكمَ كي يطلق سراحه، فتاب الشاب وصار من الصالحين.

---

٨٤٥ الإمام الرباني، المكاشفات الغيبية، القسم: ٥.

٨٤٦ موسوعة الأولياء، جـ٨، ص٣٥٩.

٨٤٧ الكشمي، بركات، ص٢٩-٣٠.



لقد كان الباقي بالله في حال انكسار دائم وشعور بالتقصير حتى إنه إذا ما أخطأ أحدٌ من طلَّابه قال:

«إن ذلك انعكاس صفاتنا السيئة، فالشر فينا ينعكس على هؤلاء، إذ ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء!» ثم يرى أحواله ويحاسب نفسه كي يعلم إن كان فيه أي تقصير.

وإن رأى من أحدهم شيئًا يخالف أوامر الدين، لا ينبِّهه مباشرة بالشِّدَّة، بل يوضِّح له الصوابَ باللين، والقصص التمثيلية، والكنايات، والإيماءات، إذ كان يتجنب أن يكسر قلب إنسان. وكان السبب في عدم تحذيره الناس ونصحهم صراحةً أنه لم يكن يرى نفسه أعلى شأنًا من غيره. وكان لا يُساء أحد في مجلسه بلسانه المبارك، وإذا كان في قلب أحد من الحاضرين شعور بالتكبر على مسلم، أحسَّ الباقي بالله (رحمه الله) بذلك فبدأ يبيِّن صفات ذلك المسلم الحسنة ويثني عليه.[٨٤٨]

ولما سمعَ ذات مرة أن بعض الناس يعيبونه، علَّم طالبه الذي نقل إليه الخبر هذا الأصل الجميل:

«إن يتهمنا أحدٌ بالعيب والسوء، ننظر في أنفسنا فورًا، فنجد صفة سيئة، فندرك أن هذه الإشارة نصيحة لنا. وبعد أن أخبرتني وجدت في نفسي قباحة وعيبًا. فالتجأت إلى كرم الله U، وأرجو الله تعالى أن أتخلص منها بإذنه سبحانه»[٨٤٩].

وفاته

لما بلغ محمد الباقي بالله (رحمه الله) الأربعين من عمره اعتلَّ، فصار طلابه وأصحابه يبكون لمَّا رأوه في أيامه الأخيرة يودِّع الناس بنظراته. فكان المرشد الباقي بالله يتبسَّم، وينظر إليهم بِحيرة وكأنه يريد أن يقول لهم:

---

٨٤٨ الكشمي، بركات، ص٣١-٣٢؛ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص١٤٤.

٨٤٩ الكشمي، بركات، ص٦٢.



«أيُّ دراويش أنتم، لا ترضون بالقضاء وتبكون!».

فقال أحد طلبته وفؤاده يحترق:

«يا رب العالمين». فالتفت الشيخ رأسًا بوجهه المبارك إلى تلك الناحية. وقال أحدهم:

«إن حركة شيخنا والتفاتته هذه لشوقه لسماع اسم محبوبه الحقيقي». فامتلأت عيناه المباركتان بتأثير هذا الكلام. ولما اقترب أذان العصر، شرع يقول: «الله، الله...» ثم خرجت روحه الطاهرة».[٨٥٠]

وكان ذلك في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٠١٢ هجرية (٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٦٠٣م) ودُفِن في موقع (قَدَم غاه) في دلهي[٨٥١]. و(قَدَم غاه) موقع يُروى أنَّ أثر قدم رسول الله r وُجِدَ فيه، وكان الشيخ محمد الباقي بالله (رحمه الله) يطلب أن يُدفَن هناك. واليوم يعرف ذلك المكان باسم حيِّ النبي الكريم.[٨٥٢]



---

٨٥٠ الكشمي، بركات، ص٤٣.

٨٥١ رشدي، ملفوظات، ص٦٥؛ الدهلوي، المصدر السابق، ص١٦٢-٣؛ الكشمي، زبدة المقامات، ص٣١-٣٣.

٨٥٢ محمد مراد القازاني، المصدر السابق، ص١٨؛ الكوثري، إرغام المريد، ص٦٩؛ نجدت طوسون، بهاء الدين نقشبند: حياته وآراؤه وطريقته، إسطنبول ٢٠٠٢، ص٢٠٢؛ جباجي أوغلو، «محمد الباقي بالله الكابولي»، أولياء الله، دار شولا للنشر، إسطنبول ١٩٩٥، جـ٨، ص١٩١.



٢٤- الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي (رحمه الله)

[١٥٦٤- ١٦٢٤م]

وُلِد الإمام الرباني (رحمه الله) ببلدة سرهند في الهند في شوال سنة ٩٧١ هجرية، ولُقِّب بالفاروقي لاتصال نسبه بسيدنا عمر t .

وكان أبوه عبد الأحد أفندي مُجازًا في الطريقة الجشتية والقادرية، من أهل العلم والعرفان الذي أتمُّوا علوم الظاهر والباطن، وشيخًا ذا فضائل عظيمة.

بدأ أحمد السرهندي (رحمه الله) التعلم بحفظ القرآن الكريم، وقد حفظه في مدة قصيرة. وأخذ أكثر علمه عن أبيه الفاضل وعن كبار علماء عصره، ثم رحل إلى (سيالكوت) التي كانت مركزًا كبيرًا للعلوم آنذاك. وأخذ العلوم العقلية والنقلية من علماء كثر، واهتم بأخذ علوم التفسير والحديث والفقه. ولما بلغ السابعة عشر من عمره كان عالمًا في علوم الظاهر، ثم رجع إلى أبيه وصار يدرِّس في مدينته. ونال آنذاك إجازة في تدريس التفسير والحديث من القاضي بهلول بداهشاني.[٨٥٣]

وألَّف وهو في سنِّ الثامنة عشر أو العشرين من عمره كتاب (إثبات النبوة) ردًّا على علماء السلاطين الغافلين الذين كانوا معجبين بالفلاسفة ويرونهم أعلى شأنًا من الأنبياء أنفسهم. وأثبت في كتابه أهمية الأنبياء ولزومهم بالدلائل العقلية والنقلية، وله مؤلفات أخرى كثيرة.

---

٨٥٣ الكشمي، البركات الأحمدية، ص١٢٨؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، جـ٢، ص٣١-٣٢.

ثم انتسب بعد مدة إلى أبيه وصار يحضر صُحبَه. وصارت همَّته كلها مركزة على التربية الصوفية. ولم يفارق أباه ولم يذهب إلى مكان آخر كي لا يقصِّر في خدمة أبيه الفاضل حتى توفي سنة ١٠٠٧ هجرية (١٥٩٩م). وقد استخلفه أبوه قبل مدة من وفاته.

ثم رحل الإمام الرباني (رحمه الله) من سرهند للحج في ربيع الآخر سنة ١٠٠٨ هجرية، وكان عمره آنذاك سبعًا وثلاثين سنة. ولما وصل دلهي أوصاه صاحبه بزيارة الشيخ الباقي بالله، فانتسب إليه بعد أن صحبه مدة.[٨٥٤]

ومكث الإمام الرباني (رحمه الله) عند شيخه الباقي بالله شهرين ونصف أو ثلاثة أشهر، ثم رجع إلى بلده لِفوات وقت الحج. وبيَّن في المكتوبات التي كان يرسلها لشيخه الأحوال المعنوية التي عاشها. ثم زاره مرة أخرى بعد مدة، فأجازه الباقي بالله بتعليم الطريقة، وبقي عند شيخه شهرين ثم رجع إلى بلده وشرع يرشد الناس إلى أصول النقشبندية، وشعَرَ في ذلك الوقت بنقص معنوي فأراد الإنزواء، غير أن مريديه أصروا على بقائه فبقي يرشدهم.[٨٥٥]

يقول الإمام الرباني: «إن شيخنا لما حكم لي بالكمال والتكميل أجاز لي بتعليم الطريقة وأحال عليَّ جماعة من الطالبين كان لي في ذلك الوقت تردد في كمالي وتكميلي».

ولما كانت زيارته الثالثة استقبله شيخه في الطريق وأثنى عليه كثيرًا، وطلب منه تربية كثير من مريديه.[٨٥٦]

---

٨٥٤ الكشمي، المصدر السابق، ص١٣٨-١٤٠؛ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٤.

٨٥٥ انظر: الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، رقم: ٢٣٤؛ جـ٢، رقم: ٢٩٠.

٨٥٦ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧-٣٨.



وكان الإمام الرباني يتأدب مع شيخه أدبًا عظيمًا على كثرة فضائله وأحواله المعنوية السامية. وذات مرة أرسل شيخُه إليه طالبًا يدعوه، فلما سمع الإمام الرباني بأن شيخه يدعوه، تغيَّر لونه، وجعل يرتجف ارتجاف مسكين خائف. وكان شيخه يعامله بالمحبة والاحترام العظيم.[٨٥٧]

وبعد وفاة الشيخ الباقي بالله، صار الإمام الرباني الذي داوم على الإرشاد في سرهند يكتب المكتوبات إلى البعيدين عنه من مريدين وحُكَّام.

وكان دأب الإمام الرباني أن يزور قبر شيخه في شهر جمادى الآخرة الشهر الذي توفي فيه، ثم يرجع إلى سرهند.[٨٥٨]

علاقته بالسلاطين

لقد كان السلطان المغولي (أكبر شاه) في بداية حياته مسلمًا متمسِّكًا بدينه من أهل السُّنَّة. ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يُحصِّل العلوم نتيجة الأوضاع السياسية والهجرات المرتبطة بها. فكان ينحرف إلى الأفكار الباطلة بتأثير علماء السوء حوله، فتقربوا إليه وداخلوه من طريق المطايبة والمداهنة، وأوقعوا في الدين المتين تشكيكات، وأظهروا فيه شبهات وأضلوا الأغبياء عن الطريق.[٨٥٩]

٨٥٧ الكشمي، بركات، ص١٤٤، ١٤٨-١٥٢.

٨٥٨ الكشمي، بركات، ص١٤٤.

٨٥٩ انظر: الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٢، ص١١٦، رقم: ٦٧. ويقول الإمام الرباني في مثل هؤلاء العلماء:

«ينبغي لأهل الإسلام أن يعدوا معاونة السلطان وإمداده لازمة لذمتهم، وأن يدلوه على ترويج الشريعة وتقوية الملة، وهذا الإمداد والتقوية يمكن أن يكون باللسان وأن يكون باليد، وأسبق الإمداد باللسان، وأفضله هو تبيين المسائل الشرعية وإظهار العقائد الكلامية على طبق الكتاب والسنة السنية وإجماع الأمة النبوية، لئلا يظهر في البين ضال ومبتدع فيسد الطريق وينجر الأمر إلى الفساد، وهذا القسم من الإمداد مخصوص بعلماء أهل الحق المقبلين على الآخرة، فإن علماء الدنيا الذين همتهم التهافت على متاع الدنيا وجمع حطامها

وقد أعطى (أكبر شاه) الذي حاد عن الصراط المستقيم غيرَ المسلمين وظائف هامة في الدولة، وجعل في حرمه بعض النسوة الهندوس، ووَحَّد بين الإسلام والهندوسية بعد تحريض حاشيته، وأوجد دينًا جديدًا اسمه (الدين الإلهي)، وهدم بعض المساجد وأقام مكانها معابد هندوسية. ثم شرع يأمر الناس بالسجود له احترامًا، ولم يكن في ذلك أي حرج لدى الهندوس، لكن ذلك لم يكن مقبولًا عند المسلمين. أما العلماء الغافلون النفعيون من أهل الدنيا الذين أرادوا التملق للسلطان فقد صاروا يصدرون الفتاوى التي توجز السجود للسلطان بقصد إلقاء التحية لا العبادة.

فذهب الإمام الرباني (رحمه الله) إلى العاصمة آغرا (أكبر آباد) والتقى بعضًا من حاشية السلطان، وقال لهم:

«إن السلطان عاصٍ لله تعالى ولرسوله، فذكِّروه أن سلطنته ستنقسم لا محالة، فَليتُبْ وليتمسَّكْ بدين الله ورسوله».

لكن (أكبر شاه) كان تحت تأثير الدين الذي أوجده ولم يسمع النصائح، وبعد حين أخبره العرَّافون أن سلطنته ستنقسم. فحزن السلطان ورأى رؤيا مخيفة في تلك الأيام.

فأصدر قرارًا يقول فيه:

«من أراد فليتمسك بالإسلام، ومن أراد فليتمسك بالدين الإلهي. لا إكراه بعد اليوم».

صحبتهم سم قاتل وفسادهم فساد متعد.وكل بلاء ظهر في القرن الماضي إنما ظهر بسبب شآمة هؤلاء الجماعة، فإنهم هم الذين أخرجوا السلطان من الطريق الحق، بل ليست فرقة من اثنتين وسبعين فرقة إلا ومقتداهم في اختيار طريق الضلالة هم العلماء السوء، وقلَّ من تتعدى ضلالته إلى الغير ممن اختار الضلالة غير العلماء السوء، وأكثر الجهلاء المتشبهين بالصوفية في هذا الزمان لهم حكم العلماء السوء أيضًا، فإن فسادهم فساد متعد». [الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص٦٣، رقم: ٤٧].



وفي إحدى المهرجانات نصبَ الخيَام، وملأ خيام معتنقي الدين الإلهي بالأقمشة والطعام، وأهملَ خيام المسلمين. فأتى الإمام الرباني والمنسوبون إليه وجلسوا في خيم المسلمين، وأخذ حفنة من التراب في يده ورمى بها تلقاء خيم المنتسبين إلى الدين الإلهي، ثم هبت ريح عاصفة، فعانى (أكبر شاه) وأتباعه أشدَّ المعاناة، بينما لم يصب المسلمين أي مكروه. وبعد هذا التحذير الإلهي الجلي، صار بعض أركان الدولة وقادتها مريدين لدى الإمام الرباني[٨٦٠].

وفي سنة ١٦٠٥م توفي (أكبر شاه) وخلفه ابنه (جيهانغير)، فسُرَّ الإمام الرباني (رحمه الله) بذلك، ذلك أنه كان يرى أنَّ (جِيهانكير) متمسِّك بالإسلام.

وقد أرسل الإمام الرباني كثيرًا من خلفائه إلى مناطق مختلفة للتبليغ والإرشاد، فأرسل مثلًا مير محمد نعمان إلى (دكَّن) بعد أن استخلفه وأجازه، فكان مئات الناس يجتمعون في تكيَّته يذكرون الله تعالى ويراقبونه ويتعلمون فيها. واستخلف الشيخ بديع الدين السهارنبوري وأرسله إلى بلده ثم إلى (آغرا)، فحضر كثير من الحكَّام حلقات الإرشاد، وتاب آلاف الجنود على يدي الإمام الربَّاني.

وقد أرسل الإمام الرباني ٧٠ رجلًا على رأسهم مولانا محمد قاسم إلى تركستان، وأرسل ٤٠ رجلًا على رأسهم مولانا فروخ حسين إلى الجزيرة العربية واليمن والشام والأناضول، وأرسل ١٠ رجال بلغوا الكمال المعنوي وعلى رأسهم مولانا محمد صادق إلى (كاشغر)، وأرسل ٣٠ رجلًا على رأسهم الشيخ أحمد بركي إلى تركستان وبدهشان وخراسان. فكان هؤلاء الرجال يظفرون بنجاح عظيم حيثما حلُّوا، وانتفَعَ كثير من الناس منهم.[٨٦١]

---

٨٦٠ مجددي، الروضة القيومية، جـ١، ص٢٢١-٢٢٧؛ محمد حليم شرقبوري، الإمام الرباني، (ترجمة: علي كنجلي)، قونيا ١٩٧٨، ص٢٩-٣٣.

٨٦١ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٥٦.



وازداد الناسُ حول الإمام الرباني يومًا تلو يوم، حتى إن زيارة الأشراف والحُكَّام للإمام الرباني كانت عسيرة لشدة ازدحام الناس. وفي سنة ١٦١٩م دعا السلطان جيهانغير الإمامَ الرباني إلى العاصمة آغرا بعد أن لم يعجبه التفافُ الناس حول الإمام، فحاسبه على بعض الأقوال الصوفية في مكتوبه، فاقتنع السلطان بعد أن سمع توضيحات الإمام الرباني المعقولة. غير أن بعضًا من حاشية السلطان قالوا له:

«لم يسجد لك الشيخ تحيةً منه، وثمة كثير من مريديه في الجيش. وقد يكون مع مريديه سببًا في فتنة قريبًا، فيُهدِّدون مُلكك، فللشيخ أحمد جنود مريدون كثر، إذا أراد، استطاع بهم أن يكون سلطانًا».

لقد كان وزير السلطان وأكثر خدمه آنذاك يعتنقون مذاهب باطلة، وكانت قلوبهم تمتلأ غيظًا بالإمام الرباني لأنه كان له رسالة ومكتوبات ينتقد فيها المذاهب الخارجة عن الشريعة. وكانوا هم الذين يحرِّضون السلطان.[٨٦٢]

ثم سجنَ جيهانغيرُ الإمامَ الرباني الذي كان عمره آنذاك ٥٥ عامًا في قلعة غوفاليار، وصادَرَ كتبه وبستانه وبئره وداره، ونقل أسرته إلى مكان آخر. ومكث الإمام الرباني في السجن عامًا يعلِّم فيه الناس الإسلام ويرشدهم، وكان وسيلةً لدخول بعضهم في الإسلام.[٨٦٣] وكان يترقَّى معنويًا للمحن التي كابدها في سبيل الله.[٨٦٤]

وندم جيهانغير على ما صنع بعد سنة، وأطلق سراح الإمام الرباني بشرط أن يبقى في الثكنة[٨٦٥].

٨٦٢ بداهشي، مناقب الحضرات، ورقة: ٣٩أ-٤٠ب.

٨٦٣ بداهشي، المصدر السابق، ورقة: ٤١أ؛ محمد مراد القازاني، ترجمة أحوال الإمام الرباني، معرب المكتوبات (الدرر المكنونة النفيسة)، مكة ١٣١٧، جـ١، ص٥٨-٥٩؛ نجدت طورسون، الإمام الرباني أحمد السرهندي، إسطنبول ٢٠٠٥، ص٢٩.

٨٦٤ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، رقم: ٥؛ جـ٣، رقم: ٦.

٨٦٥ بداهشي، المصدر السابق، ورقة: ٤١أ-٤١ب.



وطلب من الإمام الرباني أن يكون مستشارًا له في الأمور الدينية. وبعد أن بحث الإمام الرباني في الموضوع مدةً، وعلم صدق جيهانغير، قَبِلَ طلبه بالشروط التالية:

١- إلغاء تحية السلطان بالسجود.

٢- إعادة بناء جميع المساجد التي هُدِّمَت أو خُرِّبت.

٣- إلغاء الأوامر التي تمنع ذبح الأبقار.

٤- تطبيق النساء والمُفتين والحُكَّام لأحكام الإسلام.

٥- إعادة أخذ الجزية.

٦- إلغاء البدع وتطبيق الأحكام الإسلامية.

٧- إطلاق سراح كل من سُجِن لأسباب دينية.

فنرى من هذه الشروط أنه لم يكن للإمام الرباني أي طلبات خاصة به، إذ كانت غايته الوحيدة أن تُصحَّح المفاسد التي كانت في عهد السلطان السابق، ومنع حدوثها مرة أخرى[٨٦٦].

وقد رأى الإمام الرباني (رحمه الله) في القرب من السلطان فرصةً لحثه على تطبيق أسس الإسلام، فكان يحضر مجالس السلطان فيشرح لهم الموضوعات الدينية، وينصت الحاضرون له[٨٦٧].

وقد انتقد الإمام الرباني (رحمه الله) هذا السلطان لمَّا لم يحرك ساكنًا أمام هدم المساجد في بداية حكمه، غير أنه- ببركة مجالس الإمام الرباني- أمرَ بإنشاء مسجد، وصار يراعي أحكام الإسلام مراعاةً تامة حتى إنه ضحَّى بِعِجل.

---

٨٦٦ خليل إبراهيم شيمشاك، المُجَدِّدِيّة في الدولة العثمانية، إسطنبول ٢٠٠٤، ص٦٦-٦٧.

٨٦٧ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٣١٨، رقم: ٤٣.



ولازم الإمامُ الرباني (رحمه الله) السلطانَ جيهانغير ٤ سنوات، وكان في تلك المدة يرسل المكتوبات لأصحابه. وفي سنة ١٠٣٣هـ أُطلِق سراح الإمام الرباني وعاد إلى سرهند مع أولاده الذين جاؤوا لزيارته، وعاش عامه الأخير في بلده.

مراعاة الشريعة قبل كل شيء

لما رأى الإمام الرباني انتشار البدع والخرافات الكثيرة في حياة المسلمين، بذل جهدًا كبيرًا في سبيل إعادة أحكام الله سبحانه وتعالى إلى حياتهم، فكان يذكُر هذا الأمر كثيرًا في صُحَبه ومكتوباته وكتبه، ويقول في ذلك:

إن للشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص، وما لم يتحقق كل من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة ومتى تحققت الشريعة، فقد تحقق رضا الحق سبحانه وتعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية، ورضوان من الله أكبر، فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ولم يبقَ مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة [والطريقة] والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء الشريعة. والأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف التي تحصل للصوفية في أثناء الطريق ليست من المقاصد بل هي أوهام وخيالات تربى بها أطفال الطريقة، فينبغي أن يجاوز جميع ذلك وأن يصل إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك والجذبة، فإن المقصود من طي منازل الطريقة والحقيقة ليس هو شيء غير تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرضا.[٨٦٨]

وكان الإمام الرباني يبيِّن أنه لا فرق بين الشريعة والتصوف بنقله قول الشيخ بهاء الدين نقشبند:

---

٨٦٨ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٥٠، رقم: ٣٦.



«المقصود من السير والسلوك كون المعرفة الإجمالية تفصيلية والاستدلالية كشفية».[٨٦٩]

فالطريقة إنما هي الوصولُ إلى حقيقة الشريعة، ذلك أنه لا فرق بينها وبين الشريعة والحقيقة[٨٧٠]. والباطن متمم للظاهر ومكمل له[٨٧١]، لذلك لا تجوز الكشوفات المخالفة لظاهر الشريعة وإجماع علماء أهل السنة.[٨٧٢]

وكان الإمام الرباني (رحمه الله) يقول:

«الأحوال المعنوية مرتبطة بالشريعة لا بأحوال الشريعة، فالشريعة سليمة قطعية، وصحَّتها ثابتة بالوحي. أما الأحوال فظنيَّةٌ ثابتة بالكشف والإلهام».[٨٧٣]

«أيها الولد، إن الفرصة غنيمة والصحة والفراغ مغتنمان، فينبغي صرف الأوقات إلى الذكر الإلهي جل شأنه على الدوام، وكل عمل يصدر على وفق الشريعة الغراء فهو داخل في الذكر وإن كان بيعًا وشراءً. فينبغي مراعاة الأحكام الشرعية في جميع الحركات والسكنات لتصير كلها ذكرًا، فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة، ومتى حصلت مراعاة الأوامر والنواهي في جميع الأفعال، فقد تيسرت النجاة من أسر الغفلة عن الآمر بالأوامر والناهي عن المناهي، وحصل دوام ذكره تعالى».[٨٧٤]

«أيها المحب، لا غمَّ إذا لم يطرأ الفتور على شيئين، أحدهما متابعة صاحب الشريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية، والثاني الإخلاص والمحبة

---

٨٦٩ انظر: الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٩٦، رقم: ٨٤.

٨٧٠ الإمام الرباني، المعارف اللدنية، ص٧١. القسم ٢٥.

٨٧١ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص٥٤، رقم: ٤١.

٨٧٢ الإمام الرباني، المكاشفات العينية، ص٢٩.

٨٧٣ الكشمي، المصدر السابق، ص١٩٧-٢١٢؛ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص١٨٢-١٨٨.

٨٧٤ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ2، ص37-38، رقم: 25.



لشيخه، فلو طرأ ألوف من الظلمة مع وجود هذين الأمرين، لا يضر ولا يُخَافُ عليه من الضياع، ولو ظهر النقصان- عياذًا بالله سبحانه- في واحد من هذين الأمرين فخسران في خسران، وإن كان في حضور وجمعية، فإنه استدراج وله سوء العاقبة، ينبغي أن يطلب من الحق سبحانه بالتضرع والابتهال الثبات على هذين الأمرين وأن يسأله سبحانه الاستقامة عليهما فإنهما ملاك الأمر ومدار النجاة».[٨٧٥]

وكان الإمام الرباني (رحمه الله) يوصي بالتوجه إلى التصوف بعد تعلم العلوم الشرعية فيقول:

«[وبعد] تحصيل جناحَي الاعتقاد والعمل إذا كان توفيق الحق رفيقًا ودليلًا، ينبغي سلوك طريقة الصوفية العلية، لا لغرض تحصيل شيء زائد على ذلك الاعتقاد والعمل ونيل أمر جديد سواهما، فإن ذلك من طول الأمل المفضي إلى الزلل، بل المقصود منها حصول اليقين والاطمئنان في المعتقدات بحيث لا تزول بتشكيك مشكك، ولا تبطل بإيراد شبهة، فإن قدم الاستدلال لا ثبات لها، ولا قرار لخزف معمول من طين، والمستدل ليس له تمكين، **(أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)**[٨٧٦]

[والمقصود من سلوك طريق الصوفية] حصول اليسر والسهولة في إتيان الأعمال، وزوال الكسالة والعناد والتعنت الناشئة من النفس الأمارة.

[وليس] المقصود من سلوك طريق الصوفية... مشاهدة الصور والأشكال الغيبية ومعاينة الألوان والأنوار اللاكيفية فإن ذلك داخل في اللهو واللعب، وأي نقصان في الأنوار والصور الحسيَّتَين حتى يتركها شخص ويتمنى الصور والأنوار الغيبيَّتَين بارتكاب الرياضات والمجاهدات، فإن هذه الصور والأنوار

---

٨٧٥ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤١، رقم: ٣٠.

٨٧٦ الرعد: ٢٨.



وتلك الصور والألوان كلها مخلوقة الحق جلَّ وعلا ومن الآيات الدالة على وجوده تعالى». [٨٧٧]

«ينبغي أن يكون متوجهًا إلى الباطن بعد جعل الظاهر محلًّى بإتيان الأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطًا بالغفلة. والتحلي بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متعذر. وظيفة العلماء الافتاء، وشغل أهل الله العمل، والاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد، وأحواله الباطنية استدراجاته، وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وطريق الاستقامة هو هذا». [٨٧٨]

أهل السنة والجماعة

كثُرت الأفكار الفاسدة والتيارات الباطلة في زمن الإمام الرباني، فتزعزَعَت عقيدة أكثر المسلمين، وفسدت عباداتهم ومعاملاتهم. فحزن الإمام الرباني (رحمه الله) لذلك، وبذلَ كل ما استطاع كي يعلِّم الناس منهج أهل السنة والجماعة. وكان يحث المسلمين على تصحيح عقيدتهم لتكون على عقيدة أهل السنة بالمكتوبات التي كتبها دون كلل أو ملل، ويوضِّح لهم العقيدة بكل تفصيلاتها، ويرشد الناس إلى كتب الفقه من أجل تفصيلات العلوم الفقهية.

فكان يرى ضرورة أن ينبِّه المرشدُ مريدَه إلى أن لا يهتم بالكشوفات والرؤى التي تخالف القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ولو قيد أنملة، ووجوب تصحيح عقيدته لتكون كعقيدة أهل السنة، وتعلُّمه الأحكام الفقهية الضرورية له والعمل بها. [٨٧٩]

---

٨٧٧ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٨، رقم: ٢٦٦.

٨٧٨ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٦، رقم: ٨٧.

٨٧٩ الإمام الرباني، المبدأ والمعاد، ص٣٦، القسم: ١٠.



وكان الإمام الرباني يقرأ لمريديه كتبًا من علوم دينية شتى، ويذكِّر دائمًا بضرورة قراءتها في المكتوبات التي يرسلها لخلفائه في المناطق البعيدة، ومن هذه الكتب:

(البيضاوي) في التفسير، و(البخاري) و(مشكاة المصباح) في الحديث، و(البزدوي) و(الهداية) في الفقه، و(شرح المواقف) و(حاشية العضدي) في العقيدة، و(عوارف المعارف) في التصوف.[٨٨٠]

وكان الإمام الرباني (رحمه الله) إن عُرِضَت عليه مسألة فقهية، نظرَ- احتياطًا- في الكتب الثقات التي كانت دائمًا بجانبه، مع أنه كان يعرف المسائل الفقهية، وكان مطَّلعًا على أصول الفقه. وكان يعمل وفقًا لآراء الفقهاء الكبار والرأي الذي يكون له فتوى.[٨٨١]

«والنصيحة التي لا زلت أنصح بها الأصحاب ولا أزال أنصحهم بها إلى انقضاء عمري بعد تصحيح العقائد على وفق ما بُيِّنَ في الكتب الكلامية المخصوصة بأهل السنة والجماعة- شكر الله سعيهم- وبعد إتيان الأحكام الفقهية من الفرض والواجب والسنة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه امتثالًا وانتهاءً، تحصيلُ سلامة القلب عن التعلق بما سوى الحق سبحانه».[٨٨٢]

دقَّته في اتباع السنة الشريفة

كان الإمام الرباني معروفًا بشدة اتباعه لسنة الحبيب r في كل حركاته وسكناته، ويوصي بذلك كلَّ مَنْ يلقاه أو يربِّيه، وكان يقول:

«إن السبب الظاهر والخفي لكل ما يكرمنا به الله من فيض وألطاف، وكل ما يكرمه سبحانه للبشر من جزاء وثواب إنما هو اتباعُ سنة المصطفى r

٨٨٠ بدر الدين السرهندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٨٩.

٨٨١ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص١٨٢.

٨٨٢ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص٣٠٢، رقم: ٢٧٨.



والسيرُ على خطاه، فهو سيد الأولين والآخرين، وقدوة الله للعالمين، وأسوة البشرية إلى يوم الدين، وأما كل شقاء يلقاه الإنسان فسببه خلل في اتباع السُّنَّة، وكذلك أنا فكل توفيقي وسعادتي كان ببركة ذلك التأسي والاتباع، وأذكر أني ذات مرة دخلت الخلاء غافلاً بقدمي اليمنى، فحرمت سائرَ يومي هذا من صفاء روحي»[٨٨٣].

طلب الإمام الرباني من أحد مريديه يومًا أن يحضر بعض زهور القرنفل من الحديقة، فجاءه المريد بست زهرات، فبدت علامات الحزن على الإمام، وقال:

«ما فتئ طلابنا غير مكترثين بحديث سيدنا محمد ﷺ الذي يقول فيه: (إن الله وِتْرٌ يحبُّ الوِتْرَ)[٨٨٤]، من المستحب أن نطبق هذا الحديث في أمورنا كلها، ماذا يفهم الناس من كلمة مستحب؟ المستحب هو الشيء الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، أي إذا ما أُعطيت الدنيا والآخرة كلها للمرء مقابل عمل يحبه الله تعالى، فلا قيمة لهذا العطاء مطلقًا، وبما أننا نتَّبع المستحب بهذا القدْر، فإننا نبدأ بخدِّنا الأيمن قبل الأيسر أثناء غسل وجهنا، لأن المستحبَ التيامن في كل الأعمال»[٨٨٥].

وكتب الإمام الرباني في إحدى رسائله:

«والفضيلة منوطة بمتابعة سنَّته، والمزية مربوطة بإتيان شريعته عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية، والنوم في نصف النهار مثلًا الواقع على وجه هذه المتابعة أفضل من إحياء ألوف من الليالي الواقع على غير وجه المتابعة»[٨٨٦].

٨٨٣ الكِشمي، البركات الأحمدية، ص١٩٧.

٨٨٤ مسلم، الذكر، ٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٨.

٨٨٥ الكشمي، بركات، ص١٩٨؛ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٨٠-١٨١.

٨٨٦ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص١١٧، رقم: ١١٤.



عباداته

كان الإمام الرباني (رحمه الله) يُعظِّم شأن العبادات كثيرًا، ويوصي طلَّابه بكثرة العبادة، ويقول:

«لقد كان رسول الله r يعبد الله كثيرًا حتى تتورم قدماه الشريفتَان مع أنه حبيب الله والواصل إلى أعلى المراتب. وأولياء الله الذين اتبعوه على أفضل صورة تأسَّوا به... وقرب العبد من ربه بمقدار طاعته وعباداته»[887].

وكان الإمام الرباني (رحمه الله) يبيِّن ضرورة رفع شأن النوافل من العبادات– إضافة إلى الفرائض–وأن تكون مغنمًا، وكان يقول موصيًا بصلاة التهجد:

«عليك بصلاة التهجد! فمن أراد أن يكون له نصيب من مقام الشفاعة: المقام المحمود، فلا يتركنَّ صلاة التهجد».

ثم يتلو قوله سبحانه وتعالى:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)[888]. [889]

وكان (رحمه الله) يرى نفسه مقصِّرًا كل حين مع أن حياته كانت مليئة بالأعمال الصالحة والعبادات الفاضلة. وكان يبيِّن ذلك لطلبته بقوله:

«العُجْب يحرق الأعمال الصالحة كما تحرق النار الحطب، والعُجب يُولَد من إعجاب المرء بعمله، فلا بد للتخلص منه أن نضع بين أعيننا عيوبنا المخفية وتقصيرنا، وننظر إلى أعمالنا الصالحة على أنها ناقصة، حتى إنه على المرء أن يستحي من أن يُسمَع عمله وحسناته...».[890]

---

٨٨٧ الكشمي، البركات، ص٢٠١.

٨٨٨ الإسراء: ٧٩.

٨٨٩ الكشمي، البركات، ص٢٩١.

٨٩٠ الكشمي، البركات، ص٢١٧.



أخلاقه الحميدة

كان الإمام الرباني يعظِّم شعائر الدين ورموزه. وذات مرة كان أحد حفظة القرآن يقرأ القرآن الكريم على فراش أدنى من فراشه، فرمى رأسًا بالفراش وجلس على الأرض كي يكون أدنى من حافظ القرآن.[٨٩١]

وكان في قمة التواضع، فأسلوبه في مكتوباته ومؤلفاته تدل بوضوح على تواضعه الكبير، إذ كان يشير إلى نفسه بقوله: «**الفقير**» أو «**الدرويش**».[٨٩٢]

«إنه لا يصدر عني من أعمال الخير إلا أتهم فيه نفسي، بل لا أستريح ولا يستقر قلبي إلى أن أتهم فيه نفسي، وأراني كأنه لم يصدر عني عمل قابل لكتابة مَلَك اليمين، وأعتقد أن صحيفة يميني خالية عن أعمال الخير، كتبتها معطلون من الكتابة، فكيف أكون مستقحًا لقبول الحق جلَّ وعلا، وأعلم أن جميع من في العالم من كفار الإفرنج والزنادقة والملاحدة أفضل مني بوجوه، وشر الجميع أنا».[٨٩٣]

«يريد هذا الفقير أن يلقي نفسه إلى ميدان هدى دولة الإسلام ويجتهد فيه بقدر الإمكان، فبِحُكم: **(مَن كثَّر سواد قوم فهو منهم)**[٨٩٤] يحتمل أن يكون هذا العاجز عديم الاَستطاعة داخلًا في زمرة هؤلاء الجماعة، وإن مَثلي مَثل عجوز جاءت بغزلها في سوق مشتريي يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام لتشتريه به.[٨٩٥]

---

٨٩١ الكشمي، البركات، ص١٩٩.

٨٩٢ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، رقم: ٢٦١.

٨٩٣ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص١٦-١٧، رقم: ١١.

٨٩٤ ابن المبارك، كتاب الزهد، جـ١، ص١٢؛ الزيلعي، نصب الراية، جـ٤، ص٣٤٦؛ العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ص٢٧٤.

٨٩٥ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٦٤، رقم: ٤٧.



وكان الإمام الرباني يطلب من طلابه الذين يكاتبهم الدعاء بحسن الخاتمة من أجل الوصول إلى مرضاة الله تعالى. وقال في إحدى المكتوبات التي أرسلها لولده:

«ارحموا الصغار ورغبوهم في القراءة وارضوا أهل الحقوق من جانبنا مهما أمكن، وكونوا ممدين ومعاونين بدعاء سلامة الإيمان».[٨٩٦]

عجز العقل ولزوم الأنبياء

يرى الإمام الرباني أن الإنسان يعجز عن درك ذات الله وصفاته كما ينبغي بالعقل والإلهام، وعن الوصول إلى المعارف اليقينية، وإدراك الحقائق إدراكًا تامًّا، وبلوغ العلوم التي تفوق إدراكه. فالنتائج التي يصل إليها العقل والإلهام لا تخلو البتة من شبهة وتردد وخطأ ونقصان.

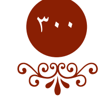
فلا يمكن فهم معنى الحياة والكون بصورة صحيحة ومعرفة الله تعالى كما يليق به إلا بواسطة الأنبياء المنزَّل عليهم الوحي الذي يعد المنبع الوحيد للحقائق المطلقة. فكما أن قدرة العقل وقوة إدراكه، وراء حواسنا- مثل الرؤية والسمع- فكذلك قدرة الأنبياء وصلاحيَّاتهم وراء العقل؛ فالأنبياء وحدهم هم من يوضِّحون طريق تعظيم الله وعبادته وطاعة أوامره ومعرفته.

فلو كان العقل كافيًا في هذا الأمر لما بقى فلاسفة اليونان الذين جعلوا مقتداهم عقولَهم في تيه الضلالة، ولعرفوا الحق سبحانه قبل كل الناس، والحال أن أشد الناس جهالة في ذات الحق وصفاته وسبحانه هم هؤلاء.

وجمع من هذه السفهاء اختاروا طريق الرياضات والمجاهدات من غير التزام طريق الأنبياء عليهم السلام، واغتروا بصفاء أوقاتهم واعتمدوا على مناماتهم وخيالاتهم، وجعلوا كشوفهم الخيالية مقتداهم في سائر حالاتهم،

---

٨٩٦ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٦، رقم: ٢.



ضلوا فأضلُّوا ولم يعلموا أن ذلك الصفاء هو صفاء النفس الذي يفضي إلى طريق الضلالة، لا صفاء القلب الذي هو روزنة الهداية.

وكل شيء يدرك بالكشف والشهود فهو تعالى منزه عن ذلك أيضًا، فإنه لا نصيب للممكن من حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله- تعالى- غير الجهل والحيرة، ينبغي الإيمان بالغيب ونفي ما يكون منكشفًا ومشهودًا بكلمة «لا».

هيهات عنقاء أن يصطاده أحد   فدع عناك وكن من ذاك في دعة.

إن العقل لا يحصل له التجرد التام فتكون القوة الوهمية في عقبه دائمًا، ولا تترك القوة المتخيلة ذيل خياله أصلًا، وتكون القوة الغضبية والشهوية مصاحبتين له في جميع الأزمان، وتكون رذيلة الحرص والشره نديميه في كل أوان، ولا ينفكُّ عنه السهو والنسيان اللذان هما من لوزام نوع الإنسان دائمًا، ولا يفارقه الخطأ والغلط اللذان هما من خواص هذه النشأة أبدًا، فلا يكون العقل إذًا حقيقًا وحريًّا بالاعتماد، ولا تكون الأحكام المأخوذة بواسطته مصونة من سلطان الوهم وتصرف الخيال، ولا محفوظة من شائبة الخطأ ومظنة الخطأ والنسيان».[٨٩٧]

يقول المؤرخ وعالم الاجتماع والعلامة الإسلامي الكبير ابن خلدون في هذا الشأن:

«العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يُدرَك. على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده، ولا يتعدى طوره».[٨٩٨]

---

٨٩٧ انظر: الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٣، ٢٦٩، رقم: ٢٦٦؛ جـ٣، ص٣١-٣٢، رقم: ٢٣؛ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص٢٠٣-٢٠٤، ٢٢٧.

٨٩٨ ابن خلدون، المقدمة، ص٤٧٣.



وتدعي المدارس الفلسفية وما شابهها أنها قادرة على فهم الحقيقة بجهدها دون تبليغ الأنبياء وإرشادهم. غير أن الصواب أن أعظم الحقائق وكبرى اليقينيات محال إدراكها دون وجود هؤلاء الأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده وأكرمهم بالنبوة، فهم أعظم نعمة أنعمها الله على البشر. ولم يستطع البشر ولن يستطيعوا الوصول إلى ذرة من ذلك العلم العظيم الذي أعطاه الأنبياء دون أجر في موضوع ذات الله وصفاته، حتى لو بقوا آلاف السنين يسعون إليه بالأفكار الفلسفية والبحث والتدقيق والمشاهدة وتطهير النفس. **(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)**[٨٩٩] .[٩٠٠]

عظمة كلمة التوحيد

يبيِّن الإمام الرباني (رحمه الله) عظمة كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فيقول:

«(لا إله إلا الله) لا شيء أنفع من هذه الكلمة الطيبة في تسكين غضب الرب جلَّ سلطانه وعلا برهانه، فإذا كانت هذه الكلمة سببًا لتسكين غضب دخول النار، تكون سببًا لتسكين غضبات أُخر بالطريق الأولى...

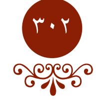
وأجد هذه الكلمة الطيبة مفتاح خزينة تسع وتعسين رحمة، أعني ما جعلت ذخيرة لأجل الآخرة...

فينبغي أن يُعلَم فضيلة هذا الذكر من ههنا حيث لا مقدار لتمام الدنيا في جنبه ولا إحساس. ليت لها حكم القطرة بالنسبة إلى البحر المحيط، وعظمة هذه الكلمة الطيبة باعتبار درجات قائلها، كلما كانت درجة القائل أزيد وأعلى تكون تلك العظمة أكثر وأولى...

---

٨٩٩ يوسف: ٣٨.

٩٠٠ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص٢١١-٢١٢.



ولا يُعلَم في الدنيا تمنٍ يساوي لتمني أن يقعد الإنسان في زاوية ملتذًا ومحتظًّا بتكرار هذه الكلمة الطيبة، ولكن ما نفعل لا يتيسر جميع التمنيات، ولا بد من الغفلة والاختلاط بالخلق». [٩٠١]

ويبيِّن الإمام الرباني (رحمه الله) معنى كلمة التوحيد فيقول:

«المقصود من ذِكر (لا إله إلا الله) محو الآلهة الباطلة الآفاقية والأنفسية؛ أي الظاهرة والباطنة. فالآلهة الآفاقية هي آلهة الكافرين الباطلة مثل اللات والعُزى، أما الآلهة الأنفسية فهي رغبات النفس. يقول الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [٩٠٢] .

ومحو الآلهة الآفاقية كافٍ للإيمان الذي هو تصديق بالقلب والذي كلَّفت الشريعةُ الإنسانَ به. وينبغي تزكية النفس الأمَّارة لمحو الآلهة الأنفسية الباطلة، وذلك غاية دخول طريق أهل الله ونتيجته. ولا بد من محو هذين النوعين من الآلهة الباطلة لبلوغ الإيمان الحقيقي... والإيمان الحقيقي مرتبط بمحو الآلهة الأنفسية». [٩٠٣]

«ينبغي لطالب هذا الطريق بعد تصحيح العقائد بموجب آراء أهل الحق- شكر الله تعالى سعيهم- وبعد تعلم الأحكام الفقهية والعمل بمقتضى العلم أن يصرف جميع أوقاته في ذكر الله جل شأنه بشرط أن يكون ذلك الذكر مأخوذًا من الشيخ الكامل المكمل، فإنه لا يحصل الكامل من الناقص... ويشتغل بالذكر بالوضوء وبغير الوضوء قائمًا وقاعدًا ولا يخلو عنه في مجيئه وذهابه ووقت أكله ونومه». [٩٠٤]

---

٩٠١ الإمام الرباني، جـ٢، ص٥٨، رقم: ٣٧.

٩٠٢ الجاثية: ٢٣.

٩٠٣ المعارف اللدنية، ص٦٩، الفصل: ٢٤.

٩٠٤ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص١٠٨، رقم: ٨٤.



«ومن المعلوم أن الدنيا دار عمل، لا دار فراغ واستراحة، فلا بد أن تجعلوا مساعيكم كلها في العمل، واتركوا الفراغ والتلذذ! وأشغِلوا ألسنتكم بذكر (لا إله إلا الله) كي لا تنطق بغير هذه الكلمة الطيبة إلا عند الضرورة. ولا بد أن يكون الذكر باللسان والقلب بطريق خفيٍّ... وليكن التكاسل والمساهلة من نصيب الأعداء! ولا بد من الأعمال الصالحة والسعي ثم السعي...».(٩٠٥)

«اعلم وتنبَّه أن سعادتك بل سعادة جميع بني آدم وفلاحهم وخلاصهم كل ذلك في ذكر مولاهم جل سلطانه، فينبغي استغراق جميع الأوقات بالذكر الإلهي جلَّ شأنه بقدر الإمكان، وأن لا يجوز الغفلة لحظة واحدة».(٩٠٦)

أهمية الصحبة

كان الإمام الرباني يُذكِّر كثيرًا بأهمية «**الصحبة**» في الطريقة النقشبندية، ويقول:

«وبالجملة إن مدار الإفادة والاستفادة في هذه الطريقة على الصحبة، لا يكتفى فيها بالقول والكتابة. [ولا بد من المعية القلبية معها]»(٩٠٧).

«الفرصة قليلة، وصرفها إلى أهم المهام ضروري، وهو صحبة أرباب الجمعية، لا تعدل بالصحبة شيئًا أيًّا ما كان. ألا ترى أن أصحاب رسول الله r وبارك فُضِّلُوا بالصحبة على من عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام، وإن كان أويسًا قرنيًا أو عمر مروانيًّا مع بلوغهما نهاية الدرجات ووصولهما غاية الكمالات سوى الصحبة...ولو علم أويس فضيلة الصحبة بهذه الخاصية لم يمنعه مانع من الصحبة، وما آثر شيئًا من الأشياء على هذه الفضيلة».(٩٠٨)

---

٩٠٥ الإمام الرباني، المكاشفات الغيبية، القسم: ٢٩.

٩٠٦ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص١٦١، رقم: ١٩٠.

٩٠٧ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٨٧، رقم: ٦٩.

٩٠٨ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص١٢٠، رقم: ١٢٠.



اغتنام الفرصة

كان الإمام الرباني (رحمه الله) يرى في هذه الحياة الدنيوية القصيرة فرصةً، ويوصي طلابه باغتنامها على أفضل صورة، ويقول في أحد مكتوباته:

«أيها الولد الأعز، إن الفرصة مغتنمة فينبغي أن لا يصرف تمام العمر في أمور لا طائل فيها، بل ينبغي أن يصرف تمامه في مراضي الحق جل وعلا...

وبالجملة ينبغي أن يكون مُعرِضًا عن الدنيا ومُقبِلًا على الآخرة، وأن يشتغل بالدنيا بقدر الضرورة، وأن يعمر سائر الأوقات بالاشتغال بأمور الآخرة. وحاصل الكلام هو أنه ينبغي أن يتخلص القلب عن رقية الأغيار والسوى، وأن يكون الظاهر مزينًا ومحلًّى بالأحكام الشرعية».[٩٠٩]

ويقول في مكتوب آخر:

«وقت العمل إنما هو عهد الشباب، والعاقل من لا يضيع هذا الوقت ويغتنم الفرصة، فإن الأمر مبهم فعساه أن لا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعلَّه لا تتيسر له الجمعية [توجيه القلب إلى الله]، ولئن تيسَّرت فلعلَّه لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز. والحال أن أسباب الجمعية كلها متيسرة الآن... والموسم موسم الفرصة وزمان القوة والاستطاعة، فبأي عذر يمكن أن يؤخر شغل اليوم إلى غد ويختار التسويف؟».[٩١٠]

(أخي العزيز! الزمان زمان العمل لا زمان الكلام، لا بد من ربط الفؤاد ظاهرًا وباطنًا بالله تعالى. وينبغي عدم النظر إلى ما سوى الله تعالى دون إذنه، فهذا هو الأصل وما بقي لا شيء».[٩١١]

٩٠٩ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٢، ص٤١-٤٢، رقم: ٣١.

٩١٠ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٨٤، رقم: ٧٣.

٩١١ الإمام الرباني، المكاشفات الغيبية، القسم: ٢٠.



«أيها المخدوم المكرم المشفق، قد تمضي أوقات الاشتغال بالعمل، كلما يمر آن ينقص شيء من العمر ويقرب الأجل المسمى. فلو لم يحصل التنبه اليوم لا يكون نقد الوقت غدًا غير الحسرة والندامة. ينبغي الاهتمام في المعاملة على وفق الشريعة الغراء في هذه الأيام المعدودة حتى تتصور النجاة، وهذا الوقت وقت العمل لا وقت الراحة، فإن الراحة التي هي ثمرة العمل أمامنا، والاستراحة في وقت العمل تضييع للزراعة ومنع لها عن الثمرات».[٩١٢]

ترك النفسانيات

إن ترك الأنا والنفسانية أولُّ شرط في الترقي المعنوي، وما لم يترك المرء النفسانية لا ينال المحبة الإلهية. ويوضِّح الإمام الرباني (رحمه الله) هذه الحقيقة بقوله:

«والقلب لا تتعلق محبته بأكثر من واحد، فما لم يزل التعلق الحبي بذلك الواحد لم يتعلق بما سواه محبته، وما يرى من كثرة مراداته وتعلق محبته بالأشياء المتكثرة كالمال والولد والرياسة والمدح والرفعة عند الناس، فثمة أيضًا لا يكون محبوبه إلا واحدًا وهو نفسه، ومحبة هؤلاء فرع محبته لنفسه، فإن هذه الأشياء لا يريدها إلا لنفسه، لا لأنفسهم، فإذا زالت محبته لنفسه زالت محبتهم بالتبعية أيضًا. فلهذا قيل: (إن الحجاب بين العبد والرب هو نَفْسُ العبد لا العالَم)، فإن العالم في نفسه غير مراد للعبد حتى يكون حجابًا وإنما مراد العبد هو نفسه، فلا جرم يكون الحجاب هو العبد لا غير، فما لم يخلُ العبد عن مراد نفسه كلية، لا يكون الرب مراده ولا يسع قلبه محبته سبحانه وتعالى».[٩١٣]

---

٩١٢ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٣، ص١٣٧، رقم: ٨٩.

٩١٣ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٣٣، رقم: ٢٤.



بعض من نصائحه

«ينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها، وأن يجعل ذلك وسيلة لقطع التعلق عن الأموال والأنعام. وينبغي أن لا يكون حظ النفس ملحوظًا ومنظورًا إليه في أكل الأطعمة اللذيذة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة أن لا ينوى شيئًا غير حصول القوة لأداء الطاعات، وفي لبس الثوب النفيس ينبغي أن ينوى التزين المأمور بقوله تعالى: **(خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)**[٩١٤] أي عند كل صلاة، وأن لا يشوبه نية أخرى، فإن لم تتيسر حقيقة النية ينبغي أن يتكلف فيها، فإن لم تبكوا فتباكوا، وأن يلتجئ ويتضرع إلى الله سبحانه دائمًا لتتيسر حقيقة النية وليتخلص من التكلف».[٩١٥]

«ينغبي [للمرء] أن يسعى في أن يكون المنظور في جميع الأفعال والحركات والسكنات رضا المولى جلَّ سلطانه وأن يعمل بمقتضى شريعته الحقة. ففي هذا الوقت يكون كل من الظاهر والباطن متوجهًا إلى الحق تعالى وذاكرًا له سبحانه، مثلًا إذا اختار العبد النوم الذي هو غفلة من أوله إلى آخره بِنيَّة دفع التكاسل في أداء الطاعة، يكون ذلك النوم بهذه النية عين العبادة، فما دام في ذاك النوم فكأنه في الطاعة لكونه بِنيَة أداء الطاعة، وقد ورد في الخبر: (نوم العلماء عبادة)».[٩١٦]

«ولا ينبغي صرف الأوقات في اللهو واللعب وإتلاف العمر فيما لا يعني، فضلًا عن صرفها في أمور منهي عنها، وإياكم والرغبة في الغناء والنغمة والانخداع بالالتذاذ بها، فإنها سُمٌّ مطلي بالعسل».[٩١٧]

---

٩١٤ الأعراف: ٣١.

٩١٥ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٨١، رقم: ٧٠.

٩١٦ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٦، رقم: ١٧.

٩١٧ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٠، رقم: ٣٤.



«اعلموا أن القلب جار الله سبحانه، وليس شيء أقرب إلى جناب قدسه كالقلب. إياكم وإيذاء أي قلب مؤمنًا كان أو عاصيًا، فإن الجار وإن كان عاصيًا يُحمَى. فاحذروا من ذلك واحذروا، فإنه ليس بعد الكفر ذنبٌ مثل إيذاء القلب، فإنه أقرب ما يصل إليه سبحانه، والخلق كلهم عبيد الله سبحانه»[٩١٨].

وفاته

شعر الإمام الرباني (رحمه الله) بضيق النَفَس قبل بضع شهور من وفاته، وقال لأولاده في أيامه الأخيرة:

«أولادي الأعزاء! لم يبقَ لي أي رغبة أو ارتباط بهذه الدنيا، ولا شيء في فكري إلا عالَم الآخرة. والواضح أن يوم رحيلي قد اقترب».

ثم اختار أن يقطع علاقته بمَن حولَه ويبقى وحيدًا، فلم يكن يخرج إلا للصلوات الخمس والجمعة، وقضى وقته بالذِكر والاستغفار والانشغال ظاهرًا وباطنًا. فكان ذلك تطبيقًا لقول الله تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا) [٩١٩]

وكان كثير البكاء لاشتياقه إلى الوصال مع الله تعالى، وما كان ينفك عن قوله: «اللَّهمَّ الرفيقَ الأعلى». ثم مرَّت عليه أيام وجد فيه الصحة، فسكنَ من حوله واطمأنُّوا، غير أنه قال:

«إن ما كنت أشعر به من فيض معنوي في مرضي ما عدت أشعر به في أيام صحتي».

فكان في تلك الأيام يُكثِر من الصدقات والأعمال الصالحة، فلما رأى أحد أصحابه كثرة تصدقه وأعماله الصالحة سأله:

---

٩١٨ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ٣، ص٦٢، رقم: ٤٥.

٩١٩ المزمل: ٨.



«أهيَ لدفع البلاء؟» فقال الإمام: «كلا، بل شوقًا للوصال».

ورآه أولاده يومًا باكيًا، فسألوا عن السبب، فقال:

«أبكي سرورًا بالوصال مع الله تعالى». فقال أولاده:

«ما عدت تُثني علينا وقد كان دأبك الثناء علينا؟»

فقال: «إن محبتي لله تعالى تفوق محبتي لكم!».

وكان في آخر أيامه يوضِّح كرمَ الله تعالى ونعمه التي لا تحصى، ووزَّع ثيابه كلها للمحتاجين.

ولم يترك الجماعة قط حتى في تلك الأيام التي ضعفَت فيها طاقته. وكان كثير الانشغال بالدعاء والذِكر، ولم يترك المراقبة البتة، وما غفل عن أوامر الشريعة والطريقة وقواعدهما ولو لحظة، وظلَّ يتهجد حتى ليلته الأخيرة.

وكان يوصي من حوله بالارتباط بالسُّنة، والحذر من البدع، والمداومة على الذكر والمراقبة، ويقول:

«إن رسول الله r صاحب هذه الشريعة لم يتأخر قيد أنملة عن العمل في سبيل خير هذه الأمة والسعي لإصلاحها انطلاقًا من قوله: **(الدينُ النصحيةُ)**. ولا بد من العمل بما جاء في كتب الدين القيِّمة، فاستنُّوا بِسُنَّة النبي في تكفيني ودفني، ولا تتركوا أي سُنَّة».

وقال لزوجته:

«وكأن ارتحالي إلى الآخرة سيكون قبل ارتحالك! فاجعلي تجهيزي وتكفيني من مهرك!». ذلك أن من أحلِّ المال مهر المرأة.

وكان يحرص على الوضوء دائمًا كي يموت متوضِّئًا. وإذا وُضِعَ في السرير، استنَّ بِسُّنَّة رسول الله r ، فوضع يده اليمنى أسفل خدِّه الأيمن وانشغل بالذكر. وصعدت روحه إلى بارئها وهو يذكر لفظ الجلالة.

فعاش الإمام الرباني (رحمه الله) ثلاثة وستين عامًا وكانت وفاته في ٢٨ من صفر سنة ١٠٣٤هـ (١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٦٢٤م).

وكان الناس يبكون في جنازته، وعلى وجه الإمام الرباني ابتسامة تنيره، وكأن حاله يصفه قول الشاعر:

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

ودُفِن في بلدة سرهند في الهند حيث وُلِد[٩٢٠].

لقد كان الإمام الرباني (رحمه الله) أحد أولياء الله سبحانه وتعالى، ومرشدًا لكثير من الناس في حياته وبعد مماته، وظل اسمه يُذكَر في كل زمان ومكان، وما زالت مؤلفاته (رحمه الله) تُرشِد الناس حتى يومنا هذا.

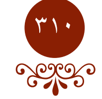
من حِكَمه

- إن محبة الدنيا من العلماء ورغبتهم فيها كلفٌ على وجه جمالهم، وإن كان يحصل منهم فوائد للخلائق لكن لا يكون علمهم نافعًا في حقهم.[٩٢١]
- إن الدنيا مزرعة الآخرة، فويل لمن لم يزرع فيها، وعطّل أرض الاستعداد، وأضاع بذر الأعمال[٩٢٢].
- لا ينبغي المساهلة في إتيان المستحب فإنه محبوب الحق سبحانه ومرضيه تعالى، فإن علم في جميع الدنيا فعل واحد مرضي ومحبوب عند الحق جل

٩٢٠ انظر: الكشمي، البركات، ص٣٠٠-٣١٥؛ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق، ص١٧٤-١٧٩؛ بدر الدين السرهندي، الوصال الأحمدي، كاراتشي ١٣٨٨/ ١٩٦٨، ص٦، ١٢، ٢٦.

٩٢١ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ١، ص٤٧، رقم: ٣٣.

٩٢٢ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٣٢، رقم: ٢٣.



سلطانه وتيسر العمل بمقتضاه ينبغي أن يغتنمه. وحكمه كحكم جواهر نفيسة اشتراها شخص بقطعات خزف[٩٢٣].

- اعلَمْ أن كل آية أو سورة نزلت في حادثة إنما هي تنفع قارئها في ذلك الموضوع، فقراءة آية لها علاقة بتزكية النفس- مثلًا- لها تأثير كبير في تطهير النفس من طباعها السيئة، وكذلك الآيات كلها[٩٢٤].
- في زعم هذا الفقير الأسبقية في تأييد الدين والأقدمية في إنفاق الأموال وبذل الأنفس لنصرة أحكام دين رب العالمين[٩٢٥].
- إن المقصود من الخلقة الإنسانية إنما هو أداء وظائف العبودية، ومن أعطى العشق والمحبة في الوسط والابتداء فالمقصود منه قطع التعلق من غير جناب قدسه جلَّ شأنه. وليس العشق والمحبة من المقاصد، بل هو لحصول مقام العبودية. فإن السالك إنما يكون عبدًا لله تعالى إذا تخلص عن أسر غيره تعالى وعبوديته بالتمام، وليس فائدة العشق سوى أن يكون وسيلة الانقطاع عن غيره سبحانه، ولهذا كانت نهاية مراتب الولاية مقام العبدية، وليس في درجات الولاية مقام فوق مقام العبدية[٩٢٦].
- إن المقصود من خلق الإنسان أداء العبادة المأمور بها، كذلك المقصود من أداء العبادة تحصيل اليقين الذي هو حقيقة الإيمان[٩٢٧].

---

٩٢٣ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٧، رقم: ٢٦٦.

٩٢٤ الإمام الرباني، المكاشفات الغيبية، الفصل: ١١.

٩٢٥ الإمام الرباني، المكتوبات، جـ٢، ص١٥٥-١٥٦، رقم: ٩٩.

٩٢٦ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص٤٠، رقم: ٣٠.

٩٢٧ الإمام الرباني، المصدر السابق، جـ١، ص١٠٢، رقم: ٩٧.

٢٥- محمد المعصوم السرهندي (رحمه الله)

[١٥٩٩ - ١٦٦٨م]

هو الولد الثالث للإمام الرباني، وُلِد سنة ١٠٠٧ هجرية (١٥٩٩م).

لمَّا رأى الإمام الرباني (رحمه الله) في ولده محمد الاستعداد والقدرة على الرشد والإرشاد على صِغر سنه، اعتنى أكثر من غيره بتربيته الظاهرية والمعنوية، وقال له:

«يا ولدي، انْهِ تحصيلك للعلوم الظاهرة بسرعة، فلنا معك أعمال أعظم وأسمى».

وقد حفظ محمد المعصوم القرآن الكريم في صغره، وأنهى العلوم الظاهرة في شبابه، ومع أنه لم يُهمِل إصلاح أحواله المعنوية أثناء تحصيله علوم الظاهر، سعى بكلِّ طاقته نحو التقوى بعد أن أنهى قراءة العلوم الشرعية، وسلك طريق التصوف.

وكان يراعي إرشادات أبيه الفاضل بكل دقة، ولُقِّب بـ «معصوم» لدقَّته الشديدة في الحذر من الذنوب.

وتولى مهمة الإرشاد بعد وفاة أبيه، وانتفع من روحانيات البلاد المباركة وفيوضاتها بذهابه للحج سنة ١٠٦٨ هجرية (١٦٥٨م)، ثم رجع إلى الهند بعد أن أمضى مدة هناك.

وقد لقَّبه العلماء بـ«العروة الوثقى».

وتربَّى على يديه كثير من الطلبة وكان له كثير من الخلفاء، وأرسلَ معظمهم للإرشاد حتى وصلوا إلى بلاد بعيدة. فمن خلفائه الشيخ حبيب الله البخاري



الذي يعد من أكابر مشايخ خراسان وما وراء النهر إذ كان الناس هناك يأخذون من علمه، وأمثاله كثير. وكان الشيخ المعصوم (رحمه الله) يكرم في تكيَّته الفقراء والمساكين صباحَ مساء.

وانتسب إليه السلطان العظيم آنذاك (عالمكير أفرينغزيب) حفيد السطان أكبر شاه، وبلغ الكمال على يد الشيخ سيف الدين بن المعصوم. وقد ربَّى الشيخ سيف الدين (رحمه الله) هذا السلطان حاكمًا على مسلمي الهند، وأعدَّه كي يزيل تمامًا البدع والضلالات التي أوجدها أكبر شاه.

وكان الشيخ محمد المعصوم (رحمه الله) يرسل للسلطان عالمكير المكتوبات، يحثه فيها على الاستقامة دائمًا والجهاد في سبيل الله. فكان السلطان يستجيب لإرشادات شيخه، ويذُبُّ عن الإسلام بعزيمة لا تلين أمام المخاطر الداخلية والخارجية.

وكان المرشد المعصوم (رحمه الله) يرسل المكتوبات المليئة بالعلم والمعرفة والأدب والحكمة لمريديه وبعض المشايخ والحُكَّام. ويوضِّح المسائل الدقيقة التي يُسأل عنها، ويتطرق أحيانًا لكثير من الموضوعات الدقيقة، ويشرح أحيانًا أخرى أفكار أبيه ويوضحها. وقد جمع طلَّابها مكتوباته القيِّمة في ثلاث مجلدات ونشروها.[٩٢٨]

الصلاة والذكر

لقد كان الشيخ محمد المعصوم- كغيره من أولياء الله- يولي الصلاة أهمية عظيمةً، فكان إدراك التكبيرة الأولى مع الإمام أفضل عنده من آلاف

٩٢٨ انظر: الكشمي، بركات، ص٣٤٢-٣٧٠؛ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص١٩٠-١٩١، ٣٩٣-٣٩٤؛ جباجي أوغلو، الإمام الرباني: حركته وتأثيراته، ص١٧٦-١٧٨؛ سليمان كوكو، محمد المعصوم الفاروقي، إسطنبول، بدون تاريخ.



الكرامات والكشوفات. وكان يجد في أداء الصلاة بخشوع وطمأنينة قيمة أعظم من التجليات المعنوية.[٩٢٩] لذلك ذكر في كثير من مكتوباته فضائل الصلاة، وأوصى بأدائها حقَّ الأداء، ففي إحداها قال:

«الصلاة رأس العبادات العظيمة التي تقرِّب العبد من الله تعالى، فهي تحمل وسامًا من الله تعالى ذي القدرة والجلال، ولا يمكن إيجاد القرب في الصلاة في مكان آخر. يقول الله تعالى في الآية الكريمة: **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** [٩٣٠]».

إن الحجب بين العبد وربه تُرفَع في الصلاة، لذلك قيل عن الصلاة أنها: (**معراج المؤمن**). فكلما كان المرء خاشعًا في صلاته، اكتمل معراجه، وذلك منوط بمقدار مراعاة السُّنَّة السَّنيَّة أثناء أداء الصلاة...

وليست الصلاة مجرد حركات نعرفها، فللصلاة حقيقة في عالم الغيب، وهي بذلك أعلى من الحقائق كلها...»[٩٣١].

وكان محمد المعصوم (رحمه الله) يحث أولاده على الذِكر دائمًا ويقول:

«إذا ذَكَرَ العبدُ ربَّه ذكره الله سبحانه، فهو القائل في كتابه العزيز: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾**[٩٣٢]. وكلما داوم العبد على الذكر، داوم الحق تعالى على ذكره. فهل ثمة سعادة أعظم عند العبد من ذكر مولانا الدائم له ونيله من الفيض الإلهي الدائم؟!»[٩٣٣].

---

٩٢٩ محمد المعصوم، المكتوبات، جـ١، ص١١٩، رقم: ١٥٦.

٩٣٠ العلق: ١٩.

٩٣١ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٦٧، رقم: ٢٣٠.

٩٣٢ البقرة: ١٥٢.

٩٣٣ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ٣، ص٨٤، رقم: ١٤٥.



معرفة الله U

يقول محمد المعصوم (رحمه الله):

«من المعلوم أن المقصود من خلق الإنسان معرفة الحق تعالى... والمؤمن إن لم يسعَ في سبيل معرفة الله، ضيَّع كنزًا عظيمًا. وهذا يعني أن ذلك المرء لم يبلغ المقصود من خلقه، ولم يعمل بما كُلِّف به في هذه الحياة، وانشغل بأمور لا طائل وراءها، وسار وراء رغباته النفسانية، وأضاع عمره الذي هو رأسماله، وصرفه في أمور لا تسمن ولا تغني من جوع. فعطَّل ذلك الاستعداد الذي أُكرِم به حين كان من الممكن استعماله للوصول إلى المقصود، ولم يلبِّ الدعوة إلى السعادة الأبدية في عمره القصير. فكيف سيقف غدًا بين يدي الله تعالى حينما يترك هذه الدنيا ويبلغ الآخرة؟! وما حجته لهذه الغفلة الكبيرة والإهمال العظيم؟!

ولا بد أن نعلم جيدًا أن الوصال مع الحق تعالى ألذُّ من نعيم الجنة، والحرمان من النظر إلى جماله سبحانه أكبر خسران. [فالجنة جنَّتان: الجنة التي يُكافئ بها العبد فيدخلها، وجنة النظر إلى جمال الله تعالى].

والدنيا مكان امتحان الآخرة، يأتي إليها الإنسان لِسَفَرٍ مُحدَّد. [يستمر في امتحانه حتى خروج أنفاسه الأخيرة، ثم يبدأ الحياة الأبدية].

يقول ربنا U:

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا)[٩٣٤]

ويُروى أن الإمام القشيري (رحمه الله) رأى شيخه أبا علي الدقاق في منامه بعد وفاته، وهو حزين يبكي. فسأله الإمام القشيري (رحمه الله):

«يا سيدي، لِمَ الاضطراب؟ أم إنك تريد الرجوع مرة أخرى إلى الدنيا؟»

فأجابه أبو علي الدقاق (رحمه الله):

---

٩٣٤ الإسراء: ٧٢.

«نعم، أريد الرجوع إلى الدنيا، لأجول على الخانات كل يوم وأقرع أبوابها وأنبه الناس بقولي:

أيها الناس، إياكم والغفلة عن ربكم الكريم! أَتدرون أنكم تغفلون عن القدرة المطلقة؟!. وأودُّ أن يعلموا من أين أتى الإنسان وإلى أين مصيره».

فما يلزم أمثالنا نحن– الغافلين– أن نجعل أيام عمرنا القيِّمة في سبيل الفوز بهذه المعاني السامية البديعة، وأن نسعى وراء الأصول التي نصل بها إلى معرفة الله في هذه الحياة الفانية، وأن نستمع بكل جوارحنا للصالحين والعارفين في إيضاحاتهم لهذا اللغز العظيم. ولنهرع إلى حيث نجد هذا الفيض. ومهما لم نقدر على نيل هذا الكنز العظيم بالقدر الكافي، فحسبُنا أننا لم نُحرَم من السعي للوصول إليه...

وعلى السالك في سبيل الحق تعالى أن يسعى دون انقطاع، ويجتهد ويشعر بالمسؤولية كل لحظة كي يمضي قُدُمًا في هذا الطريق... فلعلَّ بحر اللطف والإحسان يفيض وينجو العاشق الصادق من هذه الأمواج، وتتساقط قطرات المعرفة على فؤاده، فيبدأ بإدراك الله تعالى بالقلب...

وأرجو من أصحابي الأعزاء أن لا يحرِموا صاحبهم العاجز النائي عنهم من أدعيتهم، ويدعوا له كي ينال المعرفة الإلهية».[٩٣٥]

ويقول محمد المعصوم (رحمه الله) في موضع آخر:

«المعرفة الإلهية أسمى من الكشف والكرامات؛ فالمعرفة كشفٌ للأسرار الإلهية، أما الأحوال الخارقة للعادة والكرامات فكشفٌ لأحوال المخلوقات. والفرق بين المعرفة الإلهية والكرامات كالفرق بين الخالق والمخلوق. والمعرفة

٩٣٥ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٨٧، رقم: ١٠٢.



الصحيحة تعين في إيصال الإيمان إلى الكمال والترقي، أما الكرامات فليست كذلك، فبلوغ الإنسان الكمال لا يرتبط بالكرامات... والذي يطلب الكشفَ والكرامات، يطلب أشياء صغيرة ويكون أسيرًا لها، ويُحرَم من التقرب إلى الله تعالى ومعرفته بالقلب... وإن بات المرء يرى نفسه مختلفًا عن الناس بإظهاره الكرامات، عندها يُجَرُّ إلى الكبر والعُجب، فيُحرَم من فضل العبادة والسير والسلوك، وتُغلَق أمامه سُبل المعرفة».[٩٣٦]

إنَّ عهد الشباب في الحياة أفضل وقت للوصول إلى هذه الغاية السامية، ويقول الشيخ في هذا الشأن:

«يا ولدي، إن أفضل أيام عمرك أيام شبابك، فالأيام التي يكون فيها الإنسان قويًّا سليم الأعضاء، تمضي، ويأتي الوقت الذي يضعف فيه. ويا لتعاسة الإنسان حينما يؤجل السعي وراء معرفة الله التي هي أعظم الربح إلى شيخوخته التي قد لا يبلغها، فتراه يصرف أفضل أوقات عمره في الهوى والنزوات التي هي أرذل الرذائل والمنكرات، ولا تنسَ أبدًا أنه قد (هلك المسوفون)».[٩٣٧]

محبة الله U

ينقل محمد المعصوم (رحمه الله) قول الشيخ يحيى بن معاذ فيقول:

«بِقدر ما تحب الله تعالى يحبك الناس، وبِقدر خوفك من الله يخافك الناس، وبِقدر انشغالك بالله ينشغل الناس بأعمالك.

وإذا سُرَّ المرء باتباعه لأوامر الله تعالى، فإن الكائنات كلها تطلب خدمته بسعادة ورغبة كبيرة. وإذا ذكرَ ربَّه سبحانه وتعالى وتفكَّر وسُرَّ بذلك، فسيجد

٩٣٦ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٥٢، رقم: ٥٠.

٩٣٧ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٦٣، رقم: ٦٥.



الطمأنينة والسعادة حينما ينظر كل شيء إليه. فتوجَّهْ إذًا بكيانك كله إلى المولى Y لا إلى سواه، ولا تشغلك نفسك، ولا تتوكل إلا على فضل الله تعالى».[٩٣٨]

رؤيته عيوبه

على المؤمن رؤية عيوبه بإدراكه عجزه وضعفه كي يكون صاحب تقوى ويؤدي أعماله بصورة مقبولة، فشعار العبودية العجز والنقص. ويوصي محمد المعصوم (رحمه الله) في هذا الشأن فيقول:

«كونوا في عبادة وطاعة، واستغفروا الله لما في عباداتكم من تقصير! وإياكم أن تنظروا إلى أعمالكم على أنها أعمالٌ تليق بالله تعالى، وكان أحد الأكابر يقول: (اعمل واستغفر)، فهذا هو طريق العبودية عندنا».[٩٣٩]

«إنَّ رؤية الإنسان نفسَه مقصرًا يزيد من قيمة أعماله وييسِّر قبولها».[٩٤٠]

«إن علَّة ظلم حكامنا سوءُ أعمالنا، وقد قيل: (أعمالكم حُكَّامكم)، فأصلحوا نفوسكم، واسلكوا طريق الورع والتقوى.[٩٤١]

وفاته

لما أدرك الشيخ محمد المعصوم قرب وفاته، شمَّر للإعداد للرحلة تلقاء الآخرة، فكفَّ عن كل الأمور الدنيوية. وكان يدعو الله تعالى دائمًا أن يحشره مع أنبيائه وأوليائه. وقسَّم بالقُرعَة مكتبته القيِّمة التي كان يحبها على أولاده وأحبابه وطلابه المخلصين والذين رآهم أهلًا لها.

---

٩٣٨ محمد المعصوم، المكتوبات، جـ٢، ص٨٢، رقم: ١١٠.

٩٣٩ محمد المعصوم، المكتوبات، جـ١، ص٨٣، رقم: ٩٢.

٩٤٠ محمد المعصوم، المكتوبات، جـ٣، ص١٠٣، رقم: ٢٢٥.

٩٤١ محمد المعصوم، المكتوبات، جـ٣، ص٢٦، رقم: ٣٤.



وذات مرة كان يدرِّس طلابه الحديث فأحسَّ بألم شديد في قدمه، وانتقل هذا الألم بعد ذلك إلى ركبتيه وجميع بدنه، غير أنه لم يكن يُشعِر الآخرين بألمه، وكان غالبًا ما يجد في تلاوة القرآن الكريم سلوى له حين يشتد ألمه، ويحرص على أداء الصلاة في جماعة، ويقول في أكثر المكتوبات التي أرسلها آنذاك:

«إن الفقير محمد المعصوم راحل من هذه الدنيا، فأعينوه بأدعيتكم كي تخرج أنفاسه الأخيرة وهو على إيمان».

وكان آخر كلامه قبل وفاته: «السلام عليكم». وتوفي (رحمه الله) في ٩ ربيع الأول سنة ١٠٧٩ هجرية (١٦٦٨م). ودُفِن في سرهند، وبنى السلطان عالمكير فوق قبره مقامًا بقُبَّة عالية.

من حِكَمه

- الشوق نعمة كبيرة، والأساس هو الشوق والمحبة، فبهما يرتبط الترقي والتقرب من الله تعالى.[٩٤٢]
- لم يخلقك الله تعالى كي تأكل وتشرب وتنام وتعيش في لذة وصفاء في هذه الدنيا، فالحياة الحقيقية والمكان الذي تتنعم فيه الآخرةُ. لقد خُلِقْتَ من أجل الطاعة والعبودية وكي تدرك نفسك.[٩٤٣]
- لقد دعا الله تعالى الناس إليه مع استغنائه عن العالم كله، وأرشدهم إلى الوصال إليه، وفتح هذا الطريق أمامهم لِسِعَة كرمه. وما أشقانا وما أتعسنا إذا بقينا بعيدين عن الجمال الإلهي ومحجوبين عنه، ولم نتخلص من قبضة النفس والهوى مع وجود هذه الدعوة والهداية.[٩٤٤]

---

٩٤٢ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ٣، ص٦٦، رقم: ١١٩.

٩٤٣ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ٣، ص٣٢، رقم: ٤٥.

٩٤٤ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ٣، ص١٠٣، رقم: ١٩١.



- إن لذة الطاعة والخضوع لأوامر الحق تعالى الذي نلتجئ إليه أفضلُ من لذة المحرمات، ولا يمكن أن يكون هناك نعمة تعادل نعمة رضا مولانا U عن العبد وأعماله، فهو الذي يُكرمنا بالنعم كلها. ولا ألم أشد من ألم البقاء بعيدًا عن رضاه سبحانه وتعالى.(٩٤٥)
- إن طلب المرء إشباع رغباته النفسانية يعني تركه رضا المولى Y .(٩٤٦)
- لقد ظل عطار الشبلي (رحمه الله) يبكي أربعين سنة، ولم يرفع رأسه وينظر إلى السماء، وعندما سُئِلَ عن سبب بكائه، قال:

  «أبكي خشية من القبر ولعظمة يوم القيامة». ولما سُئِلَ عن عدم نظره إلى السماء قال:

  «إني لأستحي من ذنوبي، لقد ارتكبت الذنوب الكثيرة وضحكت كثيرًا وقهقهت في المجالس، فلا أنظر إلى السماء استحياءً من ذلك».(٩٤٧)
- إن العمر أيام معدودة، لكن بها ينال المرء الملك الأبدي، فلا ينبغي لإخواني الكرام إذًا أن يضيعوا أعمارهم هباءً.(٩٤٨)
- لا يصل إلى الحق تعالى مَنْ حُرِمَ من الأدب.(٩٤٩)
- إن النجاة من ضرر النِعم واللذات الفانية منوطة باستعمالها كما جاء في أوامر الله تعالى ونواهيه. والمرء إن لم يخضع لأحكام الله، تغدو هذه

---

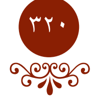
٩٤٥ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٢، رقم: ٢١١.

٩٤٦ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ٣، ص٤٥، رقم: ٦٧.

٩٤٧ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٩، رقم: ١٨.

٩٤٨ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٤٦، رقم: ٣٨.

٩٤٩ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٧، رقم: ١٨٢.



اللذات ضررًا لا قيمة فيها، ويكون الغضب والعقاب الإلهي ثمرتها. والنجاة الحقيقية الابتعاد عن هذه اللذات الفانية قدر الإمكان.[٩٥٠]

- إن الإنسان لا يُسَرُّ بِقِلَّة ماله، مع أن قلة المال تضمن قصر الحساب ويسرَه.[٩٥١]
- لقد ربط الله تعالى أساس النجاة في الآخرة باتباع الشريعة الثابتة قطعيًّا، أما التقرب إليه فقد ربطه باتباع السُنة الشريفة، ويوضح هذا الأمرَ قولُه تعالى في الآية الكريمة:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي)[٩٥٢]

- لا بد من السعي لفعل الخيرات والأعمال الصالحات، فبالغيبة لا يُفتَح أي طريق.[٩٥٣]
- الساعي لنيل الأحوال المعنوية والوجد أسيرٌ لما سوى الله تعالى.[٩٥٤]
- إن الإنسان لا يعيش إلا ظاهر الإسلام ما لم يبلغ مقام النفس المطمئنة، فهو مثلًا حينما يصلي أو يصوم، يؤدي ظاهر العبادة فقط. أما حينما يبلغ مقام النفس المطمئنة، يرتقي إلى حقيقة الدين، ويحيا حقيقة الإيمان والصلاة والصوم والحج والزكاة والأوامر الأخرى.[٩٥٥]

---

٩٥٠ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٥١، رقم: ٤٩.

٩٥١ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٤٨، رقم: ٤٢.

٩٥٢ آل عمران: ٣١.

٩٥٣ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص٨٥، رقم:٩٩.

٩٥٤ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٠٣، رقم: ١٢٨.

٩٥٥ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٤١، رقم: ١٨٦.

- إن الأمور المتعلقة بعالَم الأرواح والبرزخ أمور دقيقة ينبغي عدم التكلم فيها بالظن. ولا بد من الإيمان بها كما ثبتت في النصوص الشرعية وتركِ الحديث عن تفاصيلها فهي من علم الله سبحانه وتعالى. فنحن نؤمن بالنعيم والعذاب في القبر لكننا لا نفصِّل في هذا الشأن، لأننا غير مُطالَبين بذلك.[٩٥٦]



٩٥٦ محمد المعصوم، المصدر السابق، جـ١، ص١٣٦، رقم: ١٨٢.

٢٦- محمد سيف الدين السرهندي (رحمه الله)

[١٦٣٩ - ١٦٨٤م]

هو الولد الخامس للشيخ محمد المعصوم، وُلِد في سرهند سنة ١٠٤٩ هجرية (١٦٣٩م).

ولمَّا بلغَ سنَّ التعلم، حفظَ القرآن الكريم أولًا، ثم حصَّل العلوم العقلية والنقلية على يد عمِّه، فتعلَّم الكثير في وقت قصير. أما علوم الباطن فقد نالها بخدمة والده العزيز الذي كان أكبر علماء عصره وبحضور مجالسه.

إرشاده السلطان

كان سلطان ذلك العصر وقادته ورجال دولته يستفيدون من علم الشيخ محمد سيف الدين وفضائله، ويُظهِرون له الاحترام والتبجيل.

وكان الشيخ سيف الدين (رحمه الله) يولي الأمرَ بالمعروف أهميةً عظيمة ويحارب البِدَع. فلمَّا قدِم دلهي من أجل تربية السلطان عالمكير أفرينغزيب (دام حكمه بين سنتَي ١٦٥٨-١٧٠٧م) تربيةً معنويةً بأمرٍ من أبيه الفاضل، رأى رسومات على بوابة المدينة، وكان مما رآه فيلَين هائجَين عليهما مُصارِعَين صنديدَين يحاولان ترويضهما. فلم يدخل الشيخ سيف الدين المدينة قبل محو هذه الرسومات التي كانت رموزًا لمعتقدات باطلة. واستطاع أن يزيل البدع الكثيرة المنتشرة في البلاد بذكرها للسطان في مجالسه، فلم يبلغ الإسلام في الهند القوة التي بلغها في ذلك العصر، وفُضِح أهل البدع ورُفِضوا في كل مكان.

وذات مرة دعاه السلطان إلى بستانه الخاص الذي كان في منتصفه حوض للسباحة في غاية الزينة، وعلى طرف الحوض أشكال لأسماك مصنوعة من



الذهب وأعينها مصنوعة من حجارة كريمة مثل الياقوت والألماس. فلما حضر الشيخ أمام السلطان للجلوس طلب تكسير تلك الهياكل وإبعادها أولًا، فلما أزالوا تلك الأشياء التي لا يُبيحها الإسلام، حضَرَ وجَلَسَ.

وكان السلطان الذي انتفعَ بصحبة ولي الله هذا، يُسرُّ بهذه الأفعال ويشكر الله تعالى قائلًا:

«اللهم الحمد حمدًا كثيرًا أنك جعلت في عهدي عبادًا صالحين مثل هؤلاء».

وكان الشيخ سيف الدين (رحمه الله) يُعلِم أباه بأحوال السلطان المعنوية والمراحل التي بلغها، ويعمل على حسب الإرشادات التي تأتيه من والده[٩٥٧]. وكان يصحب السلطان ويجالسه مدة طويلة، ويقرأ بعض مكتوبات أبيه التي يكون فيها الكلام بليغًا ويوضحها، والسلطان يسمعها كلها بكل صدق ومودة.

لقد سعى الشيخ سيف الدين (رحمه الله) بقربه من السلطان إلى تطبيق الأسس الإسلامية وإحياء السُّنَّة الشريفة، وأرسل المكتوبات حينما كان بعيدًا عن السلطان. ففي كتابه (المكتوبات السَّيفيَّة) التي جمعت مكتوباته كلها ١٨ مكتوبًا للسلطان[٩٥٨].

وكان السلطان يحيي لياليه بالعبادات بإرشاد من شيخه، وأمضى عمره مجاهدًا في سبيل الله تعالى، حتى إنه حفظ القرآن الكريم على كبر سِنِّه.

والسر وراء حُكم السلطان عالمكير لسلطنته ٥٠ عامًا بالعدل إنما هو إطاعته لشيخه بصدق وإخلاص، والجهد الذي بذله في سبيل الله سبحانه وتعالى.

وأراد السلطان الحكم بالعدل بين الناس فأمر بتصنيف الآراء القوية المتفرقة في كتب الفقه الحنفي وتنظيمها كي تكون أساسًا للأحكام والفتاوى. فشكَّل هيئة من أربعين عالمًا، ووضع هؤلاء العلماء كتاب (الفتاوى الهندية) أو (الفتاوى

٩٥٧ انظر مثلاً: محمد المعصوم، المكتوبات، جـ٣، ص١١٥، رقم: ٢٢٠.

٩٥٨ المكتوب: ٢٠، و٢٢، و٢٣، و٢٦، و٣٥، و٣٩، و٥٦، و٥٩، و٦٠، و٦٧، و٧٢، و٧٤، و٧٦، و٨٠، و١٦١، و١٦٤، و١٦٥.



العالمكيرية) بين عامَي ١٦٦٤-١٦٧٢م. فكان السلطان يشرِف بنفسه على مثل هذه الأعمال العلمية، وصرف مبالغ ضخمة من أجل إعداد هذا الكتاب، وبعد تمامه وُضِع للتطبيق في دوائر الدولة بأمرٍ منه.

فضائله

كان الناس يحتشدون دائمًا في حضور الشيخ سيف الدين، حتى إنه لما أراد ابن السلطان محمد أعظم شاه أن يزور الشيخ ويلقى اهتمامه، لم يستطع المرور من بين حشود الناس عند باب الشيخ إلا بعد مشقة، وسقطت عمامته من رأسه، وعَلَقَ ثوبه بشيء هناك، ثم وقف أمام الشيخ بعد عناء ونال من فيوضاته. ثم رجع إلى أبيه السلطان وأخبره بالأمر، فسُرَّ السلطان بذلك وقال:

«الحمد لله أن جعل في بلادي وليًّا كبيرًا لا يستطيع السلاطين وأولادهم الوقوف أمامهم إلا بعد مشقة».

وكان الشيخ سيف الدين (رحمه الله) يحترم إخوته كثيرًا، ويراعي حقوقهم حقَّ المراعاة. وذات مرة دعاه ابن السلطان نفسه، وحضر أحد إخوان الشيخ تلك الدعوة. فلما وُضِع الطعام، أحضر ابن السلطان الإبريق والطست، وأراد أن يسكب الماء على يد الشيخ، فأمسك الشيخ الإبريق من يده، وسكب الماء على يدي أخيه، ثم أعطى الإبريق لابن السلطان فغسل هو والآخرون أيديهم.

لقد كان الشيخ سيف الدين (رحمه الله) من أولياء الله العظام، وكان السلاطين والأمراء ينتظرون واقفين في مجالسهم باحترام، ويتأدبون فلا يجلسون قبله.

وكان قمة في العلوم الظاهرة والباطنة، واشتهر بزهده وتقواه واتباعه السنة الشريفة وكان لقبه (مُحيي السنة).

وقد اهتدى كثير من الكافرين والفاجرين والفاسقين الذين تشرفوا بحضور مجالسه المليئة بالروحانية والفيوضات وتابوا واستغفروا الله تعالى.

وكان كثير من الدراويش يأتون إليه كل يوم كي يستفيدوا منه، وكان يكرمهم جميعًا بالطعام. وكان مريدوه يحظون بالمقامات السامية والكرامات مع وجودهم بين تلك النعم العظيمة. وكان يقول لمن يعجَب من هذا الأمر:

«إن الحياة المليئة بالرياضات والمجاهدات والزهد تجعل صاحبها يحظى بالكرامات، لكن إظهار الكرامات ليس مقصدنا، بل مقصدنا الدوام على الذكر، والتوجه إلى الله، والتمسك بالسنة، ونيل روحانيات وفيوضات أكثر».

توفي الشيخ سيف الدين (رحمه الله) في سنة ١٠٩٦ هجرية وعمره آنذاك ٤٧، ودُفِن في سرهند.[٩٥٩]

من حِكمه

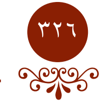
- لو لم يجعل الله تعالى عباده في همٍّ وألم، لغفلوا عن عبادته وذكره. يجب على الإنسان أن لا يتأخر عن العبادة والطّاعة والذكر كي يسعد في الدارَين وتتنزل عليه رحمة الله تعالى، فكل إنسان محتاج إلى رحمته سبحانه. وإذا تفكرنا في هذا الموقف وتدبَّرنا نجد أن الهموم والمصائب نِعمٌ في الأصل وأنها وَهَقٌ[٩٦٠] يوجِّه الإنسان إلى الله U.
- إن هذه الدنيا الوضيعة التي هي عدو قديم لا تدع أحدًا وحده أَكان صاحبًا لها أم عدوًّا، ولا ترأف به. وتخدع كل إنسان وفي النهاية تخونه وتتركه إلى الأبد. والعاقل من يعبد الله تعالى في عمره الذي ليس إلا بضع أيام، ويسير في طريق السعادة الأبدية التي وعده ربه بها.

فها هي السعادة أمامكم... فهلمُّوا إليها تفلحوا.

---

٩٥٩ الكشمي، البركات، ص٤٧٧-٤٧٩؛ سليمان كوكو، محمد المعصوم الفاروقي، ص١٦٩-١٧٢؛ الندوي، الإمام الرباني، ص٣٩٨-٤٠٠؛ الخاني، الحدائق، ص٥٩٣-٥٩٥.

٩٦٠ الوَهَق: الحبل في أَحد طرفيه أُنشوطةٌ يُطْرح في عنق الدَّابة والإِنسان حتى يؤخَذَ.



٢٧- السيد نور محمد البدايوني (رحمه الله)

[توفي سنة ١٧٢٢م]

اشتُهر بلقب (السيد) لنسبه إلى آل بيت رسول الله r ، وعاش في مدينة بدايون في الهند.

أخذ السيد نور محمد (رحمه الله) العلم والفيض من حفيد الإمام الرباني المرشد الكامل محمد سيف الدين، ومن العالم الكبير الحافظ لكتاب الله محمد محسن. وتعلَّم حتى صار عالمًا فذًّا لا يجاريه أحد في زمانه في الصرف والنحو والمنطق والمعاني والتفسير والحديث والتصوف، وكان الناس يسرعون إلى صُحَبه كي يأخذوا عنه العلوم والفيض.

وكان السيد نور (رحمه الله) يتبع أوامر الدين بدقة، ويحذر أشد الحذر من الحرام والمشبَّهات من الأمور، ويأكل قليلًا ويتحرى اللقمة الحلال.

ويحرص على أن تكون بجنبه الكتبُ التي تتناول سيرة النبي r وأخلاقه الحميدة، ويسعى دائمًا إلى اتباع السنة في كل حركاته وسكناته. وذات مرة أدخل قدمه اليمنى قبل اليسرى إلى بيت الخلاء فأصابه القبض المعنوي ثلاثة أيام.

وكان يحذر من الحديث مع الحريصين على الدنيا، وتقوَّسَ ظهره لكثرة عباداته.

وكان طالبه مظهر جان جانان (رحمه الله) إذا ذكره امتلأت عيناه بالدموع وقال: «إنكم لم تبلغوا ما بلغه الشيخ السيد نور، ولو رأيتموه، لتجدَّد إيمانكم، ولقلتم: (ما أعظم قدرة الله تعالى أن خلق مثل هذا الشيخ المبارك)».



وقد كان السيد نور (رحمه الله) في غاية التقى، لذا كان دقيقًا في كلامه وسلوكه. يقول طالبه جان جانان (رحمه الله):

«أمرني شيخي ذات يوم أن أطحن جذور السمسم لتكون علاجًا. فقال لي: (هل رَقَّتْ؟) فقلت: نعم. فأخذها شيخي بيدَيه المباركتَين وقال: (ما رقَّت) ثم نبَّهني فقال: (لا ينبغي الكلام في أمر دون البحث فيه، وإلا كان الكلام كذبًا)».[٩٦١]

وكان يقول:

«لا نهاية للكمال المعنوي، لذا علينا أن نقضي عمرنا المحدود الفاني طالبين هذا الطريق».[٩٦٢]

توفي السيد نور في دلهي سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٢م)، ودُفِن فيها.[٩٦٣]



٩٦١ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٢٥.

٩٦٢ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٢٧.

٩٦٣ غلام سرفر لاهوري، خزينة الأصفياء، كانبور ١٣١٢/١٨٩٤، جـ١، ص٦٥٩-٦٦٠؛ عبد الحي الحسني، الإعلام/ نزهة الخواطر، لكنف ١٤١٣، جـ٦، ص٤٠٦-٤٠٧.



٢٨- مرزا مظهر جان جانان (رحمه الله)

[١٧٠١ - ١٧٨١م]

وُلِد شمس الدين حبيب الله مرزا مظهر جان جانان سنة ١١١٣ هجرية (١٧٠١م) وهو من آل بيت رسول الله r .

وقد اهتمَّ والده بتربيته وتعليمه منذ صغره، وبيَّن له قيمة الوقت وضرورة عدم هدره في أمور لا تنفع منذ أن كان طفلًا، وعلَّمه فنونًا ومهارات كثيرة.

وأخذ جان جانان (رحمه الله) الإجازة في العلوم الإسلامية من علماء زمانه، ودرَّس طلابه علومًا شتى. ونظمَ الشِعرَ الصوفي واستعمل اسم «مظهر» اسمًا مستعارًا له، وله ديوان باللغتَين الفارسية والأُرديَّة.(٩٦٤)

وقد زار بعضًا من أكابر عصره وحضر مجالسهم ولقي حُسن القبول عندهم. وفي شبابه سمع عن حسن سيرة السيد نور محمد وكماله فجاء إليه، فوجده وليًّا يراعي أوامر الدين مراعاة تامة، ويستنُّ بالسنة الشريفة، ويتخلَّق بالأخلاق التي أمر بها الله تعالى، فاكتملت تربيته المعنوية عنده. ثم أجازه شيخه حينما أتمَّ تعليمه.(٩٦٥)

واستمر جان جانان (رحمه الله) يرشد الناس بعد وفاة شيخه، وكانت له تضحيات كثيرة في هذا الطريق.

---

٩٦٤ كانبور ١٢٧١/١٨٥٥.

٩٦٥ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٢٦، إسطنبول ٢٠٠٢.



يقول العالم الكبير شاه ولي الله الدهلوي (رحمه الله) عنه:

«لن تجد في هذا الزمان مثل مرزا جان جانان (رحمه الله) في أي قرية أو مدينة. ومَنْ أراد سلوك مقامات التصوف فليذهب إليه».

وقد ذهب طلبة شاه ولي الله الدهلوي بأمر من شيخهم إلى الشيخ جان جانان وانتسبوا إليه.(٩٦٦)

فكان طالبو الوصال مع الحق تعالى يتوقون إليه ويأتونه من كل حدب وصوب، ويجتمع العلماء والصالحون في تكيَّته طلبًا للفيض الإلهي.

وقد كان لجان جانان (رحمه الله) طلبة وخلفاء كثير، وأرشدهم بالمكتوبات التي كتبها شارحًا لهم المسائل التي سُئِل عنها في الكلام والفقه والتصوف.(٩٦٧)

ومن أقواله:

«من رأى منا شيئًا لا يوافق الأحكام الإسلامية فلينبِّهنا فورًا».(٩٦٨)

وكان يحذِّر طلبته فيقول:

«يجب أن يسعى المؤمن إلى تأدية مهام العبودية، وأن يكون مستعدًا للموت كل حين. وحينما يُبعد المؤمن الرغبات النفسانية كلها عن قلبه، يصبح الموت عنده هدية من الله، فحاله هذه وسيلة الوصال مع الله تعالى ونبيِّه r ».(٩٦٩)

وقد زاد الشيخ جان جانان في العبادات في آخر حياته، وكان يقول:

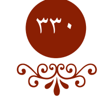
---

٩٦٦ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٣٦.

٩٦٧ جُمِع للشيخ ٨٩ مكتوبًا كتبها باللغة الفارسية بقصد الإرشاد ونُشِرت تحت اسم (الكلمات الطيبات). (دلهي ١٣٠٩/ ١٨٩١). وفي كتاب (المقامات المظهرية) لطالبه عبد الله الدهلوي ثمة للشيخ جان جانان أربعة وعشرون مكتوبًا. وقد تُرجمت كل مكتوباته إلى اللغة الأردية تحت اسم (خطوط مرزا مظهر جان جانان). (الناشر. خليق أنجوم، دلهي ١٩٦٢).

٩٦٨ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٣.

٩٦٩ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٣.



«لقد أكرم الله تعالى – بلطفه وعنايته – هذا العبد الفقير بكل رغباته! ولم يبقَ في قلبي رغبة سوى الشهادة، وقد نال أكثر شيوخي الشهادة...».

وفي شهر محرم سنة ١١٩٥ هجرية (١٧٨١م) طرقَ بعض من قطاع الطرق باب الشيخ في إحدى الليالي، ودخل ثلاثة منهم الدار، فطعنَ أحدهم الشيخ جان جانان بالخنجر، فنودي للطبيب، وشرع الحكَّام يبحثون عن قطَّاع الطرق كي يقتصوا منهم. فقال الشيخ دالًّا على فضيلة نادرة من الفضائل:

«إذا أراد الله تعالى أن تبقى صحتي سليمة، فإن هذا الجرح سيَطيب مهما كان. وإذا أمسكتم بمن طعنني فإني أعفو عنه، فاعفوا أنتم أيضًا!».

ثم توفي بعد ثلاثة أيام.[٩٧٠]

من حِكَمه

- لكل عمل هيئة، والصلاة تجمع كل الهيئات، فهي تتضمن أنوار الذكر كلها مثل تلاوة القرآن الكريم، والتسبيح، والصلوات الشريفة، والاستغفار. وإذا استطاع المرء أن يؤدي آداب الصلاة حقَّ الأداء، حينها سيجد في الصلاة تلك الأحوال الروحانية التي كانت سائدة في عصر الرسول r .[٩٧١]
- إذا ما أمضيت شهر رمضان ذاكرًا ربك، فستظلُّ هذه الحال الجميلة الرائعة في باقي العام؛ أما إذا كان هناك قصور وفتور في هذا الشهر، فسترى أثر ذلك طوال السنة.[٩٧٢]
- الاختلاط بالفاسقين يُشتِّت النور في الفؤاد.[٩٧٣]

٩٧٠ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

٩٧١ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٧٣.

٩٧٢ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٧٣-٧٤.

٩٧٣ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٢٤.



- إن محبة عباد الله المحبوبين والمقبولين عنده سبحانه أقوى أسباب القرب من المولى Y .[974]

- لا بد من محبة أئمة آل البيت وتعظيم الصحابة الكرام واحترامهم، وهذا هو الطريق الصحيح. إن الصراط المستقيم في الآخرة سيظهر على صورة جسر، فمن لم يحد عن الطريق الصحيح في الدنيا، سيمرُّ من الصراط في الآخرة.[975]

- إن سالكي هذا الطريق يخشون أن يتغلغل الكِبر إلى نفوسهم حتى لو قاموا بأعمال كثيرة، فيرون أنفسهم مقصرين، لذلك يستغفرون الله دائمًا. ويرون الذنب الصغير كبيرًا، والنعمة القليلة كثيرة، ويبقون في حال شكر ورضا كل حين.[976]

- من الضروري أن تُستثمر الأوقات كلُّها بأداء الأعمال الظاهرة، فنور الأعمال الصالحة تكون سببًا للطمأنينة والعرفان والذكر الدائم للقلب.[977]

- يحتوي علم الحديث على دقائق التفسير، والفقه، والتصوف، وببركة هذا العلم يزداد نور الإيمان، وبفضله تُؤدَّى الأعمال الصالحة، وتكتمل الأخلاق الحميدة.[978]



---

٩٧٤ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٣.

٩٧٥ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٥.

٩٧٦ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٩.

٩٧٧ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٥٠.

٩٧٨ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٥٢.



٢٩- عبد الله الدهلوي (رحمه الله)

[١٧٤٣ - ١٨٢٤م]

ويُعرف أيضًا باسم «غلام علي»، وُلِد في ولاية بنجاب سنة ١١٥٦ هجرية (١٧٤٣م)، ويرجع نسبه إلى سيدنا علي t .

كان أبوه شاه عبد اللطيف أفندي شيخًا زاهدًا مجاهدًا يتحرَّى اللقمة الحلال، حتى إنه كان يكتفي بالثمار التي تنبت في الأراضي الوعرة.

سافرَ عبد الله الدهلوي (رحمه الله) في شبابه إلى دلهي، وصحبَ الصالحين هناك، وحفظ القرآن الكريم ودرس علوم التفسير والحديث والفقه، ونال الإجازة في رواية الحديث الشريف. وفي شبابه أيضًا قدم إلى تكية الشيخ مظهر جان جانان، فقال له:

«يا ولدي إن طريقنا صعب، فاذهب إلى طريق آخر تجد فيه اللذة المعنوية».

فقال الشيخ الدهلوي: «إني راغب في طريقكم».

فقال الشيخ: «إذن، فليبارك الله تعالى طريقك» وقَبِله طالبًا عنده.

لقد عانى عبد الله الدهلوي (رحمه الله) من صعوبة المعيشة أمدًا طويلًا، حتى إنه أمضى أيامًا ينام على الحصير ويتخذ من الطوب وسادة له، غير أنه بقي متوكِّلًا على الله مُسلِّمًا أمره له سبحانه وتعالى. وتلقَّى من شيخه التربية المعنوية لسنوات طوال، فأجازه شيخه في الإرشاد في نهاية المطاف.



حياة الإرشاد

بدأ عبد الله الدهلوي (رحمه الله) بالإرشاد بعد وفاة شيخه، فدرَّسَ علوم الفقه والحديث والتفسير والتصوف في التكيَّة إلى جانب الذكر والمراقبة. وكان يُكرِم زوَّاره، ويجالسهم مدة قصيرة، ويأذن لهم في الخروج بعد أن يحل مشاكلهم. ويوصيهم بجعل أوقاتهم مخصَّصةً للأمور المهمة، وعدم الانغرار بهذه الدنيا، والسعي كي يكونوا أتقياء أصفياء.

وصار تبليغ الحق والخير طبعًا من طباعه، ولم يخشَ أحدًا في تحذير الناس من الآثام والمحرمات، حتى إنه كتب مكتوبًا ينبِّه فيه السلطان نفسه.

وقد اتَّسعت حلقة إرشاد الشيخ عبد الله الدهلوي (رحمه الله) وهو في حياته حتى انتشر خلفاؤه في أصقاع العالم، فوصلوا إلى أقاصي بلاد الروم، ومن الشام إلى الصين، ومن الشرق إلى الغرب. وكان مئات العلماء والصالحين يأتون إلى صحبه من بلاد بعيدة ويستفيدون منها.

فضائله

كان عبد الله الدهلوي (رحمه الله) يُحيي لياليه بالذكر والعبادة، وحين يغلب عليه النعاس ينام على سجادة الصلاة على جنبه الأيمن. ولم يمدَّ قدميه وهو نائم قط لأدبه العظيم، وكان كثيرًا ما ينام وهو جالس على رُكبَتيه، حتى إنه توفي على هذا الحال من الأدب؛ أي وهو جالس على ركبتيه.

وكان يُكثر من تلاوة القرآن الكريم ويجد لذة عظيمة في الاستماع إليه.

وكان كريمًا يحرص على إخفاء الصدقة، ويحضِّر الأطعمة المختلفة والحلويات ويوزعها على الفقراء صدقةً على أرواح المشايخ العظام لا سيما الشيخ شاه نقشبند.

وكان عندما يبلغ ماله النصاب، يعطي الزكاة قبل أن يحول عليه حول، وينفق الباقي.



وكان رحيمًا بالمسلمين رؤوفًا بهم، يدعو لأمة محمد كثيرًا في الليالي.

ولم يكن في مجالسه كلام لا طائل فيه، وإن أراد أحدهم الغيبة منعه وقال:

«إن هذا الكلام الذي تقوله أنا أحقُّ به».

وذات مرة كان صائمًا فاغتاب من حوله السلطانَ، فقال الشيخ:

«وا أسفاه، ها قد فسد صومي».

ولما قال له طالب: «لكنك لم تغتب يا شيخي».

قال: «نعم لم أغتب لكني استمعت، والمتكلم والسامع في الغيبة سواء».[٩٧٩]

وكان عبد الله الدهلوي (رحمه الله) يغض النظر عن الأخطاء الشخصية، ويحب ستر العيوب. وذات مرة استعار أحدهم كتابًا من الشيخ الدهلوي ثم أراد بيعه للشيخ بعد مدة، فأثنى الدهلوي (رحمه الله) على ذلك الكتاب وابتاعه، فقال أحد طلبته:

«يا شيخي، هذا الكتاب من مكتبتك، وختمُكَ عليه».

فقال الدهلوي:

«لقد كتبَ الكاتب عدة نسخ من هذا الكتاب». فكفَّ عن المسألة، وحفِظ ماء وجه ذاك الرجل.[٩٨٠]

ولم يهتم عبد الله الدهلوي (رحمه الله) بمتاع الدنيا، وكان السلطان ورجال الدولة يتوسلون إلى الشيخ كي يقبل المال الذي يرسلونه إلى التكيَّة من أجل تلبية حاجاتها، غير أنه كان يُرجِع المال بأسلوب لطيف ليِّن.

وكان يحرص على الطهارة والنظافة، ويحب التعطر.

---

٩٧٩ عبد الغني بن أبي سعيد، رسالة هو الغني، ص١٥٢.

٩٨٠ عبد الغني بن أبي سعيد، المصدر السابق، ص١٥١.



تواضعه

يقول الشيخ (رحمه الله):

«إن الاستقامة والصواب في هذا الطريق أن تكون مستغفرًا دائمًا، شاعرًا بالذنب والحياء، صاحب قلب منكسر كل حين»[٩٨١].

ويقول في إحدى مكتوباته المليئة بالعبارات الصادقة النابعة من قلبه المتواضع:

«لقد مضى عُمر هذا الشيخ بالذنوب، واسودَّ دفتر أعماله بالشكوى والغيبة والنميمة، وإيذاء الناس باللسان، وعدم احترام الأكابر، والاعتراض على أحوالهم، والصلوات الكثيرة الخالية من الخشوع والطمأنينة، وتلاوة القرآن بلا ترتيل وتفكر وتدبر، والصوم الذي خالطه المفسدات، والأوقات التي مضت بلا خشية أو ذكر لله تعالى، وتنفُّس الأنفاس بغفلة.

عار وألف عار علينا! لقد أتينا إلى هذا العالَم لنجمع الورود، ولكننا خرجنا منها لا نحمل سوى الأشواك.

عار وألف عار علينا! لقد أُكرمنا بالصحة والعافية والراحة وكثير من الفُرص، لكن مع ذلك قصَّرنا في الشكر علَى هذه النعم كلها.

عار وألف عار علينا! لقد أنعم الله علينا بنعمَتَين عظيمتَين: القرآن الكريم ونبينا r ، ولكننا مع هذا لم نشكر الله كما يليق به، في حين كان أليق النعم بالشكر هاتين النعمتين.

فليحفظنا الله تعالى فإننا في ضلال! وكيف سنُقبَل عند الله ورسوله غدًا يوم القيامة؟ ما بالنا لا نفهم؟ إن نيل الشفاعة والمغفرة بهذه الحال من الغفلة لا يكون إلا برحمة من الله تعالى. والله تعالى يكرمنا مرة أخرى بهذه الفرص بلطفه وكرمه، وإلا فلا عذر لنا بعد اليوم!

---

٩٨١ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٦٥، رقم: ٦٥.



إنَّا لله، الموت فوق رؤوسنا، والساعة اقتربت! وما هي أعمالنا التي ستنفعنا؟ هناك سيدخل العباد الصالحون الجنة، ويتلذذون بنعمها وهم ينظرون إلى جمال الله تعالى، أما نحن الغافلون فإننا سنحاسب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما نعدُّ. فيا ويلنا! ويا ليتنا لم نأتِ إلى هذه الدنيا البتة. فعلينا أن نتفكر اليوم في هذا كله، كي لا نحزن غدًا.

ولنتمسك بالأعمال الصالحة، ولنستيقظ في الأسحار، ولتدمع عيوننا بدموع الندامة. إننا نسمع عن أعمال كثير من المجاهدين من أولياء الله الذين عاشوا قبلنا وعن التضحيات التي قدموها. فاللهم أعطنا الطاقة في سبيل ذلك واجعلنا نستحيي». [٩٨٢]

خدمته

يبيِّن الشيخ عبد الله الدهلوي أهمية الخدمة وفوائدها فيقول:

«من أحبَّ أن يُخدَم، فليخدم شيخه! والخدمة ترفع الإنسان من أدنى المراتب إلى أسمى المقامات، والأدب يرفع الإنسان من الثرى إلى الثريا». [٩٨٣]

«إن الترقي الذي يمر به المريد بالرياضات لا يعادل شيئًا أمام ترقيه بالخدمة حتى بنسبة واحد بالمئة، فعمل سنوات يتيسَّر بالخدمة في لحظة، فالخدمة تجعل المؤمن ينال الألطاف الإلهية». [٩٨٤]

«كان الشيوخ الأكابر في الماضي يكلِّفون طلبتهم بالخدمة، فالخدمة وسيلة للترقي المعنوي والثواب في الآخرة. وقد جاء رجل إلى شيخه وقال: (يا شيخي، مُرني بخدمة). فقال له شيخه: (لقد وُزِّعت الخدمات كلها على

---

٩٨٢ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص١٥٨، رقم: ٩١.

٩٨٣ رؤوف أحمد، درُّ المعارف، ص١٢٤-١٢٥.

٩٨٤ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٦٨.



الطلبة، ولا خدمة الآن لك؛ غير أنك تستطيع أن تجلب بعض الخضروات وما شابهها من الريف).

فظلَّ ذلك الرجل يأتي بالخضروات على رأسه كل يوم. وذات يوم رأى في منامه أن القيامة قد قامت وبدأ الحساب. فكان الناس يمرون ببحر من نار، أما هو فقد رأى نفسه أنه رمى بالخضروات التي كانت على رأسه في النار، ثم جلس عليها ومرَّ فوقها بسلام».[٩٨٥]

محبته لرسول الله r

كان عبد الله الدهلوي (رحمه الله) وليًّا من أولياء الله يمتلئ فؤاده بعشق النبي r . فكلما ذُكِر اسمه r ، فاضت منه مشاعر الاحترام والمحبة والتبجيل، فصار وكأنه في حال أُخرَى. وكان يقول:

«إننا ممن شربوا من شراب المحبة، وما زادَ في محبتنا الأحاديثُ الشريفةُ والصلوات عليه r التي كانت تمنح قلوبنا أنواعًا شتَّى من اللذات».[٩٨٦]

«سبحان الله! حينما نقرأ أحاديث رسول الله r ، تظهر بركات وفيوضات نعجب منها».[٩٨٧]

«حينما يجلس الإنسان منحنيًا يكون شكله كشكل كلمة (محمد)، فيكون الرأس مثل (الميم) والكتفان مثل (الحاء) والظهر مثل (الميم) الأخرى، والرجلان مثل (الدال)».[٩٨٨]

---

٩٨٥ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص١٤٩.

٩٨٦ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٩٤.

٩٨٧ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٨١.

٩٨٨ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٨٤.



بعض من وصاياه

«إنَّ اللغو والغيبة يُذهبان ثواب الصيام، والغيبة وحدها تهدم أجر العبادات كلها، لذلك ينبغي الحذر منها، فما أشدَّها من بلاهة أن يؤدِّي المرء العبادات بالجدِّ والكدِّ ثم يضيِّع ثوابها. إن الأعمال تُعرَض على الله تعالى، فعرضنا الغيبة واللغو بين يدي ربنا لَهوَ سلوكٌ بعيد- أشد البعد- عن الأدب».[٩٨٩]

«من الواجب أن تكون الأفعال في الطريقة، وأحوال القلب، وأعمال البدن موافقة لأوامر الشريعة. ولا بد من الابتعاد عن أهل الغفلة، وحصر الأوقات بالأعمال الصالحة، والتوجه إلى القلب وبالقلب إلى الله تعالى، والذكر، والتهجد، وعدم الغفلة في الأسحار، ونشر المحبة، وقلة الكلام والمنام والطعام، وعدم الجلوس مع الغافلين، والصبر والقناعة والتوكل والتسليم والرضا كل حين. فهكذا تكون أحوال من يسعون لرضا الله تعالى.

وظهور أسرار التوحيد مرتبط بكثرة الذكر، والانشغال بالذكر يزيد المحبة، والمشتاق [لله تعالى] لا يرضى بالوهم والخيال [باللذات الفانية]. وويل لمَن بلغ أرذل العمر ولم يبلغ ما يجب أن يبلغه. وويل لمن يقضي وقته في أمور لا تنفعه».[٩٩٠]

«من الضروري ذكر الله كثيرًا، فالقلب لا ينشرح دون إكثار الذكر، وعلى الإنسان ألا يمضي لحظة من لحظات عمره بغير ذكر وحضور قلب وإدراك حاجته إلى الله تعالى، وينبغي أن يكون ذاكرًا بقلبه ومدركًا أنه تحت نظر ربه حينما يكون مع الناس، وفيوضات الحق تأتي فجأة، لكن إلى القلب الذاكر».[٩٩١]

---

٩٨٩ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص١٠٧، رقم: ٨٥.

٩٩٠ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٣١، رقم: ١٦.

٩٩١ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص١٣٥، رقم: ٩٠.



«يجب اجتناب الأمور التي تُوقِع القلب في الغفلة مثل مجادلة الناس، وذلك طريقُ أهل معرفة الله U»[٩٩٢].

وفاته

كان الشيخ الدهلوي يضع كتاب الترمذي في الحديث على صدره ويقرأه في مرض موته، فإن قرأ حديثًا عن عمل عمله رسول الله عليه الصلاة والسلام، عَمِلَه، حتى إنه كان يسعى لأكل ما كان يأكله رسول الله r .

فلما اشتدَّ مرضه كتب الوصية التالية:

«اذكروا الله دائمًا! ولازموا أولياء الله. وتحلَّوا بالأخلاق الحميدة وعاشروا الناس بالمعروف. واتركوا وساوس (كيف؟ ولماذا؟) في موضوعات القضاء والقدر. واحرصوا على الوحدة مع إخوانكم في الدين. وكونوا في حال من التواضع، والرضا، والتسليم، والتوكل، والتنازل عن الحقوق. واحملوا نعشي إلى الجامع الكبير حيث آثار النبي عليه الصلاة والسلام، واطلبوا الشفاعة لي منه»[٩٩٣].

توفي عبد الله الدهلوي (رحمه الله) سنة ١٢٤٠ هجرية (١٨٢٤م). ودُفِن إلى جنب شيخه الأيمن[٩٩٤].

---

٩٩٢ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص67، رقم: 66.

٩٩٣ موسوعة الأولياء، جـ١، ص٧٦.

٩٩٤ عبد الغني بن أبي سعيد، المصدر السابق، ص١٤٨-١٦٧؛ عبد الحي الحسني، الإعلام/ نزهة الخواطر، جـ٧، ص٣٩٢-٣٩٥.



من حِكمه

- كم من سائر في طريق المحبة خرجت روحه وقلبه يفيض بمحبة الحبيب، واعتزلَ الدارَين وغرق في مشاهدة المحبوب. اللهم أحيني بمحبتك، وخذ روحي بمحبتك، واحشرني بمحبتك.[٩٩٥]
- لا بد من اللين مع مَن تأمره بالمعروف أول مرة.[٩٩٦]
- أربع لا بد منهن في هذا الطريق: يد بعيدة عن الحرام، ورِجل بعيدة عن الحرام، وتمسُّكٌ بالدين، ويقين تام.[٩٩٧]
- ميزان قبول العبد عند الله تعالى اتباعُه لنبيه ﷺ، فإن لم يتبع الناسُ في الطريقة حبيبَ الله ﷺ في اعتقادهم وأخلاقهم وأعمالهم وأحوالهم، فلن تنتشر تلك الطريقة ولن تدوم.[٩٩٨]
- لا قيمة لشيء لا يليق بعصر النبي ﷺ، وكل طريق أو عمل لا يوافق طريق أصحاب رسول الله خطر.[٩٩٩]
- أنَّى لمن يتَّبع رغبات النفس أن يكون عبدًا لله؟!.[١٠٠٠]
- لا ضير في عمل يعمله أهل الله، فهم يتركونه ما إن يسمعوا الأذان ويسارعون للصلاة.[١٠٠١]

---

٩٩٥ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص٢٢.

٩٩٦ عبد الغني بن أبي سعيد، المصدر السابق، ص١٥٣.

٩٩٧ عبد الغني بن أبي سعيد، المصدر السابق، ص١٥٣.

٩٩٨ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٨٨، رقم: ٧٥.

٩٩٩ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٢٢٥، رقم: ١١١.

١٠٠٠ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٢٦؛ عبد الغني بن أبي سعيد، المصدر السابق، ص١٥٦.

١٠٠١ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٣٦.

- الأنا ادعاء الألوهية، ولا يمكن الوصول إلى الله ما لم تقلع جذور الأنا.[١٠٠٢]
- كلُّ كمال يظهر في الأمة بعد رسول الله r إنما هو كماله r أيًّا كان الظاهر منه.[١٠٠٣]
- الدنيا يوم واحد، فلا بد أن نصوم في هذا اليوم. [أي لا بد من تطهير نفوسنا من الذنوب].[١٠٠٤]
- من قال في نصف الليل: «يا رب، يا رب» مرة، تيسَّر له كل عسير، ونالَ ما أرادَ، وقُبِلَ دعاؤه.[١٠٠٥]



١٠٠٢ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص٤٤.

١٠٠٣ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص١٢٦.

١٠٠٤ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص١٤٣.

١٠٠٥ رؤوف أحمد، المصدر السابق، ص١٤٨.

٣٠- مولانا خالد البغدادي (رحمه الله)

[١٧٧٩ - ١٨٢٧م]

مجدد العصر والبحر في علوم الظاهر والباطن، يرجع نسبه من جهة أبيه إلى سيدنا عثمان بن عفان t ، ومن جهة أمه إلى سيدنا علي t . لُقِّبَ بـ«ضياء الدين»، واشتهر أيضًا بـ«العثماني».

وُلِد مولانا خالد البغدادي في (شهرزور) شمالي بغداد، وفي صغره بلغ الدرجات العليا في العلوم العقلية والنقلية لذكائه الحاد وذاكرته القويَّة وإرادته السليمة واجتهاده الكبير.

وتعمق في مجالات عدة حتى إنه درس الحساب والهندسة والفلك، وكان يُجيب عن الأسئلة من كل العلوم، فيقف الناس بِحيرة وإعجاب أمام ذكائه الشديد وعلمه الغزير.

ودرسَ على يد كبار علماء عصره وأخذ الإجازة منهم، فصار أعظم علماء عصره وأشهرهم في التصوف.

وقد قضى مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) عمره في الزهد والتقوى، واطَّلع على أسرار القرآن الكريم. كان عالِم العلماء، ولُقِّب بـ«شمس الشموس». وكان مطلِعًا على أسرار الحقائق، وحقائق الأسرار.

وامتاز (رحمه الله) عن غيره في العلم وهو طالب لمَّا يأخذ الإجازة وجذب انتباه من حوله.



التمس منه عبد الرحمن باشا متصرف السليمانية أن يكون مدرسًا في إحدى المدارس وأن يوظف له وظائف كافية وافية، فامتنع قُدِّس سِرُّه عن ذلك زهدًا عن حطام الدنيا، وقال:

«إني لست من أهل هذا المقام».[1006]

ثم إنه (رحمه الله) تولى بعد الطاعون الذي وقع في السليمانية تدريس مدرسة أستاذه المتوفي بالطاعون. فشرع يدرس العلوم النقلية والعقلية بأنواع فنونها، وانكبَّ عليه الأعلام للاستفادة من كل جانب وصار محطًا لرحال الرجال، ومع ذلك فهو معرض عن الدنيا وأهلها متوجهًا إلى الله تعالى بأنواع العبادة لا يتردد إلى الحُكَّام ولا إلى أحد من أرباب الدنيا، غنيًّا عما سوى الله تعالى. فصار نافذ الكلمة بين الخواص والعوام، محبوب الأنام، محسود الأعلام، مع الصبر على القناعة، والإفادة والطاعة، وهو قُدِّس سِرُّه مع ذلك يرى عليه أثر الجذب والحال ودوام البكاء وتشتت الفكر والبال.[1007]

سفره إلى الحجاز

وفي أثناء ذلك الحال جذبته جذبة روحانية فعزم سنة ١٨٠٥م إلى حج بيت الله تعالى الحرام وزيارة روضة خاتم النبيين وخير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، فقام وترك التدريس وسائر العلائق، وخرج مهاجرًا إلى الله تعالى ورسوله r من طريق بلدة الموصل إلى الشام...

واجتمع بالعالِم الصفي الشيخ مصطفى الكردي القادري المتوطن في الشام، فاستجاز منه أيضًا هضمًا لنفسه، فأجازه بجميع إجازاته الحديثية وبالطريقة العلية القادرية، ثم خرج من الشام حتى وصل إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل

١٠٠٦ إبراهيم فصيح، المجد التالد، ص١٢٥؛ حسن شكور، شمس الشموس، ص٢٠٧، ٢١٩.

١٠٠٧ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٢٥.



الصلاة والسلام، ومدحَ رسول الله r بقصائد فارسية بديعة، ومكث في المدينة مقدار مكث الحُجَّاج فيها.

وكان (رحمه الله) يفتِّش في المدينة عن أحد الصالحين ليتبرك به، فلقي رجلًا عالمًا عاملًا صاحب رياضة واستقامة من أهل اليمن، فطلب منه النصحية كاستنصاح الجاهل من العالِم، فقال له اليمني:

«إذا دخلت مكة- زادها الله تعالى شرفًا- فلا تبادر بالإنكار على ما ترى ظاهره يخالف الشريعة».

قال (رحمه الله): فلما وصلت إلى مكة زادها الله شرفًا، وأنا مصصم على العمل بتلك النصيحة، بكرت يوم الجمعة إلى الحرم... فجلست إلى الكعبة الشريفة اقرأ الدلائل إذ رأيت رجلًا ذا لحية سوداء عليه زيُّ العوام قد أسند ظهره إلى الشاذروان[١٠٠٨] ووجهه إليَّ، فحدَّثتني نفسي أن هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة، ولم أظهر عتابه، فقال لي:

«يا هذا، أما عرفت أن حرمة المؤمن عند الله تعالى أعظم من حرمة الكعبة، فماذا تعترض على استدباري الكعبة وتوجهي إليك؟ أما سمعت من في المدينة وتأكيده عليك؟»

فلم أشك في أنه من أكابر الأولياء وقد تستر بأمثال هذه الأطوار عن الخلق، فانكببت على يده وسألته العفو وأن يرشدني بدلالته إلى الحق تعالى، فقال لي: «فتوحك لا يكون في هذه الديار»، وأشار بيده إلى الديار الهندية، وقال: «تأتيك إشارة من هنالك فيكون فتوحك في هاتيك الأقطار»، فأيست من تحصيل أحد في الحرمين يرشدني إلى المرام، ورجعت بعد قضاء المناسك إلى الشام.[١٠٠٩]

١٠٠٨ الشاذروان: ما تُرِكَ من عرض أساس البيت الحرام خارجًا.

١٠٠٩ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٢٦.



فكانت تلك الحادثة إشارة إلى أنه سيبلغ الكمال المعنوي بإرشاد الشيخ عبد الله الدهلوي في مدينة دلهي في الهند.

وكانت لتلك الكلمات أثر في قلب مولانا خالد البغدادي، ومن الشام رجع إلى العراق إلى وطنه، وباشر ثانيًا التدريس مع زيادة التقوى والورع وحسن الأحوال، لكنه لم يزل مترقبًا ورود الإشارة التي وعده بها ذلك الولي لما يرى عليه من أثر الحيرة والاضطراب والبكاء دائمًا.[١٠١٠]

ولم تمضِ مدة طويلة حتى جاء أحد مريدي الشيخ عبد الله الدهلوي ومولانا خالد البغدادي في تلك الحال. فلما ذكر المريد أستاذه في الهند عرف مولانا خالد أنها الإشارة التي كان ينتظرها فاستعد رأسًا للرحيل. وترك المدرسة وطلابه، لكن الطلاب والأهالي عذلوه عن الذهاب إلى الهند، وأخبروه أن البلاد التي يريد الذهاب إليها يعمها الخطر لسوء الأحوال السياسية، فخافوا على حياته. لكن خالد البغدادي (رحمه الله) كانت لديه عزيمة موسى u حين بحث عن الخضر u بأمر إلهي لأخذ الحكمة، وقال: «إن كنت تبحث عن حياة صافية فعليك بالظلام»، وأخبرهم بعزمه على الذهاب إلى الهند.[١٠١١]

سفره إلى الهند

وأعد مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) للرحيل في مدة قصيرة وخرج مع مريد الشيخ الدهلوي، وانطلقا يقطعان الجبال والسهول والوديان وفي قلبه شوق للقاء شيخه، وكان يترك أثرًا عميقًا بعلمه وروحانيته في كل بلد يمر به، فيودِّعه علماؤه وولاته وقادته وخلقه وهم في حال من الإعجاب. ودخل لاهور ومنها انتقل إلى بلدةٍ زار فيها العلامة مولانا ثناء الله أحد خلفاء الشيخ مظهر جان جانان. ويقول مبينًا ما حدث فيها:

١٠١٠ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص٢٩.

١٠١١ خالد البغدادي، ديوان، البيت: ٤٧.



«فبتُّ في تلك القصبة ليلة فرأيت في النوم أن شاه عبد الله الدهلوي قُدِّس سِرُّه قد جذبني... فلما أصحبت ولقيت الشيخ ثناء الله قال لي من غير أن أقصَّ عليه الرؤيا: (سِرْ على بركة الله تعالى إلى خدمة أخينا وسيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي) مشيرًا إلى أن فتوحي سيكون عند الشيخ المقصود، وهنالك تؤخذ المواثيق والعهود، وتنجز الوعود... فرحلت من تلك القصبة أقطع الأنجاد والأوهاد... ولقد أدركتني نفحاته وإشاراته قبل وصولي بنحو أربعين مرحلة وهو قُدِّس سِرُّه أخبر قبل ذلك بعض خواص أصحابه بوفودي إلى أعتاب قبابه».(١٠١٢)

في حضرة الشيخ الدهلوي

وصل الشيخ مولانا خالد إلى دلهي (جيهان آباد) بعد سفر دام سنة كاملة، وأنفق حوائج السفر على الفقراء، ثم سارعَ إلى حضرة الشيخ عبد الله الدهلوي وهو يقول:

«يا خالد، لقد قضيت عمرك في الرياسة، فلتكن الآن عبدًا يخدم ذلك الشاه».(١٠١٣)

فأخذ من شيخه أسرار الطريقة النقشبندية كلها بدقة وشوق وشرع يطبقها في حياته. ولم يهتم للمقام الذي بلغه في العلم، واجتهد في خدمة شيخه بهمة وتواضع. وكان يسارع إلى خدمة التكيَّة، والتنظيف، وإحضار الماء ليتوضأ الدراويش، وينشغل في الذكر والمراقبة والمجاهدة خارج أوقات الخدمة. وحينما كان يجتمع الإخوان للصحبة والذكر، كان مولانا خالد يجلس في الصفوف الأخيرة قرب النعال. وما كان يختلط مع الناس خارج الخدمة والصحبة، ويغلق باب حجرته وينشغل بالذكر والعبادة.

١٠١٢ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٢٩-١٣٠.

١٠١٣ عبد الجبار كاكاك، ديوان مولانا خالد البغدادي، بيت: ٨٠٦.



يقول الشيخ أحمد سعيد وهو أحد طلاب الشيخ عبد الله الدهلوي النجباء:

«كان باب حجرة مولانا خالد قُدِّس سِرُّه مغلقًا من ابتداء حضوره صحبة الشيخ إلى وقت رجوعه، وما كان يخرج من غير ضرورة، ولذلك فاز بمرتبة عالية ينبغي لمريدي الحق أن يكونوا كذلك».[١٠١٤]

وكان علماء دلهي وشيوخها الذين سمعوا بعلم مولانا منذ سنين يأتون إليه لزيارته، غير أنه (رحمه الله) كان يفضل الوحدة وعدم الاختلاط بالناس ويقول:

«لن ينشغل الفقير بأي شيء قبل أن يصل إلى مقصود سفره إلى هنا، فأعذروني!».

وأراد الشيخ شاه عبد العزيز- من أولياء الله في الهند- أن يرحِّب بالضيف القادم إليهم، فزار مولانا خالد البغدادي، فقال المريد لمولانا:

«يريد شيخ الهند أن يلتقي بكم».

فقال خالد البغدادي (رحمه الله):

«أبلغوه سلامي، وقولوا له أنني سأزوره بعد أن أبلغ مقصودي».[١٠١٥]

وذات مرة كان مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) ينظف بيوت الخلاء فأضناه التعب، فاستغلت نفسُهُ ضعفَه وصارت توسوس له بقولها:

«يا بحر العلم الذي لا صِنوَ له في الشام وبغداد، يا مولانا خالد، قد خرجت في هذا الطريق بعد أن سمعت قول رجل ما عرفت أَوليٌّ هو أم مجنون! وقطعت كل تلك الطرق ووصلت إلى هنا، فهل وجدت ما ابتغيت؟ وانظر إلى ما حولك ترى أنه لا تعليم هنا ولا تربية ولا سير وسلوك! ماذا صنعوا لك منذ شهور غير تنظيف بيوت الخلاء ليل نهار؟ أهذا هو العلم اللدني الذي بحثت عنه؟..»

١٠١٤ الكوثري، إرغام المريد، ص٢٢٤.

١٠١٥ الندوي، الإمام الرباني، ص٤٠٥.



فاضطرب مولانا خالد أمام هذا الإغواء الخطير، ومزَّق بإخلاصه وصدقه وتسليمه حجابَ الغفلة الذي وضعته نفسه أمامه وقال:

«يا نفسي، إن لم تشكري على هذه المهمة الشريفة التي أعطانيها شيخي الجليل وامتنعتي عنه ولو لحظة، لأجعلنَّكِ تكنسين الأرض بلحيتك لا بالمكنسة..».

وكان الشيخ عبد الله الدهلوي يشاهد حاله هذه من بعيد ويتبسَّم. فاستطاع مولانا خالد بعد هذه الحادثة أن يغلب آخر حَملات نفسه، وسُرَّ الشيخ الدهلوي بطالبه المميز وناداه وقال له:

«يا ولدي خالد، لقد كنت في درجة لا تُضاهَى في العلم، ولكن كان عليك تزيينها بالروحانيات. لذلك كان من الضروري تربية نفسك وتطهير قلبك، وإلا، فإن نفسك كانت ستجرك إلى مستنقع الغرور والكِبر وتوقعك في الهلاك. والحمد لله أنك وصلت إلى الكمال بأن جعلت نفسك تحت قدميك.

يا ولدي، إن أسيادنا الذين ننتسب إليهم هم مَن أدركوا الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، وقد صرتَ الآن مجددًا لنهجهم وحلقةً في سلسلتهم، فالإرشاد كله بعد اليوم عليك! وليُعلِ الله تعالى همَّتكَ».[١٠١٦]

وبعد ذلك صار الشيخ عبد الله الدهلوي (رحمه الله) يختلي كثيرًا بطالبه النجيب الذي كلَّفه بالخدمة والمجاهدة والرياضات، ودرَّسه دروس الخواص.

وبعد مضي نحو خمسة أشهر حصل له مقام الحضور والمشاهدة، وبشَّره شيخه بها. وحلَّ في نظر شيخه محل الجنان بتحمله الرياضات الشاقة الكاسرة لدواعي النفس وتحفيز نفسه بحيث صار كأنه ليس بشيء يحس. فلم تتم عليه السَّنَة حتى صار الفرد الكامل المصفى الواصل إلى المقام الأعلى والمشهد الأنور الأجلى مع الرسوخ والدراية والفناء والبقاء الأتمَّين والوصول إلى كمال الولاية

١٠١٦ انظر: اللجنة، موسوعة الأولياء، جـ٨، ص١٨٥-١٨٦.



الكبرى. ولما وصل إلى هذا المقام العالي أجازه شيخه وخلَّفه الخلافة التامة المطلقة في الطرائق الخمسة: النقشبندية، والقادرية، والسهروردية، والكبروية، والجشتية. وأذِنَ له بالإرشاد، وأجازه بجميع إجازاته من الحديث والتفسير والتصوف والأحزاب والأوراد وغير ذلك. ثم أمره أمرًا قطعيًّا بالذهاب إلى بلاده وإرشاد الناس المتعطشين للروحانية.[١٠١٧]

مهمة الإرشاد

ولما حان وقت الفراق، كانت المحبة تملأ عيون الشَّيخَين. وكم كان الفرق كبيرًا بين مجيء مولانا خالد وذهابه. وودَّع الشيخ عبد الله الدهلوي (رحمه الله) طالبه النجيب بنفسه، حتى إنه أمسك له رِكاب الدابة وساعده في ركوبها مع استحياء مولانا خالد وأدبه، ومشى وخلفاؤه وطلابه معه مسافة أربعة أميال يودِّعونه، ثم قال لمن حوله:

«لقد أخذ خالد كل شيء وحمله معه».

ومضى مولانا خالد (رحمه الله) متوجِّهًا إلى بغداد، ولم يهمل الدعوة إلى الحق والخير في كل بلدة أو قرية مرَّ عليها.[١٠١٨]

واتَّسعت حلقة إرشاد مولانا خالد البغدادي بسرعة، وانكب عليه الناس من كل حدب وحتى العلماء الكبار من البلاد البعيدة جاؤوه يستفيضون منه، وامتلأت زاوية إرشاده بالناس، فكان يرشد الذين يأتونه أفواجًا، ويدرِّس آخرين علوم التفسير والحديث والفقه والتصوف، فكان بذلك يحيي ذِكر المجتهدين الكبار، والأولياء العظام.[١٠١٩]

١٠١٧ انظر: عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص٨٣، رقم: ٧٣؛ ابن عابدين، سلُّ الحسام، ص٣٢٢؛ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٣١.

١٠١٨ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٣.

١٠١٩ انظر: إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٣٦، ١٣٨.



وكان لمولانا خالد (رحمه الله) طلبة كثر، وقد قال الشيخ أسعد صدر الدين مفتي بغداد وشيخ العلماء وأستاذ الوزير داود باشا والي بغداد:

«لو أمرني حضرة الشيخ بوضع قصعة فيها لبن على رأسي وأمشي بها في أسواق بغداد كما يفعله أدنى الناس لفعلت امتثالًا لأمره»[١٠٢٠]

وكان الشيخ علي السويدي يقول:

«مولانا خالد بحر لا حد له في العلوم الظاهرة والباطنة، أما نحن فَقَطْرة».[١٠٢١]

وفي المكتوب الذي كتبه مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) إلى شيخه عبد الله الدهلوي شرح له أنه نال الإجازة من مئة عالم لهم مؤلفات كثيرة، وأنه علَّم خمسمئة عالم كبير أسس الطريقة النقشبندية[١٠٢٢].

ولما استقر (رحمه الله) في بغداد وأفاض الإرشاد والرشاد، وملأ صيته جميع الآفاق، وقصدته أكابر العلماء الأعلام للاستفاضة منه من غير شقاق، ولما كان لكل صاحب فضل أعداء وخصوم يُمتَحن بهم، ظهرَ مَن يحسد الشيخ وألفوا رسالة محتوية على الإساءة لحضرة مولانا خالد مختومة بخواتم المنكرين. غير أن مولانا خالد لم يعبأ بتلك الافتراءات والاتهامات ولم يرد عليها، بل دعا لأصحابها لهم بالخير. وقد ردَّ بعض من طلبته العلماء على تلك الرسالة[١٠٢٣].

وقد وشى حَالتْ أفندي المنتسب إلى الطريقة المولوية والوزير في القصر العثماني على حضرة مولانا خالد (رحمه الله) عند السلطان محمود خان لحسده شهرة مولانا وصيته الحسن، وكان مما قاله للسلطان:

١٠٢٠ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٣٧؛ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢٣٢.

١٠٢١ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢٤٩.

١٠٢٢ عبد الله الدهلوي، المصدر السابق، ص٤٧، رقم: ٣٢؛ ص٨٣، رقم: ٧٣؛ رؤوف أحمد، در المعارف، ص٧٠.

١٠٢٣ انظر: إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٣٣؛ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢١٢.



«أيها السلطان، إنَّ آلاف الرجال يتبعونه، وذلك خطر على الدولة. فإن شئتم عزلناه قبل أن يعمَّ الخطر».

لكن السلطان محمود خان لم يكترث لما قاله الوزير وقال:

«إن هذا الشيخ المبارك ليس خطرًا علينا، بل فائدة عظيمة».

وسمع حضرة الشيخ مولانا (رحمه الله) بالحادثة، وحزِنَ لأن في ذلك ضررًا على طريقته الروحانية وخدماته وكثير من المؤمنين الذين ينتفعون منها. ودعا للسلطان بالخير وقال:

«قد حوَّلت أمر حَالتْ أفندي إلى مولانا جلال الدين الرومي (رحمه الله) بجلبه إلى طرفه والعمل به بما يليق».

ثم ظهر سر هذا الكلام بعد ذلك، وهو أن جناب السلطان غضب على حَالتْ أفندي لمساهمته في التمرد في مورا، ونفاه إلى قونية التي فيها مقام حضرة مولانا جلال الدين قُدِّس سِرُّه، ثم أمر بخنقه هناك فخُنِق.[١٠٢٤]

فنرى في هذه الحادثة أن أذى أولياء الله تعالى وكسر قلوبهم الرقيقة يستجلب غضب الله تعالى وغيرته عليه، وذلك واضح في الحديث القدسي:

«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب».[١٠٢٥]

ومن سجايا أولياء الله تعالى أنهم يقبلون اعتذار كل مُخطئٍ بحقهم فَهِمَ خطأه، ولا يخلطون ذلك بالغرور وعزة النفس، ويدفعون بالحسنى كلَّ سيئة إن كانت عليهم أنفسهم لا على الأمة الإسلامية.

ولا بد أن نعلم أن سيفَ المرشدين سيفٌ مسلول، لكن المرشد رحيم لا يضرب به أحدًا. غير أن من الناس من يبحث عن مصيبته فيصطدم بسيفه.

١٠٢٤ انظر: إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٥١؛ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢٤٥.

١٠٢٥ البخاري، الرقاق، ٣٨.



فنخلص من ذلك كله إلى أن محبة الناس لمولانا خالد البغدادي (رحمه الله) قد زادت يومًا بعد يوم بلطف من الله تعالى مع وجود بعض الافتراءات عليه من حساده وخصومه، فكم من عالِم وعارف كان يتوق للتعلم والتربية بين يديه. وقد استطاع (رحمه الله) أن يُربِّي كثيرًا من المريدين والخلفاء في مدة قصيرة؛ فمن خلفائه الفقيه الحنفي الكبير ابن عابدين، والألوسي مؤلف تفسير (روح المعاني).

وممن نالوا بركته الإمام شامل المجاهد الصنديد في قفقاس الذي حارب الروس أربعة وعشرين عامًا بثبات وعزيمة. ولا بد أن نذكِّر هنا أن التصوف الذي يربِّي أمثال هؤلاء من المجاهدين العظماء ليس التجرد عن المجتمع والانعزال في تكية أو زاوية كما يدَّعي بعض الغافلين، بل هو دافع ونشاط وحركة تُسيِّر الجهاد الظاهري والباطني.

وضع التصوف في إطار الشريعة

لقد أضفى مولانا خالد على العلوم الشرعية والمعنوية طابعَ عصر النبي r، ودافع عن جوهر الدين المبين والتصوف في تلك الحقبة التي كانت مليئة بالاعتقادات الباطلة، وعاش حياته وشعارُه: **(لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ)**[١٠٢٦] أي «احذروا من غفلة جعل آرائكم قبل الكتاب والسنة»، لذلك لم يتساهل في أمور الشريعة. وكان يُنبِّه كل مَن يميل إلى رغبات نفسه ويبتعد عن السنة الشريفة ويغرق في البِدع، حتى يُصلِح من حاله.

وببركة مساعيه صارت بغداد «مجمع البحرَين» أي المكان الذي يجتمع فيه البحرَان المادي والمعنوي، فبفضله ظهر للناس أن العلوم الشرعية والتصوفية لا تتعارض، بل كل منها يكمِّل الآخر، وهما السبيل لبلوغ الكمال.

١٠٢٦ الحجرات: ١.



وقد أحيا بهجرته إلى الشام تلك الأراضي المقدسة، وقلَّت البدع بجهده وسعيه.[١٠٢٧]

يقول خالد البغدادي (رحمه الله) في مكتوب له:

«الطريقة عروةُ الوصول وسُلَّم رضوان الله تعالى واتباع الرسول، التي أصولها التمسك بعقائد أهل السنة الذين هم الفرقة الناجية، وترك التقاط الرخص، والأخذ بالعزائم، ودوام المراقبة، والإقبال على المولى، والإعراض عن زخارف الدنيا، بل وعن كل ما سوى الله تعالى، وملكة الحضور المعبر عنه في الحديث الشريف بالإحسان وهو: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والخلوة في الجلوة، مع التحلي بالاستفادة والإفادة في علوم الدين، والتزيِّي بزيِّ عوام المؤمنين، وإخفاء الذكر، وحفظ الأنفاس بحيث لا يخرج ولا يدخل نَفَس مع الغفلة عن الله الكريم، والتخلق بأخلاق صاحب الخلق العظيم عليه الصلاة والتسليم...

وبالجملة فهذه الطريقة بعينها هي طريقة الأصحاب الأنجاب عليهم الرضوان من غير زيادة ولا نقصان، وهي عبارة عن الأخذ بعزائم الكتاب والسنة».[١٠٢٨]

وفي مكتوب آخر قال (رحمه الله):

«لا بد من الأخذ بالعزائم على حسب المقدور، وما لا يدرك كله لا يُترك كله، ومن أنفاسهم [أولياء الله] النفيسة: (الطرق إلى الله تعالى مسدودة إلا على المُقتفين آثار رسول الله r)، وإن المدار على نفي الوجود وبذل المجهود والوفاء بالعهود والقناعة بالموجود».[١٠٢٩]

١٠٢٧ انظر: أسعد صاحب، بغية الواجد، ص١٩٠-١٩١، رقم: ٥٦.

١٠٢٨ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٧٨، رقم: ٤.

١٠٢٩ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٨١، رقم: ٥.



ويقول الإمام الألوسي عن مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) في كتابه (نزهة الألباب):

«امتد في الأحوال باعه، وعمرت بالفضل والأفضال رباعه. كان حريصًا على سلوك سبيل أهل السنة والجماعة، لا يصرف من أوقاته ساعة في غير حلِّ دقيقة علم أو طاعة، حسن السمت والسيرة، نيِّر القلب والسريرة...

وبالجملة ما حوى أحد في عصرنا فضله، وأنا لم أرَ مثلًا له».[١٠٣٠]

ويقول العالِم الفقيه الحنفي ابن عابدين عن شيخه خالد البغدادي:

«غير راكن إلى الدنيا ولا إلى أهلها مقبلًا على الله تعالى متبتِّلًا إليه بأصناف العبادة فرضها ونفلها، لا يتردد إلى الحكام، ولا يحابي أحدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الأحكام، لا تأخذه في الله لومة لائم، وهو نافذ الكلمة محمود السيرة يأخذ بالعزائم».[١٠٣١]



وفي القرن التاسع عشر صارت لأوربا التي ابتعدت عن الدين لظهور الفلسفات الوضعية تأثير في بلاد المسلمين، فضعُف الشعور بالدين وقلَّت الروحانيات. لكن كان لظهور مولانا خالد في ذلك العصر دورٌ كبيرٌ في منع انتقال تلك التيارات إلى بلادنا. فكان مولانا خالد البغدادي على رأس المرشدين الكاملين الذين خدموا الدين المبين في تلك الحقبة الحساسة المهمة.

وقد استطاع (رحمه الله) أن ينشر طريقته في أنحاء بلاد المسلمين بتربيته مئات من الخلفاء، وخَدَمَ الإسلام خدمة عظيمة جليلة بأن جعل كثيرًا من المسلمين يبلغون الكمال والنضج المعنوي. وقد يكون اتساع أتباعه وانتشارهم

١٠٣٠ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٩٦.

١٠٣١ ابن عابدين، المصدر السابق، ص٣١٩.



أهم العوامل التي أدت إلى تأخر الأزمات المعنوية التي ظهرت في تاريخنا القريب، وبهذا تقوَّت روحانية كثير من الناس وحُفِظَ الدين من البدع.

الاستقامة والصراط المستقيم

كان خالد البغدادي (رحمه الله) يحث أحبابه على الاستقامة كل حين، يقول في إحدى مكتوباته:

«نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة، وأوصيكم بالاشتغال بإحياء السنن السنية وقمع البدع الردية، ونشر العلوم بالإخلاص، والتمسك بآداب ساداتنا الخواص، ونفي الوجود، وبذل الموجود، والصبر على المفقود، والتبتل إلى الملك المعبود، وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام. والسلام في البدء والختام».[١٠٣٢]

ويقول (رحمه الله) في الرسالة التي توضِّح أسس الإيمان:

«إن الصراط أرقُّ من الشعرة وأدق من السيف، وكذلك عيش الإسلام في الحياة الدنيا. إن السعي لعيش الإسلام عيشًا تامًّا كالسير على الصراط، فمن جاهد نفسه هنا مرَّ على الصراط بيُسرٍ وراحة، أما من لم يحيا بالإسلام وحرص على الهوى والوساوس فسيجد كثيرًا من المشقات والصعوبات أثناء سيره على الصراط، لذلك سمَّى الله تعالى الطريق الحق الذي وضعه الإسلام بـ«الصراط المستقيم». فهذا التشابه في الأسماء يُظهِر أن السير على طريق الإسلام كالسير على الصراط. لذلك لن يمرَّ أهل النار من الصراط وسيسقطون في جهنم».[١٠٣٣]

١٠٣٢ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٦٧، رقم: ٩٨.

١٠٣٣ كماحلي فيض الله، الإيمان اللازم لكل إنسان، إسطنبول ١٩٩٧، ص٥٦.



وصاياه لإخيه الذاهب إلى الحج

كتبَ مولانا خالد (رحمه الله) الوصايا التالية لمَّا طلب أخوه (محمود صاحب) الإذنَ منه للسفر إلى الحج:

«الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد فأوصيكم بتقوى الله وطاعته، وترك إيذاء الناس ولا سيما في الحرمَين الشريفَين.

ولا تغتب أحدًا وإن اغتابوك. ولا تأخذ من أحد شيئًا من حطام الدنيا إلا أن يحكم بأخذه الشرع فخُذه واصرفه في سبيل البر، ولا تتفكه بصرفه في الشهوات وإخوانك المؤمنين جاعة عالة.

ولا تكذب، ولا تحتقر أحدًا، ولا تعتقد نفسك فوق أحد، وابذل جهدك في العبادة القلبية والبدنية، واحسب نفسك أنك ما عملت خيرًا قط. إذ النية روح العبادة ولا نية إلا بإخلاص، والإخلاص لأكبر منك فضلًا عنك، وأنا والله لا أعتقد أني عملت خيرًا منذ ولدتني أمي، وأنت تعتقدني خيرًا منك.

فإن لم تجدك مفلسًا عن كل خير فهو غاية الجهل، وإن وجدتك مفلسًا فلا تقنط من رحمة الله تعالى، فإن فضل الباري خير للعبد من أن يكون له عمل الثقلَين...

ولا تجعل الطمع في فضل الله تعالى سببًا لترك العبادات كمن لعب بعقولهم الشيطان، وداوم على ذكر القلب والمراقبة، ولا تفتر عنهما ولو في المشي.

وتمسك بحول الله تعالى وقوته في كل أمر، واستمسك بروحانية السادات الكبار قدَّسَ الله تعالى أسرارهم، وأَكرِم حملة العلم وحفظة القرآن، واشتغل بقراءة القرآن بحسب التيسير، واشتغل بعلم الفقه والحديث أكثر من غيرهما.

ولا يصرفك الحضور القلبي عن ذلك فإنه علامة على ضيق المشرب وقصر الباع. وعليك بالمداومة على صلوات النافلة من التهجد والإشراق والضحى

والأوابين، ودوام الوضوء، وقلة الهجوع، وقول: (**سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزينة عرشه ومداد كلماته)**[١٠٣٤] ثلاث مرات.

ولا تدخل في أمور أهل الحكم من الأمراء ولو طلبوا ذلك منك، وادعُ بالصلاح والإصلاح لإمام المسلمين، واطلب من الله تعالى أن ينصر الإسلام على أعداء الدين.

وعليك بترك الوجود، وبذل المجهود، والقناعة بالموجود، والتمسك التام بسنن صاحب المقام المحمود صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أبد الآبدين والحمد لله رب العالمين».[١٠٣٥]

جانبه الأدبي

كان لمولانا خالد البغدادي الذي بلغ ذروة العلم والتصوف قدرة على نظم الشعر أيضًا، فقصائده التي كتبها بحر من الحكمة والأسرار مليئة بنغمات صادرة من أعماق قلبه. وهذي القصائد التي جُمعَت في «الديوان الفارسي» تجعل الأفئدة حائرة بجمالها وبدائعها.

وإذا اطلعنا على هذا الديوان فإننا سنشعر بقلب مولانا خالد البغدادي مليئًا بالفيض والروحانيات، فمحبته لله تعالى ولنبيِّه والكعبة وشيخه تفيض من قلبه لتمتزج بدموعه التي تقطر مثل حبات اللؤلؤ وتكوِّن مِداد قلمه، لتُكتب قصائد بديعة لا مثيل لها.

فمما كتبه عن المحبة الإلهية:

«يا رب، إني العاجز عن حمدك والثناء عليك كما يليق بك! وقولُ غير ذلك حماقةُ رجلٍ فانٍ.

١٠٣٤ مسلم، الذكر، ٧٩.

١٠٣٥ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٣٨-١٤١، رقم: ٢٨.



ووالله لو أُعطِيتُ حياةً سرمدية ولم يكن لي شغل سوى حمد الله والثناء عليه...

وكانت كل شعرة في جسدي تنطق بآلاف اللغات...

وأُبعِد الشيطان والنفس عن قلبي كي لا يشغلاه بالوسوسة...

وقضيت عمري أحمده سبحانه وتعالى وأُثني عليه بكل كياني دون انقطاع...

فلا طاقة لي في حمده على نعمة واحدة!

فكيف لي أن أشكره على نعمه كلها أو بعضها... والشكر نعمة أخرى!».[١٠٣٦]

ومما قاله في محبة رسول الله r :

«السلام عليك يا نبي الله، منذ أن استقررت في الأرض، بدأ التراب يتفاخر بك أمام السماء

السلام عليك يا نبي الله، ما مِن درجة عليا إلا وهي أدنى من درجة قربك من الله تعالى بآلاف السنين».[١٠٣٧]

«يا خير الخلق كلهم، أين أنا، وأين السلام عليك؟ السلام عليك مئات المرات من رب العالمين كل لحظة!

يا ملجأ العصاة، ها قد أتيت بابك كي تحميني بأخطائي الكثيرة. آه لو استطعت تقبيل العتبة التي دعست عليها بقدمك المباركة حتى أشبع».[١٠٣٨]

«أيها الفؤاد كن صاحيًا، ففي هذا التراب المبارك تتنزل التجليات على القلوب الواعية من نور الجمال الأزلي».[١٠٣٩]

١٠٣٦ عبد الجبار كافاك، ديوان، قونيا ١٤٣٠، بيت: ١١٤٠-١١٤٦.

١٠٣٧ ديوان، بيت: ١٣٠-١٣١.

١٠٣٨ ديوان، بيت: ١٣٦-١٣٧.

١٠٣٩ ديوان، بيت: ١٧٢.



«قد تسع الذرةُ العالَمَ، ولكن عالم الألفاظ لا يسعُ مدحه»[١٠٤٠].

«ما شاء الله ما أكرمه حتى إنه لوجوده الذي يتدفق منه الكرم يخرج اللؤلؤ من البحر، والياقوت من الحجر، والوردة من الشوك!

ولو ذُكرت أخلاقه الحسنة في بستان من الورود، ما بقي برعم إلا فتح فاه وتبسم!

وفي يوم القيامة الذي يصيح فيه أصحاب الشهرة والشأن لا تكون النجاة إلا بمديحه الحسن».[١٠٤١]

«إن لم يأتِ إلى المحشر بصفة حبيب الله، فسيخاف الناس حتى الأنبياء الذين ينتظرون هناك».[١٠٤٢]

«يا خالد، إن بدَّلت شعرة من شعر رسول الله r بالدَّارين، فإنهم سيحجرون عليك لأنك رجل لم تبلغ الرشد».[١٠٤٣]

ومن أشعار مولانا خالد في الحث على الفوز بالسعادة الأبدية:

«يا روحي، إياك أن تبدل السعادة الأبدية بالدنيا! إن أمعنتَ النظر سترى أن الدنيا كلها إنما هي نَفَسَان لا أكثر ولا أقل.

وإن كنتَ ملكًا كل عمرك، فإن بدايتك ستكون ألم رأس وعاقبتك الندامة».[١٠٤٤]

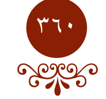
١٠٤٠ ديوان، بيت: ١٨٨.

١٠٤١ ديوان، بيت: ١٩٢-١٩٤.

١٠٤٢ ديوان، بيت: ٢١١.

١٠٤٣ ديوان، بيت: ٥١٣.

١٠٤٤ ديوان، بيت: ٤٥٢-٤٥٣.



أخلاقه الحسنة وفضائله

كان مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) كريم النفس، حميد الأخلاق، باذل الندى، حامل الأذى، حلو المفاكهة والمحاضرة، رقيق الحاشية والمسامرة، ثبت الجنان، بديع البيان، طلق اللسان، لا تأخذه في الله لومة لائم، يأخذ بالأحوط والعزائم، يتكفل الأرامل والأيتام، شديد الحرص عل نفع الإسلام... وقد تفضل الله تعالى به على أهل الشام وأنعم... وأحيا كثيرًا من مساجد دمشق الشام قد آلت إلى المدراس والانهدام بإقامة الصلوات والأوراد والأذكار وإرشاد الخلق إلى طرق السادة الأبرار.[١٠٤٥]

وكان حضرة مولانا خالد قُدِّس سِرُّه في غاية المهابة بحيث لا يستطيع أحد أن يدقق النظر إلى وجهه الشريف، وفي غاية الاتباع للسنة النبوية في أكله وشربه ونومه ولبسه وأفعاله وحركاته وسكناته وأقواله وقعوده وقيامه، ولم يشاهد منه أحد من الملازمين لخدمته ترك سُنَّة ولا مندوب حتى إن بعض أهل العلم من ذوي الورع لازمه سنة كاملة ودقق النظر إلى دخوله في المسجد وخروجه منه، فرآه كلما دخل قدَّم اليمنى في الدخول، وكلما خرج قدَّم اليسرى في الخروج ولم يتخلف عن ذلك أصلًا.[١٠٤٦]

وقد انتسب إليه كثير من العلماء لأنه كان أمينًا على سنن رسول الله r .

كان خالد البغدادي (رحمه الله) سلطان الأسخياء وصاحب إحسان ورحمة، ينفق على الفقراء والغرباء واليتامى ويرأف بهم ويحسن إليهم. ولم يكن يكسر قلوبهم، ولا يُسيء للسيئين بالقول، ويقول:

«لا أريد أن أكون لعَّانًا».[١٠٤٧]

١٠٤٥ ابن عابدين، المصدر السابق، ص٣٢٣- ٣٢٤.

١٠٤٦ إبراهيم فصيح، المصدر السابق، ص١٥٥.

١٠٤٧ حسن شكري، المصدر السابق، ص٢٣٣، ٢٧٠.



كان مولانا خالد (رحمه الله) بحرًا في العلم والمعرفة، مع تصاغره لدى الأساتذة والأقران، وتجاهله عن كثير من المسائل مع العرفان[١٠٤٨]. وكان (رحمه الله) أسوة كاملة للعلماء الذين يعملون بعلمهم. ولم يكن يتساهل في العبادات، قنوعًا، لا يضيع وقته، بل يستثمره في أفضل صورة، لائقًا بالثناء في كل أحواله.

وقد أرسل مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) طلابه الذين ربَّاهم وأبلغهم الكمال إلى كل بلاد، إذ كان يرى في انتشار فيوضات الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة في كل ناحية خدمة كبيرة. وكان يحيي القلوب الميتة بلطف الله تعالى، ويجعلها في آفاق الروحانية. ويحرص كثيرٌ من الخلق أن يأتوه من بلاد بعيدة ليكونوا عنده طلابًا.

وكان (رحمه الله) يبذل جهدًا في سبيل إيصال تلك اللذة الروحانية التي يجدها في معرفة الله ومحبته إلى قلوب العباد.

قمة في التواضع

كان مولانا خالد البغدادي (رحمه الله) من كُمَّل الأولياء الذين كلما علا مقام أحدهم وارتفع، خضع تحت قهر العبودية، وكان ممن يستصغرون أنفسهم في أعينهم ويتهمونها، ولا يرضون عنها آخذين حذرهم منها خشية من استيلاء الغفلة المنبعث عنها انصراف القلب وعدم التفقد والمراعاة للخواطر... والخوف من مكر الله والأمن من سوء الخاتمة- والعياذ بالله سبحانه تعالى- لم يفارقه في عموم أوقاته.[١٠٤٩]

ولما أراد أحدهم طرد واحد من أهل الطريقة من باب إرشاده، قال (رحمه الله):

١٠٤٨ ابن عابدين، المصدر السابق، ص٣١٩؛ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢٠٧.

١٠٤٩ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٢٠.



«وهذا العبد المسكين ما أرى أحدًا من فساق المؤمنين إلا وأعتقده أحسن مني، لأن إيمانه ثابت وفسقه خفي عني، ومثالب نفسي جلية لدى هذا، والخاتمة مجهولة، فكم من فاسق فاجر صار من كُمَّل الأولياء، وكم من صالح ورع رُدَّ إلى أسفل السافلين، أسأل الله تعالى العافية لي ولك ولسائر المسلمين. وبالجملة فلا يمكنني طرد أحد وأنا اعتقده أفضل مني، وما أردتَّه لا يتيسر إلا بطرد المسلمين، والسلام».[١٠٥٠]

وكان في أغلب مكتوباته يطلب الدعاء أن تكون الخاتمة بالإيمان، وأن يحيا حياته بالإسلام في كل حال على أفضل صورة، ومن ذلك قوله:

«ثم المرجو أن تذكرونا بدعاء حسن الختام والتوفيق لاتِّباع سُنَّة خير الأنام عليه وعلى آله الكرام وأصحابه الفخام أفضل الصلاة وأكمل السلام».[١٠٥١]

«والمرجو من أخلاقكم الحميدة وطويتكم الشريفة السعيدة أن لا تنسَوا هذا المسكين من الدعاء بحسن الخاتمة وتوفيق الاستقامة في اتباع السنة السنية الغراء والموت على الملة الحنيفية البيضاء».[١٠٥٢]

«واترك التأكيد عليَّ في تحرير أجوبة المكتوبات... والاشتغال بمكاتبة الناس يضيع مني خيرًا كثيرًا، فمن يحبني فليدعُ لي بحسن الخاتمة وتوفيق اتباع السنة، وأنا أدعو له بذلك ولا يحتاج إلى كثرة المكاتبة».[١٠٥٣]

ولم ينسَ خالد البغدادي (رحمه الله) عجزه وتقصيره البتة. وكان يحث على ترك الإنسان البحث عن العذر لأخطائه وتقصير في طريق العبودية، وعلى الاعتراف بالعجز والالتزام بالاستغفار.

١٠٥٠ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٢٠-١٢١، رقم: ١٦.

١٠٥١ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٢٨، رقم: ١٨.

١٠٥٢ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٤١، رقم: ٢٩.

١٠٥٣ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٤٦، رقم: ٨٥.



وفاته

أصاب الشامَ وباء الطاعون، فلم يرضَ مولانا خالد (رحمه الله) بالخروج من المدينة. بل قرأ على الناس الأحاديث الشريفة التي تدل على أن من مات بالطاعون مات شهيدًا.

وتوفي بالطاعون ولده بهاء الدين أولًا ثم عبد الرحمن بعد حين. وقد شعرَ مولانا خالد (رحمه الله) بقرب أجله أثناء دفن أولاده. فطلب من طلابه إعداد قبره، وخبَّرهم بمكان دفنه. فتردد طلابه في تنفيذ أمره لألم الفراق في قلوبهم، فلمَّا رأى مولانا خالد (رحمه الله) ذلك دعا الشيخ عبد القادر، وقال له:

«لا بد أن تحفروا قبري اليوم! فإنكم ملاقون صخرة أثناء الحفر. وإن أخَّرتم كسر تلك الصخرة إلى يوم وفاتي، فقد لا تُعِدُّون قبري في حينه». فنفَّذوا ما طلبه.

وقال مولانا خالد (رحمه الله) يومًا للشيخ إسماعيل الغزِّي:

«أوقفت كتبي كلها».

وفي ذلك اليوم الذي صادف وفاة ابنه الثاني عبد الرحمن، قبِلَ كل من عزَّاه، وبعد ذهاب الزائرين قال للشيخ إسماعيل أفندي:

«امكث معي اليوم».

ثم قال:

«لو لم أخشَ أن يقول الناس: (أظهر مولانا خالد كرامة)، لودَّعت كل أحبابي وأصحابي اليوم. فإني أظن أنني راحل في ليلة الجمعة هذه».

ونظر إلى الطعام الذي أُحضِر له وقال:

«لن آكل من هذا الطعام وغيره! أرأيتم رجلًا يريد الموت ويأكل الطعام؟». [١٠٥٤]

١٠٥٤ حسن شكري، المصدر السابق، ص٢٥٨-٢٦٨.



يقول الشيخ ابن عابدين:

«ولقد دخلت عليه أعزِّيه بولده الأخير، فوجدته يضحك بوجه مستنير، وقال لي: (أنا أحمد الله حيث أجد في قلبي الحمد والرضا أكثر من الاسترجاع على مر القضا).

ثم زرته يوم الثلاثاء الحادي عشر من ذي القعدة قبل الغروب من ذلك اليوم، فذكرت له أني رأيت منذ ليلتين في النوم أن سيدنا عثمان بن عفان ميت، وأنا واقف أصلي عليه، فقال لي: (أنا من أولاد عثمان) فكأنه يشير إلى أن هذه الرؤيا تومئ إليه».[١٠٥٥]

لقد استقبل مولانا خالد الموتَ كما استقبله مولانا جلال الدين الرومي إذ رآه كأنه «ليلة الزفاف».

وكان من وصايا مولانا خالد:

أوصيت بثلث مالي وأملاكي حتى البيت... وأن يبنوا منه قرب قبري صهريج ماء للخيرات، وينصبوا الشواهد على قبري وقبور أبنائي وأقربائي وخلفائي من غير تعظيم وألقاب، بل نحو: (هذا قبر الفقير إلى رحمة مولاه الكريم فلان بن فلان النقشبندي المجددي). وأما كتبي فقد وقفتها سابقًا وأن يجعلوا ألف قرش منها لإسقاط صلاتي...

وأن يتعيش الفقراء المخصوصون بهذا الطريق من الثلث المذكور، واصنعوا منه طعامًا لهم، وأما مدرسة البيت فلا تقطعوا منها الصلوات، وأحب أن يُقرَأَ فيها (ختم الخواجكان).

ولا تعدوا شمائلي، ولا تبكوا عليَّ، واكتبوا إلى الأطراف والأكناف أن لا يبكي لفقداني أحد، وكل من له استطاعة وصدق في المحبة أحب أن يضحي

١٠٥٥ ابن عابدين، المصدر السابق، ص٣٢٤؛ حسن شكري، المصدر السابق، ص٢٧١.



الأنعام ويهب ثوابها إلي. ولا أقول أنا لا أحتاج إلى بعث صدقة أو قراءة آية كما قال بعض أرباب السكر والهيام، بل أحتاج إلى فاتحة وسورة إخلاص.

وأنتم سامحوني أيضًا، بل وجميع من في سائر البلاد.

عليكم جميعًا بالاتحاد والاتفاق وترك الوجود والنفاق، واعملوا عملًا تقر عيناي بكم في قبري».

وبعد ذلك لم يتكلم مع أحد لا قليلًا ولا كثيرًا، بل دخل دائرة الحرم وتوضأ وصلى ركعتين، وقال: «الآن أُصِبت بالطاعون» فأقبل على الله وتوجه إلى القبلة الشريفة، واشتغل بالأحوال القلبية والمناجاة الغيبية... ثم أفاق من استغراقه وقت أذان المغرب، وقال مجيبًا للمؤذن: «الله حق، الله حق» أربع مرات، ثم قرأ الآية الكريمة:

(يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)(١٠٥٦)

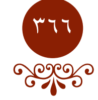
فلبَّت روحه الزكية الشريفة الطاهرة المنيفة الأمر الإلهي المجاب في ضمن هذا الخطاب من الملك الكريم الوهاب، [الجمعة ١٣ ذي القعدة ١٢٤٢ هجرية].

فذاب لفراقه قلب كل مقيم وغريب، ومُلِئَت الأرض من البكاء والنحيب، ولم ترَ مؤمنًا إلا وهو متأوه محزون... ودُفِنَ فيما عيَّنه لِلَحده قبل وفاته بل وقبل مرض موته فوق تل النور في سفح جبل قاسيون، وهو المكان المعروف اليوم بـ(الصالحية).(١٠٥٧)

وقد اجتمع في جنازته خلق كثير لم يُرَ مثله من قبل، وصلَّى عليه طالبه ابن عابدين (رحمه الله). ولما وُضِع جسده (رحمه الله) في القبر، فاحت رائحة طيبة من نعشه المبارك، شمَّها كل من كان هناك.

١٠٥٦ الفجر: ٢٧-٣٠.

١٠٥٧ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٥٩-٢٦٣، رقم: ٩٦؛ حسن شكور، المصدر السابق، ص٢٧٢-٢٧٨.



من حِكَمه

- إن بعض الناس بسبب تعبدهم الظاهري تبدأ لهم الأنانية والجور حتى يعرضون عن الطريقة وأهلها بزعم أنهم أتقى منهم مع أن ذلك من أكبر الكبائر كما أطبق عليه أساطين الشرع والشهود.[١٠٥٨]
- واعلم بأن الدنيا ظل زائل، وحاجز بين العبد ومولاه حائل، لا يُعَدُّ عبدًا حقيقيًّا مَن كان في قلبه مثقال ذرة من حبها، وليس بمقبول من لم يرمها بقشرها ولبها.[١٠٥٩]
- إن صلاح الملوك والوزراء- حلَّاكم الله به- صلاحُ البرايا، وفسادهم- خلَّاكم الله عنه- فساد جميع الرعايا، ولقد ورد الأمر بتعميم الدعاء، فلا جرم أن شيمة الفقراء الاعتناء التام بالدعاء للوزراء الكرام وسائر المسلمين والإسلام.[١٠٦٠]
- عليك بالتبري من حولك وقوتك في الفعل والقول، والتمسك القوي بحول ذي القوة والطَّول.[١٠٦١]
- لكل وِردٍ وارد [أي إلهام في القلب].[١٠٦٢]
- لا بد من ثلاثة أسباب للاستفاضة من أهل العرفان المعروفين باسم (أصحاب الباطن) المطلعين على الأسرار الإلهية، وحتى من الأنبياء، وهي:

- الإخلاص.
- الأدب.
- محبة أهل الله.

١٠٥٨ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١١٧، رقم: ١٣.

١٠٥٩ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١١٩، رقم: ١٥.

١٠٦٠ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص١٨٨، رقم: ٥٤.

١٠٦١ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٢٨، رقم: ٧٣.

١٠٦٢ أسعد صاحب، المصدر السابق، ص٢٢٨، رقم ٧٣.

فالفيوضات لا تُؤخَذ إلا من أهل الله، فإن لم يكن في قلب المريد إخلاص، أو كان يأتي بأفعال مغايرة للأدب أمام أولياء الله، فلن يجد الفيوضات منهم.

أما المحبة فهي سبب في زيادة الفيوضات، فمهما زادت هذه الثلاث عند امرئ، كانت وسيلة لمزيد من الفيوضات.[١٠٦٣]

- لما كان مولانا خالد البغدادي يشرح «حديث جبريل»، ويذكر الحادثة التي جاء فيها جبريل u إلى النبي r وقعد على ركبتيه والتصقت ركبتهما، كان يقول:

«وحتى لو بدا جلوس جبريل u مخالفًا للأدب، إلا أننا نتعلم من هذه الحال أنه:لا يجوز الاستحياء في تعلم الدين، ولا يليق الغرور والكِبر بالمعلِّم.

فعلَّم جبريل u الصحابةَ الكرام بهذه الحال ضرورةَ أن يسأل كل شخص معلِّمه في المسائل الدينية بِحُرية وبغير تردد أو ملل. إذ لا حياء في تعلم الدين وتعليمه وأداء حق الله تعالى.[١٠٦٤]

- كيف ينبغي لمن تشرف بالإسلام النوم عن محافظة أمانة الحق تعالى وهو القيام؟.[١٠٦٥]



١٠٦٣ خالد البغدادي، الرسالة الخالدية، ص٢-٣.

١٠٦٤ كماحلي فيض الله، المصدر السابق، ص١٢.

١٠٦٥ الخاني، الحدائق، ص٦٩٧.



٣١- السيد طه الحكَّاري (رحمه الله)

[توفي سنة ١٨٥٣م]

من نسل رسول الله r ومن أحفاد الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني، أبوه السيد مولا أحمد بن صالح الجيلاني.

بعد أن أتمَّ حفظه للقرآن في صغره شرع يدْرسُ العلوم، فذهب إلى مراكز العلم آنذاك مثل السليمانية وكركوك وأربيل وبغداد، ودرس التفسير والحديث والفقه على يد كبار العلماء، وتعلَّم فنون ذلك الزمان وآدابه.

وقد ذكر السيد عبد الله الشمديني (رحمه الله) مرةً للشيخ خالد البغدادي ابنَ أخيه السيد طه الحكَّاري واستعداداته العظيمة، فطلب مولانا خالد (رحمه الله) منه أن يأتي به في المرة القادمة.

وقد اعتنى مولانا خالد رحمه بأمر تربية السيد طه، فصار (رحمه الله) صاحب أخلاق سامية وأحوال معنوية عالية في مدة قصيرة، واستُخلِف بعد ذلك.

ولمَّا أرسله مولانا خالد (رحمه الله) إلى (بردسور) لإرشاد الناس هناك ودَّعه برفقة كثير من أصحابه، وأمسك له رِكَابَ فرَسه، فلما أراد طه الحكَّاري (رحمه الله) أن يمنعه عن ذلك قال له شيخه:

«أودُّ أن أمسك رِكابَك لمحبتي لآل رسول الله r ، فأرجوك أن لا تمنعني».

فأمسك مولانا خالد (رحمه الله) لِجام الفرس ومشى مدة ثم توقف، وأعطى الشيخَ طه اللجام، وقال:



«اللِّجام في يدك بعد الآن، فقد قطعت كثيرًا من المراحل في هذا الطريق المعنوي. وليكن الله تعالى عونك وهِمَّةُ الأكابر ملجأك».

وبعد مدة قصير توفي عمُّ الشيخ طه الشيخ السيد عبد الله، فجاء إلى بلدة (نهري) التي كان يرشد فيها عمه واستمر بعده بالإرشاد. ومكث هناك اثنتين وأربعين عامًا يوزِّع على أمة محمد العلم والعرفان والفيض والروحانيات، فكان كثير من الناس يجتمعون إليه من كل حدب وصوب ينتفعون من منبع الإرشاد والنور هذا. وانتشرت خدماته من القفقاس إلى العراق وسوريا ومصر؛ ومن إيران إلى الأناضول وبلاد البلقان. حتى إنه استطاع أن يجيِّش الناس في حكَّاري وأذربيجان مع أخيه الشيخ صالح والمجاهد الصوفي الكبير في داغستان الشيخ شامل لمواجهة الجيش الروسي في الحرب التي اندلعت بين العثمانيين والروس سنة ١٨٥٣م.

وقد خرج الشيخ السيد طه (رحمه الله) بجيش متطوع عظيم ليساندوا الجيش العثماني الذي يحارب الروس.[١٠٦٦]

فضائله

كان طه الحكَّاري (رحمه الله) يطوف المدارس كل يوم، ويرى تعليم الطلاب فيها، ويحلُّ مسائل المدرِّسين العصيَّة عليهم، فصارت بلدة (نهري) كمملكة النمل في تعاضد أبنائها وتعاونهم، وامتلأت بالصالحين والطلاب. وكان ذلك المكان المبارك لا يخلو البتة من ذكر وتفكر وعبادة وطاعة ليلًا ونهارًا، ويُكرَمُ فيها الفقراءُ والضيوف ويُطعَمون من الزاوية الصوفية، ويُقام (ختم الخواجكان) بعد صلاة العصر، ثم يُقرَأ من مكتوبات الإمام الرباني، ويُطعَم فيها الناس قبل صلاة المغرب، ويُحرَص على إحياء ما بين المغرب والعشاء بالذكر والتفكر والعبادات.

١٠٦٦ صالح أوجان، كلمات شيوخ النقشبندية المقدسة، ص٦٩، دار حضور للنشر، إسطنبول ١٩٨٣.



ولم يكن طه الحكَّاري (رحمه الله) يُهمِل أحدًا من طلابه، بل يسأل عن أحوال كل واحد منهم، ويسعى لتفريج كربة المَكروب فيهم، ويولي أهمية لصلة الرحم، ويلبِّي حاجات المحتاجين. ولم يكن يلتقي بالحُكَّام الغافلين تنفيذًا لوصايا شيخه، غير أنه كان يكتب إليهم الرسائل كي يقضي حاجات بعض المسلمين.

لقد كان الشيخ طه الحكَّاري (رحمه الله) يحب رسول الله r وصحابته الكرام حبًّا عظيمًا، وكان يذهب (رحمه الله) إلى جبل شرقي مدينة (شمدينلي) قرب الحدود الإيرانية التركية اليوم مرتين في العام. إذ يُروَى أن هذا الجبل وصل الصحابة الكرام إليه في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب t أثناء الفتوحات، واستشهد قسم منهم على ترابه، وسمِّي الجبل منذ ذلك الوقت باسم جبل شهيدان (أي الشهداء). فكان الشيخ (رحمه الله) يتأمل في الشهداء الذين سقطوا هناك كل مرة.

وكان الشيخ طه (رحمه الله) يسارع إلى خدمة الناس في كل أمر. وقد قرَّر مرةً أن يقيم طاحونة في أسفل بلدة (نهري)، فأعدَّ خطةَ بنائها بنفسه، وحملَ الحجارة على ظهره مع طلابه لبنائها. وبعد أن عملوا لأيام أتموا بناء الطاحونة، فكانت تحفة فنية.

مُكاتبَته شيخه

أرسل الشيخ خالد البغدادي للشيخ السيد طه الحكَّاري مكتوبًا قال فيه:

«وأنا أرجو... أن يشغلني [الله] وإياكم في رضاه، ويصرفني عما سواه، وأن لا يصدَّني بالمتاع القليل المحتقر عما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».[١٠٦٧]

١٠٦٧ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص٢٦٥-٢٦٦، رقم: ٩٧.



«السيد طه العزيز، كنْ في أمان الله تعالى، واحذر من الشهرة التي هي آفة الآفات! وقد يولِّد فيك كثرةُ الطلاب العُجْب، فالحذر الحذر فذلك ابتلاء عظيم للرجل. وليحفظك الله تعالى من هذه الآفة! آمين.

واعلم أن الميل إلى الحكَّام الظلمة سمٌّ قاتل يقتل الروح! ولا بدَّ من النأي عن التقرب إليهم بالمديح وحلو الكلام، وعن الإتيان بأمور تحط من قيمتك كي تنال رضاهم. وأدعو الله أن لا تجتمعوا مع الحكَّام الظلمة. ولا ينبغي إجابتهم حتى لو دُعيتُم. والجواب على مثل هذه الدعوة:

(إننا دراويش عملنا تقليل الارتباط بالدنيا، والدعاء لسلطان المسلمين الذي يخدم هذا الدين. وإننا لا نعلم ما يناسب مراسم مجالس السلاطين! فأعذرونا من ذلك!)

ولا بد من الابتعاد عن أماكن الفتنة، والاستقرار في الأماكن التي يُخدَم فيها الدين...».[١٠٦٨]

وكان طه الحكَّاري (رحمه الله) يرشد مريديه وخلفاءه بالمكتوبات دائمًا. ويقول في أحدها:

«محبتنا للدراويش رأس مال سعادة الدنيا والآخرة، ولا بد من المحافظة على شيئَين:

١- اتباع سيدنا محمد r صاحب الشريعة.

٢- محبة الشيخ الذي يتَّبع هذا النبي والإخلاص له.

فإن حصل هذان الشيئان فكل ما يعطونك إياه نعمة، وإن لم يعطوك شيئًا فليس ذلك بالهمِّ، لأنك ستُعطى في النهاية لا محالة. وإن حصل تقصير في هذين الشيئَين- والعياذ بالله- ومع ذلك استمرت اللذات والأحوال المعنوية

١٠٦٨ اللجنة، موسوعة الأولياء، جـ١١، ص٤١١.



كما هي، فاعلم أن تلك الأحوال حيل واستدراج، ولا بد من النظر إليها على أنها أمور ستفسِد الإنسان، فهذا هو الصراط المستقيم، وما التوفيق إلا من الله تعالى، والسلام.

العبد الفقير السيد طه الحكَّاري النقشبندي».[١٠٦٩]

توفي الشيخ طه الحكَّاري في بلدة (نهري) القريبة من شمدينلي في مدينة حكَّاري التركية سنة ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م)، ودُفِنَ فيها. وسُمِّيَت بلدة (نهري) التي كان عدد سكانها ١٦,٠٠٠ نسمة أيام العثمانيين باسم (باغلار) في أيامنا هذه.

من حِكَمِه

- نفع المنتسبين إلى هذه الطريقة العليَّة يصل إلى آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم.[١٠٧٠]
- لا تدفنوا أعمالكم في التراب! فإعجاب المرء بنفسه كإفنائه أعماله بدفنها في القبر. ولا شيء يجعل الأعمال هباءً منثورًا مثل العُجْب.[١٠٧١]
- فِرَّ من منكري أولياء الله ومن أهل البدع فرارك من الأسد! إن قلب آكل طعام المُنكِر يموت أربعين يومًا عن الذِّكر. ولو كان هؤلاء المنكرون في زمن رسول الله r لما آمنوا به.[١٠٧٢]
- من الناس من يعمل وفقًا للشريعة وعنده إخلاص ومحبة، فذلك- بلا ريب- من أولياء الله ولو لم تظهر منه أي كرامة! ومِن الناس مَن لا يكون عنده

١٠٦٩ انظر: عبد الرحمنماميش، خالد البغدادي، ص٣٣٨.

١٠٧٠ انظر: صالح أوجان، المصدر السابق، ص١٦٣، ١٠٨، ١١٨، ١٢١، ٢٣١، ٢٥٧.

١٠٧١ صالح أوجان، المصدر السابق، ص١٥٦.

١٠٧٢ صالح أوجان، المصدر السابق، ص٤٤.



إخلاص ولا محبة ولا عمل صالح، وقد تظهر منه كرامات، لكنها ليست بكرامات بل استدراج، فليحفظنا الله جميعًا من الوقوع في هذه الحال.[١٠٧٣]

- كان الشيخ طه الحكَّاري يشرح الحديث الشريف: (فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفًا) بقوله:

«المقصود من (السواك) في الحديث تنظيف الأسنان بالسواك، وكذلك تعني هذه الكلمة «مِن سِواك». فيمكن أن يكون معنى الحديث الشريف عندئذ:

(ركعة تصليها تاركًا نفسك والأمور الدنيوية ومتوجهًا إلى ربك شاعرًا بالطمأنينة به، خيرٌ من سبعين ركعة تصليها بغفلة)».[١٠٧٤]



١٠٧٣ صالح أوجان، المصدر السابق، ص٣٠٠.

١٠٧٤ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٢٠٢.



٣٢- طه الحريري (رحمه الله)

[١٨٠٣- ١٨٧٥م]

وُلِد الشيخ طه الحريري في بلدة حرير في أربيل التابعة لولاية الموصل سنة ١٢٢٠ هجرية (١٨٠٣م). وبدأ بأخذ العلوم في أربيل، وحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدارس بغداد ونال إجازة عالية. وبعد أن أكمل علوم الظاهر انتقل إلى خدمة خليفة مولانا خالد البغدادي في أربيل الشيخ هداية الله أفندي (رحمه الله) الذي كان جدَّ الشيخ محمد أسعد أفندي.

وبعد مدة رأى الشيخُ طه الحريري في منامه السيد طه الحكَّاري (رحمه الله) الذي كان شيخ عصره، ثم زاره فأجازه الشيخ الحكَّاري.

لقد كان طه الحريري (رحمه الله) شيخًا عالمًا يلقى الاحترام والتقدير، وانشغل بإرشاد الناس في أربيل والموصل قرابة أربعين سنة. وكان في صُحَبِه مثل شيخه يقرأ مكتوبات الإمام الرباني ويشرحها.

وقد توفي الشيخ طه الحريري (رحمه الله) الذي كان قطب زمانه في الإرشاد سنة ١٢٩٢ هجرية (١٨٧٥م). وقبره اليوم في بلدة حرير.[١٠٧٥]

وقد بيَّن طه الحريري (رحمه الله) لدى قرب أجله أنه يريد أن يستخلف الشيخ محمد أسعد أفندي، لكن الشيخ أسعد أفندي رجا من الشيخ طه أن يوكل هذه المهمة العظيمة لولده، فقال الشيخ طه (رحمه الله):

١٠٧٥ محمد أسعد أربيلي، الرسالة الأسعدية، ص٧.



«إن ولدي سيعيش ما عِشْتُ، ولن يكون بعدي. وقد أودعت هذه الأمانة عندك لأني أراك أهلًا لها».

وبالفعل توفي ابن الشيخ طه الحريري بعده بستة أشهر، واستمر محمد أسعد أفندي بمهمة الإرشاد[١٠٧٦].

من حِكَمِه

- مَثَلُ السالك من أهل الكشف والسالك من غير كشف، كمثَلِ رجلَين يسيران إلى الحجاز أحدهما يرى والآخر لا يرى، فهما يقتربان من غايتهما طِوال الطريق، غير أن ثواب الذي لا يرى أعظم. فالسالك الذي ليس له كشف في السير والسلوك أعظم ربحًا من صاحب الكشف لأنه يرتقي دائمًا وإن لم يكُ يرى.[١٠٧٧]
- يقول الشيخ محمد أسعد أفندي (رحمه الله):

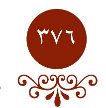
«كان أستاذي الشيخ طه الحريري (رحمه الله) يقول أن الحيوانات تعبد الله أكثر من الإنس».[١٠٧٨]



١٠٧٦ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٢٠٥-٢٠٨.

١٠٧٧ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، المصدر السابق، ص٢٠٨.

١٠٧٨ كارل فيت، مذكرات من تكية كلامي، ص٢٣٧.



٣٣- محمد أسعد أربيلي (رحمه الله)

[١٨٤٧- ١٩٣١م]

وُلِد الشيخ في أربيل الواقعة في ولاية الموصل سنة ١٢٦٤ هجرية (١٨٤٧م). والدُه الشيخ محمد سعيد أفندي شيخ التكية الخالدية في أربيل، وجدُّه الشيخ هداية الله أفندي خليفةُ الشيخ خالد البغدادي. وهو من آل البيت من أبيه وأمه[١٠٧٩].

أكملَ أسعد أفندي (رحمه الله) علوم الظاهر في شبابه، ولمَّا لم يوافِق زمانَ إرشادِ أبيه، انتسبَ إلى قطب الإرشاد آنذاك الشيخ طه الحريري. وبعد سنة أُجيزَ في تعليم الراغبين بدخول الطريقة، وشرَعَ بعد خمس سنين بالإرشاد في مقام شيخه بعد أن أمرَهُ بذلك.

نال الشيخ أسعد أفندي (رحمه الله) الإجازة سنة ١٨٧٥م، وفي تلك السنة توجه إلى الحجاز للحج. وسمع خبر وفاة شيخه وهو في حجِّه، فجاء إلى إسطنبول. ولما رأى العارفون كمالَ أحواله، اجتمعوا حوله، ورأوا كمال علمه في الدروس التي كان يعطيها في جامع الفاتح، فانتسب إليه شيخ جامع بيازيد الشيخ يكتا أفندي وأمثاله من كبار المشايخ. وسمعَ الناس في إسطنبول في مدة

١٠٧٩ حسين وصَّاف، سفينة الأولياء، مكتبة السليمانية، رقم: ٢٣٠٦، جـ٢، ص١٩١؛ حسن كامل يلماز، «محمد أسعد أربيلي»، أولياء الله من عصر الصحابة إلى يومنا، إسطنبول ١٩٩٦، جـ٩، ص٣٦٩.



قصيرة عن علمه الغزير ومعارفه وفضائله، وقد دعاه خالد باشا صِهر السلطان عبد الحميد الثاني (رحمه الله) إلى القصر وتعلَّم على يديه العربية وعلوم الدين سنةً ونصف سنة.

وأجازَ عبد الحميد بيريفقاني الشيخَ أسعد في القادرية، إلى جانب إجازته في النقشبندية، ثم عُيِّنَ في (تكية كلامي) واستمر فيها بالإرشاد. وانتسب إليه علماء منطقة الفاتح في إسطنبول وعلماء آخرون كثر، وحضروا مجالسه وحلقات ذِكره، ومِن الذين انتسبوا إليه من كان يرى في الماضي الانتسابَ إلى الطريقة ضلالًا. فكان هؤلاء كلما داوموا على حضور دروس الشيخ أسعد، زالَ تعصبهم وصاروا مريدين مخلصين للشيخ.[١٠٨٠]

وكان يجتمع في تكيَّته العلماءُ، وشيوخ القُرَّاء، وشيوخ المساجد، والباشاوات، والحُكَّام، والضبَّاط، والمثقفون، وعامة الناس. وكان يتساوى في مجلسه الضابط ذو الرتبة الرفيعة، والموظف، والغني، والفقير الذي يأتي بثياب بالية، مجسِّدين بذلك المعنى الحقيقي للأخوة في الدين.

ولمَّا رأى السلطان عبد الحميد الثاني عِلمَ الشيخ أسعد أربيلي ورُشدَه ورفعة شأنه، عيَّنه عضوًا في مجلس المشايخ.[١٠٨١] وعُيِّنَ الشيخ أسعد أفندي (رحمه الله) رئيسًا لهذا المجلس في عهد السلطان محمد رشاد، وأرسله السلطان رشاد إلى الحج أمينًا على «**الصُّرَّة**»[١٠٨٢] لمحبته له.

١٠٨٠ حسين وصَّاف، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٢؛ حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٢١٠-٢١١؛ الموسوعة الإسلامية، جـ١١، ص٣٤٨.

١٠٨١ مجلس المشايخ: مؤسسة مرتبطة بشيخ الإسلام أُسِّسَت سنة ١٨٦٦م لتفتيش التكيَّات والنظر في شؤونها الإدارية.

١٠٨٢ أمين الصَّرَّة: المسؤول الإداري عن «الصَّرَّة الهمايونية» التي كانت تُرسَل كل سنة إلى الحرمَين. وكان يُكلَّف بهذه المهمة لعِظَمها عسكريٌّ أو مدنيٌّ أو رجلُ علم مشهور بتديُّنه واستقامته.



لقد كان أسعد أفندي (رحمه الله) يبذل جهدًا كبيرًا في إرشاد الناس وتربيتهم، إذ كان يذهب إلى المناطق النائية في إسطنبول وغيرها من المدن، أو يرسل إليها خلفاءه، كي يكون سببًا في هداية أناس أكثر ويخدمهم. وكان يرشد الناس في (تكية كلامي) وغيرها من التكيَّات الصوفية، لذلك صار له طلاب في كل مكان في الأناضول، حتى إن تأثير الشيخ بلَغَ ألبانيا والبوسنة.



كان أسعد أفندي (رحمه الله) وليًّا باسِمَ الثغر، ليِّن القول، ذا وقار، رفيع الشأن. وما يلفت الانتباه في شخصيته تواضعُه ورأفتُه وظرافتُه التي تظهر حتى في مؤلفاته. إذ لم يكن يتكبَّر أبدًا، بل كان محبًّا للمولى جلَّ وعلا بقلب طاهر متواضع يفيض شوقًا للوصال. وكان يخاطب الناس بِرِفق ويستعمل ألطف العبارات.

كان أسعد أفندي (رحمه الله) مطلعًا على علوم الظاهر والباطن، ضليعًا بالعلوم الإسلامية كلها، مزيِّنًا طِباعه بالأخلاق الفاضلة. وكان متعمِّقًا في الأدب، لاسيما أشعار العشق الإلهي. وله ديوان شعري بأربع لغات.

وجميع أشعاره ومكتوباته تفيض بالمحبة، وصرخاته الملتهبة التي تخرج من أعماق قلبه كأنها تُذكِّرنا بقول مولانا جلال الدين الرومي: «كنت خامًا، فنضجت، فاحترقت».



عندما أُعلِنت الجمهورية التركية بعد انتهاء الخلافة العثمانية وأُغلِقَت التكيَّات، قرَّر أسعد أفندي (رحمه الله) عدم الخروج إلى الشارع، والاعتزال في بيته في أرنكوي.

وقد توفي الشيخ أسعد أفندي، الذي عاش حياته كلها خادمًا ومرشدًا في سبيل الله، شهيدًا بعد أن دُسَّ له السُّمُّ ولاقى الظلم العظيم، وعمره أربعة وثمانون عامًا، وكان ذلك في ليلة الرابع من آذار/ مارس سنة ١٩٣١م.



ومن كراماته أنه أخبر عن وفاته شهيدًا في البيت الذي قال فيه:

أَيُغسَل شهيد العشق بالنار؟

والجسد نار، والكفن نار، وحتى الماء العذب نار

وأولياء الله العِظام يحيون في قلوب الناس حتى بعد وفاتهم، وذلك بإرشاداتهم في مؤلفاتهم ومكتوباتهم وأشعارهم، والأهم من ذلك كله بالشيوخ الكاملين الذين ربَّوهم.

ونودُّ هنا أن نعرض لكم بعضًا من مكتوبات الشيخ أسعد أفندي المليئة بنصائح تُحيي القلوب الميِّتة:

الإخلاص

«إن الترقي في الطريقة لا ينحصر في كثرة الذِّكر والأوراد، فالإخلاص في القلب والمحبة بصدق لها تأثير كبير في هذا الأمر، وذلك جليٌّ لأهل الطريقة... ولا يستطيع المذنبون الذين لا يُطيعون الله تعالى ولا يبالون بأوامر الشريعة أن يكونوا أبدًا من أولئك الذين ينظرون بنظر أولياء الله ويحظون باهتمامهم».[١٠٨٣]

«إن أخاكم العاجز هذا [يعني نفسه] ما فتئ يسعى لإكمال أصل الإيمان، ويجتهد لذكر كلمة التوحيد بالحال واللسان. فمن العسير قول «لا إله إلا الله» ما دام هناك مطلوبٌ- أي صنمٌ بلغة التصوف- في القلب غير الله جلَّ وعلا. وإن ذُكِرت كلمة التوحيد باللسان فلا يعني ذلك أنها أهلٌ للقبول ووسيلة للوصال».[١٠٨٤]

١٠٨٣ محمد أسعد أفندي، مكتوبات، ص٥٨، رقم: ٣٠.

١٠٨٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦٣، رقم: ٣٥.



« (من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة) حديث شريف، لكن في حديث آخر ذُكِرت كلمة (مخلِصًا).[١٠٨٥] فلا بد من الإخلاص في النية بتطهير النفس من أمراض القلب وسيئاته مثل الرياء والكِبر والحسد والطمع والبخل. ولا يخفى على أحد أنه عندما يكون مرض في المعدة والصفراء، فلن تدوم لذة ألذ الأطعمة ولن يكون لها أي فائدة. وعندما يكون أحد الأمراض (القلبية) التي ذكرناها أو بعضها، فلن تكون العبادات الظاهرة وحدها كافية لنيل رضا الله سبحانه وتعالى وبلوغ نِعَم رضوانه. يقول الله تعالى: **(أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)**[١٠٨٦] اللهم أكرمنا بعبودية وعبادات خالصة لوجهك الكريم! آمين!».[١٠٨٧]

وقد روي عن الإمام الزهري وهو من كبار التابعين أنه سُئِل عن قول النبي r :

«من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فقال: «إنما كان هذا في أول الإسلام قبل نزول الفرائض والأمر والنهي».[١٠٨٨]

أي إنه من الضروري عيش أحكام الكتاب والسنة كلها بعد كمال الدين.

القلق من المستقبل

كان الشيخ أسعد أفندي (رحمه الله) يلفت الانتباه إلى الحياة الأبدية التي هي المستقبل الحقيقي، ويقول في ذلك:

«أَيوجد بين الناس، الذين ميَّزهم الله عن مخلوقاته بالعقل والمعرفة، مَن لا يودُّ أن يكون له حظٌّ عظيم ولا يسعى لتأمين مستقبله؟ كلا. لكن ما أكثرَ مَن لا

١٠٨٥ الطبراني، المعجم الكبير، جـ٥، ص١٩٧. ولَمَّا سُئِل رسول الله r عن إخلاصه، قال: «إخلاصه أن يحجزه عما حرم الله عليه». (الطبراني، الأوسط، جـ٢، ص٥٦).

١٠٨٦ الزمر: ٣

١٠٨٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٥٠، رقم: ١٢٢.

١٠٨٨ الترمذي، الإيمان، ١٧/ ٢٦٣٨.



يدرك المستقبل الحقيقي، أي مَن لا يضع أمام عينَيه رحلة الآخرة التي يُعدُّ القبرُ أولى خطواتها. وهنا أقدم لأمثال هؤلاء من إخواني في الدين هذه النصائح:

١. أن يقارنوا بين حياة الدنيا التي قد لا يكون أقصى مدتها مئة عام وحياة الآخرة التي لا يمكن تصوُّر نهايتها.

٢. أن يعرفوا أنه لا يمكن بلوغ السعادة في الآخرة والسلامة الأبدية إلا بتطبيق أحكام الشريعة الغرَّاء والطريقة السامية، وإتيان الأوامر والتكاليف المرتبطة بالنفس والمال، كما أن الجميع يتَّفقون على حقيقة أنه لا يمكن تلبية حاجات الجسد والأمان في الدنيا إلا ببذل النفس والمال بسخاء، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[١٠٨٩]

٣. أن يتدبروا أهمية الآية الكريمة التي خاطب بها المولى سبحانه وتعالى أهلَ الإيمان فقط، وتكون مُنطلَقَهم، حينما قال:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[١٠٩٠]

ولا ريب أن الله تعالى العليم الحكيم لم يضع في كتابه الكريم كلمةً زائدةً ولا حتى حرفًا زائدًا، ولا يأمر سبحانه وتعالى بأمرٍ إن لم يكن لازمًا قطعًا. ومن المعلوم أن الأدباء وأصحاب العلم والعرفان وهم عباد الله لا يتكلمون بفضول الكلام، فكيف برب العباد!

اللهم أكرِمنا بعقل يفكر في الآخرة ويدرك لزوم إنارة ظلام القبر قبل رؤيته، مثلما يدرك عقلنا في الدنيا لزوم الإعداد للشتاء القاسي قبل مجيئه! واحفظنا يا رب من الندامة بعد الموت! آمين!».[١٠٩١]

١٠٨٩ التوبة: ١١١

١٠٩٠ التحريم: ٦

١٠٩١ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦-٧، رقم: ٢.



«إن كلمة (تأمين المستقبل) التي يستعملها أصحاب الكمال ضروريةٌ لو لم تكن لها علاقة بالأشياء التي تفيد في إكمال حياتنا المحدودة في هذه الدنيا الفانية. أما العقلاء ذوو البصيرة الذين ينظرون إلى الحقيقة فسيعرفون بكل يُسرٍ أن المقصود من كلمة (المستقبل) إنما هو حياة الآخرة الأبدية التي سيُحاسَب فيها كل إنسان وحده.

لذلك إن كانت هناك لحظة نأسف عليها في الأوقات التي ضيَّعناها من رأسمال حياتنا، فهي اللحظة التي ابتعدنا فيها عن الذِكر والتفكر اللذَين هما وسيلة تأمين المستقبل. فليحفظنا الله وإياكم من أن نكون من عباده الذين يضيِّعون أوقاتهم في غفلة فيندمون! اللهم أدخلنا في زمرة عبادك الصادقين الذين قلت عنهم في الحديث القدسي: **(أنا مع عبدي حيثما ذكرني)**[١٠٩٢] آمين!».[١٠٩٣]

«ماذا سيكون جوابنا إن حاسبنا الله تعالى صاحب المُلك والملكوت يوم القيامة وقال:

(عبدي، كيف أتيت بفعلٍ نهيتك عنه وأنا الذي بين يديَّ حياتك وموتك، وسموُّكَ وذُلُّك، ويُسرك وعُسرك، وصحَّتك وعافيتك، وكل نفَسٍ من أنفاسك؟ وبأي عقلٍ أطعتَ الشيطان الملعون عدوَّ سعادتك؟ عبدي، أظننتَ أني لا أرى ولا أعلم؟ أو أنك لم ترَ أمام حضرتي ضرورةً للحياء والاحترام الذي تقابل به عبدًا عاجزًا مثلك؟) فبذكاء أي فيلسوف وبعلم أي محامٍ سنستفيد آنذاك؟ يا ولينا، يا ويلنا!».[١٠٩٤]

١٠٩٢ البخاري، التوحيد، ١٥.

١٠٩٣ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٥٥، رقم: ٢٧.

١٠٩٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦٤-٦٥، رقم: ٣٦.



الذِّكر

كان أسعد أفندي (رحمه الله) يوصي مريديه بالذِّكر الدائم ويقول:

«أدعو الله أن يرزقكم قلوبًا مُبصرة، وأفئدة مستبصرة، ينضح الذكر من ذرَّاتها، كما يفوح الرحيق من الزهور، والأريج من العطور ؛ آمين...».[١٠٩٥]

«أدعو الله أن ألقاه بقلب ذاكر سليم من الدنيا، معافى من رغباتها، غير مفتون بشهواتها، مكلَّلاً بتاج الشريعة، متوَّجًا بشرف السُّنَّة، وحالي معه سبحانه الذِّكرُ الدائم، وحاله معي المعيةُ التي لا تنقطع...».[١٠٩٦]

«على كل متوجِّه إلى الحق تعالى أن يعوِّد لطائِفَه كلها على الذكر لأنها تحتاج إلى تطهير، ومَنْ يريد تطهير قلبه، عليه أن يذكُرَ الله بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه، كما هو حال الإنسان الذي يريد أن يُطهِّر جسده فتراه يغسل كل جزء من بدنه وحتى كلَّ نقطة أثناء الغسل».[١٠٩٧]

«إذا أراد المرء أن يخدم وينال الدرجات السامية لخدماته، فليخدم الله تعالى وحده! ولينظر إلى ما سواه على أنه ميت لا نفع منه ولا ضرر، عندها يكون قد نطق بكلمة (لا إله إلا الله) حقًّا وعاشها فعلًا. وكما تعلمون فإن اسم (الله) الشريف اسمٌ خاص بذاته العلية يجمع الأسماء كلها؛ فكلمة (لا إله إلا الله) عندها تعني (لا إله يلطف بعباده، ويحميهم، ويرزقهم... إلا الله). فأرى أنه على المرء أن يُحيي قلبَه بالذِّكر الشريف، ويسعى لنقش كلمة التوحيد في قلبه كي يكون مؤمنًا كاملًا».[١٠٩٨]

١٠٩٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٠٠، رقم:٦٩.

١٠٩٦ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٠٠، رقم: ٦٩.

١٠٩٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٤٠، رقم: ١١٢.

١٠٩٨ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٤٦، رقم: ١١٨.



التفكر

كان أسعد أفندي (رحمه الله) يحثُّ على التفكر في بدائع خلق الله في الكون وأخذ العِبر منها، ومن أمثلة تفكره قوله:

«ما أعظمَ الخالق الذي جعل النطفة علقة، ومنها خلق العظام وكساها لحمًا، وأكمل خلق أعضاء الإنسان، وجعله في أحسن تقويم، ونفخ فيه الروح!. ثم جعل الله تعالى لذلك الوليد الصغير الذي لا يقدر إلا على البكاء خادمَين رحيمَين كانا أبًا وأمًّا له، وأكرمه بحليب الأم طعامًا لذيذًا لا يحتاج إلى ماء أو نار أو ملح أو وقت، ثم جعله ينضج في كل لحظة بتجلٍّ من تجلياته. فما أكرم هذا المبدع الذي يقوم بكل ذلك على أكمل وجه سبحانه وتعالى! وعلينا أن نتفكر في نِعمه الكثيرة التي لا تُحصى مثل الطعام واللباس والزينة والأسرة والإسلام والحضارة وأن جعلنا بشرًا، ونشكره على ذلك كله. وليس لنا من معين وصاحب إلا الله تعالى في ظلمة القبر وفي يوم عصيب يُحشر فيه الناس جميعًا!».[١٠٩٩]

«يقول الشيخ سعدي:

إن السُّحب والرياح والشمس والقمر في السماء كلها تعمل لأجلك، فاحذر من أن تأكل بغفلة الخبزَ الذي أكرمك الله به!

ولا بد من السعي للشكر والتفكر في نِعَم الله تعالى الذي بيده أمر السُّحب والمطر والرياح والشمس والقمر، والذي بآثارها الحسنة يجعل معيشة الإنسان وعافيته تدوم. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين! آمين! ولا تجعلنا من عبادك الجاحدين الذين يجحدون مائدة اللطف والإحسان التي أكرمتها لنا، فأنت وليُّ نعمتنا القادر على كل شيء!».[١١٠٠]

١٠٩٩ انظر: محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٤٥-٤٦، رقم: ١٩.

١١٠٠ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٥٣-٥٤، رقم: ٢٦.



«هل لنا أن نتصور وليَّ نعمة في الدنيا مثل مولانا سبحانه وتعالى الذي خلق أجسامنا وأعضاءنا وصحتنا وعافيتنا وطعامنا ونِعمنا وأكرمها لعباده على أفضل صورة! وأي آمِرٍ- ولو كان آمِرًا على رجل واحد- نجده يترك رجاله دون عقاب بعدما لم ينفذوا أوامره مرات ومرات، ثم يعفو عنهم! إننا تحت حكم الله تعالى الغفَّار القهَّار، ونعيش في زاوية من ملكه، ونسترزق من مائدة نِعمه كل يوم؛ فعلينا عقلًا ومنطقًا ووجدانًا أن نطيع أوامره ونعبده حقَّ العبادة، فلسنا نعلم ما ستكون عليه أحوالنا غدًا يوم القيامة! ربي يسِّر ولا تعسِّر!».[١١٠١]

«إني أحب حالًا واحدةً لا غير من أحوال الشيخوخة، وهي أني أذكر كثيرًا أن الوقت انتهى واقتربت ساعة الرحيل. فلو كنتَ عملتَ من أجل الدنيا إلى الآن، لعلَّه كان معقولًا، لكن ماذا سيحدث بعد هذا؟ أَسترجع شابًّا؟ عليك بالحذر! وعليك بالإعداد ليوم تُنفِّذ فيه الأمر الإلهي (اِرجِعِي)! فعندما تفكر بمثل هذه الأشياء تعجز النفس عن الدفاع، ولا تجد جوابًا منطقيًّا. اللهم وفِّقنا جميعًا، ولا تتركنا في غفلة! آمين».[١١٠٢]

«إن التفكر في الموت يخفِّف من وقْعِ المصائب التي تقع على رأس الإنسان، وتيسِّر موته، وتقلِّل من محبة الدنيا التي تقلق الإنسان وتجرُّه إلى العذاب، لأن حبَّ المال والجاه والجمال في الدنيا والرغبة فيها بما يزيد على الحد، عِلَّةُ كلِّ ذنب وقلق. اللَّهُمَّ طهِّر قلوبنا من مثل هذه المحبَّات النفسانية، واجعلها محلَّ ذِكرك ومحبتك يا رب العالمين! آمين!».[١١٠٣]

١١٠١ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦٩، رقم: ٣٩.

١١٠٢ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٢٨، رقم: ٩٩.

١١٠٣ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٤١، رقم: ١١٣.



اترك الحرام أولًا!

يوصي أولياء الله تعالى كلَّ مَن يريد الخضوع للتربية الصوفية أن يراعوا أوامر الله تعالى ونواهيه ويعيشوا في إطار القرآن والسنة قبل كل شيء، ثم يأذنون لهم بالانشغال بدروس التصوف. وكان الشيخ أسعد أفندي يبيِّن أن كل شيء منوط بهذا الأساس، وقد ذكر في بعض مكتوباته:

«نجد في الأحاديث الشريفة أنه ثمة سببَان مهمَّان لا بد من ذكرهما قبل ترك الحرام وعمل الصالحات التي ينال المرء بها الثواب، وهما:

١- دفع المفسدة أَولَى من جلب المصلحة. (أي لا يمكن الترقي في الدرجات المعنوية قبل تطبيق الشريعة).

٢- إتمام العبادات والطاعات فوق طاقة الإنسان. أما الحذر من المحرمات فكلُّ فرد قادر عليها- لقلَّتها- وفائدة ذلك أشملُ وأعمُّ.

حتى إني أستطيع القول إن ترك الذنوب أهمُّ طريق في تقدم العالَم الإسلامي وعلو شأنه، ودليل ذلك أن الملائكة المعصومة عن الذنب فطرةً والمحرومة من الثواب لعدم تركها المعصية لا تستطيع الترقي في درجاتها. وصفوة الكلام أن الحذر من الحرام وسيلةٌ للترقي المعنوي، ولكن ينبغي عدم نسيان منافع الحذر المادية وفوائده الجسدية. والحقيقة التي يعلمها أهل البصيرة أنه لا يمكن تعويض الضرر الذي يلحق بمال الإنسان ونفسه وشرفه وشأنه عند ارتكاب المحرمات».[١١٠٤]

«(إن الدروس التي تُعطى في التصوف مثل الذِكر والتفكر والصحبة إنما هي إرشادات ليرتقي المرء في الدرجات المعنوية). وإن كان ثمة مانع لتأثير هذا العلاج فهو الحِميَة (المعنوية)، أي عدم تجنُّب الأمور الواجب تجنبها وهي:

١١٠٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٣٧، رقم: ١٢.



١- السلوك المخالف للشريعة.

٢- محبة الزينة التي تكون إسرافًا.

٣- الألفة مع أهل الغفلة والقسوة وصحبتهم».[١١٠٥]

أي إنسان مكرَّم؟

«يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١١٠٦] . فمَن الإنسانُ المُكرَّمُ يا تُرى؟ أَهو ذلك الكائن المادي المخلوق من الطين؛ أي البدن؟ أم جنس الإنسان المميَّز عن غيره من الأحياء بقدرته على التفكر والكلام؟ لا شكَّ أنه لا هذا ولا ذاك. إذ لا يمكن البتة أن يكون مكرَّمًا مَن يأتي ما هو غير مشروع تلبيةً لرغبات نفسه الدنيئة، ولا مَن يكون أسير رغباته وأهوائه ويُنكِر الطريقة التي تنصر الشريعة وترتقي بالقلب. إن أهل العرفان والوجدان يرون أنه لا صفة تناسب مثل هذا الإنسان سوى الجهل، أما الإنسان المكرَّم المقصود في الآية إنما هو السعيد الذي يزيِّن ظاهره وباطنه بالأخلاق الحسنة بتزكيته نفسه، ويخدم الشريعة، ويطَّلع على الطريقة».[١١٠٧]

المحويَّة

ثمة أقوال حكيمة كتبها الشيخ أسعد أفندي عن التواضع في العبودية والعجز والمحوية، منها:

«من المعلوم أن المحوية أعظم شيء يليق بالقبول في أفعال العباد؛ أي على الإنسان أن يعلم أنه مخلوق ضعيف حقير عاجز، وأن كل شيء يملكه ملكٌ لله ولطف منه. والمثال الفعلي للمحوية السجود على التراب، وإلى جانب ذلك

١١٠٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٧٠، رقم: ٤٠.

١١٠٦ الإسراء: ٧٠.

١١٠٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٣، رقم: ١.



يقول الإنسان: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى﴾ أي ينزِّه الله تعالى عن النواقص من حيث القوة والقدرة والمُلك».[١١٠٨]

«كان شيخ النقشبندية عبيد الله أحرار يسعى للفوز بدعاء الخير ممَّن يلقاهم من إخوانه في الدين والعباد الصالحين، ولم يعتمد قط على أعماله وعباداته للفوز برضا الله سبحانه وتعالى ورحمته. إننا نفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١١٠٩]. أن العبد يستطيع بعمله وعباداته أن ينقذ نفسه من العصيان فقط، ولا يمكن أن يدَّعي أي فضيلة أخرى! وينتظر الفيض دائمًا من الوسائل القيِّمة مثل الأدعية والتوجه القلبي لعباد الله الأولياء».[١١١٠]

«إن الإنسان المقصِّر العاجز عن أداء الشكر لنِعَم الله الكثيرة التي لا يستطيع تقدير قيمتها مثل الإيمان، والعقل، والعرفان، والبدن المعافى، والقوى المعنوية، لن يرتقي معنويًّا ما لم يرَ نفسه مجرمًا مذنبًا مستحييًا؛ أي إنه لا يستطيع أن يكون إنسانًا مقبولًا عند الله تعالى. ولن يكون إيمانه بوحدانية الله واجب الوجود كاملًا، ولن ينجو من الشرك الأصغر، ما لم يعلم أن الكون كلَّه أمانة الله Y ».[١١١١]

والعبارات التالية التي توضِّح فناء الشيخ أسعد وتواضعه جليَّةٌ لكل قارئ:

«إن الفقير الداعي لكم يرى نفسه أدنى بكثير إن سعى لقياسها بالكون أو حتى بذرَّة من ذرَّاته، ولا يستطيع أن يرى نفسه أفضل من نملة عاجزة لا ذنب لها. لكن الله تعالى جعلَ أخاكم الفقير في أعينكم كبيرًا كي ينفع إخوانه في الدين، وذلك إرادة الله العلي القدير، فالحمد له سبحانه. وهو الذي يُخرِج من الناي الذي لا روح فيه نغمات وأصداء وألحان كثيرة كي يؤثِّر في العاشقين. وهو القادر على كل

١١٠٨ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٣١، رقم: ١٠.

١١٠٩ الذاريات: ٥٦.

١١١٠ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١١٨-١١٩، رقم: ٨٩.

١١١١ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٢١، رقم: ٩٢.



شيء، فليجعل الله عاقبتنا وخاتمة أعمالنا خيرًا! ولا يجعل نفوسنا المحتاجة لله تعالى في كل نَفَس متكبرة! (أي لا يجعلنا ننسى أن النعم كلها لطف وكرم إلهي، ويحفظنا من الغفلة كل حين) آمين! يقول رسول الله r :

«اللهم اجعلني شكورًا، واجعلني صبورًا، واجعلني في عيني صغيرًا، وفي أعين الناس كبيرًا»[1112].[1113]

«أودُّ أن أرجو لنفسي شيئًا، إنني أدعو الله تعالى أن يكرمني أولًا ثم إخواني بالإيمان الكامل، لذلك فإني محتاج إلى دعائكم بالخير! فلَعَلِّي أوفَّق بذلك، لإنني عندما أنظر إلى بعض العلامات، أجدني محتاجًا كثيرًا إلى الإيمان الكامل. فأرجو منكم أن توضِّحوا لإخواني الأمر! ولا يغفلوا... والحمد لله أنه سبحانه وتعالى قد أعلمنا بهذا التقصير، ولم يتركنا في الجهل المركَّب؛ أي عدم علمنا بأننا لا نعلم. **(ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)**[1114]».[1115]

«إن الكِّبر والأنانية ذنبان بل أعظم ذنبَين يحرمان العباد من كرم الله تعالى».[1116]

«إن قبول الدعاء مشبوه إن كان بغرور النفس والاعتماد على طاقتها وقدرتها. غير أن الدعاء إذا كان بانكسار في القلب واعتراف بعجز النفس وتقصيرها، عندها يزداد الأمل بقبوله. اللهم اجعل نفوسنا الأمارة ذليلة مغمومة، وأدخِل السرور على قلوبنا بمحبتك يا ذا الجلال والكمال! آمين!».[1117]

١١١٢ الهيثمي، جـ١٠، ص١٨١.

١١١٣ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٢٢، رقم: ٩٣.

١١١٤ الحديد: ٢١.

١١١٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٣٠، رقم: ١٠١.

١١١٦ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٣٨، رقم: ١١٠.

١١١٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٥٨، رقم: ١٣٠.



المحبة الحقيقية

يقول الشيخ أسعد أفندي (رحمه الله) في المحبة الإلهية:

«إن الإنسان الذي لا يجد في نفسه محبة جمال الله U ، من العسير عليه إثباتها فعلًا إن لم تكن موجودة أصلًا. وأكثر الناس يخدعون أنفسهم في هذا الشأن، فالإنسان إن أراد معرفة معنى المحبة، فعليه أن يتعلم ذلك من سلوكه أمام المال والأولاد. ذلك أنه يمضي أكثر أوقاته في التفكير فيهم، ولا يبعدهم عن ذهنه، ويضحي بكل ما يملك في سبيلهم، ويتوسل بكل وسيلة، ويتخلى عن راحته وطمأنينته كي يفوز بهم. فكذلك يجب أن تكون المحبة، غير أن الجزء الأعظم منها يجب أن يكون لله U ، لأنه الباقي والمعطي والرزاق والهادي والمربي، القائل في كتابه العزيز:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)[١١١٨]

إن الجهد في سبيل ما سواه تعالى ضائع تارةً وضارٌّ تارة أخرى، وهو فوق ذلك كله فانٍ لا يدوم».[١١١٩]

«يقول الله سبحانه وتعالى:

(مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)[١١٢٠]؛ أي إنه جلَّ وعلا لم يعطِ إنسانًا قلبًا مخصَّصًا لمحبة الله وآخرَ لمحبة ما سواه؛ فالقلب الذي يعدُّ بيت المحبة واحدٌ لا غير. وإن ارتبط القلب بإحدى المحبَّتَين فقَدَ الآخر أهميته، لذلك على المؤمن الكامل المتصوف أن يذكر الله تعالى بقلبه حتى عندما يكون لديه مشاغل كثيرة».[١١٢١]

١١١٨ إبراهيم: ٣٤.

١١١٩ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦٧-٦٨، رقم: ٣٨.

١١٢٠ الأحزاب: ٤.

١١٢١ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٧١، رقم: ٤١.

أمّتي أمّتي!..

لقد جعل أسعد أفندي (رحمه الله) الخدمةَ محورَ حياته، فكان يسعى دائمًا في سبيل نجاة أمة محمد ماديًّا ومعنويًّا، ويحث المؤمنين على ذلك. وقد قال مرةً:

«ليجعل الله تعالى قلوبكم حُجْرَة عشق ومحبة، ومنبعَ فيض وبركة! ولينقل عشقكم ومحبتكم إلى إخوانكم في الصحبة! فمن يفكر في حاله فقط ويهتم لنجاته، لا يليق بوراثة النبي r . إن مَن يتَّبع نهج رسول الله القائل: «أمتي أمتي» والذي لن يفكر في نفسه يوم القيامة إنما يسعى لإنقاذ عباد الرحمن، يعمل جاهدًا للتقرُّب من الله تعالى مع أنه في الصفوف الأولى (أي عندما يكون قدوة لغيره بأحواله كلها) ومن ورائه الذين يحضرون صحبه (بِحثِّهم على الحق والخير والتقوى وإرشادهم). ولا يلتفت إلى المشاغل الدنيوية التي تمنع العبادة والطاعة، فيعيش في سعةً دائمًا بفضل توكله، ويستغني عن الجميع».[١١٢٢]

«الشكر ليس بقول: (الشكر لك يا رب) فحسب؛ بل باستعمال النِّعم التي أكرمها الله تعالى بصورة تناسب الغاية من خلقها. وأكثر أنواع الشكر قبولًا الشكرُ الساري؛ أي العبادات (الاجتماعية) و(الخدمات) التي تفيد الإخوة في الدين».[١١٢٣]

الانتباه إلى حيل النفس

وضَّح الشيخ أسعد أفندي ضرورة الحذر من حيل النفس ومجاهدتها كل حين، وقال في عدة مكتوبات:

«قيل: (منْ عرف نفسه فقد عرف ربه)، فعلى المريد ألا يعوِّل كثيرًا على ما يراه من صلاح نفسه أثناء اتِّقاد محبته وحينما يكون بصحبة شيخه، ولا يعتمد كثيرًا على الأحوال الحسنة التي يراها في ذاته، فمثل هذه الأحوال من الإصلاح ظلالٌ

١١٢٢ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩١-٩٢، رقم: ٦٠.
١١٢٣ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٦٧، رقم: ٣٨.



معكوسة عليه، لا علاقة لها بالحقيقة، ولكي تكون هذه الأحوال الحسنة أصيلة في المريد، وتتجلى بالتمام فيه- أي التزامه بالأوامر والنواهي الإلهية كلها- فلا بد له أن يبذل الكثير من الجهد».[١١٢٤]

«إن أخاكم العاجز لم يطمئن قط لوجود عمل مقبول له عند الله تعالى... إنني لا آمَن من حيل النفس ودسائسها البتة. اللهم أكرمنا بإيمان حقيقي كي لا يكون إيماننا صورة فحسب! (اللهم اجعل الإيمان ينتقل من السيرة إلى الحياة!) آمين!».[١١٢٥]

«ليجعل الله تعالى الروحانية حاكمة عليكم والرغبات النفسانية بعيدة عنكم! وليجعل عقلكم المرتبط بالقلب غالبًا وشيطانكم مغلوبًا!».[١١٢٦]

«(الحر أمير نفسه) فاللهم اجعلنا آمرين على النفس الأمارة ونائلين للنفس المطمئنة، واجعلنا ممَنْ تخاطبهم بقولك: **﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**[١١٢٧] آمين!».[١١٢٨]

عدم الاغترار بالدنيا

يقول أسعد أفندي (رحمه الله) الذي كان يرى الدنيا نعمة قيِّمة أكرمنا بها الله تعالى للفوز بسعادة الآخرة:

«من المعروف أن المستأجر حينما ينتقل من بيت إلى آخر يحمل معه أشياءه كلها ولا يُبقي أي شيءٍ يحبه في بيته القديم، لكن ما يثير الحيرة حقًا أن الإنسان

١١٢٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٨٤- ٨٥، رقم: ٥٤.

١١٢٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٠٤، رقم: ٧٣.

١١٢٦ محمد أسد أفندي، المصدر السابق، ص٨٠، رقم: ٤٩.

١١٢٧ الفجر: ٢٩-٣٠.

١١٢٨ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٤٣، رقم: ١٧.

حين ينتقل إلى بيت القبر الذي يحتاج فيه إلى كل شيء، تراه لا يحمل شيئًا مما يحب ولو كان بسيطًا؛ (أي لا ينفق ما يحبه ليُرسَل قبل الموت إلى الآخرة)».[1129]

«الدنيا زمان محدود لا تستحق أن نهتمَّ بها، لكن لا بدَّ منها لأنها «مزرعة الآخرة»... والدنيا محترمةٌ ومقبولةٌ عند الباري U إن كانت وسيلةً للفوز برضا الله تعالى، وإلا فلا».[1130]

«ينبغي ترك المشاغل الدنيوية ما خلا الضرورية منها، لأن السعي وراء الأشياء الدنيوية الخدَّاعة الفانية كتعقب الظل، والوصول إلى الظل محال. إن الإنسان سيُخدَع ويَضِل إن قضى عمره الغالي في هذا الطريق، فعندما يستجيب للأمر الإلهي الجليل: (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ) يرى أن المساعي كلها لا نفع منها، وأنه لم يستعد للقبر الذي هو الوطن الحقيقي. أما الذين يبذلون جهدًا في سبيل رب العالمين ليفوزوا بالسعادة الأبدية، فيفوزون في الدَّارَين؛ والله تعالى يجعل الدنيا على حسب النية للآخرة. فاللهم احفظنا وإخواننا من الانشغال فيما لا طائل وراءه! واجعل جهودنا ومساعينا في سبيل السعادة الأبدية! آمين!».[1131]

كيف يترقَّى المجتمع الإسلامي؟

يوضِّح أسعد أفندي (رحمه الله) طريقة ارتقاء المسلمين مرة أخرى بقوله:

«إن مَن يُقلِّب صفحات التاريخ يرى أن العرب كانوا من قبائل كثيرة وعشائر شتَّى. وقبل أن يتشرفوا بالإيمان ويستنيروا بنور القرآن، كان البغض والعداوة والحقد منتشرًا بينهم، وكانت الحروب في الجاهلية لا تنقطع بما فيها من سلب ونهب وسفك للدماء. فكانوا يحيون في فقر وعوز وحاجة، ويُيتَّم أبناؤهم وتُثكَل أُمَّهاتهم. ولما أضاء سيد الكونَين r بنور نبوَّته اللمَّاعة تلك

١١٢٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص١٦، رقم: ٥.

١١٣٠ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٠٣، رقم: ٧٢.

١١٣١ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١١١-١١٢، رقم: ٨٢.



الظلمات، طهَّر بماء معرفته البرَّاقة الظلمَ والجهل. ولما جعل ذلك المجتمعُ المفكَّك الهزيل آياتِ القرآن دليلًا والأحاديث الشريفة قاعدةً، صار الحقدُ والعداوةُ محبةً وارتباطًا، والبداوةُ حضارةً، والفقرُ والحاجةُ رفاهًا وطمأنينةً. ولما أسسوا للعدل على هذه الصورة، نشروا أنوار الحضارة في أرجاء العالَم، حتى إنهم جعلوا أقوى دولتَين في ذلك العصر فارس والروم- على شوكتهما- تحت أقدامهم في مدة قصيرة. وانتشرت فتوحاتهم لتصل إلى أقاصي آسيا وجنوب أوربا في مدة قصيرة جدًّا. وأخضعوا الشرق والغرب لهم، فحَارَ أهلوهما من عدل المسلمين وإحسانهم. وأعلوا كلمة الله في الأرض، ورفعوا السعادة البشرية والأمن والأمان في المجتمع من أدنى درجة إلى درجة الكمال.

وبَرَعَ أكثر المسلمين بالتجارة، وقسمٌ منهم بالفن، وبعضُهم بالزراعة، وجماعةٌ بالتدوين والطب، فقدَّموا للحضارة الإنسانية خدمات في كل مجال، ووطَّدوا صرحَ الأخوَّة وأسَّسوا للحضارة، وارتقوا بفضل إخلاصهم وعدلهم حتى جعلوا المجتمعات كلها تصل إلى السعادة الحقيقة والسلامة المنشودة. فاللهم اجعل سعيهم مشكورًا وعملهم مبرورًا! آمين!

أما الآن فإننا في زمان ننحدر فيه بسرعة لا يتصورها عقل، حتى صارت العيون تبكي دمًا لما يجري، فالأسواق مفلسة، والبضاعة مزجاة. وكيف صار ذلك الترقي الذي كان بسرعة البرق فجأةً انحطاطًا بسرعة الرعد؟ فوا أسفاه على ما حدث، إلى أين ذهبَ ذلك الترقي العظيم؟ وأين ينتهي هذا الانحدار المخيف؟ والأبحاث في هذا الشأن تُظهِر أنه ثمة فرق كبير بين هاتين النقطتَين. إني أرى أقدام الباحثين في هذا الخسران العظيم عرجاء، وساحات المتخصصين فيه شديدة الضيق.

يقول المولى Y:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[١١٣٢]

١١٣٢ محمد: ٧.



إنني أُذكِّر هنا مرة أخرى أن سمو الأمة الإسلامية وعلو شأن أمة محمد لا يكون إلا بالخضوع لأوامر الله العليم العلَّام ونواهيه، والتمسك بسنة رسوله الشريفة. والمجتمع الذي يجعل شريعة الإسلام الغرَّاء تحكمُ بين أبنائها، والطريقةَ المنوَّرة تحفَظُ عقلها وأفكارها، يصل إلى أهدافه كما يصل الحُجَّاج إلى الكعبة بقولهم: «لبَّيك اللهم لبَّيك». وينالون سعادة مطلقة مثلما ينال الحُجَّاج سعادة عظيمة في البيت الحرام بأحاسيسهم الطاهرة، فعندها يطبِّقون الآيات الكريمة التي تأمر بالتعاون والاتحاد. ومصداق ذلك قولهم: (الدولة تولد بالاتفاق وتنهار بالنفاق)».[١١٣٣]

من حِكَمه

- إن لطائفنا الروحانية التي تترك مقامها الرفيع الأصلي وتنزل إلى الجسد السفلي وفيها القدرة على التجرد مرة أخرى والسمو إلى القمة لا ترتقي إلا بالمراقبة الدائمة.[١١٣٤]
- الخشوع يكون بكثرة الذكر والتفكر.[١١٣٥]
- لا يمكن تصور وسيلة مثل الإخلاص والمحبة لنيل ألطاف الله تعالى العظيمة وتلقي إحسانه العظيم، ولا يمكن أن تكون هناك فضيلة أعظم للمحتاجين من الخدمة.[١١٣٦]
- العلم المقبول عند الله إنما هو العلم المطبَّق بالأعمال الصالحة.[١١٣٧]

١١٣٣ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٧٦-١٧٨، رقم: ١٤٢.

١١٣٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٤٢-٤٣، رقم: ١٧.

١١٣٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩٥-٩٦، رقم: ٦٤.

١١٣٦ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٧٧، رقم: ٤٧.

١١٣٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩٥، رقم: ٦٤.



- الشيء الوحيد الواجب على الإنسان فعله أن يُحبِّب نفسه لله تعالى القادر المطلق، فهو إن بلغ شرفَ المحبة فإن نيله النعم الدنيوية والأخروية أمر طبيعي.[١١٣٨]
- إن أردنا تزيين ظاهرنا فلا بد من اتباع شريعة محمد r الطاهرة المطهرة، وإن أردنا تطهير قلوبنا فلا بد من اتباع الأسس (القلبية) التي وضعها سيدنا محمد r ؛ أي الطريقة العليَّة.[١١٣٩]
- الطريقة طريق عبادة تُسلَك للقرب من الله تعالى.[١١٤٠]
- إن أساس الطرائق كلها وركيزتها الشريعةُ المطهَّرة. ولا يمكن للإنسان إن لم يجعل قوله وفعله موافقًا للشريعة الشريفة أن يأخذ الفيض من الطريقة، فهو كالمريض الذي لا يشرب الدواء الذي وصفه الطبيب ولا يراعي الأشياء التي منعها منه.[١١٤١]
- إن لهيب الغيظ يحرق بيدر الطمأنينة ويجعل حصادها رمادًا، لذلك لا يجرُّ أي عاقل نفسه إلى بلاء الغيظ...

من الضروري كظم الغيظ للنجاة من الأمراض المعنوية! مهما كان أمرَّ من سُمِّ الأفعى...».[١١٤٢]

يقول الله سبحانه وتعالى: **(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**[١١٤٣]

١١٣٨ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٤٥، رقم: ١١٧.

١١٣٩ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٨٦، رقم: ٥٥.

١١٤٠ محمد أسعد أفندي، الرسالة، ص٤.

١١٤١ محمد أسعد أفندي، مكتوبات، ص١٥٩، رقم: ١٣٢.

١١٤٢ محمد أسعد أفندي، ديوان، ص٧٢.

١١٤٣ آل عمران: ١٣٤.



- لا تكترثنَّ بمنْ يعيبك إذا كنت تعمل في سبيل الحق، فلَسعةُ النحل لا قيمة لها عندك إذا كنت تجمع العسل.(١١٤٤)
- لا تخشَ من الأشواك المنتشرة على الطريق الذي يأخذك إلى بستان العشق! فأنا قادر على جمع المئات من البراعم من كل شوكة.(١١٤٥)
- إني أتلذذ بالآلام في بستان الدروشة، وأرى الوردة في رؤياي حتى لو نمتُ على وسادة من شوك.(١١٤٦)
- إذا أمسيتَ أسيرًا لمحبة الذهب والفضة فسيكون قيراطك أدنى وأخس من النحاس، وإن كنت ترى نفسك حديدًا أو حجرًا أَسودَ فستغدو جوهرة ما لزمت أهل القلوب.(١١٤٧)
- إن الغاية الكبرى السعادةُ والسلامة في الآخرة، فحتى إذا عاش الإنسان ألف سنة وملك الخزائن والكنوز، فإنَّ أحواله الدنيوية بعد الموت ستكون مجرد رؤيا، وإن لم يُوفَّق في إعمار داره الأبدي وتنويره، فسوف يدعو ثبورًا ويَصلى سعيرًا وسيكون في ندامة ما بعدها ندامة. اللهم اجعلنا ممنْ يوفَّقون في إعمار دار القرار بإيمان كامل! وأبعِدْ عنَّا حبَّ الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها! آمين.(١١٤٨)



١١٤٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩٥.

١١٤٥ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩٤.

١١٤٦ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص٩٦.

١١٤٧ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٠٩.

١١٤٨ مكتوب أرسله محمد أسعد أفندي إلى الرائد في البحرية أدهم أفندي، وهي من المكتوبات التي لم تُنشَر.



٣٤- محمود سامي رمضان أوغلو (رحمه الله)

[١٨٩٢ - ١٩٨٤م]

وُلد الشيخ محمود سامي في حي (تاباغ) في مدينة أضنة التركية، ويتصل نسبه بنسب سيدنا خالد بن الوليد t عن طريق نور الدين الشهيد الزنكي. أبوه الشيخ مجتبى أفندي.

درسَ الشيخ محمود سامي أفندي (رحمه الله) المرحلة الابتدائية والمتوسطة في مدينته أضنة، ثم سافر إلى إسطنبول ليُكمل دراسته. ودخل فيها كلية الحقوق في دار الفنون (جامعة إسطنبول). فكان طالبًا ذكيًّا ناجحًا فيها، ونال إعجاب أساتذته لحُسن وجهه وجماله، وأدبه ولطافة سلوكه، ونجاحه الفائق في دروسه...

وذات يوم أصاب سيلٌ دارَه الذي كان في (صاري) بإسطنبول، فضاع قسم من كتبه وكان آنذاك طالبًا. ولما كان سامي أفندي (رحمه الله) ينظر منذ شبابه إلى الأشياء بنظر العبرة والحكمة، أدرك أن هذه الحادثة تحذير إلهي وأن ليس له نصيب في هذه المهنة. وأنهى الشيخ سامي أفندي دراسة الحقوق بدرجة «جيد جدًّا»، لكنه لم يكسب رزقه بالعمل في مهنة الحقوق خشيةً منه أن يأكل حقوق العباد، فعملَ محاسبًا في أحد المتاجر.

والتقى الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) بِوَليٍّ من أولياء الله في ساحة بايزيد، كان آنذاك يرغب في العودة إلى مدينته أضنة بعد أن أتمَّ دراسته. وبعد أن سأله الولي عن مدينته وبماذا ينشغل في إسطنبول، قال له:

«أَتأذنُ لي في أن أُعلِّمكَ علمًا جديدًا؟» ثم أخذه إلى (تكية كلامي) في حي (كوجا مصطفى باشا)، وقال له ولي الله في الطريق:

«يا بني، إن العلمَ الظاهري الذي نلتَه لا يكفيك، فأوصيك بتحصيل العلم الأساسي الذي يحمل المرءَ إلى السعادة في الدارَين. وأولُّ درس في مدرسة العرفان التي ستدخلها أن لا تؤذي أحدًا، وآخرُ درس من دروسها أن لا تتأذّى من أحد البتة... أي لا تستاء من أحد أبدًا- مهما كانت الأحوال- وذلك بالنظر بنظرة الرأفة التي ينظر بها الخالق إلى مخلوقاته؛ وأن تصل إلى ذروة القدرة على العفو...».

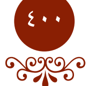
فاهتم الشيخ أسعد أفندي (رحمه الله) الذي كان آنذاك رئيس مجلس المشايخ والمرشد في التكية بسامي أفندي الشاب، وقال له:

«يا ولدي، العلاج يبدأ حيثما يكون الداء. والقلبُ أهمُّ أعضائنا... لذلك سنبدأ بإحياء قلوبنا قبل العبادات النافلة الظاهرة، وسنهتم بذكر القلب!». ومنذ تلك اللحظة بدأ الشيخ سامي أفندي حياةً جديدة.

وصار سامي أفندي الخادمَ الشاب في التكية، فكان من مسؤوليات هذا المريد الشاب: الاعتناءُ بالحديقة، وترتيب الأحذية، وإدخال الزائرين بانتظام وإكرامهم، والردُّ على المكتوبات التي تأتي للشيخ أسعد أفندي. فعجِب من أمره كل من رآه حتى المريدون القدماء في التكية؛ إذ كان ينام قليلًا، ويعد السرائر في الليل، ويستلقي على سريره مع الآخرين، ثم يقوم بهدوء بعد نومهم، فيتوضأ ثم ينشغل بالتسبيح والتهليل وذكر الله والتفكر مدة طويلة. وقبل الإمساك كان يُحضِر الحطبَ من الحديقة لإشعال الموقد، ويجهِّز الماء الحار لكل من أراد الغسل.[١١٤٩]

وكان الشاب سامي أفندي أول من يُسارع إلى الخدمات الخاصة أيضًا إلى جانب الخدمات العامة في التكية، فيستفيد من خدماته الخالصة المريدون

١١٤٩ صادق دانا، سلطان العارفين الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو، ص٧٣.



العجائز وإخوانه المرضى. وكان من مريدي الشيخ أسعد أفندي مفتي بلدة (جيدا) حسين أفندي، وهو شيخٌ من الشيوخ الأجلَّاء. وقد مرض المفتي الذي كان عجوزًا، وكانت رعايته صعبة جدًّا. ولمَّا طُلِب في التكية إرجاع هذا الشيخ العجوز إلى بلدته ليكون بجنب أولاده، قال الشيخ سامي أفندي (رحمه الله):

«ائذنوا لي برعاية هذا الشيخ الجليل وخدمته!». فخدمه ورعاه بصدق وإخلاص وأدب.

فدعا له الشيخ المفتي لِما رأى منه من نية خالصة وخدمة صادقة بقوله:

«اللهم أكرِمْ ولدنا الشاب هذا بما أكرمتني به من ألطاف معنوية إلى عمري هذا...».[١١٥٠]

فصار سامي أفندي (رحمه الله) الطالبَ الأقربَ لمرشده بكماله المعنوي الذي ناله بخدماته الخالصة في التكية والجهد الذي بذله في طريق التصوف.

إجازته

لقد أجازَ الشيخُ أسعد أفندي (رحمه الله) الشيخَ سامي أفندي واستخلفه بعدما رأى التوفيق الذي وصل إليه في التكية في مدة قصيرة. وقد عرَّف الشيخُ أسعد أفندي بالشيخ سامي أفندي في الإجازة نفسها، إذ قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم! والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين!

أما بعد، فإننا نعرض على إخواننا في الدين وأصحاب الإخلاص والإيمان الثابت ما يلي:

إن ولدنا سامي أفندي الذي يحمل إجازتنا المتواضعة هذه قد أمضى أيام شبابه في مضمار ديننا النزيه، وخدَمَ الطريقة النقشبندية العليا، وبذل جهده كله

١١٥٠ انظر: حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص٢٣١.



في هذا الشأن، ووضع مساعيه العظيمة في هذا الطريق. وسعى إلى تصفية لطائفه وتزكيتها كما يناسب أصول الطريقة وبتطبيق أصول شيوخ طريق الخواجكان.

والحمد لله أن توفيقه ظاهرٌ على محيَّاه وحاله، وأن العناية الإلهية باديةٌ في لطائفه. وقد رأيت رغبته في الوصال سليمةً صادقةً، وهمَّته الواجبة لنيل ثمار شجرة التوحيد همَّة عالية. ورأيت إلى جانب ذلك كله أنه زيَّن ذاته وصفاته بدوامه على النفي والإثبات والمراقبة مدة من الزمان.

لذلك أُجِيزُه في تعليم آداب الطريقة وأركانها لإخواننا في الدين الذين يريدون أن يشربوا من الماء العذب لمنبع السعادة، ويأخذوا الأنفاس العطرة من وادي السلامة؛ أي الذين يرغبون في الارتباط بالطريقة النقشبندية العليا والانتساب إليها.

يقول المولى جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[١١٥١] [النساء: ٥٨]

وأدعو الله تعالى أن يزيد الشوق والنبوغ والسعادة في تنفيذ أحكام الشريعة المطهَّرة والطريقة المنوَّرة، وأن يفيدنا من أقوال أهل التوحيد وأحوالهم! آمين!.

وإني أستطيع أن أعرض على إخواني الأعزاء المطَّلعين على أحكام الآية الكريمة:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[١١٥٢]

الأمرَ التالي: إن مَن يريد أن يطهِّر قلبه ويزكِّي نفسه، ويودُّ نيل الفيوضات من السلسلة النقشبندية، لا جرمَ أنه سيصل إلى مراده إذا دوام على صُحَب سامي أفندي وراعى الآداب التي بيَّنها بدقة، **﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾**[١١٥٣]

١١٥١ النساء: ٥٨.

١١٥٢ النور: ٣٧.

١١٥٣ إبراهيم: ٢٠.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.[١١٥٤]

وببركة الأدعية في هذه الإجازة شوهد في عبادة الشيخ سامي أفندي وخدماته الحماسة والسعادة حتى آخر لحظة، وكان وسيلة لتربية أهل التوحيد بأحواله وأقواله...

وفي سنة ١٩٣١م استُشهِد مرشده أسعد أفندي وكان عمره آنذاك ٣٩ عامًا، فكان على عاتقه منذ تلك اللحظة أمانة الإرشاد العظيمة، غير أن إغلاق التكيات وتغير الوسط الاجتماعي حالَ دون أداء الأمانة كما ينبغي...

ولم يقرب سامي أفندي (رحمه الله) من الإرث الكبير لأسرته كما فعل بعض أولياء الله في الماضي مثل الحارث المحاسبي، وعلاء الدين العطار، ولم يعمل في مجال الحقوق لتغير النظام الحقوقي آنذاك، فكسبَ رزقه من العمل محاسبًا في تجارة الأخشاب في مدينة أضنة، واستمر في إرشاد الناس بلسان حاله.

فكان جميع من حوله يشاهدون بغبطة وحيرة الدِّقَّةَ والنظام في عمله، والسخاء والظرافة في حياته الشخصية، والخشوع والطمأنينة والأدب في عباداته، وأحواله وسلوكه داخل المجتمع... ولما أُذِن للناس بالذهاب إلى الحج سنة ١٩٤٧م بعد مدة طويلة من المنع، خرج سامي أفندي (رحمه الله) مع القافلة الأولى لأداء هذه الفريضة، فصار يُعرَف باسم الحاج سامي أفندي. ولما كان طريق الحج يمر من سوريا، أظهر العلماء في طريق الحجاز- لا سيما في حلب ودمشق- الاحترامَ العظيم والإجلال له (رحمه الله)، فكان الصالحون في هاتَين المدينتَين والعلماء يترقَّبون وصول الشيخ سامي أفندي بشوق ليستفيدوا من صُحَبه...

١١٥٤ محمد أسعد أفندي، المصدر السابق، ص١٦١-١٦٢، رقم: ١٣٤.



حياته في الإرشاد

ولما تيسَّر لقاء الشيخ سامي أفندي بمحبِّيه الذين كانوا يعرفونه من أيام التكية ويعلمون صلاحيته في الإرشاد، شرعوا يزورونه ويستفيضون منه. وعندما ازدادَ زوَّاره يومًا بعد يوم، وسنحَت له الفُرَص، استطاع الذهاب إلى المدن القريبة منه في الأناضول وبدأ بصحب الإرشاد، ثم انتقل إلى إسطنبول تلبيةً لطلب محبِّيه، ومكث فيها نحوَ ثلاثين سنة.

فانشغلَ بالمحاسبة في (طاهتا قلعة) بإسطنبول مركز الحياة التجارية من جهة، وداومَ على خدمة الإرشاد من جهة أخرى. فكان الناس يزورونه من الأناضول في مكان عمله للتجارة تارة، وللفائدة الروحانية تارة أخرى، ثم يعودون إلى مدنهم وقد تبدَّلت أحوالهم ونالوا من الفيوضات العظيمة. ولم يكن الشيخ سامي أفندي يترك تلك الزيارات بلا مقابل، بل يزور مدن الأناضول التي يطلبونه إليها، ويزرع فيها بذور العلم والعرفان والتقوى والخدمة. وكوَّن مع مرور الوقت حلقةً مميزةً في إسطنبول والأناضول لا سيما من المنتسبين إليه من أرباب التجارة والصناعة، وأهل الحِرَف، وطلاب العلم.

واستمر الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) في خدمات الإرشاد بمجالسه الخاصة والعامة، أما حياته اليومية فكان يقضيها بعمله أو بتأليف الكتب أو بأداء العبادات أو بالصحب والخدمات، فما كان يضيِّع وقته البتة.

أخلاقه الحميدة

لقد كان الشيخ سامي أفندي وليًّا حليمًا سليمًا لين الطبع حتى إن المقربين إليه كانوا يسمُّونَه: «سامي أفندي المَلَك». وكان في الوقت نفسه شجاعًا متينًا عند الحاجة، حزين القلب متفكرًا متدبرًا وإن لم تفارق الابتسامة وجهه، وكان من أهل الوقار والتمكين والاعتدال.

وكان قليل الطعام والمنام، يفضِّل الصمت ولا يتكلم إلا عند الحاجة بكلمات قصيرة مختصرة على قدر عقل المُخاطَب. ولم يكن يخرج من فمه الطاهر كلمة ناقصة أو زائدة، إذ كان فصيحًا في قوله بليغًا في كلامه، يكرِّر النصائح والتنبيهات المهمة ثلاث مرات.

وكان يراعي كثيرًا حقوق العباد، فإذا أراد أن يأخذ تذكرة قطار، حَضَّرَ النقود كي لا ينتظر الواقفون وراءه في الصف، ولا يضيع وقته أثناء صرف المال في كوَّة التذاكر.

لقد استغنى سامي أفندي (رحمه الله) عن الدنيا وما فيها، وكان يُؤثِر الآخرين على نفسه دائمًا، فكان يمشي من (قره كوي) إلى (طاهتا قلعة) ويتصدق بأجرة النقل شكرًا لله تعالى على نعمة الصحة. فيضع المال الذي سيتصدق به في ظرف ويقدمه إلى المحتاج بلطف شاكرًا إياه على قبولها.

ولم يرَ أحدٌ قط الشيخَ الجليلَ يجادل أحدًا أو يناظره أو يغتابه، ولم يُسِئ الظنَّ بأحد لعلمه التام بالقَدَر. وكان يظهَرُ عليه جليًّا تجلياتُ صفات الله الجمالية لا سيما صفتَي «ستر العيوب» و«العفو» لتخلُّقِه بالأخلاق التي أمرَ بها الله U.

ولم يكسر قلب أي مؤمن ولا حتى أي مخلوق، ولم تُرَ عليه أي غفلة ولو لحظة، فقد كانت كل أحواله وحركاته دقيقة في محلها.

ولم يكن الشيخ سامي أفندي يغضب أو يستاء من أحد، ولا ينتظر جزاءً ولا شكورًا لعمل صالح قام به. وقد كان الذي يمدحه والذي يذمُّه سواء في نظره يعاملهما معاملة حسنة، ويعفو عمَّن ذمَّه، فتراه يدرك خطأه فيعتذر إلى الشيخ (رحمه الله).

وإن سُئِل سؤالًا أو استُفسِر في أمر لم يكن يقول آمرًا: «افعل هذا ولا تفعل ذلك!»؛ بل كان يكتفي في أغلب الأحيان بقراءة آية كريمة أو حديث شريف أو قاعدة من قواعد مجلة الأحكام العدلية.

وكان سامي أفندي (رحمه الله) يداوم على قراءة الآيات الكريمة لا سيما سورة الفاتحة وآية الكرسي، ويصلي على رسول الله r ويدعو للأنبياء، ولم يدعُ- دون ذلك- بدعاء باللغة التركية أو العربية.

وكان شديد الدقة في كلامه مع أنه لم يبذل جهدًا تعلُّم الفصاحة والبلاغة.

كثرة مراعاته الحلال والحرام

كان سامي أفندي (رحمه الله) يسأل كلَّ مَن يأتي إليه طالبًا النصحية أو الدروس عن مهنته ومراعاته للحلال والحرام قبل كل شيء، ثم يتعرف إليه أكثر، ويبيِّن وصاياه في هذه الأمور بظرافة:

فقد دُعيَ ذات مرة إلى خِطبةٍ، فطُلِب منه أن يضع خاتم الخِطبة في يد العروس،[١١٥٥] فلمَّا رأى سامي أفندي الخاتم مِن ذهب، أخرج خاتمه من إصبعه ووضعه في يد العروس دون أن يتكلم شيئًا، ثم قال:

«اِقبلْ هذا الخاتمَ ذِكرى لهذا اليوم، واهدِ زوجَكَ خاتمَ الذهب».[١١٥٦]

فعلَّم الحاضرين بأسلوب لطيف عملي أن لبس الذهب حرام على الرجال في الإسلام.



وكان يقول في اللقمة الحلال:

«إن اللقمة الحرام تُفسِد الأعضاء كلها كما تفسد القلبَ والدم، وتجعل صاحبها يأتي الأعمال السيئة. أما القلب والجسد اللذان يتربَّيان على اللقمة الحلال فيصدر منها الأعمال الصالحة. ومثال ذلك التربة الخصبة التي يخرج منها محصول مبارك، والتربة الجدباء التي لا يخرج منها شيء».

١١٥٥ العروس: كلمة تُطلَق على الرجل والمرأة ما داما في عرسهما. وهنا بمعنى الرجل.

١١٥٦ مصطفى أريش، ذكريات من محمود سامي أفندي، جـ١، ص٢٤.



«ينبغي أن يكون الكسب من الطرق الحلال، كما يجب الابتعاد عن اللقمة المشبوهة. فلا بد من مراعاة أن يكون الطعام طيِّبًا والحذر من أكل كل لقمة تُوضَع أمامك». [١١٥٧]

سخاؤه

لا يمكن تعريف سخاء الشيخ سامي أفندي، إذ لما كان يعمل محاسبًا في أضنة في أضنك أيامه، أعطاه مديرُ مؤسسته أجرته الشهرية في ظرف، فجاءه فقير يسأله صدقة لوجه الله تعالى، فأعطى سامي أفندي ذو القلب الرقيق ذلكَ المحتاج الظرف كما هو.

وما كان يرد الفقير وإن طلب منه شيئًا عدة مرات في اليوم نفسه، بل كان يقضي له حاجته بوجه مبتسم سواء كان في طريق الحج أم غير ذلك من الأوقات.

وقد ذُكِر له أن فقيرًا ممن يعطيهم راح يأكل بذلك المال في مطعم فاخر، فقال سامي أفندي (رحمه الله):

«ذلك يعني أن مصروفه أكثر، وقد دأب على أكل ما لذَّ من الأطعمة، فلا يجوز أن نعطيه القليل بل نكثر من عطائنا له!».

وبالفعل زاد عطاءه لذلك الفقير.

وكان يعطي ويعطي ويعطي... ويجد لذَّة عظيمة في إعطاء ما يُهدَى إليه من سجادات فاخرة أو أقلام أو أقمشة وغير ذلك من الأشياء الثمينة إلى مستحقيها في اليوم نفسه. لقد كان سامي أفندي (رحمه الله) سخيًّا معطاءً، لم يرجع أحد من عنده خاوي اليدين قط. وكان يعطي دون تردد المبلغَ الذي يخرج من جيبه مهما كان كبيرًا، وكأن الله تعالى سلَّمه مفاتيح خزائنه السرية.

١١٥٧ محمود سامي أفندي، من إحدى مكتوباته.



وكان يُطبَخ في داره الأطعمة الكثيرة المتنوعة، غير أنه لم يكن يأكل إلا النذر القليل، ويكرم ضيوفه بمعظمها، ويرسل ما بقي من الطعام إلى جيرانه.

وإن زاره أحدُهم طالبًا تفريجَ همِّه، أوصاه بالتصدُّق ودعَا له.

رأفته بالمخلوقات

في أحد مواسم الحج كان الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) ومريديه في مكة المكرمة يقيمون في دار عبد الستار أفندي التركستاني الأصل في حي أجياد، وكانت الغرفة التي يبقى فيها الشيخ سامي مقابل الشارع، بينما مكث مَنْ كان برفقته في القسم الداخلي.

وفي ظهيرة أحد الأيام وقفَ على باب الغرفة وقال لمَن كان هناك:

«ثمة محتاج في الخارج، أظن أنه بحاجة إلى طعام».

فشرع أحد طلبته يحضِّر الطعام بسرعة، وخرجَ فلم يرَ أي محتاج، فظنَّ أنه لم ينتظر، فعاد إلى الغرفة، ثم بعد ثماني أو عشر دقائق، جاء الشيخ سامي مرة أخرى وقال: «لقد جاء المحتاج مرة أخرى، وينظر إلى الداخل».

فأخذ الطالبُ الطعامَ وخرج مرة أخرى، وإذ بكلب يلهث لشدة جوعه، وينظر إلى داخل المنزل، فوضع الطعام مباشرة أمامه، فلم يُبقِ منه شيئًا.

فكانت لطافة ولي الله هذا وتواضعه على هذا النحو، إذ لم يسمِّ الكلب كلبًا، بل قال عنه محتاج.[١١٥٨]



ويروي حفيدُه الشيخ محمود كيراز أوغلو أن كلبًا مكسور الساق قد دخل حديقةَ الشيخ سامي (رحمه الله)، فعالجه الشيخ فورًا. وبعد مرور شهرين

١١٥٨ انظر: صادق دانا، سلطان العارفين، ص٣٥-٣٦.



ونصف بدأ الحيوان بالعواء يومًا، فلما نظروا من النافذة رأوا الكلب ومعه كلب آخر مكسور الساق، فعلموا أن ذلك الكلب قد أحضر صاحبه إلى باب الرحمة هذا.

وقد لازَمَ هذا الكلبُ الشيخَ سامي أفندي ولم يتركه، فكان الشيخ يذهب بالقطار صباحًا في الساعة ٧,٣٢، ويرجع بالقطار مساءً في الساعة ١٦,٢٢. فبقي ذلك الحيوان سنوات حتى وفاته يودِّع الشيخ سامي صباحًا ثم يرجع إلى البيت، وفي المساء كان ينتظر الشيخَ في محطة القطار في التوقيت نفسه، ويمر إلى الجهة الأخرى من الطريق ليستقبل الشيخ ويعود معه إلى البيت.

تواضعه

لقد كان سلطان العارفين الشيخ سامي أفندي يرى- على علو مقامه المعنوي- كلَّ شخص أعلى منه دون استثناء. ويزور الفقراء من الصالحين الأتقياء أصحاب الدين الذين يستحقرهم الآخرون، ويطلب منهم الدعاء.

لقد كان الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) متواضعًا رؤوفًا رحيمًا بالناس كلهم؛ الغني منهم والفقير، الشاب والعجوز، العالم والجاهل، الرفيع والوضيع؛ لا سيما عندما كان يذهب إلى الحج، فيسعى إلى تقبيل يديَ (الآغاوات الكرام) في المسجد النبوي [أي السودانيون الذين كانوا ينظفون المسجد النبوي] وحتى الحراس هناك. فكانت لديه محبة عظيمة مختلفة لهؤلاء، لإنهم كانوا خدَّام ذلك المكان العظيم.

ولما كان هؤلاء الخدَّام يرون لطافة الشيخ سامي وتواضعه، يزداد محبتهم واشتياقهم له، ويحترمونه ويعظِّمون شأنه أكثر من غيره، لذلك كانوا يخصِّصون للشيخ وأولاده الصفوف الأولى من مكان أصحاب الصُّفَّة حتى في أشد أوقات الحج ازدحامًا.

لم يكن يُسرُّ بالمديح

لم يكن الشيخ سامي أفندي يُسرُّ بالمديح ويحزن للثناء المفرط. فإن أثنى عليه أحدٌ لأحواله الرائعة، لم يكن ينسبُ ذلك إلى نفسه البتة، بل يقول: «بإذن الله»؛ فيبيِّن أن كل توفيق إنما هو لطف من الله تعالى. وكان لنزاكته يحذر من الإساءة بالكلام لأحد، ولا يجد فرقًا بين المدح والهجاء.

ولم يكن يمدح أحدًا، فإن كان لا بد من المدح، مدَحَ الرجلَ في غيابه لإظهار قيمته المعنوية بين الناس.

ولم يمدح مريديه قط، لاطلاعه على آفات المديح، لكنه كان يبتسم لأولئك الذين يقدِّر أخلاقهم وأحوالهم وحركاتهم، ويعاملهم بلطف.

سكوته

كان الشيخ سامي يبقى ساكتًا لساعات إن لم يكن للحديث ضرورة، وينشغل في سكوته بالذكر والمراقبة دائمًا. فكان يعيش مَن يصحبه حال طمأنينة عميقة في تلك الأثناء، وما كانوا يستطيعون أن يحافظوا على تلك الحال نفسها إن فارقوه.

لم يُرِد (رحمه الله) أبدًا أن يتكلم مريدوه- لا سيما الذين ينشغل بتربيتهم- بالكلام الذي لا نفع فيه. يقول واحد ممن كان يخدمه:

«في الأيام الأولى لانتسابي إلى الشيخ كنت أودُّ أن أتلافى بعضًا من عيوبي فأسأل شيخنا أسئلة كثيرة. فقطَّب الشيخ الذي لم يعجبه أحوال هذا الفقير حاجبَيه، وظهرت علامات الحزن على وجهه الشريف. فأومئَ لي أنَّ مثلَ هذه الأسئلة لا تليق بالسالك، ففهمت في النهاية أنه عليَّ أن أسعى للمحافظة على الأدب بدل أن أسأل مثل تلك الأسئلة. وإني وإن بقيت لسنوات طويلة أصحبه بلطف من الله تعالى، فلم أجد الجرأة على سؤاله سؤالًا واحدًا طوال تلك المدة ما عدا الكلمات الضرورية...

ومضت عشرون أو اثنتان وعشرون سنة، فتجرأت يومًا وقلت:

«لقد مكثت في جوارك مدة طويلة يا شيخي، ومع ذلك لم أتجرأ على سؤالك شيئًا. مع أن كثيرًا من الناس يلتقون بك مرارًا، وينتفعون من علمك. فكيف سيغدوا هذا الفقير؟

فقال:

«لا ضرورة للسؤال والاستفسار عند أهل التسليم، وهذا قول الغوث الأعظم عبد القادر الجيلاني».

وكانت تمر الأيام والأسابيع في رحلة الحجاز والأناضول فما كان ينطق فم الشيخ إلا بثمانٍ أو عشر كلمات ضروريات. غير أن لأبحاث «القلب» و«الفؤاد» في مجالسه حال استثنائية؛ إذ كان يتكلم لساعات بحماسة إن كانت هناك حاجة، وما يحسُّ بأي تعب، وما كان يظهر في كلامه نقص ولا زيادة.

وكان يحب أهل السكوت والأدب كثيرًا فيُجلِسهم إلى جانبه ويثني عليهم، ويهتم بتربيتهم، ويطلب تحليهم بالأوصاف الجميلة، فيدعو الله تعالى لهم.

أدبه في ذبح الأضاحي

كان الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) يوصي بالتصدق وذبح الأضاحي دائمًا من أجل رضا الله تعالى ودفعِ الأمراض والمصائب، وكان دأبه أن يعطي المال ليذبحوا الأضاحي. ويحرص علىٰ ذبح كبش سمين سالم في أعضائه.

وكان قبل الذبح يطلب شحذ السكين، وعصبَ عيني الكبش بقماش كبير نظيف.

وكان يقف أمام الأضحية عند الذبح، ويبقى حتى يُسلَخ جلدها وكأنه واقف في الصلاة، وينتظر على قدميه بخشوع وحضور قلب وتعظيم، وبعد أن ينتهي الذبح تمامًا، يدخل ليصلي ركعتَين.

كرم الضيافة

كانت حياة الشيخ سامي أفندي حياة منتظمة مثل الساعة الدقيقة. فكان يُعلِم ضيفَه بساعة استضافته من قبل، ويحزن كثيرًا إن لم يأتِ في وقت موعده دون سبب. وعندما يحين وقت مجيء الضيف، كان يلبس أفضل ما عنده، فلا يستقبله البتة بثياب البيت. وكان يستقبل ضيفه عند الباب بوجه طلق ويُجلِسُه أمامَه، فيتحدث عن الموضوع الذي يفيده. فيغادره الضيف في وقت قصير بقلب مطمأن وسعادة كبيرة على قدر نيَّته وإخلاصه. وعند توديعه كان يصحبه إلى الباب.

وكان يحب أن يساعد في تحضير الإفطار في رمضان ويخدم بنفسه، وما كان يجلس على المائدة إلا بعد إصرار ضيوفه كي يسترضيهم.

وكان يسرع في غسل يديه قبل الطعام وبعده كي لا يجعل الواقفين في الصف وراءه ينتظرونه، أما عندما يكون وحيدًا فيغسل يديه باعتناء وبطء. وكانت صلاته قصيرة إن كان أحد ينتظره، ويطيلها إن كان وحده.

وكان (رحمه الله) يهدي ضيفه لا محالة، حتى إنه كان يهدي الهدية القيِّمة التي أُهديت له قبل ساعة لضيفه الذي يأتي بعد ساعة.

أسفارُه

كانت أسفاره (رحمه الله) منتظمة تَحفُّها الطمأنينة، فكان يحرص على أن تكون أيام الانطلاق والوصول الاثنين أو الخميس، ولا يخرج ليلًا إن لم تكن هناك حاجة. ويأخذ معه أكثر الأشياء التي تلزمه، ويرتِّب ثيابه في الحقيبة ويضعها في صُرر ناصعة البياض.

وكان يخرج إلى سفره في الساعة المحددة ويرجع في اليوم والساعة المحددة. ويستشير أصحابه في السفر في أصغر الموضوعات، ويواجه المصاعب والمشقات التي قد تحدث في السفر، ولا يظهَرُ عليه أي علامة من علامات الحزن وفقدان الصبر.

وكان دائم الوضوء، لا يذهب إلى مكان إلا وهو متوضئ. وكان يجدِّد وضوءه- ولو كان متوضئًا- حتى في أشد الأوقات ازدحامًا في الحج، ويقول: «نورٌ على نور». ويتوضأ وضوءًا حسنًا بخشوع تام وطمأنينة في القلب.

وعندما يكون في الحجاز كان يداوم على أداء الصلوات الخمس في بيت الله الحرام والمسجد النبوي، فيمضي أكثر وقته بالصلاة والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، وعندما يرجع ليستريح بعد أن يصيبه التعب كثيرًا، كان يصحب زوَّاره مدةً كي يجبر قلوبهم.

صُحَبه

كان الشيخ سامي (رحمه الله) يأمر مريديه بالمداومة على الصحب في المدن التي يكونون فيها ولو كانت في حلقات صغيرة، إذ كان دأبه (رحمه الله) الصحبة كلما سنحت الفرصة.

فصار كل بيت من بيوت الأناضول مدرسةَ علم وعرفان بمساعيه الصادقة الخالصة. وكان الذي يريد أن يحضر الصحبة يأتي بهدوء وينتظر بداية الصحبة بصبر وهدوء.

وكان (رحمه الله) يشير إلى تلاوة القرآن الكريم قبل البدء بالصحبة، ويوصي أن يوضَع القارئ في مكان مرتفع، فيستَمع الحاضرون لتلاوته بطمأنينة وسكينة.

ثم يقرأ سامي أفندي (رحمه الله) سورة الفاتحة مرة وسورة الإخلاص ثلاث مرات على روح النبي r وعلى أرواح السادة الكرام، ويبدأ بالصحبة بحماس. وكان (رحمه الله) في عامة صحبه يقرأ من دفتره والملاحظات التي كتبها، وأحيانًا يوضِّح بعض الموضوعات ارتجالًا.

لقد كان سامي أفندي (رحمه الله) وليًّا من أولياء الله يحيا على هدي القرآن والسنة، ويحث الناس على الحياة على هذا النحو. وكان أساس موضوعات

صحبه: تفسير الآيات الكريمة، وشرح الأحاديث الشريفة، وإيمان الصحابة الكرام وصبرهم وتحملهم وتضحياتهم في سبيل الله، وحياة أولياء الله القدوة. وكان يُكثِر من ذكر الآيات الكريمة التي تتعلق بـ«القلب السليم» ويقف طويلًا على موضوع «الأدب».

وكان (رحمه الله) يضرب الكثير من الأمثال من السيرة النبوية، وتضحيات الصحابة، وعباداتهم ومعاملاتهم، كي يوضِّح أن رسول الله r أسوة حسنة وقسطاس فعلي لأمته.

وكان الذين يداومون على هذه الصحب وعلى قراءة الأوراد والأذكار التي أخذوها من الشيخ يرون تغيرًا في أحوالهم وترقيًا في معنوياتهم. حيث ترتقي أحوالهم من الكبر إلى التواضع، ومن غلاظة القلب إلى الرحمة، ومن البخل إلى السخاء، ومن الكسل إلى العمل، ومن الخوف إلى الشجاعة، ومن الفظاظة إلى اللطافة، ومن الشتات إلى الترتيب والنظام، ومن العجلة إلى التأني، ومن العناد إلى لين العريكة، ومن التشاؤم إلى التفاؤل.

وإن جاءه حافظ لكتاب الله يحيا القرآن الكريم بمحبة بأحواله وأقواله، أثنى عليه (رحمه الله) وقرَّبه منه، وكان يروي الحادثة التالية:

كونوا مع الصادقين!

كان الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) يذكر الحادثة التالية في كثير من صحبه:

«كان هناك رجل صالح في (بكلربكى) اسمه الشيخ عادل، وكان معروفًا أنه ذو أحوال معنوية وكشوفات ربانية. وكنت أزوره بين الحين والآخر، وقد أوصاني مرة فقال:

«صُنْ نفسك من الغافلين! وإياك أن تجالسهم أو تصاحبهم! فالأحوال تنعكس من قلب إلى قلب، وتسري أحوال الذنوب إلى الذين في أمامهم، فكل إناء بما فيه ينضح.

إن الصحبة والاستشارة والعمل لا بد أن تكون مع الصادقين والصالحين. فالذين لا يكونون صادقين وصالحين يظلمون أنفسهم. وإن لم يكن فيهم ميلٌ للخير، فلا بد من لقائهم- إن كان ضروريًا- دون الجلوس معهم، ثم الابتعاد عنهم فورًا». ثم ذكر حادثة أخرى فقال:

«في يوم ذي شأن من عام ١٣٤٠هـ كان ثمة احتفال ديني أقيمت شعائره ومراسمه في مسجد (آية صوفيا) بإسطنبول؛ حيث بدأ الحفاظ يرتلون آيات القرآن الكريم، ثم أخذ المنشدون يتغنون بالمدائح النبوية مع المناقب المحمدية قراءةً وإسماعًا لهذا الحشد الغفير من كل الطبقات والأصناف التي اجتمعت لتستمتع بهذه الأمسية الدينية التي -من المفترض- أن يشع فيها الإيمان على قلوب الحاضرين ونفوسهم.

لكن المشاعر كانت مختلفة لدي إذ كنت أجلس قريبًا من المنصة أحاول أن أتخلص من هذا الضيق الجاثم على صدري؛ مستغربًا من هذه المشاعر السلبية في ذلك الجو الديني المفعم في هذا المسجد العظيم وبين جماعة المسلمين.

فتلفَّتُّ يمنة ويسرة لَعلِّي أجد مصدر هذا الإشعاع المضجر، ولم يطل البحث؛ إذ وجدت أمامي أحد الغافلين قساة القلوب، وكأن قلبه الغافل هو مصدر ذلك الإشعاع، وكأن أنفاسه فحيح أفعى تبث السم، فتكدِّر روحانية الموقف وتحوِّل النفحات إلى لفحات.

وحينها تداركت حاله وانتقلت بعيدًا عن الرجل، ولكن لم يفارقني هذا الأثر إلا بعد حين، ولا عجب؛ فلدغة العقرب تنقل السم إلى الجسم في ثوانٍ معدودات، لكن استخراج السم من الجسم، ثم البرء من آثاره يستغرق ليالي عدة».

إن مثل هذه الأحوال مرت بكثير من المؤمنين، فعلى الإنسان أن يحرص على أن يكون من يجلس بجانبه أو أمامه صالحًا صادقًا ذا قلب طاهر».[١١٥٩]

١١٥٩ انظر: محمد سامي أفندي، الإنسان المكرَّم، ص٦٢-٦٣؛ صحب العيد، ص٣٩.

وبعدما ذَكَرَ سامي أفندي هذه الحادثة قال في صحبته:

«لما كنا صغارًا في أضنة كنا ننظر إلى الحرباء بفضول. إذ كانت تتلوَّن على حسب الشيء الذي تقف عليه. والقلب كذلك، فيه القدرة على أخذ اللون من محيطه؛ فيطمئن عندما يكون بجنب المطمئن، ويغفل بجنب الغافل. لذلك ينبغي عدم الإكثار من الجلوس بجانب الغافلين، ولا بد من الابتعاد فورًا بعد قضاء الحاجة الضرورية».(١١٦٠)

ويقول الشيخ سامي أفندي (رحمه الله):

«أخلاق الإنسان تتشكل على حسب محيطه، فالرجل ذو الخلق الحسن إن كان بين الغافلين وأَلِفَهم، تضيع خصاله الحميدة بهذه المعية، وتتحول إلى نفسانيات وشهوانيات».(١١٦١)

التسليم

كان الشيخ سامي أفندي يكثر من ذكر التسليم، وقال مرة:

«لا بد أن يكون التسليم تامًّا... فإن كان التسليم ناقصًا فلا يكون هناك فيض ولا نتيجة! فوعي القلب، وإصلاح النفس، وانشراح الصدر، وذكر البدن لا يكون إلا بالتسليم.

التحصيل الحقيقي

كان الشيخ سامي أفندي (رحمه الله) يبيِّن أن التحصيل الحقيقي تحصيلُ معرفة الله، وأن العلم الأصلي إدراكُ قلوبنا عظمة الله تعالى وقدرته، وكان يذكِّر دائمًا شرفَ أن يكون للمرء هذا العلم.

١١٦٠ محمود سامي أفندي، صحب العيد، ص٣٩-٤٠.

١١٦١ محمود سامي أفندي، تفسير سورة البقرة، ص١٥٤.



وفي يوم من الأيام أراد أحد الزائرين أن يطلب الدعاء، والتعريف بأبناء أخيه، فدخل عليه وقبَّل يديه، وقدَّم أبناء أخيه قائلًا:

«يا شيخنا، هؤلاء أبناء أخي قد درسوا في الولايات المتحدة وصاروا مهندسين، ونودُّ منك أن تدعو لنا».

فقال له الشيخ سامي أفندي وعلى وجهه ابتسامة:

«والعبد الفقير أمامك قد تخرَّج في دار الفنون، لكن العلم الحقيقي إنما هو معرفة الله».[١١٦٢]

مقتطفات من مؤلفاته

لقد بذل الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو (رحمه الله) جهدًا عظيمًا ووضع كثيرًا من المؤلفات المليئة بالحكمة، وكتب في تلك المؤلفات ما يلزم في عصره بأنسب لغة. فكانت الموضوعات التي يعدُّها تُقرَأ على طلبته ومريديه أولًا ثم في صحبه، ثم تُنشَر في كتب. وسنذكر هنا بعضًا مما اخترناه من تلك المؤلفات التي هي خزينة حِكَم وعلوم قيِّمة:

اتِّباعه لطريق أهل السنة

«إن خلاصة المواعظ وصفوة النصائح ما يلي: كنْ مع أصحاب الدين الذين يراعون الأحكام الإسلامية في أُنسٍ وأُلفة! لا يكون التدين والارتباط بالشريعة إلا باتباع طريق أهل السنة، فهؤلاء هم من سينجون يوم القيامة. ولا يمكن النجاة دون اتباع هؤلاء المؤمنين».[١١٦٣]

١١٦٢ مصطفى أريش، المصدر السابق، جـ١، ٢٠-٢١.

١١٦٣ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ١، ص١١٨.



تحصيل العلوم الدينية

«يا إخوان، إن الزمان زمان الآخرة. فقد ضَعُفَ الدين، وتُرِكت السُّنَّة، وانتشرت البدع. فلا بد في مثل هذا الزمان المظلم السعيُ لتحصيل العقيدة التي هي أهم شيء والعلوم الدينية الأخرى».(١١٦٤)

«إن وجود عالِم يُعلِّم الناسَ المسائل الدينية في كل بلدة وقبيلة فرضُ كفاية، فإن لم يكن هناك عالِم فالناس جميعًا عندها مذنبون، ولأن الفقه العام (أي تعلم الأحكام الدينية التي تهم كل مؤمن) فرضُ عين، فعدم تعلمها ذنب من الذنوب، إذ لا يُعَدُّ الجهل في ديار الإسلام عذرًا».(١١٦٥)

الاستقامة

«يجب أن يكون صاحب الاستقامة مستقيمًا منتصبًا كالجبل، إذ للجبل أربع علامات هي أنه:

١- لا يذوب في الحر.

٢- لا يتجمد في البرد.

٣- لا تحرِّكه الرياح.

٤- لا تجرفه السيول».(١١٦٦)

[فقد أثنى سيدنا علي t على سيدنا أبي بكر t في غيابه فقال:

«كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله الرواجف».(١١٦٧)]

١١٦٤ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٠١.

١١٦٥ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص٦٤.

١١٦٦ محمود سامي أفندي، تفسير سورتَي يونس وهود، ص١٤٥.

١١٦٧ أبو نعيم، معرفة الصحابة، الرياض، ١٤١٩هـ، جـ١، ص٢٦٤.



القلب السليم

«يرى أهل الحكمة ضرورة مراعاة هذه الأسس الخمسة كي يتحلَّى القلب بالحكمة والروحانيات، أي كي يكون صاحبه إنسانًا مُكرَّمًا:

١- صحبة الصالحين والصادقين.

٢- كثرة تلاوة القرآن الكريم والتدبر في معانيه وأداء الصلاة.

٣- الصوم، وقلة الطعام.

٤- الذكر الدائم.

٥- التضرع والابتهال إلى الله في أوقات السحر».(١١٦٨)

«صاحب القلب السليم مَن يقف في حضرة الله طاهرًا سالمًا من الأخلاق السيئة وشرِّ المال والأولاد والجهل في الدين. فالذين يصرفون أموالهم في سُبُل الخير، ويعلِّمون أولادهم الأحكام الدينية ويجعلونهم يعيشونها، والذين ينتقلون إلى دار القرار سالمين من أمراض القلب والأخلاق السيئة والجهالة، سيجد أولئك كلهم النفع في أموالهم وأولادهم...

للقلب السليم ثلاث علامات هي:

١- لا يؤذي أحدًا.

٢- لا يتأذَّى من أحد.

٣- لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا إن أحسنَ إلى أحد».(١١٦٩)

«بدن الإنسان من تراب، فالإنسان كغيره من المخلوقات من حيث الأكل والشرب والنوم والشهوات. غير أنه نوراني من حيث روحه. فإن غلبَت الرغبات

١١٦٨ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٢، ص١٣؛ صحب العيد، ص٤١؛ الإنسان المكرم، ص٦٢-٦٤.

١١٦٩ محمود سامي أفندي، سيدنا إبراهيم، ص١٦٣-١٦٤.

النفسانية في الإنسان، ابتعدَ عن الله، وفقَدَ روحُه الرِّقَّةَ واللطافة، وأظلَمَ قلبُه... أما إن غلبَت الحياة الروحانية، اقتربَ من الله، واستنارَ قلبه وبدنه.

لذلك من اللازم تطهير القلب وتزكيته أي تنويره. فالقلب إن لم يتطهر لا يستنير، ولا ينجو الإنسان قط من أمراض القلب...

إن الشجرة إن فسدَ جذرها، ظهرت آثار ذلك في أغصانها وأوراقها وساءت ثمارها. وكذلك إن فسد القلب، ظهر آثاره وأضراره في أعضاء البدن وفي كل عمل يقوم به.

وعلاج القلب من أمراضه يكون بذكر الله الذي ينتسب إليه الروح».[١١٧٠]

الطريقة والسير والسلوك

«من أهم أسباب الفيض والترقي في الطريقة العليَّة المحبةُ والرابطة، وذلك يكون بتوجه المرشد ونظره وهمَّته. (شرط المحبة الموافقة) أي محبة ما يحبه المرشد وكره ما يكرهه».[١١٧١]

«لا بد من تشخيص الطبيب وعلاجه للشفاء من الأمراض البدنية، وكذلك ينبغي لنا أن لا نغفل أن الحاجة أعظم لعلاج طبيب معنوي للشفاء من أمراض القلب مثل الكِبر والحسد وحب الدنيا».[١١٧٢]

التزكية

«من الضروري التخلص من أمراض القلب كي يتحقق الإيمان الحقيقي... ولا بد من تزكية النفس لبلوغ هذا الهدف... ولا يمكن النجاة من النفس الأمَّارة إلا بتزكيتها للوصول بها إلى مقام النفس المطمئنة، عندها تظهر حقيقة الإيمان

١١٧٠ محمود سامي أفندي، صحب العيد، ص٧٦-٧٧.

١١٧١ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، رقم: ١٧٦.

١١٧٢ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص١٤٦.



وتثبت أركانه. ويصبح الإيمان في هذه الدرجة وجدانيًّا، فيُصان هذا القسم من الإيمان من الزوال...».[١١٧٣]

«إن من يخدم النفس الأمَّارة لن يستطيع طلب الثواب من الله تعالى عندما يقف في حضرته، فقد نسي اللهَ تعالى في الدنيا وخدَمَ نفسه الأمَّارة».[١١٧٤]

الجهاد

«الجهاد نوعان:

١- **الجهاد الأصغر**: مجاهدة الكفار ومقاتلتهم.

٢- **الجهاد الأكبر**: مجاهدة النفس لإصلاح القلب. والمحاربة إصلاح الظاهر، أما إصلاح القلب فأشدُّ من إصلاح الظاهر وأطول مدة. وغاية الجهاد الأصغر دخول الجنة ونيل الرحمة، أما غاية الجهاد الأكبر الوصال مع الله تعالى ومشاهدة جماله. وغاية الجهاد الأصغر الشهادةُ، أما غاية الجهاد الأكبر فبلوغُ درجة الصدِّيقين، وهذه الدرجةُ أعلى من درجة الشهداء».[١١٧٥]

«إن التسليم والذكر الدائم شرط للنجاح في مجاهدة النفس. ومجاهدة النفس أكبر جهاد، إذ يستمر هذا الجهاد دون توقف كل حين حتى خروج الروح، أما مجاهدة العدو فيكون في وقت محدد ثم ينتهي. ومجاهدة النفس تكون بالذكر والتسليم والعبادة وتطبيق أحكام القرآن والسنة في كل صفحات الحياة.

إن الأعداء إن أحسنتَ إليهم يغدون أصحابًا، لكن النفس لا تكون صاحبًا البتة! فمهما أحسنت إليها، طغت وجمحت وصارت ألدَّ عدو، وصعب مجاهدتها

١١٧٣ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٢٤-١٢٥.

١١٧٤ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص١٥١.

١١٧٥ محمود سامي أفندي، تفسير سورة البقرة، ص٢٧٣.

ومحاربتها؛ لذلك فإن مجاهدة النفس أشد المعارك ضراوة، وفرضُ عين على الجميع».[1176]

وبعد أن ذكر سامي أفندي (رحمه الله) المشقات والعذاب الوجداني الذي ذاقه الصحابة الذين تخلَّفوا دون عذر عن غزوة تبوك، قال:

«إذا كان التخلف عن مثل هذا الجهاد الأصغر سببًا لمثل هذا الخجل والخسران، فكيف بترك تزكية النفس التي هي أكبر جهاد! وكم سيكون الخسران والعذاب! فلنتدبَّر ذلك!... فهذا الخسران والعذاب يكون في الدنيا وفي الآخرة على السواء».[1177]

الذِّكر

«إن حقيقة الذكر وكماله القدرةُ على نسيان كل شيء ما خلا المذكور، والواجب في رحلة الحق بلوغ الذكر الحقيقي الذي هو غاية الغايات».[1178]

«أجمل الحسنات وأفضل الطاعات أن يكون العبد عالمًا بالله تعالى، ويعلم سبيل توحيده، ويخالف هوى نفسه. والعبد يتطهر من الذنوب بذكر الله. وتزكية النفس لا تكون إلا بذكره سبحانه. والوسيلة الوحيدة لتطهير القلب المداومة على الذكر كثيرًا. والعبد بذكر الله يزيد من عبادته لربه، وينجو من حيل الشيطان ومكائده».[1179]

«على العاقل أن يذكر الله كثيرًا، فالذكر يجلي القلب مثلما أنه يطهره».[1180]

١١٧٦ محمود سامي أفندي، صحب العيد، ص٣٠-٣١.

١١٧٧ محمود سامي أفندي، الإنسان المكرَّم، ص١٨-١٩.

١١٧٨ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ص٩٥.

١١٧٩ محمود سامي أفندي، تفسير سورتَي يونس وهود، ص١٤٨.

١١٨٠ محمود سامي أفندي، تفسيرة سورة البقرة، ص٢٥٩.



«إن صاحب الحياة الحقيقية إنما هو الذي يكون حيَّ القلب، لأن القلب بيت الله. فإن لم يكن في القلب محبة الله وذكره فهو ميت... يقول الحاكم الترمذي (رحمه الله):

(ذكرُ الله يحي القلب ويلينه. والقلب إن ابتعد عن الذكر يبقى تحت غليل النفس، ويجف بنار الشهوة، فيغدو غليظًا، ويعيق الأعضاء الأخرى عن العبادة، فتمسي شديدة الغلاظة. وإن ظل القلب على هذه الحال، فسيغدو مثل الشجرة اليابسة لا تصلح إلا حطبًا لنار موقودة، فنعوذ بالله من الوقوع في هذه الحال)».[١١٨١]

أولياء الله

«أولياء الله كالغيث. وحياة البشر لا تدوم لولا الغيث، وكذلك المخلوقات لا تبقى دون الغيث المعنوي. وكما أن للغيث نفعًا على حسب وقت هطوله، فكذلك لأولياء الله نفع على حسب زمانهم؛ فلكل واحد منهم شأن عند الله تعالى، لذلك علينا ألا نقيس بين أولياء الله في الأزمنة الغابرة وأولياء الله الذين أتوا بعدهم.

فأكثر الناس اليوم مثلًا يؤمنون بولاية أولياء الله الذي توفوا قبل بضع عصور، وعلة ذلك أن أولياء الله الذين توفوا انتهت وظيفة إرشادهم اليوم، لذلك لا يستطيع الشيطان منع تصديق الناس لهم. لكن الشيطان يبذل جهدًا عظيمًا كي يمنع الناس من الاقتراب من أولياء الله الأحياء المأمورين بالإرشاد، ويسعى لجعل الناس ينكرونهم، ذلك أنه لا يرضى بنجاة المؤمنين أبدًا».[١١٨٢]

١١٨١ محمود سامي أفندي، سيدنا يوسف، ص٢٦.

١١٨٢ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ص١٦٠.



الأخوة في الدين

«واجب على جميع المسلمين أن يتعاطف بعضهم مع بعض وفق الأسس الإسلامية، ويتحابوا، ويتعاونوا، ويصونوا حقوق الإسلام، ويُوصِلوا دينَ محمد إلى مقام الشرف. والمؤمنون من هذا الجانب كالرجل الواحد والجسد الواحد».[١١٨٣]

«إن لم يتَّحد المسلمون كما أمر الله تعالى، واتبعوا سبيلًا غير سبيل كتاب الله وسنة رسوله، فذلك يعني أنهم يتدحرجون إلى حفرة الذلَّة والعياذ بالله... لكن القلوب إن اتحدت في حقيقة التوحيد، فإنها تصل إلى النصرة والسلامة، وتتحقق الأماني بصورة تامة».[١١٨٤]

الإنفاق

«إن العبد إن أعطى الله تعالى أفضل ما بين يديه من مال، أعطاه الله تعالى أفضل نعمه سبحانه وتعالى، فهو القائل في كتابه الكريم:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[١١٨٥]».[١١٨٦]

«يختلف الإنفاق على حسب درجات الناس؛ فإنفاق العوام إعطاؤهم المال فقط، وثوابهم الجنة، أما إنفاق الخواص فتزكيةُ نفوسهم وتطهير قلوبهم إضافة إلى إنفاقهم المال، وأجرُهم في ذلك نيلُ نعمة مشاهدة جمال الله يوم القيامة. لذلك فإن ما يليق بالمؤمن تزكية نفسه وتخصيص قلبه لله تعالى عندما ينفق ماله. والمؤمن الذي يكون في قلبه حب المال والدنيا، لا يجد لذة الإيمان ولا

١١٨٣ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٤.

١١٨٤ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٨-١٩.

١١٨٥ الرحمن: ٦٠.

١١٨٦ محمود سامي أفندي، تفسير سورة البقرة: ص٣٦١.



يبلغ كماله. وشعار الإيمان الحذر من البخل والسعي للبذل على حسب المال الموجود بين اليدين».[١١٨٧]

«السائل هدية الله تعالى، ورَدُّهُ يعني أنه لا حاجة لهدية الله تعالى. فإن لم يكن عندك ما تعطي السائل، فأجِبه بكلمة طيبة! ولا بد من الانتباه إلى السائلين لاسيما الذين يأتون بعد صلاة المغرب».[١١٨٨]

حبُّ الدنيا

«حُبُّ الدنيا الذي يُنسي الآخرة رأسُ كل خطيئة وأعظم الذنوب. والظاهر أن كل ذنب يُرتكب يكون للحبِّ الشديد للدنيا».[١١٨٩]

«على العاقل أن لا يُتعِب نفسه بالانشغال بسقط المتاع في الدنيا؛ فالرزق مقسوم، ولن ينال أحدٌ ما يزيد على رزقه».[١١٩٠]

الدعاء

«أفضل الدواء الدعاء؛ فالدعاء يمنع البلاء، ويخفِّف من البلاء الذي يُصاب العبد به. والدعاء سلاح المؤمن، غير أن الدعاء لا بد أن يكون بحضور القلب والتفكر بعظمة الله U وفي الأوقات التي يُقبَل فيها، فعلى العبد مثلًا أن يقوم في الثلث الأخير من الليل، ويتوجه إلى القبلة مطأطئ الرأس، مكسور القلب، فيحمد الله تعالى ويثني عليه بتضرع وابتهال وطهارة، ويصلي ويسلم على رسوله، ثم يتوب أولًا ويستغفر ربه، ويتصدق، ويصر في الدعاء».[١١٩١]

١١٨٧ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، ص٣٤٦.

١١٨٨ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ص٢٠٧.

١١٨٩ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٣٦.

١١٩٠ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٤٠.

١١٩١ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٤٩.

«يقول بعض الناس: (إذا قرأت هذا الدعاء كذا مرة، تصل إلى مرادك كذا).
إن كثرة قراءة الدعاء لا تنفع إن لم يكن القلب طاهرًا؛ فالماء مثلًا في الدنيا كثير، ومنبعه واحد، غير أن مِن الماء ما يكون عذبًا فراتًا، ومنه ما يكون أُجاجًا لا يُشرَب، لذلك لا بد أن يكون المنبع طاهرًا في كل حال. فكلما كان المنبع طاهرًا، زادت قيمة مائه. وكذلك لا بد أن يتطهر القلب الذي هو المنبع المعنوي».[1192]

الزاد

«﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[1193] . أي اعلموا أن زاد الآخرة الحذرُ من الأشياء الخبيثة، ذلك أن خير الزاد تقوى الله، وليس الزاد ما يُؤكَل. وصفوة الكلام أن للإنسان رحلتان:

رحلته في هذه الدنيا، ورحلته من الدنيا؛ ففي رحلته الدنيوية لا بد له من زاد وهو الطعام، وكذلك لا بد من الزاد في رحلته من الدنيا؛ وهو معرفة الله تعالى، وحبُّه، وإخراج حب ما سواه من القلب، والانشغال بطاعته كل حين، والحذر من مخالفته، واجتناب نواهيه.

وهذا الزاد خير من زاد الرحلة الدنيوية؛ فزاد الدنيا يلبي حاجة البدن فقط، أما زاد الآخرة فيُنجي من عذاب الآخرة الأبدي. وزاد الدنيا فانٍ، غير أن زاد الآخرة باقٍ ويُوصِل إلى اللذات الخالصة».[1194]

هجرته إلى المدينة المنورة وآخر أيامه

لقد كان الشيخ سامي أفندي طوال حياته يسير على نهج القرآن الكريم والسنة النبوية. ومن مظاهر ذلك أنه (رحمه الله) أمضى أيامه الأخيرة في مدينة رسول الله

١١٩٢ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص١٥٢-١٥٣.

١١٩٣ البقرة: ١٩٧.

١١٩٤ محمود سامي أفندي، تفسير سورة البقرة، ص٢١٤٩-٢٥٠٠.



r المنورة، وفي ذلك الجو الروحاني. وكان يقرأ ارتجالًا بين صُحَبه هناك قصيدةَ الشاعر نابي الأورفوي المشهورة التي يتحدث فيها عن الأدب، مشيرًا بذلك إلى ضرورة الأدب والتعظيم في تلك البلدة المباركة.

وقد زاد مرضه يومًا بعد يوم، ولم تُثمِر جهود الأطباء، فقد جعل بدنه النحيف وكأنه يذوب شيئًا فشيئًا، وصار ضغط جسده يرتفع دائمًا. لكنه (رحمه الله) لم يشكُ- مع كل هذا الألم- ولو مرة واحدة من ألم في جسده أو في رأسه؛ بل كان يدعو ربه دائمًا ويستغفره.

وفي تمام الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم العاشر من جمادى الأولى عام ١٤٠٤ هجرية الموافق للثاني عشر من شباط عام ١٩٨٤م توفي (رحمه الله) وهو يذكر الكلمة الطيبة «الله الله». ودُفن في المكان الذي كان يريده بشغف، في ذلك التراب المبارك لجنة البقيع بالقرب من قبر سيدنا عثمان ذي النورين وقبر أبي سعيد الخدري V.

لقد نال ولي الله الشيخ سامي الذي اتبع طوال حياته نهج نبينا الكريم المبعوث رحمة للعالمين شرفَ أن يكون قبره بالقرب من قبر رسول الله r ...

وقد سمع الناس في أرجاء الدنيا خبر وفاته في مدة قصيرة، فصلوا عليه صلاة الغائب.

من حِكَمه

- ليس كل امرئ عبدًا للمولى U، فقد يكون مخلوقه فقط؛ لأن العبد الحقيقي لله تعالى يلتزم بالأوامر الإلهية تمامًا، ويحذر من نواهيه أشدَّ الحذر، فإن فعل هذا فهو عبد حقًا؛ لأن مَنْ يقضي وقته بالغفلة ولا يعبأ بالعبادة والطاعة لا يمكن أن يكون عبدًا.[١١٩٥]

١١٩٥ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ٦، ص٢١٧.

- يُوصف الولد العاصي لأبيه الرؤوف بأنه مجنون، فكيف بمن يعصي ربه الرؤوف الرحيم! فوالله مهما وُصِف المخالف لأوامر اللهِ أرحمِ الراحمين، يبقى ذلك الوصف قليلًا في حقه.[١١٩٦]
- الحياء الحقيقي أن يترك العبد الذنوب في المواضع التي يكون فيها وحده بإيمانه أن (الله تعالى يسمعه ويراه...).[١١٩٧]
- المؤمن الذي يستحيي عندما يسمع غيرُه أفكارَه وآمالَه التي في داخله ليس بالمؤمن الحقيقي.[١١٩٨]
- يصل المرء إلى سعادة الدنيا والآخرة حينما يوجِّه جسدَه إلى الأعمال الدنيوية المشروعة، وقلبَه إلى الله تعالى.[١١٩٩]
- أفضل العبادة صحبة أولياء الله وعداء أعدائهم. (محبة من يليق بالمحبة، وكره من يستحق الكره). ومنبع مثل هذا السلوك المحبةُ الخالصة.[١٢٠٠]
- الملجأُ الوحيد لطالبي الحق تعالى كي يتقربوا إليه إنما هو دموعهم.[١٢٠١]
- لا ريب أن المشقة في الدنيا أشد يُسرًا من العذاب في الآخرة؛ لذلك على العبد أن لا يغفل البتة عن العبادة والطاعة وذكر الله.[١٢٠٢]
- القرآن الكريم دعوةٌ للمؤمنين إلى الجنة.[١٢٠٣]

١١٩٦ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٢١٩.

١١٩٧ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٢٠٧.

١١٩٨ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٢١٠.

١١٩٩ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص٢٠١.

١٢٠٠ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص٩٦.

١٢٠١ محمود سامي أفندي، المصدر السابق، جـ٦، ص١٩٣.

١٢٠٢ محمود سامي أفندي، تفسير سورتَي يونس وهود، ص٤٢.

١٢٠٣ محمود سامي أفندي، المصاحبة، جـ١، ص٤٦.



٣٥- صاحب الوفاء المرشد موسى طوبَّاش (رحمه الله)

[١٩١٧- ١٩٩٩م]

وُلِد أبي العزيز موسى أفندي (رحمه الله) في بلدة (قادن خان) في قونيا سنة ١٩١٧م (١٣٣٣هـ) آواخر حكم الدولة العثمانية العليَّة. أبوه أحمد حمدي طوبَّاش أفندي، واسم أمه عادلة. وجدُّ أحمد حمدي أفندي هو أحمد قدسي أفندي (توفي سنة ١٨٨٧م) كان عالمًا من كبار المحدِّثين وخليفة محمد قدسي بوظكيري خليفة الشيخ خالد البغدادي.

لقد كان الشيخ أحمد حمدي طوبَّاش أفندي رجلًا تقيًّا مضحيًا يهتم بمسائل الأمة، وهاجر إلى إسطنبول بعد ستة أشهر من ولادة ابنه موسى أفندي.

أمضى موسى أفندي طفولته وشبابه في بلدة (أرنكوي) في إسطنبول. وأنهى المدرسة الابتدائية والمتوسطة وسنتَي الثانوية في السنوات الأولى من العهد الجمهوري في تركيا. فأشارَ إليه والده المحترم أن يتوجَّه للتجارة كي لا يتعكر صفو قلبه بالأفكار الخاطئة التي انتشرت في ذلك العهد الذي شُوِّه فيه الدين والتاريخ. وكان موسى أفندي (رحمه الله) يرغب رغبة شديدة في الاشتغال في العلوم، فدرس على يد كبار العلماء آنذاك وأخذ منهم الدروس الخصوصية حتى أكمل علمه. فمن العلماء الذين أخذ منهم العلم العالمُ ألماليلي محمد حمدي يازر الذي كان أعظم المفسرين آنذاك، والشيخُ بابان زاده أحمد نعيم أفندي من المحدثين المشهورين، والأديبُ طاهر المولوي. وكان يحرص على حضور مجالس العلماء العِظام أمثال عمر نصوحي بلمان، وبكر حقي أفندي، ومصطفى عاصم يوروك، والحاج جمال أوغوت.

ولما بدأ بالاهتمام بالتصوف صار يكثر من زيارة رجال التصوف المشهورين في تلك الآونة أمثال الشيخ نوري أفندي الصاريري، وعبد الحي أفندي، والسيد شفيق أرواسي، وعلي حيدر أفندي، وسليمان حلمي طوناخان، وسعيد النورسي، وكان يخدم بعضًا منهم ويطلب الدعاء.

غير أن أعظمَ المؤثرين في حياة موسى أفندي كان العالم العارف الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو. فبعد أن عرف موسى أفندي هذا العالم الكبير تفتَّحت أمامه آفاق الروحانيات، فتغيرت حاله رأسًا على عقب، وظهرت فيه أحوال معنوية لم يشعر بها من قبل.

بدأت رحلته المعنوية سنة ١٩٥٦م وتوِّجَت بإجازة الإرشاد سنة ١٩٧٦م، وبعد أن توفي شيخه في الثاني عشر من شباط سنة ١٩٨٤م تولى- بإشارة من شيخه- مهمةَ إرشاد السالكين في طريق الحق وتربيتهم تربية معنوية.

وفيما يلي وثيقة الإرشاد التي قدَّمها سلطان العارفين الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو للشيخ موسى أفندي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد،

إخواني الكرام وأهل اليقين، أودُّ هنا أن أعرض عليكم ما يلي:

أبارك لكَ ولدي الحبيب موسى أفندي لخدمتكَ الطريقة النقشبندية العليا ولسعيك وإخلاصك فيها، وأجيزُك بمقتضى الرخصة التي نلتها من شيخي الكريم في أن تُعلِّم عباد الله الصالحين ممن يرغب في بلوغ الكمال بدخول طريق الإرشاد، وتُوصِل إليهم بَركة الطريقة وفيوضاتها. وأدعو الله تعالى الذي هو المنبع الوحيد للفيوضات كلها أن يجعل قلبك منبع إيمان ولسانك مجرى عرفان، وأن يستفيد من صحبك إخواننا في الدين الذين يحضرون صحبك! آمين!

وصلى الله على سيدنا وهادينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بتاريخ ١٢ رمضان ١٣٩٦ هجرية (٧ أيلول ١٩٧٦م) – سنة ١٣٩٢ رومية.

قرية أرنلار.

الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو من شيوخ النقشبندية والقادرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين اما بعد اخوان
كرام واهل يقينه عرض ايده بيليرم كه طريقت
عليه نقشبنديه يه خدمت غيرت وصميميتندن دولايي
سزا وار ومعنويه من موسى افندي يي تبريك ايدر
و طالب رشد و ارشادا اولان عباد صالحينه تعليم
طريقت والقاء نسبت فيض بركت ايچون عزيزم
افندمدن حائز اولديغم رخصت ايجابجه ذاتلرى
مأذون ايلدم جناب حق و فياض مطلق حضرتلرى
قلبلرين منبع ايمان ولسانلرى مجراى عرفان ايلسون
ذات عاليلرنه صحبت ايدن اخوان دينى شرف صحبتلرندن
مستفيد بيورسون آمين وصلى الله على سيدنا
وهادينا محمد وآله وصحبه اجمعين
وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

هجرى تاريخ
١٢ رمضان ١٣٩٦
رومى تاريخ
١٣٩٢

ارنلار كويي
نقشبندى وقادرى مشايخندن
شيخ محمود سامى رمضان اوغلو
محمود سامى

أخلاقه الحميدة

كان يُرى على الشيخ موسى أفندي الهيبة والوقار، تنفذ محبته وهيبته إلى قلوب من يراه. وكان الناظر إلى وجهه يذكر الله تعالى، ويشعر بشرف العبودية وجمالها.

وكانت المحبة العظيمة في قلبه تنعكس على وجهه، فينظر إلى كل شيء بمحبة، كانت في كلماته لذة مميزة، وكان صوته لطيفًا وكلامه حكيمًا. كان (رحمه الله) قليل الكلام بليغًا، لا يطيل الحديث دون حاجة، ويتكلم بما يلزم؛ فكانت كلماته كالندى الذي يخرج من البراعم فيتساقط على تراب فؤاد السامعين.

وكان الأدب واللطافة والظرافة في كل أحواله، وكأنه أُشرِب اللطافة منذ ولادته. وكانت الأصالة في وقوفه وجلوسه ومشيه.

فما أجمله من عبد في صورته وسيرته! لقد جعل العبودية للحق تعالى في كل صفحات حياته، فكان مضربَ مثلٍ في أحواله ومعاملاته. والحق أنه كان:

عبدًا صالحًا في عباداته!

وعبدًا صالحًا في معاملاته!

وعبدًا صالحًا في توزيع الحقوق!

وعبدًا صالحًا في المحبة والرأفة بالمخلوقات لأجل الخالق!

وعبدًا صالحًا يسعى لدفع المحن والمشقات برحمته!

وعبدًا صالحًا يتأمل ويتفكر في تجليات قدرة الله وعظمته في هذا الكون!

وعبدًا صالحًا ترك وراءه أثرًا عظيمًا بلطافته وظرافته ورِقَّة قلبه!

اهتمامه بالتربية المعنوية

كان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) يؤمن بضرورة التربية المعنوية ويذكِّر إخوانه في الدين بهذه الحقيقة، ويقول:



«مهما تعبَّد الإنسان وأمضى عمرَه بين السجود والصيام، فإنه لن ينال بذلك إلا الثواب فقط، ولا يمكن أن يصل إلى الترقي الروحاني إلا بالسير والسلوك. فبهذا الطريق يعرف الإنسان نفسه [يعرف عجزه]. وعندما يعرف نفسه، يعرف الله تعالى. ذلك أن الله تعالى لا يعرفه إلا مَن عرف نفسه. ومهما زهدَ الذي لا يعرف نفسه وتعبَّد وحصَّل العلوم، فكل ذلك لا يكفيه في بلوغ الكمال.

والمؤمن حينما يعرف نفسه، يتغير معنى كل شيء، فيبدأ يرجعُ كل شيء لله تعالى. ومهما ظهر مِن أمور، يقول بتسليم تام: (ذلك إحسان من الله تعالى). وتغدو كل حركة منه عبادةً لأنه بدَّلَ نظرتَه. وهذا العبد الذي صارَ يعرف الله تعالى إن أراد- مثلًا- أن يكسب المال والمُلْكَ، فإن الغاية تختلف؛ ففي بداياته كان ينشغل بالأفكار النفسانية كأن يقول: (لِمَ لا أكون صاحبَ مُلْك ومال، وأشرب وآكل، ويكون عندي بيت وبستان، ويصفِّق لي كل إنسان!) ثم عندما بدأ بالسير في طريق الكمال رأيتَه يقول: (إن المُلْك والمال الذي أعطانيه الله تعالى أُنفِق منه لأسرتي، وأخدم به المجتمع الإسلامي). وتغدو أعماله الدنيوية عبادةً لأنه بدَّل النيَّة. وعندما يكون فكر الإنسان مع الله تعالى دائمًا، يصبح كل شيء عبادة؛ مطعمه، ومنامه، وعلاقاته بأسرته...».[١٢٠٤]

«كلما مضى الإنسان في طريق المعنوية، زادَ حماسه وعشقه، وما استثقل شيئًا. ويغدو متلذِّذًا بالعبادات حذرًا من المحرمات، ويتحمل المصائب، ويسهل عليه الرضا بالقضاء والقدر، ولا يبقى شيء يعيق انطلاقه في آفاق الروحانيات».[١٢٠٥]

«إن الله تعالى يُكرِم عبادهَ الذين يحبهم والذين فيهم بذور الولاية بأن يجعلهم يسلكون في هذا الطريق، فعلى السالك أن يعلم قطعًا أنه سيرتقي إلى درجات الأولياء العظام بفضل إخلاصه وثباته وسعيه، لأن طريقنا طريقُ الأولياء

١٢٠٤ انظر: موسى طوبّاش أفندي صادق دانا (الإسم المستعار للمرشد موسى طوبّاش أفندي في الكتب التركية)، مجالس الميزاب الذهبي(Altınoluk sohbetler)، جـ٥، ص٤٢.

١٢٠٥ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٤٥.



العِظام؛ فعلينا أن نعدَّ أنفسنا لمثل هذا الطريق. وما دام الله تعالى قد أكرمنا بأولياء أجِلَّاء أمثال بهاء الدين النقشبند، وعبد القادر الجيلاني، ومحمود سامي رمضان أوغلو، نأمل أن يكرمنا بنبذة من تلك الألطاف وشرطه أن نراعي الآداب بإخلاص. وما دمنا نحبهم وعلى طريقهم، فإن الله تعالى سيعطينا من السعادة نفسها والنشوة على قدر سعينا؛ فخزائن الله تعالى واسعة. فلنسلك هذا الطريق بِجد ومحبة كي نترقى».[١٢٠٦]

«إن الأمر كله منوط بتخلي الإنسان عن الأنانية، فالإنسان إن اقتلع جذور أنانيته، عندها يمضي قُدُمًا في طريق الكمال. وترك الأنانية عسير على قدر ما يبدو يسيرًا. وعندما يتخلص الإنسان من الأنانية، فإن كل شيء يهب له الطمأنينة، ويغدو كل امرئ له صاحبًا. ومثل هذا الرجل يغدو محبًّا لكل إنسان ويُحسِن الظنَّ فيه لا سيما إخوانه المسلمين».[١٢٠٧]

«إذا حقَّق العبد الوصال مع ربه جلَّ وعلا، فقد حقق الوصال مع كل شيء، أما إذا لم يحقق الوصال مع ربه فلا قيمة له مهما ذاع صيتُه، وأثنى عليه الناس كلهم في الدنيا».[١٢٠٨]

الأمور التي كان يهتمُّ بها في التربية المعنوية

يقول موسى أفندي (رحمه الله):

«يُبحَث في طالب طريق المعنوية أولًا: الجود، والصدق، والتواضع، وسِعة الصدر، واللين، وحسن المعشر، والإخلاص، والاستقامة.

١٢٠٦ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٤٥؛ جـ٦، ص٢٤، ٦٥، ٩٨؛ سلطان العارفين، ص٥٥.

١٢٠٧ انظر: من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، إعداد: دار الأرقم للنشر، ١٩٩٩، ص١٧٢.

١٢٠٨ من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، ص٤٦.



ثم يُبحَث فيه السعي والإخلاص والتضحية...

وإن استُشيرَ الشيخ في السير والسلوك، فلا يقبل المستشير فورًا، بل ينظر في سيرته وصورته. فإن رأى إخلاص النية والاستعداد لسلوك طريق الروحانية، استخارَ، وإن لم يرَهُ لائقًا أخَّرَه. فغاية المشايخ ليست جمع الطلاب اعتباطًا، بل تشخيص أهل القلوب بالوجه الصحيح، وإيصالهم إلى الكمال».[١٢٠٩]

«لا ريب أن النجاح الحق في هذا الطريق السامي: الإخلاصُ والتواضعُ والسعيُ. والذي يتبنَّى هذا الأمر ويطلب رضا الله بدقة، فإنه يفوز برضاه سبحانه وتعالى. والذي يريد أن يستفيد من هذا الطريق السامي، فإنه حين يتحرك بعزيمة كبيرة وعرفان مستخدمًا إرادته الجزئية التي وهبها الله تعالى له، فسيبدأ بالإحساس بِعَبق الحقيقة التي أكرمها به الله تعالى. لذلك:

١. لا بد أن تكون غاية عبوديته تحصيل رضا الله تعالى دون غرض أو مقابل.

٢. عليه أن يؤدي أوامر القرآن الكريم ورسول الله، ويحذر بجدٍّ من نواهيه.

٣. عليه أن يؤمِّن رزقه من الحلال؛ فكم ممن يُقال عنهم أتقياء اليوم، لا علاقة لهم بالتقوى للشُبَه في ربحهم.

٤. عليه أن يكون تسليمه كاملًا للمرشد الكامل الحقيقي، والتسليم في الحقيقة لله تعالى. والمرء يستفيد من تسليمه أكثر من عبادته، والسالك ضعيف التسليم لا يترقى كما ينبغي.

٥. عليه أن يقرأ أوراده باعتناء كبير وفق الآداب التي أظهرها له مرشده موجِّهًا قلبه إلى الحق تعالى.

٦. عليه أن يداوم على صحب المرشد أو إخوانه.

١٢٠٩ من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، ص٤٦.



٧. عليه أن يركز على السعي للمحافظة على حاله، ونفي حب الدنيا، ومخالفة أهواء نفسه، وترقية أخلاقه وتحسينها.

٨. عليه أن يسلك طريق الخدمة بصدق، وعليه أن يخدم المؤمنين على قدر استطاعته كلما دعت الحاجة، لا بل المخلوقات كلها».[١٢١٠]

«كثير من الناس يظنون أن الترقي المعنوي يكون بكثرة العبادة فحسب. كلَّا، إن الترقي الحقيقي للإنسان يكون بفعل ما يجب فعله في السُّنة السَّنيَّة مدركًا أنه في حضرة الله تعالى. وكثير من الناس يؤدُّون كثيرًا من النوافل من العبادات، لكنهم لا يراعون الحلال والحرام، ولا يسعون للتخلُّق بالأخلاق الإسلامية، ويقضون أوقات فراغهم بالغيبة والنميمة، ويستعملون ما في أيديهم إرضاءً لرغبات نفوسهم. ويا ليت هؤلاء يقلِّلون من النوافل ويسعون للتخلق ويكونون واعين في موضوع الحق والحقوق!».[١٢١١]

وكان الشيخ الجليل موسى أفندي (رحمه الله) يُذكِّر محبِّيه بأمر آخر وهو:

«لا بد أن تعلم جيِّدًا أنه لا نهاية للسير والسلوك كما أنه لا نهاية للعبودية. فمن يقول: (أتممت عملي) بقي في منتصف الطريق، أما من يرى عيوبه وتقصيره فهو الذي يسير في الطريق الصحيح. إن السالك يخطِئ إن قال: (أنهيت تحصيلي المعنوي)».[١٢١٢]

ويقول الشيخ واصفًا صفوة هذه المعايير:

«لا بد أن نعلم هذا الأمر جيدًا في نهاية المطاف: إن نجاتنا وسلامتنا وسعادتنا لا تكون إلا بالسعي لاتباع رسولنا الأكرم r في كل أحوالنا، أي في

١٢١٠ انظر: من المكتوبات التي أرسلها لمحبِّيه، مجلة ألتن أولوق، عدد: ١٦٢، ص٦، آب ١٩٩٩؛ صادق دانا، صُحَب ألتن أولوق، جـ١، ص٥٢-٥٣؛ جـ٣، ص٢١٠.

١٢١١ المرشد موسى طوبّاش أفندي، سلطان العارفين، ص١٩-٢٠.

١٢١٢ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ١، ص٤٣؛ جـ٥، ص٧٩.



كل نَفَس نتنفَّسه، وفي كل خطوة، وفي كل حركة وسَكنة؛ وبالانصباغ بصبغته، والتخلق بأخلاقه، وعدم الحيد قطعًا عن سنته المحمديَّة». [١٢١٣]

أسلوبه في الإرشاد

كان موسى أفندي (رحمه الله) يعرض في شخصه أولًا مثالًا لحياة العبودية، فقد كان يهتمُّ ليكون عبدًا خالصًا للحق تعالى قبل كل شيء، حتى إنه كان يقول في بعض الأحيان:

«على الإنسان أن يفكِّر على هذا النحو: إن في العالَم ربًّا واحدًا وأنا عبده الوحيد، فعليَّ أن أؤدي عبوديَّتي على هذا الأساس!».

فكان شيخنا الجليل يزرع- بهذا الإحساس- في قلوب محبِّيه «لذةَ العبودية والحث عليها».

وكان يقول:

«كل حركة لا توافق أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه- يعني أحكام قرآنه- باطلةٌ وضلالةٌ... فأحكام القرآن الكريم تأتي في المقدمة، وهي الأساس لا يتغير. والإنسان إن لم تكن لديه شريعة فلا يكون له شيء... والواجب علينا أن ندقق في أوامر الله تعالى بإخلاص. وعلينا أن نتمسك بما أمره الله تعالى وننتهي عمَّا نهاه، وذلك الخطوة الأولى في الترقي المعنوي. فإن لم ينتبه الإنسان إلى الخطوة الأولى، لن يستفيد من الروحانيات كما ينبغي». [١٢١٤]

«أعظم موهبة إلهية منحها الله تعالى للإنسان إنما هي الحُبُّ. حبُّ الله تعالى، وحبُّ نبيه r، وحبُّ أهل الله، وحبُّ الإخوة في الدين، وحبُّ المؤمنين، وحبُّ الحيوانات وحبُّ كذا وكذا... فالحبُّ يدوم على هذا المنوال...

١٢١٣ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٨٤.

١٢١٤ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٩٨؛ جـ٤، ص٨٤؛ جـ٥، ص٤٠.



إن الله سبحانه وتعالى يضع حُبَّه في قلب عبده الذي يحبه ويعزُّه، فإن استطاع ذلك العبد أن يعلم قيمة هذا الحب وقدره وأحسن استعماله؛ أي استعمله بإخلاص، وأدى ما تُوجِبه العبودية متمسكًا بطريق التسليم، فإن الحُجُب تتفتح أمامه. فيتجلى له حال الأنس بالله تعالى بسهولة، ويجد ما يبحث عنه بيسر على هذه الصورة، وذلك ثناء من الله تعالى. ويمكن الوصول إلى هذه الحال بنظر الخواص من عباد لله، أي المرشد الكامل الحقيقي، ولا تكون إلا لقليل من الناس. ولا يؤثِّر نظر المرشد الكامل في كل من يأتيه، وحتى إنه يكون لِقليلٍ من العباد الصالحين الكاملين ذوي الأخلاق الحميدة الذين خصَّهم الله تعالى بفضله. إن من يحظى بالحب يؤدِّي ما يأمره به الله تعالى بحب ويسر وطمأنينة. ولا تحصل لذة وطمأنينة في عبادات بعض العبَّاد لنقص الحب في قلوبهم».[١٢١٥]

وكان لكل إنسان في نظر الشيخ موسى أفندي قيمة، ولم تكن قيمته تلك نابعة من شهرته أو مقامه أو ماله أو نسَبه؛ بل من أنه عبد لله تعالى. وكان محبوه الذين يحترمهم ويحبهم يشعرون في قلوبهم بحرارة حبِّه لهم وبأن لهم مكانة خاصة في قلبه (رحمه الله).

وكان (رحمه الله) إذا خاطب أحدًا أظهر له الاحترام واللطف في خطابه فجعل كلمة «سيدي» أو «أخي» قبل اسمه مهما كان عمره ومكانته الاجتماعية.

وكان يُظهِر محبته لمحبيه بإهدائهم تارة وبزيارتهم تارة أخرى، أو بأسلوب آخر. ولسنا نبالغ إن قلنا: «إن عند كل محبٍّ له هدية منه»، سواء أكان عطر الورد، أو سجادة صلاة، أو قطعة قماش، أو مِسبَحة، أو طاقيَّة، أو وردة... وكل ذلك كان دليلًا على لطفاته ونزاهته (رحمه الله).

فكان (رحمه الله) يعلم كيف يدخل قلوب الناس، ويحب إرضاءهم، ويقضي حاجات محبِّيه بطرقٍ شتى، ويقول:

١٢١٥ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٢، ٨٠-٨١.



«لا بد من إمساك كل شخص من مكان كي ننقذه».[١٢١٦]

وكان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) يُذكِّر أحيانًا بأسلوب لطيف محبِّيه- لا سيما الذين كانوا من أهل الخدمة- بأخطائهم بِنيَّة تربيتهم، ويبيِّن لهم الصواب.

وكان تارة يغضب إذا رأى أمرًا مخالفًا لأوامر الله أو صدَرَ عن أحدهم سلوك أحمق، غير أن غضبه كان في إطار المحبة، لذلك لم يكن ينزعج أحد من تنبيهاته أو يهجره، فكان ينبِّه مخاطبيه بتحبيبهم إليه لا دفعهم عنه.

وكان الشيخ (رحمه الله) يطبِّق تارة أخرى أصول تربية خاصة لإخوانه من أهل العرفان بالالتزام بالصمت العميق. وبصمته الطويل ذلك كان كل من حوله يجد الفيض والروحانيات، ولا يقدر على الإمساك بدموعه، وتغدو أفئدتهم وكأنها تطير إلى فضاءات أخرى.

اهتمامه الكبير بالصحبة

كانت الصحبة في مركز حياة الإرشاد لدى الشيخ موسى أفندي (رحمه الله)، حتى إنه إذا اجتمع ثلاثة أفراد من أسرته، ما كان يأذن لهم بفضل الكلام، ويقول: «وجبَتْ علينا الصحبة». حتى إنه صحب من كان معه في سحر إحدى الليالي التي قضاها في المستشفى، فكانت حادثة لا تخرج من الأذهان.

وكان الشيخ الجليل (رحمه الله) يذكِّر بضرورة حضور المسلم الصحبة شاعرًا بأنه يتعبَّد، فلم تكن الصحبة في نظره اجتماعًا عاديًّا، بل مجلسًا معنويًّا ساميًا. وكان يقول:

«لقد أوصل رسول الله عليه الصلاة والسلام صحابته الكرام إلى النضج والكمال بصحبه التي كانت في «**الصُّفَّة**» في مسجده. وقد أولى الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند وأمثاله من الأولياء العظام أهميةً كبيرة للصحبة، وتربَّى الأولياء في

١٢١٦ انظر: من عالَم ولي الله، ص١٠.



تلك المدارس المعنوية. وفي الصحبة أسرار كثيرة، من الجانب الروحاني ومن جانب العلوم الظاهرة.

إن الصحبة إن لم تكن مستندة إلى منافع دنيوية ودون مقابل أو غاية، وكانت في سبيل رضا الله وحده، فإن الملائكة تحضرها... وهذه الصحب تقوّي الألفة والصدق والمحبة بين المؤمنين، ومن لا يحضر الصحب لن يجد المحبة مهما درسوا وتعلموا. وعلى السالكين في هذا الطريق أن يداوموا على أورادهم ولا يهملوا الصحب، فقد قيل: «الصحبة متمِّمَةٌ للذكر والأوراد». ومَن يداوم على حضور الصحب المعنوية بإخلاص ويقرأ أوراده بانتظام، لا يبقى في قلبه حب الدنيا ولا العقبى، بل يبقى حب المولى وحده. ومن يحب المولى يكون من أهل الاستقامة والصلاح ويؤدي واجباته الدينية والدنيوية. ففي الصحب يخرج حب الدنيا وقذارتها من القلب، ويمتلأ بحب الله ورسوله. والحاضرون الصحبة مهما كانوا متعبين وحزينين أثناء قدومهم، فإنهم عندما يخرجون من المجلس لن يشعروا بأي تعب أو حزن، ويغدون نشيطين مطمئنين، فعندما تدخل محبة المولى القلبَ، يتمُّ كل شيء.

ولا يمكن وصف لذة الصحبة التي يُراعى فيها آدابها، فالجالسون فيها يتنعَّمون بالطمأنينة. وإن كان المتحدث في الصحبة أهلًا لذلك، يظهر بين الحاضرين تجليات المحبة والاحترام والصدق وتجليات فاضلة أخرى. ومهما راعى الحاضرون الآداب، زادَ الله تعالى من فيضه».[١٢١٧]

وكان الشيخ موسى أفندي يولي القلبَ أهميةً عظميةً في التربية المعنوية، لذلك كان أكثر كلامه عن القلب، ومن أكثر العبارات الجميلة التي كان يكررها قوله: «إعطاء القلب لله».

١٢١٧ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٥، ص٤٣-٤٤، ٥٧-٥٩؛ جـ٦، ص٦٤، ٦٧، ٩٤-٩٥، ١٠٠؛ من عالَم ولي الله، ص٧٦.



كان على رأس الخدمات

لم يكن موسى أفندي (رحمه الله) يحب العطالة أبدًا، وكثيرًا ما يُذكِّر الناس أن التصوف ليس الانزواء، ويبيِّن ضرورة أن يكون لكل إنسان خدمة يقدِّمها على قدر طاقته بقوله:

«على كل إنسان أن يؤدي ما عليه، فالمعلِّم مثلًا لا بد أن يسعى لتعليم طلابه على أفضل صورة... والمهندس المعماري عليه أن يبني مساجد جميلة وبيوتًا توافق المفهوم الإسلامي؛ فلكل إنسان عمل لا بد أن يؤديه...

وعلى كل واحد أن يخصِّص وقته لأكثر الأعمال نفعًا على قدر طاقته... فمنهم من عنده قدرة على أداء العبادات أكثر... ومن الناس من يكون من أهل الشجاعة... وإن جمعتَ كل هؤلاء فإن الهدف يكون نفسه ولكن الطرق مختلفة... وحتى المريض عنده وظيفة، إذ عليه أن لا يفكر بنفسه فقط، وإن لم يستطع أن يفعل شيئًا فعليه أن يدعو لأمة محمد...

ومن الناس من يترقَّى بالصلاة، ومنهم من يُسرُّ بالصيام، ومنهم بالعرفان، ومنهم بالمنشورات. والمنشورات من أعظم الخدمات لا سيما في هذا العصر...».[١٢١٨]

«ترى كثيرًا من الناس يحيون باطمئنان معتقدين أنهم أدوا واجباتهم الدينية حين حصروها بالصلاة والصيام. لكن هل يكفي هذا؟ لا، إذ لا بد من الرأفة بالمخلوقات إضافة إلى مراعاة أوامر الله وتعظيمها، الأمر الذي لا يمكن القيام به إلا بالتضحية والخدمة الصادقة النابعة من القلب. فعلى كل مسلم ذي عقل سليم- بعد أن يؤدي الفرائض التي عليه ويحذر من الحرام- أن يكون فعَّالًا بأن يقدِّم الخدمات للمسلمين ولمجتمعه وللمخلوقات جميعًا، ولا يمكن لـمَنْ لا

١٢١٨ انظر: من عالَم ولي الله، ص١٠٣، ١٨٠-١٨١.



يخدم الناس ببدنه وفكره وماله لوجه الله أن يكون مؤمنًا كاملًا؛ لأن هذا مكمِّلٌ للفرائض وجزءٌ من سُنة رسول الله r .

وإن كان عندنا المال الوفير، نُنفِق، وإن كان عندنا علم، نجد أهله وننشره في المواضع المناسبة. وإن أراد المرء، فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه تلك الفرصة. ومهما كانت مهنتنا، فإننا سنفيد المجتمع في مهنتنا وفي كل خصوص. وسنزور جيراننا، ونعود مرضانا، ونشيِّع جنائزنا. فبعد أن ينوي الإنسان، ثمة كثير من الأعمال الصالحة أمامه...

وبعض الناس يتجنبون الخدمة والاختلاط بالناس خوفًا من فساد طمأنينة قلوبهم، وذلك من مكائد النفس. والكَيِّس مَن يداوم على الدعاء والخدمة، ويأنس مع ربنا سبحانه وتعالى».[١٢١٩]

وقد أشار الشيخ موسى إلى أن الأدب في الخدمة أهمُّ من الخدمة نفسها فقال:

«لا بد لأهل الخدمة أن يتحلوا بالإيثار ما داموا يسيرون على هذا الدرب. وأما من كانت غايته تقديم الخدمات كلها وحده، فسرعان ما يصيبه التعب والنَصَب والضنك، وتتبدل آراؤه وأفكاره، فيشرع باستحقار هذا وذاك، وتسوء أحواله على هذه الصورة، والعياذ بالله، ثم يمسي في نهاية المطاف أسيرًا لحب الرياسة».[١٢٢٠]

وكان الشيخ (رحمه الله) يبدأ بنفسه قبل أن يحث أقرباءه وأولاده على الخدمة، وكان يدعم كثيرًا من مؤسسات الخير أثناء تأسيسها، ويدعم معاهد تحفيظ القرآن، والمدارس الثانوية الشرعية، والمساجد وغيرها من دور العلم والعبادة. فمثلًا أدارَ بنفسه تأسيس دار الأرقم للنشر سنة ١٩٨٠، ووقفَ عزيز

١٢١٩ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٣، ص١١٧، ١٦٧، ٢٢٠؛ جـ٥، ص٧٨-٧٩.

١٢٢٠ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٤٨.



محمود هدائي في أسكدار في إسطنبول سنة ١٩٨٥، وإصدار مجلة (ألتون أولوق) سنة ١٩٨٦، ودعمها كلها ماديًّا ومعنويًّا، وساهم في تأسيس كثير من مثل هذه المؤسسات.

وكان ينبه أحيانًا الذين يخدمون في مؤسسات الخير بقوله: «لا تهملوا ترقيكم المعنوي بقولكم: (إننا نعمل في أعمال الخير على كل حال)» ويقول:

«على العبد أن يرتقي في أخلاقه ومعاملاته طالما أنه يقدِّم خدمات للآخرين، وعليه أن يسعى لتوجيه قلبه نحو ربه سبحانه وتعالى توجيهًا يليق بكماله، ويكون عبدًا للحق تعالى مثلما يجب، عبوديةً قائمة على الإخلاص والأدب والتواضع. وإن لم يكن الحال كذلك، فإن أهل الخدمة ممن لا يلتزمون بالأصول وكمال الأخلاق، ولم يرتقوا إلى الدرجات العليا والمراتب السامية، سيُفسِدون روحانياتهم بخدماتهم، ويُحرَمون من نصرة المولى سبحانه وتعالى بسبب ضعف في نيَّاتهم».[١٢٢١]

كان موسى أفندي (رحمه الله) يسعى لتفريج كل أنواع الهموم عن أمة محمد، ويفعل ما يستطيع. وذات مرة لم يستطع أن يكون وسيلة في هداية مجموعة من الشبان البعيدين عن دينهم بعد أن حاول كثيرًا، فلم يهدأ له بال والتجأ إلى الله تعالى قائلًا:

«اللهم أنت العلي القدير ذو الطول والقدرة، إننا ندرك عظم الحريق ودهشته، وأيدينا مقيَّدة، وليس لنا في ذلك طاقة. إننا في دهشة ولا نعلم ما نفعل...».[١٢٢٢]

١٢٢١ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣٧.

١٢٢٢ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٤، ص١٦٧.



الإخلاص والاستقامة

يقول الشيخ موسى أفندي (رحمه الله):

«الإخلاص خير قاعدة وملاك الأمر كله! وعلى كل إنسان أن يطلب الإخلاص من الله تعالى، فإن كان هناك إخلاص في مجلس ففيه كل شيء. وإن لم يكن، فلا فيض فيه مهما قُرِئ من كتاب وتفسير وغيره. وإني أدعو الله تعالى أن: (يا رب زد إخلاصي). الإخلاص أجمل شيء، ومن عنده إخلاص فقد أكرمه الله تعالى كثيرًا».[١٢٢٣]

وذات مرة جُمعَت المساعدات لجرحى البوسنة والهرسك في إحدى مجالس الصحبة. وفي ذلك المجلس قدَّم كل شخص مساعدة حسب استطاعته، فقدَّم الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) مبلغًا كبيرًا وقال:

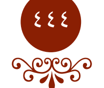
«هذه أمانة صاحب لي». ففهم من كان في المجلس- ما عدا أهل البصيرة- أن المال لشخص لم يستطع القدوم إلى المجلس. لكن الأمانة كانت ماله، والصاحب ربه سبحانه وتعالى......

وكان (رحمه الله) يقول: «الاستقامة فرض دائم» وكان الخط الواضح في حياته التي كان يحياها في إطار الكتاب والسنة: الإخلاصُ والاستقامةُ، لذلك كان ذلك أعظم كراماته.

عباداته التي كان يؤديها بتعظيم وشوق

لا ريب أنه من الكلمات الأساسية في حياة الشيخ موسى أفندي كلمة «تعظيم». فقد كان (رحمه الله) في حال تعظيم لله سبحانه وتعالى وخشوع نتيجة المعرفة الإلهية التي بلغها. وكان يقول: «العبادة تحمل الإنسان إلى الجنة، وأما

١٢٢٣ من عالِمَ ولي الله، ص١٨١.



العبادة بتعظيم فتحمله إلى الله تعالى» فيربط فيوضات العبادة وبركتها بالتعظيم في كثير من الأحيان.

وكان (رحمه الله) يحيا لذة كونه عبدًا لله ويشكر الله تعالى كثيرًا فيقول:

«الحمد لله أن جعلنا عبادًا له، ومن أمة حبيبه، وجعلنا نسلك هذا الطريق الجميل العالي، ولا يمكن أن تكون هناك سعادة أعظم من هذه. الحمد لله مرة أخرى...».[١٢٢٤]

وكان يبيِّن أن العبادات لله U فقط وضرورة أن تؤدَّى بشوق وحماس بقوله:

«إذا شعر الإنسان أنه عبد لله تعالى فأطاع أوامره في كل شيء، فقد نال المراتب العليا، لكن ينبغي ألا نكون عشاق مراتب، إذ علينا أن نخضع لما يأمرنا الله به خضوعًا نابعًا من المحبة، ونحذر ونحترس مما ينهانا عنه سبحانه ونستمر بالعبودية لله تعالى، فكلما ثبتنا على ذلك أكرمنا ربنا Y بالأحوال الجميلة الحسنة، وعندها ننجو بأنفسنا بإذن الله تعالى».[١٢٢٥]

كان موسى أفندي (رحمه الله) يلبس عباءته قبل الصلاة، ويضع طاقيته البيضاء، ويتعطر بأفضل عطور الورد، ويُكرِم من حوله، ثم ينتظر الأذان بكل خشوع. وكان يحرص على فرش سجادة الصلاة جيدًا، ولا يأذن لأي شيء أن يشغل عينَيه وقلبه.

وقد كان تعظيمه للأذان تعظيمًا مختلفًا، فكان يستجيب للأذان كما توصي السُّنَّة، ويستمع إليه بطمأنينة، ثم يدعو دعاء الأذان بخشوع.

وبعد أن يؤدي الصلاة مراعيًا تعديل الأركان، يُسمَع منه كلمة «الحمد لله» بلطف يداعب الأرواح من شفتَيه المباركتين وكأنه شرب ماءً عذبًا في يوم حار.

١٢٢٤ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٥، ص٧٦.

١٢٢٥ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٥، ٨٢.



وهذا التعظيم الذي أظهره للصلاة كان يُرَى في العبادات الأخرى. ومن مظاهر تعظيمه الله تعالى اهتمامه بشهر رمضان لا سيما في موائد الإفطار التي كان يُقدِّمها في الحرَمَين، وحال التفكر العميق أثناء أدائه فريضة الحج، وأدبه واحترامه أثناء زيارة قبر سيد الكونَين عليه الصلاة والسلام، وألفته وأنسه بكلام الله، والشكر العظيم الذي كان يشعر به أثناء إعطائه الصدقة والزكاة، ومشاعر اللطافة والأمانة.

محبته الواسعة

إن الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) ولي من أولياء الله العظام شربَ من نبع المحبة الإلهية حتى ارتوى، وكان قلبه بحر محبة، يتقاطر من لسانه وعينيه قطرات المحبة. وكأنه يقول بلسان حاله كما قال أسعد أفندي (رحمه الله): «إني مجنون بعشقك، ولكن ليس لي شهرة!». وكيف لنا أن نفهم غير ذلك من العبارات الموجودة في مكتوبه الذي أرسله لأحد مريديه:

«إني عاجز عجزًا شديدًا، ومليء بالنقص والعيوب؛ وعزاءي الوحيد أنني أحب أحباب الله من قلبي وأكثر من أي شيء محبةً عظيمةً، فلا اللسان يعبر عن هذه المحبة ولا الكلمات».[١٢٢٦]

وكان شيخنا الفاضل يرغب في زيادة محبته لله تعالى في أدعيته. ودعاؤه التالي من الأمثلة الواضحة:

«اللهم يا عليُّ يا قدير! لك الصفات العلوية والشرف والقوة والقدرة. كيف لنا نحن الخلق أن ندرك بدائع صنعتك وأخلاقك التي لا حدود لها؟ أكرِمْنا يا رب والطف بنا وافتح علينا نافذة البصيرة لعلنا نفهمك بقدر طاقتنا. وزِدْ عشقنا كي نوفي بعبوديتنا بشوق عظيم وأدب كبير. والتمام صفة كمالك، والنقص صفتنا،

١٢٢٦ «من مكتوباته»، مجلة ألتن أولوق، عدد: ١٦٢، ص٨، آب/ أغسطس ١٩٩٩.



فاغفر لنا ولا تعذبنا بخطايانا! اللهم إنا لا نلجأ إلا إلى عفوك ورحمتك ومغفرتك، فعاملنا يا رب بلطفك لا بعدلك!».[١٢٢٧]

«يا رب لا تحرمنا من نعمة المحبة، فكل شيء يزدهر ويحيا ويقوى بمحبتك يا رب العالمين، يا رب اجعل من تحبهم محبوبين عندنا، فكما جعلت رسولك الكريم r محبوبًا عندنا كذلك اجعل كل وليٍّ، واجعلنا يا رب على أعتاب محبة أهل البيت والصحابة الكرام وكلِّ من يحب دينك ويخدمه بلا استثناء.

يا رب إننا نحبك بفضلك!

ونحب من تحبهم بفضلك!

ونحب من يحبونك بفضلك!

ونحب من يحب أحبابك بفضلك!».[١٢٢٨]

وكان شيخنا الجليل (رحمه الله) يقف على ضرورة توجيه المحبة الموجودة فطرةً في الإنسان، وكأنه يضع حدود المحبة. فيضع محبة الله في مركز المحبة، ويربط المحبات الأخرى بهذه المحبة.

ويقول:

«إن قيل: محبة، يأتي في الأذهان أولًا الخالقُ ذو الجلال والكمال، ثم سيد الكون محمد r ، ثم الأنبياء الآخرون، والصحابة الكرام وأولياء الله العظام، ثم محبة المؤمنين، ثم محبة الحيوانات، ثم محبة كذا وكذا... وتستمر المحبة هكذا على هذا المنوال...

ومن يحب اللهَ تعالى، لا يحب غيره حبًّا حقيقيًّا، إذ لا تبقى طاقة لديه لذلك. وتستمر المحبَّات الأخرى؛ فعلى سبيل المثال: يحب أمَّه وأباه وأسرته

١٢٢٧ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٢، ص٨٦.

١٢٢٨ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ١٨٩-١٩٠.



وأولاده وماله ومُلكَه، لكن هذه المحبة تنشأ من محبة الله تعالى وتكون في محلها ومعتدلة. ومثل هذه المحبات المعتدلة مقبولة، فمحبة العبد لإخوته من العباد فطرة إنسانية. والإنسان يحب أمه وأباه، لأنهما وسيلة قدومه إلى هذه الدنيا وتعلمه الدِّين. ويحب أسرته العفيفة الخلوقة الفاضلة، وتكون هذه المحبة مقبولة إن كانت لأجل الله... أما محبة المال والمُلك فتكون محمودةً إن استُخدِمَت لنفع الإسلام والناس... وعندما تجد المحبةُ الكمالَ، فإن العبد حينها يحب من يحبه اللهُ تعالى فقط، ولا يحب من يبغضهم الله تعالى وأعداء الدين، حتى إنه يبغضهم».[1229]

وقد وضَّح موسى أفندي (رحمه الله) أن المحبة ستجعل العبودية ألذَّ حال، وتملأ الحياة بالطمأنينة والأمان بقوله:

«إن من يحب الحق تعالى بصدق، تغدو دنياه جنة، لأن محبة الله تعالى تحيط بقلبه فلا يرى أي شيءٍ عبثًا، فيحب ويحب ويحب. وكل موضوع غير المحبة يضيق صدره ضيقًا حتى يُذهِب اطمئنانه... وعندما تتحول هذه المحبة إلى حال من العشق والشوق، يصبح صاحبه في حال من الوجد، لأنه يكون قد تجاوز نفسَه، وصار موجودًا بمحبة من يحبه...

[وما أجمل تعريف أهل العرفان لهذه الحال بقولهم: (حينما تخرج من بين الخلق، يبقى الخالق)!]

ومن ينال المحبة يؤدي ما أمره الله تعالى به بكل سرور وراحة عظيمة وطمأنينة قلب».[1230]

١٢٢٩ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٤؛ جـ٥، ص٢١-٢٣، ٨٠-٨١؛ جـ٦، ص١٠٦.

١٢٣٠ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٤، ١٨٩؛ جـ٥، ص٢٢.



رأفته ورحمته

إن محبة الشيخ موسى أفندي العظيمة جعلت منه رمزًا للرأفة والرحمة، وقد صار حضن رأفته ملاذًا للفقراء واليتامى والمساكين والمرضى والمذنبين الذين يبحثون عن النجاة وحتى الكائنات الأخرى. إذ كان (رحمه الله) يحب كل إنسان ما عدا أعداء الله، لا بل امتدت محبته إلى كل شيء. وكانت محبته تلك تفيض من يدَيه ولسانه وعينَيه رأفةً ورحمةً، وكانت هذه الحال تُشاهَد عليه أثناء نظره إلى الورود، ومداعبته الأولاد، وإكرامه القطط في حديقته والنوارس الواقفة على الأشجار.

وكان يقول:

«اسم الرحمن صفة من صفات الله Y . والمرحمة صفة أنبياء الله، والصحابة الكرام، وكبار أهل الله، والعارفين، والعاشقين.

والإنسان الرحيم يحب الله سبحانه وتعالى ورسوله r وأولياءه والناس أجمعين، حتى إنه يحب المخلوقات كلها...

إن الناس قريبون من الله تعالى على قدر درجة رحمتهم... وكلما نضج العبد، أعطى الله تعالى المخلوقات كلها رأفة ومحبة. وإن لم يكن للإنسان رأفة بالمخلوقات، فما أسوء حاله. وإن كان العبد عبدًا لله وسائرًا في سبيله، لكنه لا يرحم عباد الله- ولا الحيوانات- فذلك هو النقصان!».[١٢٣١]

كان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) يحب الفقراء كثيرًا، ويقول:

«إن كنَّا نحب الفقراء، فلنبتهل إلى الله تعالى كي يكرمنا بنصيب من مشاعر الحب السامية. حتى إنه ثمة كثير من العُبَّاد في زماننا لا يحبون الفقراء لنقص مشاعر الرحمة في قلوبهم... مع أننا لو عرفنا قيمة الفقراء من أهل التوكل

١٢٣١ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٩١، ١٩٢؛ جـ٥، ص٨٠.

والتفويض وقدرَهم عند الله تعالى، لطلبنا أقدامهم نقبلها... فالواجب علينا أن نحبهم وننسجم معهم ونطلب دعاءهم».[١٢٣٢]

لقد كانت فطرة شيخنا الكريم طاهرةً وكأنها عُجِنَت بخميرة الرحمة، إذ كان يحزن لأنه لا يستطيع أن يقدم خدمة عملية- لقلة طاقته- في مركز هدائي الطبي الذي افتتحه للمرضى الفقراء، وكان يقول بحماس:

«لو كانت لدي طاقة، لذهبت وخدمت المرضى بيدَي».

وممن امتدت إليه رحمته أولئك الذين وقعوا في مستنقع الذنب، لقد كان الشيخ (رحمه الله) يبغض الذنب أيما بغض، ولكنه كان يألم لحال المذنبين، فلم ينتقل كرهه للذنب إلى صاحبه، حتى إنه كان يدعو للمذنبين كي ينجو من أحوالهم السيئة، ويسعى جاهدًا لذلك. والحادثة التالية التي نقلها إلينا أحد أحبابه من مدينة بورصا تبيِّن حاله هذه:

«كان شيخنا الجليل يحب بورصا كثيرًا، وكان أحيانًا يقيم في مراكز الوقف على طريق جبل أولوداغ أسبوعًا أو عشرة أيام. وكان يحرس البيت برفقة بعض من إخوانه لأن البيت كان في منطقة معزولة، وكان ذلك العهد يشهد أحداث فوضى. وفي إحدى الليالي قفز رجل من السور إلى فناء البيت قرابة الساعة الثالثة، ثم توجه إلى الباب وحاول فتحه، فلما لم يفلح، بحث عن نافذة، وقد كانت نيَّته سيئة. فتدخلتُ رأسًا وأمسكت به، وطرحته أرضًا. وكان شيخنا في تلك الساعة كعادته يقوم ليصلي صلاة التهجد ويقرأ الأوراد والأذكار، فأردت إخباره بالأمر، فطرقت الباب، ففتح لي.

ولما رأى الرجل متمددًا على الأرض، فَهِمَ الأمر ودخل ليلبس ثم أتى الفناء، فتوجه إلى المظلة لأن الفصل كان صيفًا، وأجلس الرجل الذي قبضنا عليه إلى جنبه، وسأله عمَّا دفعه لمثل هذا الفعل الشنيع. فبيَّن الرجل أنه لا

١٢٣٢ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٣، ص١٢٣، ١٢٧.

يعمل وأنه في حال صعبة لا يستطيع فيها تأمين قوت أولاده، واعتذر. فحزن شيخنا الجليل كثيرًا أمام هذا المشهد، ثم دخل البيت، وأحضر بعض الطعام ورجع وقال:

«إنك جائع، فلنُشبعك أولًا». ثم نصحَه، وقدَّم له ظرفًا فيه مبلغ لا بأس به من المال، وقال:

«اقضِ حاجاتك الضرورية بهذا في الوقت الحالي، وأخونا هذا سيؤمن لك عملًا في أقصر وقت إن شاء الله- مشيرًا إليَّ- وإن لم يكن عندك مانع، فاحرص على أن تحضر كل أسبوع الصحب التي سيُعلِمُك بها أخوك!».

ولم يكتفِ الشيخ بذلك بل قال:

«سيصعب عليكَ المشي من هنا إلى بيتك، فليوصلك أخونا بسيارته». فكان قوله هذا تتويجًا لإحسانه ورأفته وعطائه.

ثم قال لي منبِّهًا:

«يا أخي، لا تفشِ حال أخينا هذا، وليبقَ ذلك سرًّا بيننا إلى يوم القيامة».

ثم وجدنا عملًا لأخينا هذا الذي سيُحفَظ اسمه عندنا إلى يوم القيامة، وصار يداوم على حضور الصحب الأسبوعية، وعاش مع أسرته حياةً مطمئنة. والحمد لله أنه الآن بيننا أخًا لنا كثير الدمع بحال معنوية حسنة».[١٢٣٣]

وفاءه الأسطوري

كان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) وليًّا من أولياء الله العظام، محمديَّ المشرب، يحمل كثيرًا من السجايا الحميدة، غير أن وفاءه كان شيئًا آخر، لذلك رأى أهل الحكمة أن اسم «صاحب الوفاء» يليق به.

١٢٣٣ ملاحظة خاصة أرسلها السيد مظفر إشيقفيران.



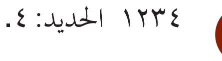
لقد كان عبدًا وفيًّا لربِّه، وكان (رحمه الله) كثيرًا ما يكرر قوله تعالى: **(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)**[١٢٣٤]، ويحيا حياته- لا سيما عباداته- في إحسان، أي في طمأنينة وأدب وإدراك أن الله مطَّلع عليه كل حين.

وكان وفاءه لرسول الله r وفاءً مميَّزًا؛ إذ لما كان في المدينة المنورة لسنوات طويلة، كان يذهب إلى المسجد النبوي، ويزور الروضة الشريفة بكل أدب وتواضع وطمأنينة. فكان الحرَّاس هناك يتدخلون في أمر كثير من الزائرين، حتى إنهم يعاملونهم بقسوة، ولكنهم عندما يرون حال الشيخ في حضرة رسول الله وأدبه وسكينته وصمته، كانوا يتأثرون بحاله. وبعد زيارة الروضة كان يصلي التهجد، ويذكر الله تعالى ويحاسب نفسه حتى صلاة الفجر. ولما كان يتمتع بصحة جيدة كان يبقى في الحرم الشريف في حال طمأنينة تامة حتى وقت الضحى.

وكان يبيِّن أن الوفاء الحقيقي لرسول الله r يكون بالتمسك بسنته الشريفة، وأنه يمكن أن تكون أحوال المرء كأحوال رسول الله بتطبيق سننه الظاهرة.

وقد تجلَّى وفاءه (رحمه الله) في محبته العظيمة لأهل الله وارتباطه بهم، فقد كان وفاءه لأستاذه الشيخ محمود سامي (رحمه الله) وفاءً تعجز الكلمات عن وصفه؛ لذلك كانت أهم صفحات حياته أيامَ لقائه بشيخه وصحبته معه، فقد ارتبط به طوال صحبته التي امتدت إلى ثلاثين سنة ارتباطًا صادقًا بتسليم، وكان ينظر إلى الحياة والأحداث بعين شيخه. وعاش حياته مع ذلك الولي الكبير ظاهرًا وباطنًا، فصار مثل شيخه في آخر أيامه وكأنه هو.

ومن الأمثلة الجميلة لوفاءه جودُه وسخاءُه لأحفاده وأقاربه الذين قدموا خدمات صغيرة له، وقراءته الفاتحة على أرواح من انتقلوا إلى دار القرار من شيوخه وأصحابه ومن خدمَ البلاد فردًا فردًا.



١٢٣٤ الحديد: ٤.



ومن أعظم أمثلة وفائه أنه جعل يبحث بعد خمس وخمسين سنة عن الممرضة التي خدمتني في سن رضاعتي، وأكرمها وأحسن إليها.

ومثال آخر للطافته وتقديره ووفائه أنه كان يرسل كل سنة رسالة وهدية لكل طبيب انشغل في علاجه، ولم يهمل ذلك حتى حينما كان في المدينة المنورة، إذ كان يتصل بنا ويطلب منا أن نؤدي هذه الوظيفة.

وقد قال أحد أطبَّائه مبينًا وفاءه وعرفانه بالجميل:

«لقد عالجت كثيرًا من المرضى، وكان بعض ممن عالجتهم يشكرني ويهديني، غير أنني قابلت أول مرة في حياتي إنسانًا يذكرني ويشكرني بعد سنة ويستمر في ذلك لسنوات».

سخاءه وإنفاقه

كان من عبادات الشيخ الاجتماعية التي يوفيها بلذة معنوية عظيمة البحثُ عن مكسوري القلوب وإدخال السرور على قلوبهم، وقضاء حاجة المحتاجين، إذ كان للشيخ (رحمه الله) حياة إنفاق منظمة، وكأنه وقف بذاته. وكان له صناديق أموال للخير مختلفة، فمثلًا كان له حساب للأيتام، وكان يسلِّم المقرَّبين إليه جزءً من حساب الخير المخصص إنفاقه على الأولاد اليتامى ويقول:

«لا تقتصر مهمتكم على إعطاء المنحة فحسب! بل عليكم الاهتمام بهؤلاء الصغار اليتامى كما تهتمون بأولادكم».[١٢٣٥]

وكان له حساب مصرفي باسم «الكتاب»، إذ كان عندما يرى كتابًا يفيد الشباب والأمة لا سيما كتب الشيخ سامي أفندي، يشتري منه الكثير، ويهديه لمن يراه مناسبًا له. وكان يهدي طلاب الجامعة كتبًا عن التاريخ العثماني وأبطال الإسلام.

١٢٣٥ عبد الله سْرت، «ولي من الأولياء تجلى عليه اسم الودود»، مجلة ألتن أولوق، عدد: ٢٤٥، ص١١، تموز ٢٠٠٦.



وكان له حساب خاص بـ«المرضى»، إذ كان الشيخ دقيقًا في موضوع الخدمات الصحية، فكلَّف أحد الأطباء المقرَّبين إليه بعلاج المرضى الذين لا يقدرون على الذهاب إلى الطبيب وشراء الدواء. وكان يدفع أجرتهم دون أن يعلموا.

وكان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) في بداية كل عام يحدِّد ميزانية خاصة لهذه الصناديق التي حددها. وكل ذلك كان إضافة إلى الزكاة، إذ كان يرغب في إنفاق كل ما يزيد على كفايته وحاجته.

وكان ينصح بالإنفاق كلما استطاع، وكان يوجِّه محبِّيه وأقاربه ومقرَّبيه بصرف النِعم التي أكرمها الله تعالى عليهم بسخاء في سبيل رضاه، ويقول لهم:

«يا أولادي عليكم بالحياة في حال رياضة، وإنفاق ما وهبكم الله إياه في سبيله! ولا تكن رياضتكم في الشهور الثالثة ورمضان فقط! بل اجعلوها في كل صفحات حياتكم، وأنفقوا في سبيل الله ما يزيد على حاجتكم! واعلموا جيدًا أنكم ولو عشتم في قصر (دولما بهشة) أو قصر (طوبكابي)، فإنه عليكم العيش هناك في رياضة أيضًا. لذلك اجعلوا أموالكم وأملاككم خارج قلوبكم، وإن لم تنفقوا ما يزيد على حاجتكم في سبيل الله، فإنكم تجحدون بالنعم التي أكرمها لكم. وحذار أن تنسوا أن النِعم التي لا تُنفَق، تفسد. والنعم التي تُفسَد، ستغدو كل واحدة منها وبالًا في الآخرة حسابها عسير».

وكان يسألني وإخوتي عندما كنَّا صغارًا عن سعر البرتقال أو التفاح الذي نشتريه ويقول: «هل سألتم عن سعره في السوق كله؟» كي يربِّينا خير تربية.

فكان ينبِّهنا أن شراء شيء بثلاث ليرات مع وجود الشيء نفسه بالجودة نفسها بليريتَين إسراف ويأمرنا أن نقتصد؛ أي إنه كان يحسب ألف حساب أثناء شراء شيء، لكنه كان ينفق بسخاء في سبيل الله ويتلذذ بذلك.

ولديَّ دفتر كان له، وفيه ملاحظات كتبها حول الزكاة وأعمال الخير والحسنات. وكان والدي العزيز يريني إياه وحدي بين الحين والآخر- كي لا يكون رياءً- ويقول:

«انظر يا ولدي، زكاتي بهذا القدر، وأعمال الخير والحسنات بهذا القدر...»

وكانت أعمال خيره وحسناته أضعاف زكاته كل حين، وكانت غايته في إظهار ذلك لنا أن يحثَّنا ويعوِّدنا على الإنفاق.

وكان من أعظم مساعداته بناءُ كثير من مؤسسات الخير مثل المساجد، ومعاهد تحفيظ القرآن، والمدارس الثانوية الشرعية في أماكن كثيرة في الأناضول وحتى خارج تركيا. ولم يكن يفرِّق بين جماعة وأخرى أثناء تقديم هذه المساعدات. وكان عندما يمرُّ في الأناضول على مسجد لم يتم بناؤه أو رأى قبرَ وليٍّ صالح لم يُعتَنَ به قال: «فلننشغلْ بهذا».

وكان يُسارِع في كل أمر يهمُّ المسلمين دون تأخير ويحثُّ من حوله على ذلك. وفي الأيام التي انتشر فيها الظلم مثل حرب البوسنة والهرسك، وأفغانستان، وكوسوفو، سارعَ للبدء بحملات مساعدات، وقدَّم بنفسه أعظم المساعدات بلا شك.

ولم يحب (رحمه الله) صفة البخل قط، وكان يوضِّح أن البخلاء لن يترقوا معنويًّا، ويقول:

«إن الكرَم من صفات ربِّنا تعالى العظيمة. والأنبياء كله وفي مقدمتهم رسول الله r والصحابة الكرام، وكبار أهل الله قد اتصفوا -بلا استثناء- بهذه الصفة الجميلة والخُلُق العظيم.

ولا يمكن تصور أن يكون الإنسان وليًّا لله وبخيلًا في الوقت نفسه، فالبخلاء هم الذين ليس لهم أي قيمة في نظر الحق جلَّ وعلا.

والكرَم زينة أحباب الله، أما البخل فمرضُ من لا قيمة لهم وسِمَتُهم. والكرَم مفتاح الصفات التي تضم كل جميل وحسن، أما البخل فمفتاح الدناءة التي تضم كل قبيح وسيء».[١٢٣٦]

١٢٣٦ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٣، ص٤٠-٤١.



ولم ينسب شيخنا الجليل إنفاقه يومًا إلى نفسه مع كثرة إنفاقه، بل كان يوقن أن المعطي إنما هو الله تعالى وأنه ليس إلا أمينًا لصندوق. وكان يُعلِّم الناس أن الأدب واللطافة في الإنفاق لا تقلّان شأنًا عن الإنفاق نفسه، عملًا لا قولًا فحسب. وكان يُكرِم الآخرين بلطف وظرافة شديدة، ويُجهِّز هديَّته على أفضل صورة ثم يعطيها لمستحقِّها. وإذا أراد أن يعطي أحدًا زكاةً أو مبلغًا، وضعه في ظرف جميل جديد، ثم كتبَ جملة جميلة بخط جميل مثل: «نشكرك على قبولك عطاءنا» فقد كان يدرك معنى الآية الكريمة: ﴿**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**﴾[١٢٣٧]، أي إن الله تعالى يأخذ الصدقة قبل المحتاج.

إن هذه الدِّقَّة التي عشناها منذ طفولتنا كانت معيارًا للسخاء في قلبي دائمًا. وكان يُطبَخ الطعام اللذيذ أيام الأحد أحيانًا، فكان والدي العزيز يحرص على أن يأكل منه مَن أعدَّ الطعام، فيراعي بذلك حقَّ العين. ذلك أنه (رحمه الله) كان يبتغي السرَّ الموجود في الآية الكريمة: ﴿**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**﴾[١٢٣٨]

ترتيبه ونظامه وانتظامه

كان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) يولي أهمية كبيرة للترتيب والنظام، ولا يحب العبث والتشتت أبدًا. ولم يُرَ عليه قطُّ الاضطراب والعجلة، فقد كان الانتظام والترتيب جزءً من حياته، وكان دائمًا ما يتحرك بتأنٍ ووقار. بل كان في طمأنينة قلبية نابعة من تسليمه التام لإرادة الله ومشيئَته.

لقد كان (رحمه الله) بأحواله كأنه إنسان يُقتدَى به، وكان معتدلًا في أكله وشربه ولباسه وعبادته وإنفاقه وصحبته وحبِّه وبغضه. وكان يُعرِّف التصوف أحيانًا بقوله: «التصوف صرف الوقت في أقيم شيء». لذلك كان يرى أن الوقت نعمة عظيمة وينصح قائلًا:

١٢٣٧ التوبة: ١٠٤.

١٢٣٨ فاطر: ٢٩.



«عندما نتفكر في المخلوقات كلها في هذا الكون الحية منها وغير الحية، ومن الذرة إلى الكواكب، نرى أن كل شيء يعيش ويسير بشكل منتظم. فعلى الإنسان الذي يعدُّ أشرف المخلوقات في هذه السلطنة الربَّانية ألا يكون مشتَّتًا غير منظم، بل عليه أن ينفِّذ كل شيء في وقته وحينه».[١٢٣٩]

مراعاته الاعتدال

إن الاعتدال دون إفراط وتفريط أساسُ الحياة المستقرَّة الذي لا غنى عنه. يقول الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) في هذا الشأن:

«إن المعتدلين يكونون ثابتين في الوقت نفسه، ولا يتركون الأمر لشيء صغير، وكذلك حالهم في السير والسلوك. ومن يتحرك باعتدال، يؤدي مهامه حتى نهاية حياته لا محالة. وبعضهم يكونون متحمسين كثيرًا، لكن ذلك لا يدوم».[١٢٤٠]

«إن العبادة التي تؤدَّى بعلم خير من كثير تؤدَّى بغفلة. وقد أمرَ رسول الله r بالاعتدال في كل أمر أكثر من كثرته، حتى في العبادة. ومن يُكثِر من العبادة، قد تضعف طاقته ويقع في كرهها، فتهون عزيمته ويقل حماسه، ويصل إلى حال لا يستطيع فيها القيام حتى بالقليل منها. والإنسان يتوقع الخير من كل شيء صار بتأنٍّ، أما ما يحدث في عجلة فلا يكون منه نتيجة...

إن الله تعالى لا يُكلِّف نفسًا بما لا طاقة بها لرحمته سبحانه وتعالى، لكنه أمر عباده بالطاعات والعبادات في إطار انكسار وأدب مدركين عجزهم».[١٢٤١]

١٢٣٩ المرشد موسى طوبّاش أفندي، ، صُحَب ألتن أولوق، جـ٢، ص١٢٥.

١٢٤٠ انظر: من عالَم ولي الله، ص١٤٨.

١٢٤١ انظر: المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٥، ص١٤٢؛ جـ٢، ص٩٨-٩٩؛ زاهدةطوبشو، «المرحوم موسى طوبَّاش أفندي»، مجلة شبنام، عدد: ٤، ص١١٢، نيسان-حزيران ٢٠٠٣.

لطافته وظرافته

لقد جعلَ ربنا تعالى في فطرة الشيخ موسى أفندي حبًّا عظيمًا للجمال واللذة البديعة. وعندما تلتقي فطرته الجميلة هذه بلطافة حضارة الإسلام وآدابها، يزداد لطافةً وظرافةً، ثم يأتي التصوف بمحاسنه ليتوِّج هذا الشأن.

وكان الشيخ موسى أفندي يقول جاعلًا الشيخ سامي أفندي قدوةً للناس:

«كان شيخنا (رحمه الله) يتكلم مع كل إنسان- بلا استثناء- بلطافة، ووجه طلق ولسان ليِّن، ولم يدعُ أحدًا باسمه فقط، بل يقول له: «يا سيد كذا» أو أي لقب آخر يناسبه. ومع الأسف صارت اللطافة واللباقة في أيامنا هذه جوهرة مفقودة، فكل واحد يتحدث مع الآخر ويعامله بلا لباقة، ويدرج ذلك تحت اسم المودة والحميمية، لكن ما علاقة الحميمية بالفظاظة؟ فمن الحميمية تُولَد اللطافة... والاحترام والدماثة والظرافة من أركان الإسلام».[١٢٤٢]

رضاه وتسليمه

يرى أولياء الله تعالى أنه ينبغي إظهار الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره كل حين، والتوكل عليه سبحانه. ويقول موسى أفندي (رحمه الله) في هذا الشأن:

«إن أدركَ العبد أن الله تعالى الصاحب الوحيد لكل مخلوق، فهِمَ أن الناس جميعًا- مهما كان موقعهم- مجموعة من المساكين العجزة، وليس لهم حول ولا قوة إلا ما بين أيديهم من صلاحية محدودة، فلا يعتمدُ على أقاربه ولا حتى على أولاده، ولا يثق بماله ومُلكِه، ويعلم أن كل شيء يتجلَّى بعون الله جلَّ وعلا، ويزيد توكله على خالقه وعلمه به وارتباطه وتسليمه، ولا يتوقع شيئًا من الخلق».[١٢٤٣]

١٢٤٢ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٦، ص٧٠.

١٢٤٣ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٣، ص٩١-٩٢.



والتسليم من أكثر الأمور التي وقف عندها شيخنا الجليل، إذ كان يخضع ويسلِّم طوعًا لأوامر الله ورسوله ويقول:

«إن الوصول إلى الطمأنينة في هذا الطريق لا يكون إلا بالتسليم، ومن الناس من يقع في بلايا مختلفة؛ فمنهم بالأولاد ومنهم بالمال أو غيره، ولا يمكن للمؤمن أن يرتاح في الدنيا راحة تامَّة. والله تعالى دائمًا بجنب المحزونين والمنكسرة قلوبهم. أما أصحاب الصدور الضيقة فلا يشعرون بالراحة من شيء، لا بل ينشرون الضيق في ما حولهم، ومثل هؤلاء لا ينتفعون من الروحانيات ولو كثُرَت نوافلهم».[١٢٤٤]

«إن التسليم يزيل الهمَّ والكدر من القلب، والروح تكون بصحبة من تُحب. ودرجة العبد في الروحانية بقدْر تسليمه... وتتجلى الأحوال المؤسفة من نقص التسليم، ويزداد التردد والوسوسة في كل شيء».[١٢٤٥]

وكان شيخنا (رحمه الله) يتحرك في كل أمر بتعقل وبصيرة، ويسعى لأخذ التدابير كلها الظاهرة والباطنة كما ينبغي. لكنه بعد أن تظهر النتيجة يُظهِر التسليم ويقول: «لا بد من قبول الحال، وإظهار الرضا».

أيامه الأخيرة

لقد قضى شيخنا الجليل حياته كلها يعيش معنى قول الله تعالى: (إنَّا لله). ولما بلغ الثمانينات من عمره بدأ يظهر عليه تجلي قوله تعالى:

(وإنَّا إليه راجعون) .[١٢٤٦]

١٢٤٤ زاهدة طوبشو، «رحلة إلى بورصا مع موسى أفندي»، مجلة شبنام، عدد: ٩، ص٧، ٢٠٠٤.

١٢٤٥ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ١، ص١١٢-١١٤.

١٢٤٦ انظر: البقرة: ١٥٦.



ولمَّا سُئِل رسول الله r يا رسول الله: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟

قال عليه الصلاة والسلام:

«**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**».[١٢٤٧]

وقد كانت ابتلاءات الشيخ موسى أفندي- وهو من ورثة الأنبياء- كبيرةً، فالابتلاءات تزيد من صفاء المؤمنين وترقِّيهم، وتزيد من معيتهم وأُنسِهم بالله سبحانه وتعالى.

وقد كان شيخنا (رحمه الله) في أواخر أيامه وكأنه يحضِّر باطنًا للوصال مع ربه وأحبابه، إذ كان يتواصل مع زواره في كثير من الأحيان بعينَيه، وكأنه بنظراته يستودعهم الله سبحانه وتعالى. ويقول في أحد مكتوباته التي كتبها قبل وفاته ونُشِرت لاحقًا:

ولم يستطع (رحمه الله) التحرك لسنتَين بسبب مرضه فعانى من مشاكل في دورة الدم. وقبل يوم من وفاته كان من الضروري قطع ساقه من فوق الركبة لتعرضها لـ(الغرغرينا). يقول الطبيب الذي أجرى العملية:

«أردت أن أرى الشيخ كثيرًا، لكن لم تكن هناك فرصة. وقد جمعني القدر به في تلك اللحظات الأخيرة من حياته. وكُلِّفت بالعملية، ولم أسمع منه إلا كلمَتين في تلك المدة القصيرة: «الله... الله...». أليس الله تعالى ملجأ أهل الذكر في سرَّائهم وضرَّائهم؟»

وبعد يوم من تلك العملية وفي يوم الجمعة- يوم عيد المسلمين- وبين تكبيرات أذان الجمعة المهيب المسموع في أُسكُدار تنفَّسَ شهيد العشق الإلهي أنفاسَه الأخيرة وسلَّم روحه لبارئها. لقد كان يعظِّم يوم الجمعة تعظيمًا خاصًّا، إذ كان يلبس الأبيض ويسير إلى بيت من بيوت الله في طمأنينة وسكينة. وكانت تلك

١٢٤٧ الترمذي، الزهد، ٥٧/ ٢٣٩٨.



الجمعة كأخواتها، إذ لبس البياض، لكنه في هذه المرَّة رحلَ إلى الله صاحب تلك البيوت، وتوَّج عيده في يوم عيد بالوصال مع الحق تعالى.

لقد بحث شيخنا الجليل طوال عمره عن ذلك «الصاحب العليِّ» بشوق، وكان ذلك اليوم يوم الوصال، وافترقت روحه العزيزة من جسده المنور طائرةً إلى الرفيق الأعلى في يوم الجمعة السادس عشر من تموز/ يوليو عام ١٩٩٩م.

اللهم كافئه بأفضل كرمك وأنِله ما تمنى...

آمين!

اللهم اجعل أحوالنا كحال دليلنا وشيخنا وأستاذنا ووالدنا العزيز (موسى طوبّاش) الذي قضى ما يقرب من قرن في سبيلك، ولم يتنفَّس نفَسًا إلى باستقامة كتابك وسنتك، وجعل خدمة دينك المبين تاجًا فوق رأسه! ووفِّقْنا في المداومة على خدماته العظيمة التي تكون وسيلة لرضاك! واجعل فراقنا الفاني خطوةً للوصال الأبدي في الفردوس الأعلى في حلقة صحبة حبيبنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام!...

آمين!

وقد احتشدت القلوب التي اتحدت في طريق الحق بعد صلاة ظهر يوم السبت السابع عشر من تموز/ يوليو في جنازته (رحمه الله). وتجرد هذا الحشد، الذي كان وكأنه على جسد واحد، من مشاغل الدنيا الفانية؛ احتشد الناس شاعرين بالآخرة، ووصلوا إلى الفيوضات والروحانيات التي يحس بها العبد الحقيقي حينما يتوجه إلى الله تعالى. وكانت الرؤوس المطأطئة والدموع المنهمرة مظاهرَ للأحوال الحقيقية التي تُبتَغَى من العبودية لله سبحانه وتعالى. وكان أعداد كبيرة من الملائكة كسُحُب رحمة لا تراها إلا الأعين البصيرة تشارك في الجنازة متوجهة نحو القبر، فوق تلك الحشود الغفيرة التي كانت تجد صعوبة في المسير.

وفي نهاية المطاف، وصلَ إلى مقبرة (الصحراء الجديدة) كي يصعد بوجه أبيض إلى ربه، بعد أن ملأ دفترَ عمره، الذي وُضِعَ أمانةً عنده ثلاث وثمانين سنة، بالمحاسن التي تكون مظهرًا لرضا الله. إن ولي الله هذا الذي جعل التواضع والمحوية شعارًا له طوال حياته دخل في قبر متواضع يُذكِّرُ الناس بتواضعه في حياته، والتحقَ بأصدقاء الأسرة في عالم البرزخ بالأدعية والابتهالات في هذا الجو المعنوي الذي اختلط فيه الحزن والدموع والرحمة والطمأنينة.

وصيَّته

كان الشيخ موسى أفندي (رحمه الله) يقول: «الحمد لله» بعد أن يُنهي كل عمل خير، ويشكر ربه أن وفَّقه لذلك، ولم ينسَ ذلك قط. ونأمل أنه قد قال: «الحمد لله» من قلبه لأنه سلَّم الأمانة بوجه أبيض لصاحبها الحق تعالى. وقد ترك وصية لأقاربه طلب فتحها بعد وفاته، ومما جاء فيها:

«اللهم يا ذا الجلال والكمال، يا خالق الكون ومالك السموات والأرضين والكواكب والذرَّات والإنس والجن والمخلوقات كلها!

يا رب إنني سأكون في حضرتك حينما يفتح ورثتي هذا الظرف.

يا رب أعطيتني عمرًا طويلًا، وجعلت أفضل أوليائك دليلًا لعبدك الفقير، ولم تبخل عليَّ بشيء دنيوي أو أخروي، وأحسنت إليَّ كثيرًا! ومع ذلك كله لم أعمل جاهدًا وما أدَّيت عبوديتي كما يليق بها، ومضى هذا العمر الطويل هكذا. وتوالت الأخطاء والعيوب، ولم أنضج كما أردت، وما وجدت عزاءً إلا برحمتك وسترك وغفرانك وعلوِّك.

فاعفُ عن ذنوب هذا العبد الفقير الحقير، لأنه أحبَّك وأحبَّ رسولك الكريم وأحبَّ من أحببت وأحبابك، وكل ذلك كان من لطفك وإحسانك وكرمك وعنايتك.

وارعَ يا رب ورثتي ومن يتَّبعهم ومن سيتبعهم من ذريَّتهم، وأكرِمْهم جميعًا بإيمان قوي لا يلين، ولا تجعلهم من العاطلين، كي يداوموا على عبوديتهم وعلى خدمة عبادك، واجعلهم ممن يوحِّدونك دائمًا».[١٢٤٨]

«إن كل من يأتي إلى هذه الدنيا سيرتحل إلى الحياة الأبدية بعد أن تنتهي ساعاته وأنفاسه المحدودة. وما أسعدَ ذلك الإنسان الذي أفنى حياته في سبيل الحق سبحانه وتعالى، وهاجر إلى الآخرة بوجه مُبيض. وإن العبد الفقير لم يقدر على أداء العبودية كما يليق بها، ولم أستطع أن أُصلِح نفسي على كِبر سِنِّي. وقرأت حياة كبار الإسلام الشريفة، لكني لم أطبقها على نفسي. فأرجو مغفرة ربنا سبحانه وتعالى وعفوه بعد هذا العمر المليء بالأخطاء؛ فإنه هو الرحمن الغفَّار. وأرجو من ورثتي أن يراعوا في حياتهم الحقوق الإسلامية».[١٢٤٩]

من حِكَمه

- الكيِّس منْ يصلح كيسَه أولًا فيغلق ثقوبه قبل أن يملأه، فمهما وضعتَ أشياء عظيمة في كيس مثقوب أو فيه شق، فلن يحافظ على ما يحويه.[١٢٥٠]
- على الكيِّس أن يصون نفسه وأهله من ذوي الأخلاق السيئة والإيمان الضعيف وأن يبقى بعيدًا عنهم، فالأحوال والأخلاق تنعكس على الإنسان بسهولة ممنْ يألفه ويستأنس به.[١٢٥١]

١٢٤٨ «**الوصية**»، مجلة ألتن أولوق، عدد: ١٦٢، خلف الغلاف الأمامي، آب/ أغسطس ١٩٩٩.

١٢٤٩ «من وصاياه...»، مجلة ألتن أولوق، عدد: ١٦٢، ص٢٠، آب/ أغسطس ١٩٩٩.

١٢٥٠ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٢، ص٣٦.

١٢٥١ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٣.

- إن ما يوصل العبد إلى معرفة الله من جواهر إنما هي بذور موجودة حقًا في تربة البدن، ولكي تنبت هذه البذور لا بد من دوام الحمد والشكر والذكر والتفكر... إن رأس المعرفة التفكر في أسرار الإبداع الإلهي.[١٢٥٢]
- يصل الإنسان إلى معارف روحانية كثيرة لم يتعلمها من الكتب بالتفكر والمراقبة بقلب سليم مطهَّر مما سواه تعالى.[١٢٥٣]
- لا بد من التواضع واستعمال القول اللَّين عند تبليغ سيِّئي الخُلق، ولا ينبغي تعييبهم البتة، لأن الشخص الذي يُعيِّب شيئًا قد يُبتَلى به في الحياة أيضًا».[١٢٥٤]
- يجب تعلم الأحكام الدينية بسؤال العلماء الصالحين، إذ إن فتاويهم تكون أكثر إصابة وأعظم تأثيرًا لأنهم أصحاب تقوى، ويجب الابتعاد- قدر الإمكان- عن علماء الدنيا الذين يجعلون علمهم قربانًا لكسب المال ونيل المناصب.[١٢٥٥]
- مَن أظلمُ من أب وأم لا يعلِّمان أولادهما الدينَ... فتربية الأولاد بغير دين كزرع شجرة من أجل حرقها في المدفأة.[١٢٥٦]
- حتى لو جمعتم مئة إنسان ناقص، فلن يقوموا مقام إنسان كامل.[١٢٥٧]
- على المسلم أن يكون حذرًا محتاطًا، لكن لا يكون جبانًا أبدًا.[١٢٥٨]
- تزكية النفس عند أكابر الدين فرض عين.[١٢٥٩]

١٢٥٢ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٥-٣٦.

١٢٥٣ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٨٩.

١٢٥٤ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٥٧.

١٢٥٥ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٤، ص١٧١.

١٢٥٦ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٤، ص١١٦-١١٧.

١٢٥٧ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص٥٦.

١٢٥٨ من عالَم ولي الله، ص١٩٢.

١٢٥٩ المرشد موسى طوبّاش أفندي، صُحَب ألتن أولوق، جـ٦، ص٢٤.



- أهم عبادة بعد الفرائض تطهير قلوب المؤمنين.[١٢٦٠]
- لا شيء يدلُّ على كثرة علم الرجل وحلمه أكثر من معاملته الناس بالحسنى.[١٢٦١]
- لا بد أن نعلم جيدًا أن الكرامة الأصلية إنما هي أداء عبوديتنا لله تعالى حتى أنفاسنا الأخيرة بإخلاص وتسليم تامَّين دون انتظار أي مكافأة من العباد وبعيدًا عن الرياء؛ أي إن الكرامة الأساسية الاستقامةُ.[١٢٦٢]
- على السالك أن يقرأ أوراده باعتناء، ويبحث عن العيوب والتقصير التي في نفسه.[١٢٦٣]
- لا يكون للوعد كبير وصغير! فالنكث بالوعد من علامات المنافق.[١٢٦٤]
- جعل رسول الله r الدَّينَ مكروهًا، فالدَّين في نظر الإنسان الحر السليم حملٌ ثقيلٌ دائمًا ومنَّة مريرة.[١٢٦٥]
- إن العبادات التي أمر بها الإسلام كلها لصالح العباد ونفعهم، إذ إن الله تعالى ليس بحاجة إليها أبدًا، فالله تعالى مستغنٍ عن عباده، فقد شرَّفهم بالأوامر والنواهي ليفتح لهم سبل الفلاح والرقي، فعلينا- نحن العاجزين- أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة الكبيرة.[١٢٦٦]

١٢٦٠ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص٩.

١٢٦١ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٤.

١٢٦٢ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص٥٧.

١٢٦٣ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ١، ص١٤٦.

١٢٦٤ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٣، ص٤٤.

١٢٦٥ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٣، ص١٩٢.

١٢٦٦ المرشد موسى طوبّاش أفندي، المصدر السابق، جـ٥، ص١٥٨.

- من شعارات أولياء الله أنهم يتحملون أعباء الآخرين.[١٢٦٧]
- سعيُنا للخدمة؛ ولكن جنودًا لا قادة.[١٢٦٨]
- ينبغي ألا يهمل المرءُ الصغائر مدَّعيًا أنه يقوم بالأعمال العظيمة، فالأعمال الصغيرة تصبح كبيرة حين تراكم.[١٢٦٩]

١٢٦٧ من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، ص٨١.

١٢٦٨ من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، ص٨٢.

١٢٦٩ من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، ص١٠٥.



١. سيدنا محمد r	المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، المسجد النبوي، الروضة المطهَّرة.
٢. أبو بكر الصديق t	المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، المسجد النبوي، الروضة المطهَّرة.
٣. سلمان الفارسي t	العراق، بغداد، قضاء المدائن، بلدة سلمان باك.
٤. القاسم بن محمد رحمه الله	مدينة قديد بين مكة والمدينة المنورة.
٥. جعفر الصادق رحمه الله	المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، مقبرة جنة البقيع.
٦. أبو يزيد البسطامي رحمه الله	إيران، محافظة سمنان، مدينة شهرود، بلدة بسطام.
٧. أبو الحسن الخرقاني رحمه الله	إيران، محافظة سمنان، مدينة شهرود، بلدة خرقان. (قريبة من بلدة بسطام).
٨. أبو علي الفارمدي رحمه الله	إيران، محافظة خرسان رضوي، مدينة مشهد، بلدة طوس.
٩. يوسف الهمداني رحمه الله	تركمنستان، مدينة مرو، قرية بيرم علي.
١٠. عبد الخالق الغجدواني رحمه الله	أوزبكستان، مدينة بخارى، بلدة غجدوان.
١١. محمد عارف الريوكري رحمه الله	أوزبكستان، محافظة بخارى، قضاء شافيركان، قرية ريوكر.
١٢. محمود الإنجيرفغنوي رحمه الله	أوزبكستان، بخارى، قضاء وابكنت، قرية إنجيرباغ.
١٣. علي الرامتني رحمه الله	تركمنستان،محافظةطاشهاوظ،مدينةكونهأورغنج.
١٤. محمد باب السماسي رحمه الله	أوزبكستان، بخارى، بلدة رامتن، قرية سماس.
١٥. السيد أمير كلال رحمه الله	أوزبكستان، بخارى، قرية سوحار.
١٦. بهاء الدين شاه نقشبند رحمه الله	أوزبكستان، بخارى.
١٧. علاء الدين العطار رحمه الله	أوزبكستان، محافظة سرهاندرية، مدينة ديناو.
١٨. يعقوب الجرخي رحمه الله	طاجكستان، مدينة دوشمبة.

١٩. عبيد الله أحرار رحمه الله	أوزبكستان، مدينة سمرقند.
٢٠. محمد الزاهد رحمه الله	أوزبكستان، ديناو، ألتنصاي، قرية فاهشيفار.
٢١. محمد الأمكنكي رحمه الله	أوزبكستان، محافظة كاشكادريا، مدينة كتاب، قرية أسفيراز.
٢٢. محمد الأمكنكي رحمه الله	أوزبكستان، مدينة كتاب، قرية أمكنه.
٢٣. محمد الباقي بالله رحمه الله	الهند، دلهي، حي قدم غاه.
٢٤. الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي رحمه الله	الهند، مدينة سرهند.
٢٥. محمد المعصوم السرهندي رحمه الله	الهند، مدينة سرهند.
٢٦. محمدسيف الدين السرهندي رحمه الله	الهند، مدينة سرهند.
٢٧. السيد نور محمد البدايوني رحمه الله	الهند، دلهي، حي نظام الدين، مقبرة بنجبير.
٢٨. مرزا مظهر جان جانان رحمه الله	الهند، دلهي، حي جيتلي كابر، تكية شاه أبو الخير.
٢٩. عبد الله الدهلوي رحمه الله	الهند، دلهي، حي جيتلي كابر، تكية شاه أبو الخير.
٣٠. مولانا خالد البغدادي رحمه الله	سوريا، دمشق، حي الصالحية، جبل قاسيون.
٣١. السيِّد طه الحكَّاري رحمه الله	تركيا، حكَّاري، شمدينلي، بلدة نهري.
٣٢. طه الحريري رحمه الله	العراق، أربيل، قرية حرير.
٣٣. محمد أسعد أربيلي رحمه الله	تركيا، أزمير، منمن، مسجد الصفا.
٣٤. الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو رحمه الله	المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، مقبرة جنة البقيع.
٣٥. الشيخ موسى طوبَّاش رحمه الله	تركيا، إسطنبول، حي أرنكوي، مقبرة الصحراء الجديدة.

١- المراجع

- القرآن الكريم.
- كتب الحديث الستة.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٤١٧هـ، دار الكتاب العربي؛ أسد الغابة، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية.
- ابن الجوزي، بحر الدموع، ١٤٢٥هـ، دار الفجر للتراث؛ تلبيس إبليس، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ابن الملقِّن، طبقات الأولياء، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٦٨، دار صادر.
- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن حسن، تاريخ دمشق، دار الفكر، ١٤١٥هـ.
- ابن علان، دليل الفالحين، بيروت، ١٤٢٥هـ.
- ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث، ١٤٠٨هـ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبي، جـ١-٤، بيروت، ١٩٣٧، دار الفكر.
- أبو طالب المكي، قوت القلوب، بيروت، ١٤٢٦هـ.
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر، ١٩٧٤، دار السعادة؛ معرفة الصحابة، الرياض، ١٤١٩.
- أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، دمشق، ١٣٣٤هـ.
- الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر، ١٣١٥هـ.



- الإمام مالك بن أنس، موطأ، جـ١-٢، أبو ظبي، ٢٠٠٤، مؤسسة زايد.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، جـ١-١٠، دار الفكر، بلا
- تاريخ؛ شعب الإيمان، جـ١-٩، بيروت، ١٩٩٠؛ دلائل النبوة ومعرفة أحوال
- صاحب الشريعة، جـ١-٧، تعليق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، ١٩٨٥؛ الزهد الكبير، الكويت، ١٩٨٣.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين،
- جـ١-٥، بيروت، ١٩٩٠.
- الخاني، محمد بن عبد الله، الحدائق الوردية، دمشق، ١٤١٧هـ.
- الدياربكري، حسين بن محمد، تاريخ الخميس، جـ١-٢، بيروت، بلا تاريخ.
- الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية.
- الذهبي، تاريخ الإسلام، بيروت، ١٤١٣هـ، دار الكتاب العربي؛ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب أرناؤط، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.
- السفيري، المجالس الوعظية، بيروت، ٢٠٠٤.
- السهلكي، محمد بن علي، النور من كلمات أبي طيفور، (ضمن: عبد الرحمن
- بدوي، شطحات الصوفية) القاهرة، ١٩٤٩.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، الجامع الصغير، مصر، ١٣٠٦؛ تاريخ الخلفاء، مصر، ١٩٦٩؛ لباب النقول، بيروت، ٢٠٠٦؛ تاريخ الخلفاء، الرياض، ٢٠٠٤، مكتبة نزار الباز.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، جـ١-٢٥، ١٩٨٣؛ المعجم الأوسط، جـ١-١٠، القاهرة، ١٤١٥.
- الغزالي، أبو حامد محمد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعارف.
- القاضي عياض، ترتيب المدارك، المغرب، ١٩٦٥-١٩٨٣.



- القشيري، الرسالة، القاهرة، دار المعارف.
- المزِّي، يوسف بن عبد الرحمن، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، بيروت،
- ١٤٠٠هـ، رسالة.
- المناوي، فيض القدير، مصر، ١٣٥٦هـ.
- الهجويري، كشف المحجوب، ١٣٩٤هـ، مكتبة الإسكندرية.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ١-١٠،
- بيروت، ١٩٨٨.
- عباس، قاسم محمد، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، دمشق، ٢٠٠٤.
- علي القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ١-٦، بيروت ١٩٩٢، دار الفكر.
- علي المتقي، كنز العمال، ١٩٨١، مؤسسة الرسالة.
- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، بلا تاريخ.
- محمد مراد القازاني، نفائس السانحات في تذييل الباقيات الصالحات، مكة، ١٨٩٠/١٣٠٧.
- إبراهيم فصيح الحيدري، المجد التالد في مناقب الشيخ خالد، ترجمة: يعقوب شيشك، إسطنبول، ١٩٩٧، دار فرقان للنشر.
- ابن حجر، تهذيب التهذيب، الهند، ١٣٢٦هـ، دائرة المعارف النظامية.
- ابن عابدين، سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي، (ضمن: مجموعة رسائل ابن عابدين، إسطنبول، بلا تاريخ، جـ ٢.)
- أبو الحسن علي الندوي، الإمام الرباني، ترجمة: يوسف كاراجا، إسطنبول، ٢٠٠٥.
- أبو القاسم محمد بن مسعود، الرسالة البهائية، مكتبة قيصري راشد أفندي، رقم: ١١١٠، ورقة: ١ب- ١٤٤أ.
- أحمد الكاساني، آداب السالكين، مكتبة جامعة إسطنبول، رقم: ٦٤٩.
- أحمد حلمي، حدائق الأولياء، إسطنبول، ١٣١٨هـ.

- الأرزنكي، محمد بن نظام الخوارزمي، شرح رسائل عزيزان، إسلام أباد، مكتبة غنشباهش، رقم: ٨٧٣٩.
- الإمام الرباني، مكتوبات، جـ١-٣، إسطنبول، ٢٠٠٧-٢٠١٠، دار ياسين للنشر.
- البخاري، صلاح الدين بن مبارك، أنيس الطالبين وعدة السالكين، إسطنبول
- ٢٠٠٣، دار إيز للنشر.
- الجامي، عبد الرحمن، نفحات الأنس، إعداد: سليمان أولوداغ- مصطفى كارا، إسطنبول، ١٩٩٥، دار المعرفة للنشر.
- الجرخي، تفسير يعقوب الجرخي، بومباي، ١٣٢٦/ ١٩٠٨.
- الخرقاني، أبو الحسن، نور العلوم، قارس، ٢٠٠٤.
- الخوارزمي، محمد طاهر، السلسلة النقشبندية، أوزبكستان، مكتبة فاشا، رقم:٦٩.
- السراج، أبو نصر الطوسي، اللمع، ترجمة: حسن كامل يلماز، إسطنبول، ١٩٩٦.
- السمعاني، الأنساب، حيدر أباد، ١٣٨٢هـ.
- الشيرازي، معصوم علي شاه، طرائق الحقائق، طهران، ١٣١٦-١٣١٩.
- الغجدواني، عبد الخالق، مقامات يوسف الهمداني، إسطنبول ٢٠٠٢، دار إنسان للنشر.
- الكشمي، محمد هاشم، البركات الأحمدية، كانبور، ١٣٠٧/ ١٨٨٩؛ البركات، ترجمة: فراوق ميان، إسطنبول، ١٤٠٠/ ١٩٨٠؛ نسمات القدس من حدائق الأنس (تحقيق: منير جيهان مليك) طهران، كلية الآداب. (أطروحة دكتوراة لم تُنشَر) ١٣٧٥/ ١٩٩٦.
- الكوثري، محمد زاهد، إرغام المريد، إسطنبول، ١٣٢٨هـ.
- اللاهوري، غلام سرفر، خزينة الأصفياء، كانبور، ١٣١٢هـ.
- الهمداني، المرشد يوسف، ما الحياة، ترجمة: نجدت طوسون، إسطنبول، ٢٠٠٢، دار إنسان للنشر.

- بداهشي، محمد أمين، مناقب الحضرات، إسلام أباد، مكتبة غنشباهش، رقم: ١٢٥٢٢.
- بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، أوزبكستان، مكتبة فاشا، رقم: ٧٦.
- جباجي أوغلو، أدهم، الإمام الرباني: حركته وتأثيراته، إسطنبول، ١٤١٩هـ، دار الأرقم للنشر.
- حسن شكري، شمس الشموس، ترجمة: يعقوب شيشك، إسطنبول، ١٩٩٧، دار فرقان للنشر.
- رشدي، ملفوظات، لاهور، ١٩٦٧.
- رؤوف أحمد مجددي، در المعارف، إسطنبول، ١٩٩٨.
- صادق دانا، سلطان العارفين الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو، إسطنبول، ٢٠٠٤؛ صُحَب ألتن أولوق، جـ١-٦، إسطنبول، ٢٠٠٧، ٢٠٠٩، ٢٠١٠، ٢٠٠٥، دار الأرقم للنشر.
- صفي، مولانا علي بن حسين، رشحات، إسطنبول، ٢٠١٠.
- صالح أوجان، كلمات شيوخ النقشبندية المقدسة، دار حضور للنشر، إسطنبول، ١٩٨٣.
- صدر الدين سليم البخاري، بهاء الدين نقشبند، طشقند، ١٩٩٣.
- عبد الغاني بن أبي سعيد العمري، رسالة هوفيلغاني، (ضمن: عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، إسطنبول، ٢٠٠٢.)
- عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، إسطنبول، ٢٠٠٢؛ المكاتيب الشريفة، إعداد: رؤوف أحمد مجدِّدي، ترجمة: سليمان كوكو، إسطنبول، ٢٠٠١.
- فريد الدين عطار، تذكرة الأولياء، ترجمة سليمان أولوداغ، إسطنبول، ٢٠٠٧، دار كابالجي للنشر.
- كافاك، عبد الجبار، ديوان مولانا خالد البغدادي، قونيا، ١٤٣٠هـ، دار أنصار للنشر.
- مجددي، محمد إحسان، الروضة القيومية، لاهور، ١٩٩٦.
- مصطفى أريش، ذكريات من محمود سامي أفندي، جـ١-٢، إسطنبول، ٢٠١٠، ٢٠١١، دار الأرقم للنشر.

- محمد أبو زهرة، أبو حنيفة، ترجمة/ عثمان كسكي أوغلو، قونيا، ١٩٥٩.
- محمد أسعد أفندي، مكتوبات، درسادات، ١٣٢٧هـ، مطبعة أحمد كامل.
- محمد بارسا، فصل الخطاب، إسطنبول، ١٤٠٨، دار الأرقم للنشر؛ مجالس الشيخ محمد بهاء الدين، ترجمة: نجدت طوسون، إسطنبول، ١٩٩٨، دار الأرقم للنشر.
- محمد باقر بن محمد علي، مقامات حضرة المرشد نقشبند، بخارى، ١٣٢٨/١٩١٠.
- محمد حسن نقشبندي، حالة المشايخ النقشبندية المجددية، لاهور، ١٩١٤.
- محمد صادق الدهلوي، كلمة الصادقين، تحقيق/ محمد سليم أهتر، إسلام أباد، ١٩٨٨.
- محمد طالب، مطلب الطالبين، أوزبكستان، مكتبة فاشا، رقم: ٨٠.
- محمد فضل الله، عمدة المقامات، كابل، ١٣٩٧/١٩٧٧.
- محمد قاضي، سلسلة العارفين وتذكرة الصديقين، مكتبة السليمانية، رقم: ٢٨٣٠، ورقة: ٢أ-٢٠٩أ.
- محمد معصوم، مكتوبات، جـ١-٣، ترجمة: مستقيم زاده سليمان سعد الدين، إسطنبول، ١٢٧٧/١٨٦٠.
- محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة، جـ١-٦، إسطنبول، ٢٠٠٨، (المجلد:٣، ٢٠٠٥) دار الأرقم للنشر؛ تفسير سورة البقرة، إسطنبول، بلا تاريخ؛ صحب العيد، إسطنبول، ٢٠٠٥؛ سيدنا أبو بكر الصديق، إسطنبول، بلا تاريخ؛ سيدنا إبراهيم u ، إسطنبول، بلا تاريخ؛ الإنسان المكرم، إسطنبول، بلا تاريخ؛ تفسير سورتَي يونس وهود، إسطنبول، ١٩٨٥.
- منيب الدين النقشبندي، كنز السعادة، مكتبة غنشباهش، رقم: ٧٣٩.
- مولانا شهاب الدين، السيد أمير كلال، كاراتشي، ١٣٨١/١٩٦١.
- مولانا شيخ، مناقب المرشد عبيد الله أحرار، مكتبة بيازيد العامة، قسم بيازيد، رقم: ٣٦٢٤، ورقة: ١ب-٨١أ.
- مير عبد الأول، مسموعات، إسطنبول، ١٩٩٣.



- ناصر الدين بخاري، تحفة الأحوذي، بخارى، ١٩١٠.
- نجدت طوسون، بهاء الدين نقشبند، حياته وآراؤه وطريقته، إسطنبول، دار إنسان للنشر، ٢٠٠٧؛ الإمام الرباني أحمد السرهندي، حياته وآثاره وآراؤه التصوفية، إسطنبول، دار إنسان للنشر، ٢٠٠٥.
- نجم الدين بن محمد النقشبندي، خلاصة المواهب، إعداد: إبراهيم أوزلو، إسطنبول، ٢٠١٠.
- اللجنة، موسوعة الأولياء، إسطنبول، ١٩٩٢، الجريدة التركية.
- يعقوب الجرخي، ناي نامه، ترجمة: أحمد جاهد حق سفر، إسطنبول، ١٤٣٠/٢٠٠٩، دار الأرقم للنشر؛ تفسير، مكتبة السليمانية، قسم نافذ باشا، رقم: ٥٩.
- يلماز، حسن كامل، السلسلة الذهبية، إسطنبول، ٢٠٠٥، دار الأرقم للنشر.
- من عالَم ولي الله: صُحَب مع المرشد موسى طوبَّاش أفندي، إعداد: دار الأرقم للنشر، ١٩٩٩.



n

